ليف تولستوي

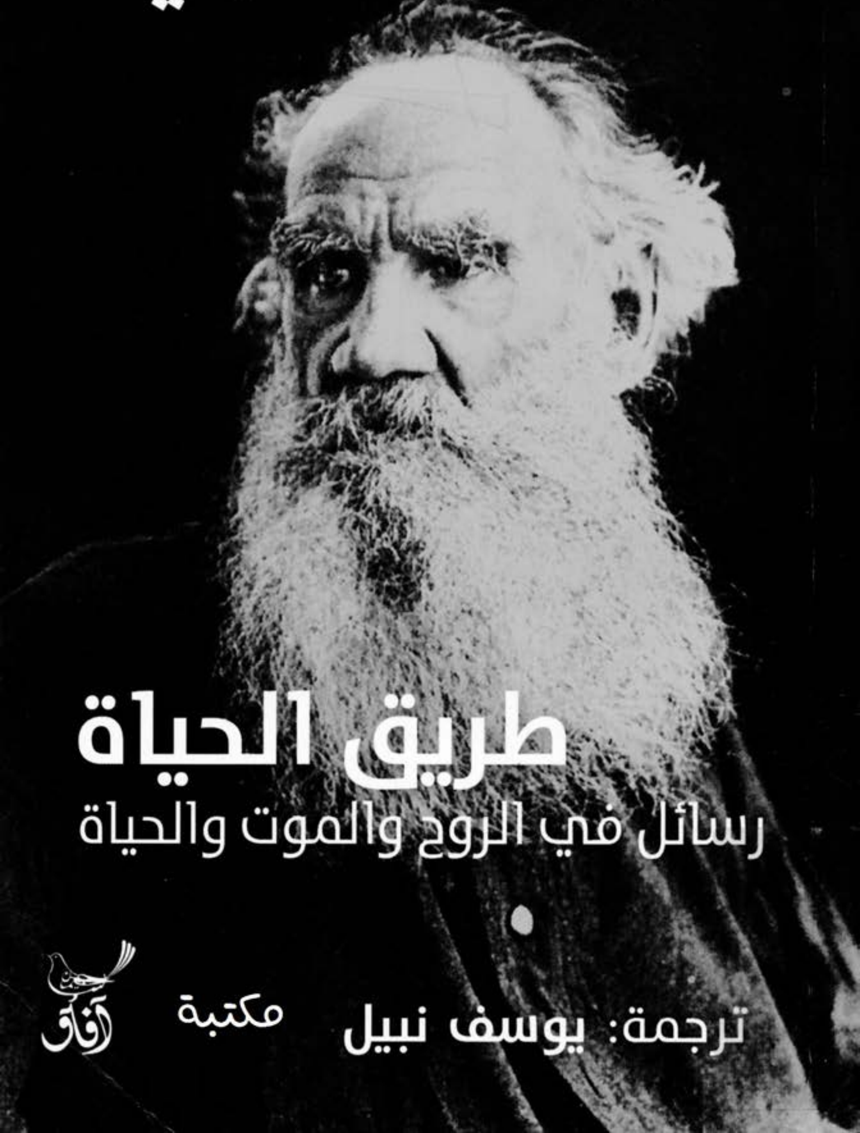

طريق الحياة

رسائل في الروح والموت والحياة

ترجمة: يوسف نبيل

مكتبة آفاق

مكتبة | 1154
t.me/soramnqraa

طريق الحياة

ليف تولستوي

• Author : лев толстой

• Title: путь жизни

• Translated by: Youssef Nabil

• Afaq's first edition: 2019

• Cover Design by: Amr El Kafrawy

• Publishing Consultant: Sawsan Bashier

• General Manager: Mostafa Alsheikh

• المؤلف: ليف تولستوي

• العنوان: طريق الحياة

• ترجمة: يوسف نبيل

• طبعة آفاق الأولى 2019

• تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

• مستشار النشر: سوسن بشير

• المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:

٢٠١٨/١٦٧٥٢

الترقيم الدولي: ISBN

978-977-765-172-1

8 5 2023 مكتبة

t.me/soramnqraa

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ليف تولستوي

طريق الحياة

رسائل في الروح والموت والحياة

ترجمة

يوسف نبيل

مكتبة 1154
t.me/soramnqraa

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

تولستوي، ليف.

ليف تولستوي : طريق الحياة - ترجمة: يوسف نبيل

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

592 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 16752 / 2018

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 172 - 1

1 - الأدباء

2 - تولستوي، ليف

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة المترجم

في أحد خطابات تولستوي إلى ابنته أ. ل تولستوي كتب قائلًا: «سيخرج قريبًا إلى النور كتابٌ أحبه بحق». وكان أن خرج هذا الكتاب إلى النور «طريق الحياة» في عام ١٩١٠، وهو العام الأخير من حياة تولستوي. ونظرًا لطبيعة الكتاب بالإضافة إلى توقيت صدوره فهو يحمل أهمية خاصة، فقد حاول تولستوي أن يقدم شهادته الأخيرة في صورة أدبية جديدة، يمكنها أيضًا أن تستوعب موضوعات وأفكارًا روحية وفلسفية ودينية وسياسية عديدة في أبسط صورة ممكنة.

اختار تولستوي هذا الشكل البسيط ليقدم فيه تحفته «طريق الحياة»، فالكتاب يحوي ٣١ موضوعًا روحيًّا ودينيًّا وفلسفيًّا، وفي كل فصل يقدم تولستوي أفكاره عن الموضوع في صورة قطع صغيرة تحمل الحكمة والسرد والفكرة والاستدلال... لقد اتبع طريقة تُتيح له التنقل بحرية بين أشكال السرد شرط البساطة، فقد حلم تولستوي أن يصير هذا الكتاب بالتحديد مقروءًا من ملايين البشر، ويتحول إلى إنجيل تولستوي. ولم يكتفِ بعرض أفكاره في هذه القطع السردية المختلفة، بل صمَّم الكتاب من البداية حيث يعرض فيه لأفكار وأقوال مختلف حكماء وأتقياء هذا العالم؛ ليخرج المنتج الأخير في صورة بانوراما هائلة منتظمة في صورة فصول منفصلة متصلة، لتقدم لنا فكرًا روحيًّا شديد البساطة والعمق في الآن ذاته.

يحدثنا تولستوي في هذا الكتاب عن الإيمان والروح والعقاب والعنف والشر والخطايا والإغواءات والخرافات، ويقدم لنا نتاجًا صوفيًّا عقلانيًّا

فذًّا، يجمع بين أفكار المتصوفة والفلاسفة والأناركية والمسيحية، ويُناقش الفلسفات السياسية، ويحاور الأديان والمعتقدات المختلفة... كل هذا بنعومةٍ وسهولةٍ شديدتين، وقد حمل تولستوي على عاتقه في العقود الأخيرة من عمره مهمَّة الجمع بين البساطة والعمق.

الحديث عن تولستوي بقدر سهولته، فهو صعبٌ في الآن ذاته، ولا عجب أن يتعرض القارئ لآراء كثيرة متناقضة حول شخصيته وفحوى أفكاره، رغم بساطتها ومباشرتها الشديدة. في العام السابق ترجمت مجموعة من مقالاته وخطاباته، وأصدرتها دار آفاق تحت عنوان «في الدين والعقل والفلسفة»، وحاولت في مقدمة الكتاب مناقشة فكرة إيمان تولستوي من إلحاده، فالأخيرة هي التهمة التي تعرض لها، لا من الكنيسة وحدها، بل حتى من معسكرات فكرية مختلفة عديدة. وسأحاول هنا أن أناقش سريعًا فيما يتعلق بالكتاب موقف تولستوي السياسي، وهل يميل صوب اليمين المحافظ أم اليسار الثوري، بالإضافة لعلاقته بالعقل والتصوف، والنزعة الإنسانية والأناركية.

تختلف معسكرات اليمين واليسار دائمًا فيما يتعلق بقضية التغيير، فمعظم الاتجاهات اليمينة الدينية المحافظة تستخدم خطابًا تُهاجم فيه طبقات الشعب دائمًا، وتحاول أن تلقي بالمشكلة على الشعب بدلًا من السلطة، والتغيير بالنسبة لها -وهو أمر غير مرغوبٍ فيه من الأساس- يتعلق في النهاية بتغييرات السلوكيات والأخلاق، وتبنِّي القيم الوطنية والدينية المحافظة. هذا إطارٌ عامٌّ للحركات اليمينة باختلاف أشكالها، ولا عجب أن في الفترة الأخيرة أنتجت هذه الحركات نظريات ادعت أنها علمية لتؤيد وجهات نظرها، فاتضح أن النظام الرأسمالي هو الصياغة الاقتصادية الأخيرة للعالم، وما من تغيير يمكن أن يحدث بعدها كما ادعى فوكوياما، وادعى اقتصاديو اليمين أن تخصيص إعانات البطالة يشجع الجموع على عدم العمل، في حين أن مواجهتهم للأزمات الاقتصادية هو ما سيدفعهم لمحاولة إيجاد حلول لمشاكلهم. وفي

الشرق الأوسط سنجد اليمين مقسومًا بين حركات دينية، وحركات عسكرية سلطوية، وهما في اتحادٍ وثيقٍ. وكان الخطاب الذي يوجهه السلفيون دائمًا يدعو إلى طاعة الحكام، ويلقي باللوم على الشعب فيما يتعلق بأي مشكلةٍ حتى وإن كانت كارثةً طبيعيةً، وبعده عن تنفيذ سنن الله وشرائعه، والديانة بالنسبة لهم هي مجموعة من الطقوس يجب المحافظة عليها بأي ثمن، وهي لا تتعلق بتغييرات سلوكية أخلاقية على الإطلاق.

أما اليسار الثوري؛ فمعروف رغم اضمحلاله تقريبًا منذ فترة كبيرة في أغلب أجزاء العالم. إنه يلقي باللائمة على السلطة لا الشعب، وهو يرى أن التغيير لا بدَّ أن يتم من أعلى، وتتفاوت تقديراته بين مدارسه المختلفة في فاعلية التغيير، فالبعض يرى أنه ما إن تتغير السلطة حتى يحدث تحولٌ سحريٌّ في جموع الشعب، أما الحركات اليسارية الأكثر نضجًا، فهي توازن بين التغيير السياسي والثقافي... تغيير السلطة وتغيير الشعب، ويمنح اليسار أهميةً فائقةً للعامل الاقتصادي الذي يراه المتحكم الأول في الإنسان، وهو -بحسب ماركس- المنتج الحقيقي للثقافة والدين.

والحقيقة أن قراءة تولستوي السياسية تتطلب منا التزام الحذر الشديد، فيمكننا أن نرى في كتاباته ما قد يبدو للوهلة الأولى يمينيًّا خالصًا، وفي كثير من كتاباته الأخرى سنرى اتجاهًا ثوريًّا شديدًا. الحقيقة أن كافة الأسئلة عن اتجاهه السياسي وعلاقته بالعقل والتصوف والأناركية والمسيحية لها إجابة واحدة تتعلق بمذهبه الديني والإيماني الذي يقدم له إجابة عن كل شيء... إنه يؤمن بمجموعة من الأفكار تحدد مواقفه في كافة المواضيع، فلا يجب أن نفصل بينها إن أردنا أن نقترب من فهمه. وربما هذه هي الميزة الكبرى في هذا الكتاب، الذي يبدأ بمناقشة الإيمان والروح والدين، لينطلق بعد ذلك إلى السياسة والفلسفة فنفهم علاقة هذا بذاك في مذهب تولستوي.

في هذا الكتاب يكتمل تقارب تولستوي الشديد من فلسفة الشرق

الأقصى، فنجد أصداء فكرة وحدة الوجود كاملة، وندرك رؤيته حول التناقض التام بين الروح والجسد، فجوهر الحياة داخل الإنسان هو الجوهر الروحي الفريد الذي نطلق عليه الله، وهو روح واحدة موجودة داخل كافة البشر، وهذا الصراع بين متطلبات الروح والجسد هو ما يمنح حياة الإنسان معناها. إذنْ فقمع الجسد أمر ضروري وواجب لدى تولستوي، وهذا الصراع لا يتوقف بين الروح والجسد حتى آخر لحظة في الحياة. ويمكن للقارئ بسهولة أن يجد أصداء هذه الأفكار في أعمال تولستوي الأدبية مثل: الأب سرجيه، وسوناتا لكرويتز، وغيرها.

- الحرية الحقيقية هي في الحياة في اللحظة الآنية، فالزمن مجرد خدعة ووهم، وكافة المذاهب السياسية والاقتصادية الحتمية هي مذاهب مضللة، ففي اللحظة الآنية يكون لدى الإنسان القدرة على اتخاذ القرار بحرية، والاستماع لصوت الضمير أو العقل أو الله، أو الاستماع لصوت الجسد والشهوة؛ لأن الروح خالدة وهي لا تتعامل داخل إطار الزمن الموضوعي.

الديانة عند تولستوي غير نابعة من العقل، بل من صوت الله داخل أرواحنا، ولكن العقل هو ما يجعلنا نميز بين ما هو صالح وما هو طالح، بين ما هو حقيقي وما هو مزيف، لذا فإن تعارضت تعاليم أي ديانة مع العقل، فعلى معتنقها أن يرفضها فورًا. ولأن الإنسان كائن روحي في الأساس، فتولستوي غير مقتنع البتة بإمكانية تغييره عبر تغيير الظروف الخارجية. وهنا سنجد النقطة الشائكة. لقد هاجم تولستوي بلا هوادة القيصر ورجال الكنيسة ورجال العلم والطبقات الغنية... لقد كان منحازًا كاملا للفقراء، ورغم ذلك كان معارضًا تامًّا للعنف الثوري. إنه على قناعة أناركية أصيلة بألَّا أحد لديه الحق في تنظيم المجتمع رغمًا عنه عن طريق العنف، والدولة تتأسس على العنف. إنها طبيعتها الأصيلة، فهي تستخدم قوات الجيش والشرطة والمحاكم والقضاء والعقاب، وما إلى ذلك.. هذه هي أدواتها في تنظيم المجتمع، وهي من

وجهة نظر تولستوي جريمة في حد ذاتها، فليس من حق أحد أن ينظم شؤون الآخرين بالقوة. يمكن أن ينظم الناس شؤونهم بأنفسهم، ويمكنهم أن يقيموا مؤسسات غير قائمة على العنف. العنف نقيض للحب، والحب هو طبيعة الروح، فإن كان مغزى حياة الإنسان في أن يتحد بأرواح الآخرين وبالروح الكلية لتتحقق وحدة الوجود ويحل ملكوت الله، فلا يمكن أن يتم هذا إلا بالحب، والعنف يفصم روابط الحب بشكل مباشر.

لذا فإن دعوات تولستوي للتغيير تبتعد تمامًا عن مفاهيم الثورة العنيفة، وقد كان شاهدًا على حركات الثوّار في هذا الوقت من تاريخ روسيا، وشاهدًا على فشل ثورة ١٩٠٥، واستخدام القمع الرهيب من قبل سلطات القيصر. ينحصر التغيير لدى تولستوي في إجراء تغيير ديني وروحي حقيقي في كل فرد، وهذا ما يجعله يقوم بعد ذلك بعصيان حقيقي.. عصيان مدني ديني، إن جاز التعبير.

كان تولستوي متفقًا تمامًا مع المفكر الفرنسي دي لابويسيه حول أن قوة النظام تكمن في النهاية في أفراد الشعب، فهم الذين يشكلون قوات الجيش والشرطة، لذا فتغيير قناعة كل إنسان صوب الديانة الصحيحة الحقيقية التي بشَّر بها مختلف الحكماء والأتقياء، والتي تتأسس على حب الله والبشر، ونبذ العنف، وضبط الذات والاتحاد بالبشر والله بالحب، هو الذي من شأنه أن يجعل الناس ترفض المشاركة في أعمال الدولة القميئة القائمة على العنف. إنه يتفق مع الأناركيين في ضرورة التخلص من نظام الدولة نهائيًّا، ولكنه يختلف معهم في تنفيذ ذلك بالعنف.

يرى تولستوي ألَّا سلطة للإنسان سوى على نفسه، لذا فما من حل حقيقي سوى أن يبدأ كل إنسان بتغيير ذاتي حقيقي... هذا ما يجعل بعض خطاباته قد تبدو يمينة، ولكن هذا فهم غير دقيق، فإن كان خطاب اليمين يرمي في الأساس إلى الإبقاء على الأوضاع القائمة، فخطاب تولستوي يهدف في الأساس إلى تغيير حقيقي، لكنه غير قائم على العنف.

يقدم لنا تولستوي مذهبًا مسيحيًّا عميقًا مخالفًا تمامًا لمسيحية الكنيسة، بل هو على النقيض الكامل منها، وفي الوقت ذاته يقدم فلسفة صوفية عقلانية تحافظ على مكانة الروح والعقل. إن فلسفة تولستوي شديدة الإنسانية، ولكن ما يفصلها عن الحركات الإنسانية الأوربية هو اتخاذ الله مركزًا، لا الإنسان، فإن كانت الحركات الإنسانية تسعى لتأليه الإنسان، فتولستوي يسعى إلى ذلك دون تحقيقه، أي أنه يرى أن سعي الإنسان صوب الكمال والألوهية هو مصيره، لكنه لن يحققه كاملًا أبدًا... في هذا السعي مغزى وهدف الحياة، لذا فهو يسعى صوب التأله دون تحقيقه، بل وسعيه إلى ذلك يعمد على إنكار ذاته تمامًا ليتجلى الله الذي بداخله... إنه يدعو إلى ما يشبه الفناء الصوفي، ولكن بلغة عقلانية رصينة، فهو لا يؤمن بالمعجزات ولا الكرامات، ولا نعمة الخلاص... الخلاص يتم عبر بذل الجهود الإنسانية، وإن كان الله والإنسان بمعنى ما واحد، إلا أن الثنائية ستظل موجودة، وحياة الإنسان كلها صوب الاقتراب من إلغاء هذه الثنائية... هذا الإلغاء الذي لن يتم كاملًا أبدًا، وإلَّا فلن يعود للحياة معنى. ومع ذلك فهناك في خطابه ما يشبه خطاب بعض الإنسانيين الأوربيين، فهو يرتكز على كليهما، أي: على وجود طبيعة بشرية فطرية، وعلى وجود ما هو مشترك بين البشر، فإن كان المشترك بالنسبة للإنسانيين يعتمد على طبيعة إنسانية بحتة، فالمشترك لدى تولستوي هو ذلك الجوهر الإلهي الخالد الموجود داخل كل إنسان.

حاولت طرح بعض مفاتيح العمل، والتي لن يكون لها قيمة سوى باكتمال قراءته، وأشعر بسرورٍ خاصٍّ لإنهاء ترجمته وتقديمه، ففي كل مرةٍ أقرأ فيها تولستوي أزداد متعةً وبصيرةً.

❊ ❊ ❊

شكر خاص

أشكر أستاذي د. محمد نصر الجبالي أستاذ اللغة الروسية بكلية الألسن؛ لما قدمه لي من مساعدةٍ فيما استعصى عليَّ، ولم يتأخر أبدًا عن المساعدة دون أن يلتقيني وجهًا لوجهٍ، ولو لمرةٍ واحدةٍ، فله الشكر.

تصدير الكاتب

الأفكار التي جمعها هذا الكتاب تنتمي لمؤلفين من اتجاهاتٍ عديدةٍ مختلفةٍ، بدءًا من البراهمية والكونفوشيوسية، مرورًا بالبوذية والمؤلفات المختلفة، وحتى الأناجيل[1] والرسائل[2] وغيرها؛ وكتابات لمؤلفين قدماء، وآخرين معاصرين. قمت ببعض التغييرات في غالبية الأفكار التي ترجمتها واستشهدت بها؛ تغييرات جعلتني لا أجد من المناسب أن أنسبها إلى أصحابها بعد أن قمتُ بتعديلها، وأفضل هذه الأفكار التي لم أذكر أسماء أصحابها لا تنتمي إليَّ، بل لأعظم حكماء العالم.

---

(١) المقصود بها الأناجيل الأربعة: متى- مرقص- لوقا- يوحنا.

(٢) يقصد الرسائل التي جمعها العهد الجديد: رسائل بولس الرسول- بطرس- يعقوب- يوحنا- يهوذا.

مقدمة الكاتب

كي يدرك الإنسان كيف يمكنه أن يحيا حياةً صالحةً، عليه أن يعيَ جيدًا ماذا عليه أن يفعل، وكي يعي ذلك عليه أن يدرك ماهيته الحقيقية وماهية العالم الذي يعيش فيه. تحدثت تعاليم أكثر الرجال فضيلةً وحكمةً في كافة الشعوب عبر تاريخ البشرية عن ذلك، وتميل تعاليمهم إلى الاتفاق فيما بينها، وإلى الاتفاق مع ما يمليه عقل وضمير كل إنسان. تتلخص فحوى هذه التعاليم في الآتي:

علاوةً على ما نراه ونسمعه ونشعر به، وعلاوة على ما نعرفه عن الناس، هناك ما لا نراه وما لا نسمعه وما لا نشعر به، وما لم يحدثنا عنه أحدٌ بكلمة، لكننا نعرفه تمامًا في أعماق قلوبنا... إنه ما يمنحنا الحياة وما نطلق عليه «أنا».

إنها الجوهر غير المرئي الذي منحنا الحياة، ويمكننا أن نتعرف عليه في كل الموجودات الحية، وخاصة فيمن يشبهوننا من البشر.

هذا الجوهر الكوني غير المرئي يمنح الحياة لكافة المخلوقات، نشعر به داخل أنفسنا وفي المخلوقات التي تشبهنا؛ أي في البشر... إنه ما نطلق عليه «الروح»، والتي تحوي في داخلها هذا الجوهر الكوني غير المرئي، وتمنح الحياة لكل حيٍّ... إنها ما نطلق عليه «الله».

الأرواح الإنسانية منفصلة في أجساد متفرقة، وكذلك منفصلة عن الله، وهي تسعى صوب الاتحاد مع المصدر الذي انفصلت عنه، ولا تنال هذا

الاتحاد سوى بالحب الذي تمنحه لأرواح الآخرين؛ الحب الذي تمنحه لله، وبهذا تدرك النسمة الإلهية بداخلها. يكمن مغزى ونعمة الحياة الإنسانية برمتها في الاتحاد المتزايد أكثر فأكثر بأرواح الآخرين... يكمن في حب الله، وإدراك الأرواح البشرية للنسمة الإلهية بداخلها.

وكلما تتحد الروح البشرية مع المخلوقات ومع الله، وتزداد بالتالي سعادة الإنسان، كلما تتحرر مما يعوق حب الناس وإدراك النسمة الإلهية بداخلها؛ أي تتحرر من الخطية، وهي الانغماس في شهوات الجسد، والإغواء الذي هو تزييف الخير، والخرافة التي هي تعاليم كاذبة تُبرر الخطية والإغواء.

يتلخص جوهر الخطايا التي تعوق اتحاد الإنسان بالآخرين وبالله في:

الشراهة، النهم في تناول الطعام، وفي السُّكر.

خطايا الفسوق والدعارة.

الكسل: أي تحرير النفس من ربقة العمل اللازم لسد احتياجاتها الأساسية.

الجشع: أي السعي صوب الملكية والحفاظ عليها من أجل الاستفادة من كدح الآخرين.

الأسوأ من كل هذه الخطايا تلك التي تفصلنا تمامًا عن الآخرين: الحسد– الخوف– الإدانة– العداء– الغضب، وبشكل عام كراهية الآخرين. مثل هذه الخطايا تحول دون اتحاد الأرواح الإنسانية بالحب مع الله وبقية المخلوقات.

يكمن جوهر انجذاب البشر لخطايا الإغواء –والتي هي بمثابة افتراضات مزيفة في علاقات الناس ببعضهم البعض– في الآتي:

إغواء الفخر: وهو افتراض مزيف بأفضلية إنسان على الآخرين.

إغواء اللا مساواة: وهو افتراض مزيف لإمكانية تقسيم الناس إلى طبقات سامية، وأخرى متدنية.

إغواء التنظيم: وهو افتراض مزيف بإمكانية وحق مجموعة من البشر في تنظيم حياة الآخرين بالعنف.

إغواء العقاب: وهو افتراض مزيف بحق أحدهم في إنزال الشرور بالآخرين من أجل تحقيق العدالة أو الإصلاح.

إغواء الغرور: وهو افتراض مزيف بأن العقل والضمير لا يمكنهما أن يرشدا الإنسان في أفعاله، بل آراء الناس وشرائعهم.

كل هذه الأنواع المختلفة من الإغواء تجذب البشر صوب الخطية. ويكمن جوهر تبرير هذه الخطايا والأنواع المختلفة من الإغواء في خرافة الدولة والكنيسة والعلم.

تكمن خرافة الدولة في الإيمان بأنه من الضروري والصالح أن تتسلط الأقلية البطَّالة على غالبية الشعب الكادح.

أما خرافة الكنيسة فتكمن في الإيمان بأن توضيح حقيقة الدين التي كانت دومًا متاحة للجميع أصبحت خاصة بفئة معينة من الناس، لها وحدها الحق في تعليم الناس حقيقة الإيمان، وهم وحدهم مَن لديهم الحق في التعبير عن الحقائق الدينية.

تكمن خرافة العلم في الإيمان بأن المعرفة الحقيقة والضرورية لحياة البشر أجمعين تتألف من تلك المعارف المختارة عرضًا من كافة مجالات المعارف المختلفة غير المحدودة، والتي في أغلبها ليست ضروريةً، والتي جذبت انتباه عدد كبير من الناس الذين حرروا أنفسهم من العمل ليعيشوا على كدح الآخرين، لذلك فهم يعيشون حياة لا أخلاقية ولا تتفق مع الضمير.

الخطايا والإغواءات والخرافات... جميعها تعوق اتحاد الروح البشرية بأرواح الآخرين وبالله، وتحرم الإنسان من نعمته الوحيدة، وكي يتمكن

الإنسان من التمتع بهذه النعمة، عليه أن يناضل ضد الخطايا والإغواءات والخرافات، وكي يتمكن من هذا النضال عليه أن يبذل كافة جهوده الممكنة.

في إمكان الإنسان دائمًا أن يبذل هذه الجهود لعدة أسباب؛ السبب الأول: أنها دائمًا ما تُبذل في الوقت الحاضر فقط، أي أنها لا تُبذل في وقت غير ملائم، ويلتقي الماضي والمستقبل في الحاضر الذي يكون فيه الإنسان حرًّا دائمًا. السبب الثاني: أن هذه الجهود لا تتعلق أبدًا بتنفيذ أفعال غير قابلة للتحقيق، بل بضبط النفس، وهو أمر في متناول الإنسان فعله دائمًا، فهو بإمكانه أن يضبط نفسه عن أداء الأفعال الشائنة التي تتعارض مع حب القريب وبداية إدراك الروح الإنسانية للنسمة الإلهية التي بداخلها.

بإمكانه أن يبذل الجهود لضبط نفسه في الحديث الذي يعارض محبة القريب وبداية إدراك الروح الإنسانية للنسمة الإلهية التي بداخلها.

بإمكانه أن يبذل الجهود لضبط نفسه فيما يتعلق بالأفكار التي تعارض محبة القريب وبداية إدراك الروح الإنسانية للنسمة الإلهية التي بداخلها.

بإمكانه أن يبذل الجهود لضبط الذات في كافة الخطايا التي تؤدي للانغماس في شهوات الجسد. على الإنسان أيضًا كي يناضل ضد الخطية أن يبذل كافة جهوده في ضبط الذات في الحديث والأفكار المتساهلين مع شهوات الجسد... أي جهود قمع الجسد.

تنطلق كافة الإغواءات التي تخدع الإنسان من افتراض كاذب بأفضلية فئة من الناس على أخرى، إذنْ لكي يناضل الإنسان ضد الإغواء عليه أن يمتنع تمامًا عن الأفعال والكلمات والأفكار التي تضعه في مرتبة أعلى من الآخرين.. عليه أن ينكر ذاته.

ثمة افتراضات كاذبة خلف كل الخرافات التي تتحكم في البشر، إذنْ لكي

يحارب الإنسان الخرافات عليه أن يمتنع عن الأفعال والكلمات والأفكار التي تعارض الحقيقة. عليه أن يجاهد من أجل الحقيقة.

تعمل الجهود التي تُبذل لإنكار الذات والتواضع والبحث عن الحقيقة على تدمير العوائق الموجودة داخل الإنسان كي تتحد روحه بالحب بأرواح الآخرين وبالله، ومن ثم تمنحه دائمًا النعمة المناسبة له، لذلك فكل ما يُقدَّم للإنسان على أنه (الشر)، يشير إلى فهم الإنسان لحياته بطريقة كاذبة، وأنه لا يتصرف طبقًا للنعم التي مُنحت له، أما الشر في حد ذاته فليس له وجود.

الأمر يشبه تمامًا ما يمثله الموت لأولئك الذين يجدون معنى حياتهم فيما هو وقتي. أما أولئك البشر الذين يرون حياتهم على حقيقتها فعلًا، أي في الجهود التي يبذلها الإنسان في الوقت الحاضر لتحرير نفسه من كل ما يعوقه عن اتحاد روحه بالله وبالآخرين، فما من موت لديهم أبدًا.

الإنسان الذي يفهم حياته على حقيقتها وبالطريقة الوحيدة التي يمكن بها فهمها، أي أن روحه تتحد أكثر فأكثر بالحب مع أرواح الآخرين وتتعرف على النفحة الإلهية التي بداخلها؛ أي الله، والتي لا تُدرَك سوى بالجهود الإنسانية، لا يمكن أن يكون لديه أي تساؤل عما سيحدث لروحه بعد موت الجسد. الروح لا تحيا في الماضي ولا في المستقبل... بل في الحاضر دائمًا. أما التساؤل عن كيفية إدراك الروح لنفسها بعد موت الجسد، فلم يُعْطَ لإنسان أن يعرف هذا، وهو أمر ليس ضروريًّا له.

لم يُعطَ لإنسان أن يفهم هذا؛ كي لا يبذل جهوده الروحية في العناية بتصور الآخرين عن روحه في المستقبل البعيد، بل يبذل كافة جهوده في هذا العالم، وهو أمر محدد تمامًا، كي لا يحول أي شيء بين الإنسان واتحاد

روحه بالحب مع كافة ما يحيا، ومع الله. ليس من الضروري أن يعرف الإنسان ما سيحدث مع روحه؛ لأنه إن فهم حياته على حقيقتها وكما يجب أن تُفهم، كاتحاد مستمر لا يتوقف لروحه مع كافة الأرواح ومع الله، فلن تصبح حياته شيئًا آخر سوى ما يكافح من أجل الوصول إليه، أي أن هذا لن يمنع الخير أبدًا عن الإنسان.

❊ ❊ ❊

الإيمــان

كي يحيا الإنسان حياة صالحة عليه أن يعرف ما الذي يجب عليه أن يفعله، وما الذي لا يجب أن يفعله. وكي يعرف هذا لا بد له من الإيمان. الإيمان هو معرفة الإنسان لماهيته والهدف الذي يحيا من أجله في هذا العالم. هذا الإيمان كان موجودًا دومًا -ولا يزال- لدى العقلاء من الناس.

ماهية الإيمان الحقيقي:

-١-

كي يحيا الإنسان حياة صالحة عليه أن يدرك ما هي طبيعة الحياة، وما الذي يجب أن يفعله فيها، وما الذي لا يجب عليه أن يفعله. في جميع العصور علم أكثر البشر حكمةً وفضيلةً في كافة الشعوب عن هذه المسائل، وهذه التعاليم التي نادى بها الحكماء تتلخص في واقع الأمر في موضوعٍ واحدٍ. جوهر الإيمان الحقيقي يتأسس على هذا الموضوع لدى كافة البشر؛ إنه التساؤل عن ماهية الحياة الإنسانية، وكيف يجب أن يسلك الإنسان فيها.

-٢-

ما طبيعة هذا العالم غير المحدود، الذي لا بداية له، والذي لا نعرف شيئًا عن نهايته؟ وما حقيقة حياتي في هذا العالم غير المحدود وكيف يجب أن أسلك فيها؟

وحده الإيمان مَن يجيب عن هذه الأسئلة.

-٣-

تتأسس الديانة الحقيقية على معرفة هذا القانون الذي يفوق كافة القوانين البشرية، والذي في جوهره قانون واحد لدى كافة البشر في هذا العالم.

-٤-

(من الممكن أن نجد صيغًا إيمانيةً عديدةً كاذبةً، ولكن الإيمان الحقيقي واحدٌ).

«كانط»[٣].

-٥-

إن ارتابتك الشكوك حول حقيقة إيمانك، فهو ليس إيمانًا حقيقيًا إذنْ؛ فالإيمان هو الإيمان. أما عندما لا تكون لديك أفكارٌ حقيقيةٌ عن إيمانك، فإيمانك وقتها لا يكون حقيقيًا.

-٦-

ثَمَّ نوعان من الإيمان: إيمان يثق فيما يقوله الناس، وهو إيمان بإنسان أو بالناس، وهناك اختلافات عديدة في هذه الصيغ الإيمانية المتعددة. وهناك إيمان يتأسس على مَن أرسلني إلى هذا العالم. إنه الإيمان بالله، وهو إيمان واحد لكافة البشر.

تعاليم الإيمان الحقيقي واضحةٌ وبسيطةٌ دائمًا :

-١-

أن نؤمن يعني أن نثق فيما يُكشف لنا، دون أن نتساءل لماذا هذا أو ما سينتج

(٣) فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر. عاش كل حياته في مدينة كونيجسبرغ في مملكة بروسيا. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية.

عن ذلك. هذا هو الإيمان الحقيقي. إنه يكشف لنا عن هويتنا وما يجب أن نفعله، لكنه لا يحدثنا عن العواقب التي ستنتج عما سيتطلب منا إيماننا أن نفعله.

إن آمنت بالله، فلن أسأل نفسي عما سينتج عن طاعتي لله؛ لأني أعرف أن الله محبة، وأن هذا الحب لا يمكن أن يُنتِج سوى الحب.

-٢-

قانون الحياة الحقيقي بسيط وواضح ومفهوم، حتى إنه من المستحيل أن يبرر الناس حياتهم الشريرة بأنهم لا يعرفونه. إن عاش الناس بما يناقض قانون الحياة الحقيقي فسيبقى لهم أمر واحد؛ إنكار العقل. وهو ما يفعلونه.

-٣-

(يقولون إن تنفيذ قانون الله أمر شاق. هذا غير حقيقي. لا يتطلب منا تنفيذ قانون الحياة سوى حب القريب، والحب ليس أمرًا شاقًّا، بل مبهجٌ).

«جريجوري سكوفورودا»[٤].

-٤-

عندما يتعرف الإنسان على الإيمان الحقيقي، يحدث معه ما يفعله النور مع إنسان يسير في قلب الظلام الدامس... يصبح كل شيءٍ واضحًا، وتتهلل الروح.

الإيمان الحقيقي في أمر واحد فقط؛ حب الله والقريب:

-١-

«أحبوا بعضُكم بعضًا. كما أنا أحببتُكم، أحِبُّوا أنتم أيضًا بعضُكم بعضًا. إذا أحبّ بعضُكم بعضًا عَرَف الناس جميعًا أنكم تلاميذي»[٥]، هكذا قال

---

(٤) ١٧٧٢ - ١٧٩٤، فيلسوف من أصل قوزاقي، كان يكتب بالروسية في أوكرانيا.

(٥) يوحنا ١٣ : ٣٤.

المسيح. لم يقل إذا آمن أحدكم بهذا أو بذاك، لكنه قال إذا أحب بعضكم بعضًا... قد تختلف صيغ الإيمان عند نوعيات مختلفة من البشر، وفي عصور مختلفة، ولكن الحب عند الجميع واحد، وسيظل كذلك إلى الأبد.

-٢-

(يتمثل الإيمان الحقيقي في أمر واحدٍ: أن تحب كل حيٍّ).

«إبراهيم كاردوفسكي».

-٣-

يمنح الحبُّ الخيرَ للناس؛ لأنه يُوحِّد بين الإنسان والله.

-٤-

لقد كشف المسيح للناس عمَّا هو أبدي، وليس ما هو مستقبلي، فالأول يحيا بداخلنا الآن دون أن نراه في هذه الحياة، لكننا سندركه عندما نصبح أبديين، عندما نتحد مع الله بالروح التي فيها يحيا كل شيء ويتحرك.

لن نصل إلى هذه الأبدية عبر الصلوات والأسرار والشعائر؛ بل عن طريق الحب وحده.

الإيمان يرشد حياة الناس:

مكتبة
t.me/soramnqraa

-١-

مَن يعرف حقًّا قانون الحياة، هو مَن يفعله.

-٢-

الإيمان بأكمله بمثابة إجابة عن هذا السؤال: كيف يجب أن أعيش في هذا العالم، ليس أمام الناس، بل أمام مَن أرسلني إلى هذا العالم؟

-٣-

(ما يهم في الإيمان الحقيقي ليس أن تعقل جيدًا أمورًا من قبيل: الله- الروح- ما حدث وما سيحدث، ولكنه أمر واحد فقط: أن تعرف جيدًا ما يجب أن تفعله في هذه الحياة، وما لا يجب أن تفعله).

«كانط».

-٤-

إن عاش الإنسان حياة شريرة، فالسبب في هذا أمر واحد فقط؛ أن هذا الإنسان بلا إيمان. هذا ما يحدث مع الشعوب، فإن عاش شعب ما حياةً سيئةً، فالسبب في هذا أمر واحد فقط؛ أنه يحيا دون إيمان.

-٥-

مقياس الصلاح أو الطلاح حياة الناس يتلخص في أمر واحد فقط، وهو كيف فهموا قانون الحياة الحقيقي. كلما فهموا قانون الحياة بشكل أكثر وضوحًا كلما صلحت حياتهم. وكلما تشوش فهمهم لقانون الحياة، كلما فسدت حياتهم.

-٦-

(كي يستطيع البشر الخلاص من وحل الخطية والعهر والحياة الكارثية التي يحيونها الآن يلزمهم أمر واحد فقط؛ إنهم في حاجة إلى الإيمان... ليس هذا الإيمان الذي يعيشه الناس الآن، والذي يتلخص في حياة كل إنسان لأجل ذاته، بل أن يحيا كافة البشر طبقًا لقانون وهدف واحد. سيحدث هذا حينما يتمكن الناس من تكرار الصلاة الآتية لله: «فليأتِ ملكوتك؛ كما في السماء كذلك على الأرض» وحينما يأملون في تحقيق ملكوت الله على الأرض).

«مازيني»[٦].

---

(٦) ربما يقصد جوزيبي مازيني (١٨٠٥ - ١٨٧٢)، وهو ثوري إيطالي، وأحد قادة حركة الاستقلال الإيطالي.

-٧-

(إن علَّمنا الإيمان أننا يجب أن ننكر هذه الحياة من أجل الحياة الأبدية، فهو إيمان كاذب. من المستحيل أن ننكر هذه الحياة من أجل الحياة الأبدية، وسبب ذلك أن الحياة الأبدية موجودة بالفعل في هذه الحياة).

«فامانا بورانا»[٧].

-٨-

كلما يزداد إيمان الإنسان قوةً، كلما تزداد صلابته في الحياة. حياة الإنسان دون إيمان هي حياة حيوان.

الإيمان المزيف:

-١-

إن قانون الحياة الذي يقضي بمحبة الله والقريب بسيط وواضح لكل إنسان، وعندما يفكر فيه كل إنسان يجده في قلبه أيضًا. ولذلك إن لم تكن ثمة تعاليم مزيفة، لكان البشر أجمعون قد تمسكوا بهذا القانون، وتحقق ملكوت الله على الأرض.

ولكن في كل مكان وزمان علَّم المعلمون المزيفون الناس أن الله ليس له وجود، ومن ثمَّ فليس هناك قانون إلهي. وقد صدَّق الناس هذه التعاليم المزيفة، وفصلوا أنفسهم عن قانون الحياة الحقيقي وعن تحقيقه، ولذا أصبحت حياة البشر أكثر مشقة وتعاسة.

لا يجب أن نثق في أي تعاليم لا تتفق مع حب الله والقريب.

(٧) نص هندي مقدس كُتِب بالسانسكريتية، ويحتوي على نصوص مقدسة لشيفا وفيشنو.

-٢-

علينا ألا نعتقد أن الإيمان الحقيقي لا بد وأن يكون قديمًا. على العكس فكلما يعيش الناس أطول، يتضح لهم قانون الحياة الحقيقي أكثر فأكثر. أن نعتقد أنه لا بد وأن نؤمن في زماننا هذا بما آمن به أجدادنا وأجداد أجدادنا يشبه تمامًا أن نعتقد –ونحن بالغون– أن ثياب طفولتنا يمكن أن تناسبنا الآن.

-٣-

دائمًا ما ظهر عند جميع الشعوب أولئك الناس الذين ادعوا أنهم وحدهم مَن يعرفون قانون الحياة الحقيقي. وكي يؤكدوا صحة ادعائهم يقصون لنا دومًا عن معجزات وعجائب من الله تؤكد على أن القانون الذي يعلمونه لنا هو قانون الحياة الحقيقي. وبالإضافة إلى هذا كتب أولئك الناس عن هذا القانون في كتب عديدة، وأقنعوا الشعب أن كل كلمة في هذه الكتب هي حقيقية، فهذه الكتب قد أُوحِي بها من الله ذاته.

كل هذا غير حقيقي. فالقانون الإلهي لا يمكن أن يكشفه لنا واحد فقط من البشر، بل هو مكشوف لكل مَن يود أن يعرفه من البشر. لم تكن هناك معجزات أبدًا، وهي غير موجودة الآن، ولن تكون موجودة أبدًا، وكل هذه الحكايات التي يقصونها لنا عن المعجزات هي محض حكايات خرافية. ليس صحيحًا أن ثمَّة كتبًا معينةً كل ما فيها حقيقي ومُوحى من الله. كل الكتب من صنع الإنسان، وفي جميعها يمكن أن نجد فائدةً ويمكن أن نجد ضررًا. يمكن أن نجد فيها ما هو حقيقي، ويمكن أن نجد فيها ما هو مزيف.

-٤-

(نشعر بالندم على أننا لا يمكن أن نؤمن بما آمن به أسلافنا. لا يجب علينا أن نندم على ذلك؛ بل علينا أن نحاول أن نجد هذه الحقيقة التي يمكن أن نؤمن

بها بصلابة كما آمن أسلافنا بصلابة من قبل).

«مارتينو»[(٨)].

-٥-

كي يتعرف الإنسان على الإيمان الحقيقي، فعليه -قبل كل شيء- أن يتخلى عن هذا الإيمان الذي وثق فيه كالأعمى، وأن يفحص كل ما علموه إياه منذ الطفولة في ضوء العقل.

-٦-

عاش عامل في المدينة، وبعد أن أنهى عمله ذات يوم عاد إلى المنزل. وفي خروجه من العمل التقى بأحد المارة. قال المار: «لنسر سويًّا... الطريق من هنا، وأنا أعرفه جيدًا». صدَّقه العامل وسارا سويًّا.

مرت ساعة على سيرهما، ثم ساعة أخرى، وبدأ العامل يعتقد أن الطريق إلى المنزل ليس من هنا. قال: «على ما أذكر، الطريق ليس من هنا». فأجاب الرجل: «هذا أقصر طريق. صدقني! أنا أعرفه جيدًا». أطاعه العامل وأكمل معه الطريق. وكلما سارا أكثر، كلما ساء الحال أكثر فأكثر، وأصبح أكثر صعوبة. أنهى العامل كل ما معه من طعام، وأنفق كل شيء، ولم يصل إلى المنزل بعد. ولكن كلما سار لمسافة أبعد، كلما صدق الرجل أكثر، وفي النهاية آمن تمامًا أن هذا هو الطريق الصحيح. لقد آمن بهذا؛ لأنه لا يود العودة مجددًا، وقد أمل أن يصل إلى بيته عبر هذا الطريق. ابتعد العامل جدًّا عن منزله، وعاش مدة طويلة في فقر مدقع.

هذا ما يحدث مع أولئك الذين لا يستمعون إلى صوت أرواحهم، ويؤمنون بكلمات غريبة عن الله وقانونه.

---

(٨) قد يكون المقصود روبرت مارتينو (١٨٢٦- ١٨٦٩)، وهو رسام إنجليزي شهير.

-٧-

أمر مؤسف ألَّا يعرف الناس الله، ولكن الأسواء من ذلك ألا يؤمنوا بوجوده.

عن مظاهر العبادات الخارجية:

-١-

لا يكمن الإيمان الحقيقي في تصديق المعجزات، ولا في الأسرار ولا في الشعائر؛ بل في تصديق قانونٍ واحد يصلح لكافة البشر في هذا العالم.

-٢-

الإيمان الحقيقي ليس في حاجة إلى معابد ولا لزينة ولا لإنشاد، ولا لتجمع عدد كبير من الناس. على النقيض من ذلك، لا يدخل الإيمان الحقيقي إلى القلب سوى في هدوء ووحدة.

-٣-

إن أراد الإنسان أن يُسِرَّ إلى الله بالصلوات أو الطقوس والشعائر، فهذا يعني أنه يريد أن يخدعه، وهذا مستحيل... إنه يخدع نفسه فقط.

-٤-

ليس الإيمان الحقيقي في معرفة أي الأيام يجب الصوم فيه[٩]، وأيها يجب الذهاب فيه إلى المعبد، وأي الصلوات يجب أن تُقرأ وتُسمع؛ بل يكمن

(٩) في الأصل كتب تولستوي أي الأيام يجب فيها تناول طعام نباتي، في إشارة إلى شكل الصوم المتعارف عليه عند المسيحيين بتناول أطعمة نباتية والكف عن تناول اللحوم أو أي منتجات حيوانية، لكني فضلت أن أكتب الصوم بشكل عام؛ لأن المعنى الواسع لا يقتصر على صوم المسيحيين.

الإيمان الحقيقي في أن يحيا الإنسان دائمًا حياة صالحة، في محبة مع الجميع، وأن يفعل مع القريب(١٠) ما يود أن يفعله به تمامًا.

في هذا يكمن الإيمان الحقيقي، وقد نادى بهذا الإيمان كافة الحكماء والأتقياء الحقيقيين في حياة كافة الشعوب.

-٥-

لم يقل يسوع للسامريين: «تخلوا عن قناعاتكم وتقاليدكم في معاداة اليهود»، ولم يقل لليهود: «انضموا إلى السامريين»؛ لكنه قال للسامريين واليهود: «أنتم تخدعون أنفسكم. مكان العبادة لا يهم، ولا الخدمة فيه، وليست جرزيم(١١) أو أورشليم هي ما يهم، فسيأتي وقت -وقد أتى بالفعل- سيعبدون فيه الآب لا في جرزيم ولا في أورشليم، ولكن عبادة الآب الحقيقية ستكون بالروح والحق، والله يطلب هؤلاء العبَّاد.

وكما طلب الله هؤلاء العباد في زمن أورشليم، كذلك يطلبهم الآن.

---

(١٠) مفهوم القريب لدى تولستوي هو مفهوم القريب الذي نادى به المسيح، فعندما قال المسيح إن محبة القريب هي أعظم الوصايا، سُئل ومَن هو قريبي؟ فحكى قصة السامري الصالح الذي برغم عداء السامريين لليهود عطف على أحد اليهود عندما اعتدى عليه لصوص وتركوه بين الحياة والموت، فأخذه السامري وعالجه وأطعمه حتى عادت إليه حياته، أي أن القريب هو كافة البشر حتى الأعداء منهم.

(١١) جرزيم جبل يقع جنوب مدينة نابلس في فلسطين، ويرتفع ٨٨١ مترا عن سطح البحر، ويُطلق عليه اسم جبل الطور أو جبل البركة. ويضم أشجارًا حرجية، وتسكن الطائفة السامرية على قمته، والتي تعتبر من الطوائف قليلة العدد في العالم، حيث يبلغ عدد أفرادها حوالي ٧١٢ نسمة موزعين على منطقتين؛ الأولى جبل جرزيم في نابلس، والقسم الثاني في منطقة حولون. وقد آمنت هذه الطائفة بالنبي موسى واتخذت التوراة كتابًا مقدسًا- الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم فقط. وتحافظ على طابعها وتراثها وعاداتها النابعة من الدين السامري، حيث يقوم أفراد الطائفة بدراسة الدين واللغة العبرية القديمة من خلال كهنتهم وشيوخهم الذين يقطنون على قمة الجبل، وكما يقطن بعضهم داخل مدينة نابلس .ويعتبر جبل جرزيم بالنسبة لهذه الطائفة هو "القبلة لصلاتهم".

-٦-

(سيحل ملكوت الله فقط عندما يُستبدل الإيمان الكنسي بالعجائب والأسرار والطقوس والشعائر بالإيمان العقلي، دون معجزات ولا أسرار ولا طقوس أو شعائر. لقد اقترب هذا الزمن. لا يزال هذا النوع من الإيمان في طور الجنين، ولكن لا يمكن للجنين ألا ينمو. سننتظر هذا الوقت ونعمل من أجل حلوله سريعًا).

«كانط».

-٧-

كان هناك عامل يعمل لدى سيده. عاش العامل في منزل واحد مع السيد، وكان يلتقي به كثيرًا كل يوم. أصبح العامل يعمل أقل فأقل، وأضحى كسولًا حتى لم يعد يعمل شيئًا تقريبًا. رأى السيد هذا، لكنه لم يقل شيئًا، وكان يشيح بوجهه بعيدًا فقط عندما يلتقي العامل. رأى العامل أن صاحبه لم يعد راضيًا عنه، فحاول أن يصالحه دون أن يعمل. ذهب العامل إلى أصدقاء سيده المقربين وطلب منهم أن يقنعوه ألا يغضب منه. علم السيد ما حدث، فاستدعى العامل، وقال له: «لِم تطلب من الآخرين أن يتشفعوا من أجلك؟ أنت معي دائمًا ويمكنك دومًا أن تخبرني بما تريد». لم يستطع العامل أن يجيب على هذا بشيءٍ، فانصرف. فكَّر العامل في طريقة أخرى: قام بجمع بيض السيد، وأمسك بإحدى فراخه، وأحضر كل هذا كهدية له؛ لئلَّا يغضب الأخير عليه. حينها قال السيد: «تذهب إلى أصدقائي وتحثهم على التحرك من أجلك في حين أنك معي، والآن تحاول أن تتملقني بالهدايا؟! كل ما لديك هو ملكي في الأساس،فإن أتيتني بما لديك فهو لا يلزمني». حينها فكَّر العامل في طريقة ثالثة؛ نظم القصائد في تمجيد سيده، وكان يذهب أسفل نوافذه

ويصيح بصوتٍ عالٍ منشدًا تلك القصائد، واصفًا السيد بالعظمة والقدرة والعلم الكاملين، وبالأبوة والرحمة والإحسان. حينها استدعى السيد عامله مرة أخرى، وقال: «لقد حاولت إرضائي عبر الناس وعبر المنح التي منحتها لك، والآن تسلك طريقًا أكثر غرابة: تصيح وتغني منشدًا عن قدرتي الكلية ورحمتي وما إلى ذلك! تغني وتنشد عني أني كذا وكذا، لكنك لا تعرفني ولا تريد أن تعرفني... لستَ في حاجة لشفاعة الآخرين لك، ولستُ في حاجة لهداياك ولا لمديحك وإطرائك لما لست تعرفه عني... كل ما أريده منك أمر واحد فقط: عملك!».

وكما فعل العامل، هكذا يفعل الناس الذين يتملقون القديسين بالعطايا كي يتشفعوا عنهم أمام الله، وهكذا يفعلون عندما يتملقون الله بالأيقونات وكافة الأضحيات وبناء المعابد وإنشاد المدائح فيه.

لقد علَّم المسيح عن هذا الأمر قائلًا إنه ما من شفيعٍ أو وسيطٍ بين الإنسان وربه، وإن ما هو مطلوب حقًّا في الحياة ليست تبرعاتنا أو هدايانا لله، بل عملنا الصالح.

في هذا يكمن قانون الله كاملًا.

مفهوم المكافأة على العمل الصالح يتعارض مع الإيمان الحقيقي:

-١-

عندما يتمسك الإنسان بالإيمان لسبب وحيد، وهو أنه عندما ينفذ أعمال الإيمان ينتظر في المستقبل كل أنواع المكافآت المادية، فهذا ليس إيمانًا، بل حسبة، وحسبة مزيفة دائمًا، لأن الإيمان الحقيقي يمنح المكافأة في الحاضر، ولا يمنح أو حتى يمكن أن يمنح أي مكافآت مادية في المستقبل.

-٢-

كان أحدهم يبحث عن عمل، فالتقى في طريقه باثنين من سماسرة العمل. أخذ كل منهما يحاول أن يوظِّفه لدى سيده. قال أحدهما له: «تعال لتعمل عند سيدي... المكان أفضل. في الحقيقة إن لم تُرْضِه، فسيكون هناك حساب وسيُلقي بك في السجن، وإن أرضيته فلن تجد سكنى أفضل من سكناه. فعندما تنهي العمل معه ستعيش دون أن تفعل شيئًا، وستنعم بالمتع في كل يوم؛ خمر وحلويات ورحلات. أَرْضِه فقط، وستحيا حياةً لا يمكن أن تتخيل أفضل منها». هكذا دعاه أحدهما.

أما السمسار الآخر فدعاه للعمل لدى سيده، لكنه لم يذكر شيئًا عن الطريقة التي سوف يُكافئه بها سيده، ولم يتفوه بكلمة عن أين وكيف سيعيش العامل، وهل ستكون المعيشة يسيرةً أو صعبة، لكنه قال شيئًا واحدًا، وهو أن صاحب العمل طيب القلب، لا يعاقب أحدًا، بل ويعيش بنفسه مع العمال.

فكَّر العامل في صاحب العمل الأول: «ثمة كثير من الوعود. إذا تم العمل على أفضل وجه فلا حاجة إلى مثل هذه الوعود، فالوعد بحياة مريحة جدًا يبدو أمرًا سيئًا بحق. لا بد وأن صاحب العمل هذا شديد الشراسة؛ لأنه يعاقب بقسوة أولئك الذين لا يرضونه. من الأفضل أن أذهب للآخر. صحيح أنه لم يَعِدْ بشيء، لكنهم يقولون إنه طيب القلب ويعيش مع العمال».

هكذا هو الأمر أيضًا مع تعاليم الإيمان. يقوم المعلمون المزيفون بجذب الناس إلى الحياة الصالحة بالتخويف من العقوبة والترغيب في المكافأة. أما المعلمون الحقيقيون فيُعلِّمون الناس فقط أن مصدر الحياة والحب يعيش في أرواح البشر، وأنه من الأفضل أن يتحد البشر به.

-٣-

(إن كنت تخدم الله من أجل عطايا أبدية، فأنت تخدم نفسك إذنْ لا الله).

«أنجيلوس سيليسيوس»[١٢].

-٤-

الفارق الرئيس بين الإيمان الحقيقي والزائف، أنه في حالة الأخير يرغب الإنسان في أن يكافئه الله مقابل أضحياته وصلواته؛ أما في الحقيقي فلا يريد الإنسان سوى شيء واحد: أن يتعلم كيف يُرضي الله.

العقل يفحص حالة الإيمان:

-١-

لا تعمل على تخدير عقلك اللازم لك كي تتعرف على الإيمان الحقيقي؛ بل على العكس... طهِّره وصفِّه كي يفحص ما يلقنه معلمو الإيمان لك.

-٢-

إننا لا نصل إلى الإيمان عن طريق العقل، ولكن العقل لازم كي يفحص هذا الإيمان الذي يلقنونا تعاليمه.

-٣-

(لا تخاف من أن ترفض من إيمانك كل ما هو غير ضروري، مادي، مرئي، محسوس، وأيضًا غائم وغير واضح. فكلما ازدادت طهارة روحك، كلما أدركت قانون الحياة الحقيقي بشكل أوضح).

«أنجيلوس سيليسيوس».

---

(١٢) اسمه الحقيقي يوهان شلايفر. ولد عام ١٦٢٤، ومات في عام ١٦٧٧ في برزلاو. درس سيلسيوس الطب في مدن شترسبورج ولايدن وبادوا. وأثناء دارسته تعرف على طريقة التفكير الصوفية مما انعكس على كتابته. وفي عام ١٦٥٣ دخل في المذهب الكاثوليكي وعُمِّد قسيًا عام ١٦٦١. ويعد واحدًا من المناهضين لحركة الإصلاح الديني.

-٤-

لا يمكن للحكايات التي يقصونها عن المعجزات أن تؤكد الحقيقة. إن لم تكن هناك تلك الحكايات، ورأيت بعيني أحدهم يقوم من الموت ويطير في السماء وقد أكد لي أن ٢× ٢= ٥ فلم أكن لأصدقه أيضًا.

-٥-

ليس المارق مَن لا يؤمن بما يؤمن به كل مَن حوله، بل هو حقًّا مَن يفكر ويقول إنه يؤمن بشيءٍ لا يؤمن به حقيقةً.

الوعي الديني للبشر لا يتوقف عن الاكتمال:

-١-

من الضروري أن نستفيد من التعاليم التي علمنا إياها الحكماء والأتقياء القدامى عن قانون الحياة، ولكن علينا أن نفحصها تحت ضوء العقل، ونقبل منها ما يتفق مع العقل، ونُنحي عنها ما لا يتفق معه.

-٢-

عندما يريد إنسان ألَّا يضل في التعرف على قانون الحياة، فيُقرِّر ألا يتراجع قيد أنملة عن الإيمان المقبول لديه من قبل، فإنه يشبه إنسانًا قرَّر أن يربط نفسه بالحبال في سارية خوفًا من أن يتيه.

-٣-

(من العجيب جدًّا أن البشر يتمسكون بشدة بأكثر التعاليم غرابة عن الإيمان، والتي لا تناسب زمانهم أبدًا، ويرفضون كافة التعاليم الجديدة، بل ويعتبرونها غير ضرورية وضارة. يتناسى أولئك البشر أنه إن كان الله قد كشف

الحقيقة للقدماء، فهكذا يمكنه أن يفعل تمامًا للمعاصرين).

«ثورو»[١٣].

-٤-

قانون الحياة لا يمكنه أبدًا أن يتغير، ولكن بإمكان البشر أن يفهموه أكثر فأكثر، وأن يكتشفوا كيف يمكنهم أن يطبقوه في الواقع.

-٥-

(المسيح معلم عظيم. لقد بشَّر بدين الحب الحقيقي الشامل لله والإنسان. ولكن لا يجب علينا أن نعتقد أنه لا يمكن أن يكون لدى الله مزيد من المعلمين العظماء. إن أدركنا هذا فلن يقلل ذلك أبدًا من عظمة المسيح، بل سيجعلنا ندرك فقط عظمة الله. إن اعتقدنا أن الله لن يكشف الحقيقة مباشرة للبشر ولا للمعلمين العظماء الجدد الذين سيأتون بعد المسيح، ولن يحدث معهم ما حدث للمسيح، فإننا بهذا نقتل نبيًّا جديدًا من أجل أن نؤله نبيًّا قديمًا.

إن لم يكن المسيح قد تراجع عن تلك التعاليم التي كانت تُعتبر في أيامه حقيقية، لم نكن لنتعرف على تعاليمه العظيمة.

إن كان قد قال -كما فعل آخرون-: «لا يمكن لأحد أن يوضح قانون الله أكثر من موسى»، فلم يكن ليصبح شيئًا أبدًا، ولكان روح الله قد فارقه. لكنه لم

(١٣) هنري ديفد ثورو، واسمه بالولادة ديفد هنري ثورو، مؤلف أمريكي ومثالي وطبيعي، وداعٍ لإنهاء العبودية، وداعٍ للعصيان المدني، ومقاوم للضرائب، وناقد للتقدم، ومدافع عن العيش البسيط، ومؤرخ، وفيلسوف.

يتوجه للناس؛ بل لله، وكان يطيع صوته، لا صوت خوفه من الناس. لم يخش السلطة الدينية ولا الدولة ولم يضل، رغم أن بيلاطس وهيرودس قد اتفقا فقط على شيء واحد؛ ألا وهو صلبه.

نعم... هكذا هو الله قريب لنا، كما كان قريبًا من المسيح، وبقدر استعداد كل واحد منا لتقبل الحقيقة بداخله، وبقدر ما يريد الإنسان أن تخدم حياته بأكملها الله).

«باركر»[١٤].

-٦-

(الديانة لا تكون حقيقية بسبب أن مَن يعلمونها أناس أتقياء، بل إن الأتقياء يعلمونها لأنها حقيقية).

«ليسينج»[١٥].

-٧-

(عندما ينهمر الماء المتساقط على الجداول، يبدو لنا كما لو أنها هي منبع الماء، ولكن الماء ينهمر في الحقيقة من السماء... هكذا الأمر مع مواعظ الأتقياء والحكماء: يبدو لنا وكأنهم منبع هذه المواعظ، لكنها من الله).

«راما كريشنا»[١٦].

❊ ❊ ❊

(١٤) فيزيائي أمريكي شهير.

(١٥) كاتب دراما ألماني.

(١٦) صوفي هندي مشهور في القرن التاسع عشر.

الروح

غير محسوسة، غير مرئية، غير مادية، تمنح الحياة لكل موجود... ندعوها الله عندما نتحدث عنها في ذاتها. وهو أيضًا غير محسوس، غير مرئي، دون أصل مادي، منفصل عن كل ما عداه، ونعرفه فقط في داخلنا فيما نطلق عليه «الروح».

ما الروح؟

-١-

إن عاش الإنسان زمانًا طويلًا، فسيمر بتغييرات عديدة. في البداية يكون رضيعًا، ثم يصبح طفلًا، فبالغًا، فعجوزًا. ولكن مهما مرَّ بتغييرات يقوله عن نفسه دائمًا «أنا»، وهذه الأنا كانت دومًا هي هي... كما كانت في الطفولة، كذلك كانت في البلوغ، ثم في الشيخوخة. هذه الأنا غير المتغيرة هي ما نطلق عليها «الروح».

-٢-

إن اعتقد الإنسان أن كل ما يراه حوله؛ كل هذا العالم اللانهائي، هو بالضبط كما يراه، فهو مخطئ تمامًا. إنه يدرك كل هذه الأمور المادية لسبب واحد وهو أن لديه رؤية وسمعًا ولمسًا، فقط لا غير. إن اختلفت حواسه، لتغير العالم كله بالنسبة له أيضًا. لذلك فنحن لا نعرف –وليس بإمكاننا أن نعرف– ذلك العالم المادي الذي نحيا فيه تمامًا. أمر واحد فقط نعرفه علم اليقين... إنها روح كل منا.

الأنا روحيًا:

-١-

عندما نقول «أنا»، فنحن لا نتحدث عن أجسادنا، بل عن ذلك الشيء الذي تعيش به أجسادنا. تُرى ما عسى أن تكون هذه الـ«أنا»؟ لا يمكننا أن نعبر عنها بالكلمات، لكننا نعرف هذه الـ «أنا» أكثر من أي شيء آخر نعرفه. نحن نعلم أنه إن لم تكن هناك هذه الـ«أنا» بداخلنا لما عرفنا شيئًا، ولما كان هناك شيء واحد لندركه في العالم كله، ولما كنا موجودين من الأساس.

-٢-

عندما أُمعن الفكر يبدو لي أن معرفة ماهية جسدي أصعب كثيرًا من معرفة ماهية روحي. نحن غير قريبين من الجسد، فهو غريب على أي حال، أما الروح وحدها فهي القريبة.

-٣-

إن لم يدرك الإنسان روحه في داخله، فهذا لا يعني أن لا وجود لها بداخله؛ بل يعني فقط أنه لم يتعلم بعد كيف يتعرف على روحه بداخله.

-٤-

(طالما لم نستطع أن نعرف ما بداخلنا، فما جدوى أن نعرف ما بخارجنا؟ هل يمكن لإنسان لم يدرك نفسه أن يدرك العالم؟ هل يمكن لأعمى داخل منزله أن يصبح بصيرًا خارجه؟).

«سكوفورودا»[١٧].

---

(١٧) جريجوري سكوفورودا (١٧٢٢ - ١٧٩٤)، فيلسوف من أصل قوزاقي.

-٥-

(كما أن الشمعة لا يمكن أن تتقد دون نار، كذلك الإنسان لا يمكنه أن يحيا حقًّا دون قواه الروحية. الروح تحيا داخل البشر أجمعين، ولكن ليس كل البشر يدركونها.

الحياة السعيدة هي تلك التي يدرك صاحبها الروح، أما البائسة فهي تلك التي لا يدرك صاحبها الروح).

«راما كريشنا».

الروح والعالم المادي:

-١-

(نحن نقيس الأرض، والشمس والنجوم وأعماق البحار، ونحفر في أعماق الأرض بحثًا عن الذهب، ونبحث عن الجبال والأنهار على سطح القمر، ونكتشف نجومًا جديدة، ونعرف مساحتها، وننام قدر ما نشاء، ونصمم آلات بارعة، ولا يمر يوم دون أن نبتكر شيئًا جديدًا. أمرٌ واحدٌ لا نعرفه... أمرٌ واحدٌ لا نستطيع فعله. ومع أنه الأمر الأهم، إلا أننا لا ندركه. مَن نحن فعلا؟ لا ندرك هذا. نحن نشبه الطفل الصغير... إنه يشعر أنه ليس على ما يرام، ولكن لماذا هو كذلك؟ لا يعرف السبب.

لسنا على ما يرام؛ لأننا نعرف أمورًا كثيرة غير ضرورية، ولا نعلم الأمر الضروري حقًّا؛ إنه أنفسنا! إن عرفنا هذا وأدركنا ما يحيا بداخلنا حقًّا، لاختلفت حياتنا تمامًا).

سكوفورودا

-٢-

في الحقيقة لا يمكننا أن ندرك جوهر كل ما هو مادي في ذلك العالم.

ما ندركه تمامًا: ما هو روحي فقط بداخلنا، إنه ما ندركه بداخلنا ولا تتوقف معرفته على حواسنا أو أفكارنا.

-٣-

ما من حدود للعالم، ولا يمكن أن تكون له حدود، كما لو أن أحدهم بعيد، ولكن هناك ما هو أبعد منه. هكذا الأمر أيضًا مع الزمان، فما من بداية للعالم أو نهاية، لذا فما كان موجودًا منذ آلاف الأعوام كان هناك ما هو قبله بآلاف الأعوام، وهكذا إلى ما نهاية. لذلك فمن الواضح أنه من المستحيل على الإنسان أن يدرك ماهية العالم المادي الآن، وماذا كانت ماهيته، وكيف ستكون في المستقبل.

ما الذي يمكن أن يفهمه الإنسان إذنْ؟ أمر واحد فقط، لا يلزم له لا مكان ولا زمان... إنها روحه.

-٤-

كثيرًا ما يعتقد الناس أن ما هو موجود هو ما يستطيعون فقط أن يجسوه بأيديهم. على النقيض من ذلك، ففي واقع الأمر ما هو موجود هو فقط ما لا نستطيع أن نراه أو نسمعه أو حتى نلمسه... إنه ما نطلق عليه الـ«أنا»... إنها روحنا.

-٥-

يقول كونفوشيوس: (السماء والأرض عظيمان، لكنهما لديهما لون وشكل وحجم. لدى الإنسان ما ليس لديه لون أو شكل أو حجم، لكنه أكثر عظمة. لذا فإن هلك العالم كله، فلدى الإنسان بداخله ما يمكنه أن يمنح الحياة للعالم).

-٦-

الحديد أصلب من الحجر، والحجر أصلب من الخشب، والخشب أصلب من المياه، والماء أصلب من الهواء. كذلك ما لا يمكننا أن نلمسه أو نراه أو نسمعه، أصلب من كل شيء. لقد كان وهو كائن الآن وسيكون، ولن يمضي أبدًا.

ما هو؟

إنه روح الإنسان!

-٧-

يبدو للإنسان أنه من الجيد أن يفكر في طبيعة جسده. يبدو جسد الإنسان ضخمًا إن قارناه بالبرغوث، وضئيلا جدًّا إن قارناه بالأرض. حسنًا أيضًا أن نفكر أن أرضنا كلها محض حبة صغيرة إن قارناها بالشمس، وكذلك الشمس حبة صغيرة إن قارناها بالشعرى اليمانية، وكذلك الشعرى اليمانية لا شيء إن قارناها بنجوم أخرى أكبر، وهكذا الأمر إلى ما لا نهاية.

من الواضح إذنْ أن الإنسان وجسده لا شيء تقريبًا مقارنة بهذه الشموس والنجوم، وإن فكرنا أيضًا أن كلًّا منا لم يكن له وجود، وأنه منذ مائة عام، منذ ألف عام، منذ عدة ألوف، عاش بشر غيرنا -مثلنا تمامًا- ولدوا وكبروا وشاخوا وماتوا، وأن ملايين ملايين البشر ماتوا، ولم تتبق عظامهم -مثلما سيحدث معي- ولا حتى رماد عظامهم، وأنه سوف يعيش من بعدي -مثلي تمامًا- ملايين وملايين البشر، وأنه فوق رمادي سوف ينمو العشب، وسوف يُنتج خضروات، وسيأكلها البشر، وأنه لن يتبقى مني ولا حتى بعض الغبار، ولن تبقى أي ذكرى لي على الإطلاق. أليس واضحًا إذنْ أني لا شيء؟!

ما يُعَدُّ لا شيء هو لا شيء، وهذا يوضح لك حقيقتك ووضعك في العالم.

وإن فهم الإنسان هذا، فلن يُعد هذا الفهم لا شيء هو الآخر، بل إنه يكشف له عما هو أكثر أهمية في هذا العالم اللانهائي؛ لأنه دون أن أحوز هذا الفهم أنا ومَن يشبهني من المخلوقات، فلا وجود لي ولا لما أطلق عليه: «العالم اللانهائي».

ما هو روحي وما هو مادي داخل الإنسان:

-١-

من أنت؟ أي إنسان أنت؟ ماذا يميزك عن الآخرين؟ أنا ابن أو ابنة هذين الوالدين... أنا عجوز... أنا شاب... أنا غني... أنا فقير.

يتميز كل منا عن بقية البشر، فهناك الرجل وهناك المرأة... العجوز والشاب... الصبي والصبية، وفي كل إنسان يعيش شيء مماثل بين كافة البشر؛ إنه الوجود الروحي، لذلك فجميعنا واحد مع إيفان ونتاليا والآخرين... ولدى الجميع ذلك الوجود الروحي. وعندما يقول أي منا: أنا أريد، فهذا يعني أحيانًا ما يريده إيفان أو نتاليا، وأحيانًا أخرى يعني ما يريده هذا الوجود الروحي المشترك بين الجميع. لذا فما يريده كل من إيفان ونتاليا أمرٌ، وما يريده الوجود الروحي بداخلهما أمرٌ آخر تمامًا.

-٢-

أحدهم يقترب من الباب، أسأله: مَن هناك؟ فيجيب: أنا. مَن «هذا الـ»أنا»؟ فيجيب: «إنه أنا!»، ويدخل طفل قروي. يتعجب الطفل من سؤالي: (من هذا الأنا؟) إنه يتعجب أيضًا بسبب أنه يشعر في داخله بهذا الوجود الروحي الوحيد، الذي هو واحد في الجميع، لذا فهو يتعجب من هذا السؤال الذي يجب أن تكون إجابته معروفة للجميع. إنه يجيبني عن الـ»أنا» الروحية، بينما أسأل أنا عن تلك النافذة التي أرى من خلالها تلك الـ«أنا».

-٣-

يُقال إن ما ندعوه «أنفسنا» هو مجرد الجسد، وإن عقلي وروحي وحبي، كل هذا ينبع فقط من الجسد، ويُقال أيضًا إنه سيان أن نقول إن ما ندعوه «الجسد» هو مجرد الغذاء الذي يُطعم الجسد. حقًّا إن جسدي هو مجرد كيان قد تكوَّن من الغذاء، وإنه دون الغذاء ما من جسد، ولكن جسدي ليس غذاءً. إن الغذاء هو الشيء الضروري لحياة الجسد لا للجسد ذاته.

هكذا الأمر أيضًا مع الروح. حقًّا ما من روح دون الجسد، ولكن روحي ليست هي جسدي. إن الجسد أمر لازم للروح فقط، لكنه ليس الروح. إن لم تكن هناك روح، لم أكن لأعرف ما هو جسدي تحديدًا.

إن مصدر الحياة ليس في الجسد؛ بل في الروح.

-٤-

عندما نقول: «هذا ما كان، وهذا سيكون، أو من الممكن أن يكون»، فإننا نتحدث عن الحياة المادية، لكن بالإضافة إلى الحياة المادية التي كانت والتي ستكون، يمكننا أن ندرك بداخلنا نوعًا آخر من الحياة؛ إنها الحياة الروحية. الحياة الروحية لم تكن ولن تكون؛ بل هي كائنة فقط. هناك ما يمكن أن نطلق عليه الحياة، وهناك الحياة الحقيقية.

حسنٌ أن يحيا الإنسان حسب الروح، لا حسب الجسد.

-٥-

علَّم المسيح الإنسان أن بداخله ما يمكن أن يسمو به عن تلك الحياة الصاخبة والمخاوف والشهوات. إن الإنسان الذي قد تعرف على تعاليم المسيح يختبر ما قد اختبره الطير، فالطير لا يدرك أن لديه جناحًا، ثم يدرك فجأةً أن بإمكانه أن يطير، فيصبح حرًّا ولا يخاف شيئًا.

الضمير= صوت الروح:

-١-

بداخل كل إنسان يحيا اثنان؛ واحد أعمى؛ جسدي، والآخر مبصر؛ روحي. الأول: الإنسان الأعمى الجسدي يأكل ويشرب ويعمل ويستريح ويتناسل، ويقوم بكل هذا بطريقة روتينية. أما الآخر: الإنسان المبصر الإنسان الروحي، فهو لا يفعل شيئًا بنفسه، بل يقتصر دوره على أن يوافق أو لا يوافق على ما يفعله الأعمى (الإنسان الحيواني).

-٢-

هذا الجزء الروحي المبصر من الإنسان يُطلق عليه الضمير، وهو يعمل كمؤشر البوصلة. يتحرك مؤشر البوصلة من مكانه في حالة واحدة فقط؛ عندما ينحرف حامله عن الطريق الذي يشير إليه المؤشر. هكذا الأمر أيضًا مع الضمير... يظل صامتًا طالما يقوم الإنسان بما عليه أن يقوم به، ولكن إن انحرف الإنسان عن طريقه الحالي، يرشده الضمير إلى الطريق الصحيح طالما هو متعثر.

-٣-

عندما نسمع أن شخصًا ما قام بفعل شرير، نقول: ليس لديه ضمير.

تُرى ما هذا الضمير؟

الضمير هو صوت ذلك الوجود الروحي الوحيد الذي يحيا داخل الجميع.

-٤-

الضمير هو وعي هذا الوجود الروحي الذي يحيا داخل الجميع، وهو مرشد مُخلِص لحياة البشر. كثير من الناس يعتبرون أن الضمير ليس ذلك

الوعي بالوجود الروحي، بل هو الذي يُحدِّد ما هو طيب وما هو شرير بواسطة الناس نفسها.

-٥-

(قد يكون صوت الهوى أعلى من صوت الضمير، لكنه مختلف تمامًا عن ذلك الصوت الهادئ المثابر الذي يتحدث به الضمير. ومهما صرخ صوت الهوى عاليًا، فإنه يتراجع أمام هذا الصوت الهادئ المسالم العنيد الذي للضمير. وبهذا الصوت يتحدث الضمير عما هو أبدي وإلهي وحيّ داخل الإنسان).

«تشانينج»[١٨].

-٦-

ذكر الفيلسوف كانط أن أمرين يثيران دهشته أكثر من أي شيء آخر: هذه النجوم التي في السماء، وقانون الفضيلة في روح الإنسان.

-٧-

(يكمن الخير الحقيقي داخل روحك. مَن يبحث عن الخير في مكان ما غير روحه يشبه ذاك الذي يرعى القطيع ويبحث في قلب القطيع عن حملٍ يضمه إلى حضنه).

«بامانا بورانا».

ألوهية الروح:

-١-

يستيقظ داخل الإنسان وعيه باستقلاله عن بقية الموجودات الأخرى قبل أي شيء آخر، وهذا يعني وعيه بجسده. ثم يعي استقلالًا آخر، أي استقلال

---

(١٨) وليام آليري تشانينج: داعية أمريكي توحيدي.

روحه، ثم يعي الأساس الروحي لحياته، أي الوعي بالله.

يعي الإنسان استقلاله عن مصدر كل شيء، أي عن الله، ويتعرف على هذا الوجود الروحي الوحيد الذي يحيا داخل كل إنسان.

-٢-

أن يعي الإنسان وجوده المستقل، فهذا يعني أن يعي الكيان الذي استقل عنه، وأن يدرك مصدر وجود كل شيء؛ أي الله.

-٣-

(الحق الحق أقول لكم: كل مَن يسمع كلامي ويؤمن به له حياة أبدية).

«يوحنا ٥: ٢٤- ٢٦».

-٤-

(قطرة تسقط في قلب البحر، فتصبح بحرًا.... هكذا تتحد الروح بالله، فتصبح الله).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٥-

عندما تنكشف الحقيقة للإنسان، فهذا لا يعني أنها تنبع من داخله. الحقيقة من الله وحده، لكنها يمكن أن تدخل قلبه، وإن فعلت هذا مع إنسان ولم تفعله مع إنسان آخر، فهذا يعني أن الإنسان الأول قد صفَّى نفسه للغاية كي تتمكن الحقيقة من الدخول إلى قلبه.

-٦-

(يقول الله: «كنت كنزًا مخفيًّا، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف).

«محمد».

-٧-

لا يمكن أن نحيط الله بالعقل أبدًا. نحن نعلم أنه موجود؛ لأننا ندركه، لا بالعقل، بل بما وضعه في داخلنا.

لذلك كي يصبح الإنسان إنسانًا حقًّا، عليه أن يعرف الله بداخله.

عندما نسأل: هل يوجد الله؟ فهذا يشبه تمامًا أن نسأل: هل أنا موجود؟ فما أحيا فيه وبه هو الله.

-٨-

الجسد طعام الروح. الجسد هو تلك الغابات التي تتشكل بفضلها الحياة الحقيقية.

أكبر سعادة يمكن أن يختبرها الإنسان هي سعادة أن يدرك الحرية والعقل والحب داخل ذاته، ولأنه مخلوق إلهي فهناك أيضًا سعادة في أن يدرك الله في داخله.

-٩-

إن لم يعرف الإنسان ذاته، فلا جدوى أبدًا من نصحه بأن يحاول أن يعرف الله. من الممكن أن ننصحه فقط بأن يعرف ذاته؛ فقبل أن يعرف الله، على الإنسان أن يعرف ذاته.

-١٠-

(إن ذبت في النيران الإلهية، حينها يشكلني الله كما يريد).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١١-

الروح زجاج، والله هو الضوء الذي ينفذ عبره.

-١٢-

ليس من الضروري أن أفكر أني أحيا. إني لا أحيا، بل يحيا ذلك الوجود الروحي الذي بداخلي. أنا فقط ذلك الثقب الذي يمر عبره.

-١٣-

(أنا وأنت فقط. إن لم يكن كلانا، لما وُجِد شيء في هذا العالم).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١٤-

أعرف الله، ليس إيمانًا بما أخبروني عنه، بل أعرفه كما أعرف روحي.

-١٥-

(كما لو أن إنسانًا يسمع دائمًا صوتًا، لكنه لا يستطيع أن يلتفت لينظر مصدره. يتحدث هذا الصوت بكافة اللغات، ويرشد كافة البشر، لكن أحدًا لم ير أبدًا مصدره. ولكن إن أطاع الإنسان الصوت وقَبِلَه داخل قلبه بحيث لا ينفصل عنه أبدًا حتى في أفكاره، فإنه سيشعر أنه قد أصبح وهذا الصوت واحدًا. وكلما يتوحد الإنسان أكثر مع هذا الصوت كلما يصبح الأمر أفضل له، فذلك الصوت يفتح أمامه حياة هانئة؛ لأنه صوت الله داخل الإنسان).

«إمرسون»(١٩).

(١٩) رالف والدو إمرسون: أديب وفيلسوف وشاعر أمريكي. كان من دعاة الفردانية.

-١٦-

الله يريد الخير للجميع، لذا فإن أردت الخير للجميع، فهذا يعني أن تحب، وأن يعيش الله بداخلك.

-١٧-

(لا يظل الإنسان إنسانًا. إنه يصبح إلهًا. يحدث هذا فقط عندما تفعل مع نفسك ما يجب عليك أن تفعله).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١٨-

يقولون: «أنقذْ روحًا». ما تنقذه هو ما يمكن أن يهلك. الروح لا يمكنها أن تهلك؛ لأنها الكائن الوحيد. لا يلزم أن تنقذ روحًا، بل أن تُطهرها مما يعكر صفوها ويفسدها، وأن تزيدها استنارة حتى يجتاز الله فيها أكثر فأكثر.

-١٩-

يقولون: «هل نسيت الله؟». إنها عبارة حسنة. نسيت الله تعني أنك نسيت ما يحيا بداخلك ومَن تعيش فيه وبه[٢٠].

-٢٠-

(كما أن الله ضرورة بالنسبة إليَّ، فكذلك أنا له).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٢١-

(عندما تضعف ويشق الأمر عليك، تذكَّر أن لديك روحًا، وأنها تستطيع

(٢٠) العبارة هنا تعتمد على التركيبة اللغوية لفعل نسي بالروسية Забыл ، فهي تضيف حرفين فقط إلى فعل الكينونة был، لذا فالنسيان والكينونة هنا متشابهان لفظيًا.

أن تنقذك. سنفكر جميعًا وقتها أن هؤلاء البشر -مثلنا تمامًا- من الممكن أن يدعمونا).

«إمرسون».

-٢٢-

في كل وضع صعب يمر بك تذكر مجددًا أنك لا تعيش بالجسد، بل بالروح، وأن بداخلك ما هو أقوى من أي شيء في هذا العالم.

-٢٣-

مَن يتحد بالله، هو الذي لا يخافه. لا يمكن أن يفعل الله لك شرًّا أبدًا.

-٢٤-

من الممكن أن يسأل الإنسان نفسه في كل دقيقة: مَن أنا؟ وماذا أفعل الآن؟ وفيمَ أفكر وأشعر؟ من الممكن أيضًا أن يجيب عن ذلك كالآتي: إني الآن أفعل وأفكر وأشعر بكذا وكذا. ولكن إن سأل الإنسان نفسه: ما هذا الذي يدرك بداخلي ما أفعله وأفكر فيه وأشعر به؟ فإنه لا يمكنه وقتها أن يجيب بشيء سوى أن هذا وعي بالذات. هذا الوعي بالذات هو ما ندعوه روحًا.

-٢٥-

(ذات مرة استمع السمك في النهر إلى ما يقوله الناس عن أن السمك بإمكانه أن يعيش فقط داخل المياه. تعجب السمك من هذا، وأخذ يسأل بعضه الآخر: ماذا تعني كلمة «مياه»؟ حينها قالت سمكة ذكية: «يقولون إن ثمة سمكةً عجوزًا حكيمة تعيش في البحر، وهي تعرف كل شيء. فلنسبح إليها إذنْ ونسألها ما هي المياه؟»، وهكذا سبحت الأسماك في البحر إلى ذلك المكان حيث تعيش تلك السمكة الحكيمة، وسألوها عن المياه. قالت السمكة العجوزة الحكيمة: «المياه هي ما نحيا فيها وبها، لذا فأنتم لا تعرفون

المياه، لكنكم تعيشون فيها وبها».

هكذا يبدو للبشر أحيانًا أنهم لا يدركون مَن هو الله، لكنهم يعيشون فيه وبه).

«حكمة صوفية».

حياة الإنسان ليست في الجسد؛ بل في الروح. ليست في الجسد والروح سويًّا، بل في الروح وحدها:

-١-

(إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ، لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ. وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الآبِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي).

«يوحنا ٨: ٢٦- ٢٨».

-٢-

أن يُرفع ابن الإنسان، يعني أن تعرف الروح التي تحيا بداخلك، وأن ترفعها فوق الجسد.

-٣-

(الروح والجسد هما ما يشكلان الإنسان، ويُوجِّه إليهما الإنسان اهتمامه دائمًا. ولكن يلزم أن نعرف أن «أنت» لا تعني جسدك، بل «روحك». تذكر هذا، وارفع روحك فوق جسدك، واحفظها من الخطايا الدنيوية، ولا تُعطِ الفرصة لشهواتك أن تسيطر على روحك. حينها ستحيا حياة صالحة).

«ماركوس أوريليوس».

-٤-

يقولون إنه ليس لزامًا عليك أن تحب نفسك. لكن دون حب الذات لما استمرت الحياة. الأمر فقط أن تحب روحك في نفسك، لا جسدك.

-٥-

لا وجود لجسد قوي حصين لم يمرض أبدًا، ولا وجود لثروات لا يمكنها أن تضمحل وتتلاشى. لا وجود لسلطة لا يمكنها أن تنتهي. كل هذا يتداعى. إن عاش إنسان حياته من أجل الصحة أو الغنى أو السلطة، وحتى إن حصل على ما يسعى إليه، فسينهشه القلق دائمًا وسيخاف ويخيب أمله؛ لأنه سيرى كل ما عاش حياته من أجله يبتعد عنه في النهاية، وأنه يهرم تدريجيًّا ويقترب من الموت.

-٦-

ما العمل إذنْ حتى لا نخاف أو نشعر بالقلق؟

هناك وسيلة واحدة؛ ألا ندع حياتنا تستند على كل ما يتداعى، بل على كل ما لا يمكنه أن يتداعى: إنها الروح التي تحيا داخل الإنسان.

-٧-

افعل ما يريده جسدك. ابحث عن المجد والفخر والثروة، وستتحول حياتك إلى جحيم. افعل ما تريده روحك التي تحيا بداخلك. اسعَ خلف التواضع والرحمة والحب، ولن تكون في حاجة إلى جنة. ستكون الجنة داخل روحك.

-٨-

ثمة واجبات نحو القريب، وهناك واجب على كل إنسان صوب نفسه؛ صوب روحه التي تحيا بداخله. يقضي هذا الواجب ألا تلوث أو تدمر أو تُغرق هذه الروح وألا تكف للحظة عن رفعها أكثر فأكثر.

-٩-

في شؤون العالم يحدث أحيانًا ألا تدرك قطعًا ما إن كان يتوجب عليك أن تفعل ما تفعله أو لا، وهل سينتج عن ذلك ما تريده أو لا. ليس الأمر هكذا عندما تحيا من أجل روحك. عِش من أجل روحك، وستعرف تحديدًا ما يلزم أن تقوم به، وما تتطلبه الروح ستدركه حتمًا، وسينتج عن هذا أنك ستقوم بكل ما هو خيِّر.

-١٠-

حالما تشعر بالشهوة والرغبة الجنسية والخوف والشر، تذكر مَن أنت. تذكر أنك لست جسدًا، بل روحًا، وحينها سيهدأ ما يتأجج بداخلك.

-١١-

كافة بلياتنا بسبب أننا ننسى ما يعيش بداخلنا، وأننا نبيع أرواحنا لقاء حساء عدس[٢١]= المسرات الجسدية.

-١٢-

(حتى ترى النور الحقيقي، عليك أن تصبح أنت نورًا حقيقيًّا).

«أنجيلوس سيليسيوس».

(٢١) يشير تولستوي إلى القصة التوراتية التي تنازل فيها عيسو ليعقوب أخيه عن البركة التي سيمنحه إياه أبوهما إسحق لقاء طبق عدس.

خير الإنسان الحقيقي هو الخير الروحي:

-١-

الروح هي ما تُحيي الإنسان، لا الجسد. إن أدرك الإنسان ذلك، وتأسست حياته على الروح لا الجسد، فسيتحرر مما يقيده بهذه السلسلة الحديدية التي يغلقها قفل قوي.

-٢-

يختبر كل إنسان في نفسه نوعين من الحياة: الجسدية والروحية. ما إن تصل الحياة الجسدية إلى كمالها، حتى يضعف الإنسان تمامًا، ويزداد الضعف أكثر فأكثر، حتى يصل الإنسان إلى الموت. أما الحياة الروحية فعلى النقيض من ذلك، تظل تنمو وتقوى من لحظة الولادة وحتى الموت.

الإنسان الذي يحيا حياة واحدة جسدية سيجد أن حياته كلها محكوم عليها بالموت. أما الذي يحيا من أجل الروح، فسيجد فيها نعمته، ومع كل يوم ستزداد سعادته أكثر فأكثر ولن يرعبه الموت.

* * *

روحٌ واحدةٌ في الجميع

كل المخلوقات الحية منفصلة عن بعضها البعض من ناحية الجسد، ولكن ما يمنحها الحياة هو شيء واحد، وهو فيها جميعًا.

إدراك إلوهية الروح يوحد الناس:

-١-

(كشفت تعاليم المسيح للبشر أن هناك شيئًا واحدًا يحيا بداخلهم جميعًا، وهو الجوهر الروحي، وأنهم جميعًا إخوة، وهذا ما يوحدهم من أجل أن يعيشوا حياة سعيدة).

«لامنيه»[٢٢].

-٢-

كي يحيا الإنسان حياة صالحة، فلا حاجة له أن يعرف من أين أتى، وماذا سوف يحدث لهذا العالم. إنه في حاجة فقط إلى التفكير فيما تريده روحه لا جسده، وكذلك أنت... لست في حاجة إلى أن تعرف من أين أتيت، أو ماذا سوف يحدث لك بعد الموت. لست في حاجة لمعرفة ذلك لأنك سوف تختبر الخير الكامل، ومعه لن تكون في حاجة إلى التساؤل بشأن الماضي أو المستقبل.

---

(٢٢) فليـتيه دي لامنيه، هو أديب وباحث ومفكر وقـيـس وفيلـوف فرنـسي.

-٣-

«عندما خُلِق العالم أصبح التعقل بمثابة أم له، وذلك الذي يدرك أن حياته تتأسس على الروح، فهو بعيد عن كافة المخاطر. عندما يُغلق فمه، وبوابات حواسه جميعها في نهاية الحياة، فإنه لا يختبر أي مصدر للقلق».

«لاو تسو».

-٤-

إن الأرواح الخالدة في حاجة إلى شيء خالد مثلها. وقد أعطيت الروح ما هي في حاجة إليه: إنها الأنا والعالم غير المحدودين والكاملين.

يمكننا أن نقول باختصار إن كل إنسان لديه تلك الروح التي لديَّ. يحيا بداخل كل إنسان ما يحيا بداخلي. إن البشر منفصلون عن بعضهم البعض من ناحية الجسد، لكنَّ أصلًا روحيًا واحدًا يوحدهم جميعًا، وهو ما يمنحهم جميعًا الحياة.

-٥-

إنه خير عظيم أن يتحد الإنسان بالبشر، ولكن كيف يمكنه أن يفعل ذلك؟ هل أتحد مع أسرتي فقط؟ هل أتحد مع أصدقائي، ومع كافة الروس، ومع كافة أشقائي في الإيمان؟ وماذا عن أولئك البشر الذين لا أعرفهم والشعوب الأخرى وأصحاب الإيمان الآخر؟ إن البشر كثيرون جدًّا، وهم جميعًا مختلفون، فكيف يكون الأمر؟

هناك و سيلة واحدة: انسَ الناس، ولا تفكر فيما يوحدك بهم، ولكن فكِّر فيما يوحدك مع ذلك الوجود الروحي الذي يحيا بداخلك وبداخل كافة البشر.

-٦-

عندما تفكر في كل هؤلاء الملايين والملايين من البشر الذين يعيشون مثلك في ذلك العالم، وأولئك الذين يعيشون بعيدًا عنك بعشرات آلاف الأميال[٢٣]، ولا تعرف شيئًا عنهم، ولا يعرفون عنك شيئًا، لا بد أن تسأل نفسك دون قصد: هل يمكن ألا تكون بينهم جميعًا أي روابط من أي نوع، ثم يموتون دون أن يعرفوا بعضهم البعض؟ لا يمكن للأمر أن يكون كذلك؟

وحقًّا لا يمكن للأمر أن يكون كذلك. كذلك ليس غريبًا أن أشعر وأعرف أن ثمة رابطة ما بيني وبين كافة البشر والمخلوقات في العالم، وكذلك الموتى.

لا يمكنني أن أفهم كُنه تلك الرابطة، ولا يمكنني أن أفصح عنها، لكني أعرف أنها موجودة.

-٧-

(قال لي أحدهم إنه بداخل كل إنسان طبيعة خيِّرة وأخوية ومُحبة، وكذلك الكثير مما هو شرير وقاسٍ وعدواني وينضح بالكراهية، ولذلك يمكن أن يبدو الإنسان أحيانًا طيبًا كالملاك، وفي أحيان أخرى شريرًا كالشيطان. وهذا حقيقي تمامًا.

إن الشعور بمعاناة الآخرين قد يستدعي الشفقة في إنسان، والضيق في آخر.

كذلك هو الإنسان الذي يرى معاناة الآخرين، فأحيانًا ما يشفق عليهم، وأحيانًا ما يشعر بنوع من السرور.

وقد لاحظت ذلك في نفسي، فأحيانًا ما أشعر بالشفقة، لا على البشر

(٢٣) وردت في الأصل الروسي: فرست، وهو مقياس روسي للطول يبلغ ١,١ كيلو متر تقريبًا.

وحدهم، بل على كل ما هو حي، وأحيانًا أخرى لا يقتصر الأمر على عدم التأثر بمعاناة الآخرين، بل إني أشعر بنوع من السرور عندما أراها.

ومنشأ ذلك أننا ندرك كل شيء في ضوء آليتين مختلفتين؛ الأولى أننا ندرك انفصالنا عن الآخرين، وحينها لا يمكننا عندما نرى معاناتهم سوى أن نشعر باللا مبالاة والحسد والكراهية والشر. أما الآلية الأخرى فتقوم على إدراك الرابطة التي تربطنا بكافة المخلوقات الأخرى، وأن ندرك أنها مثلنا. تجعلنا تلك الآلية نشعر بالتوحد مع كافة المخلوقات، لذا فإن رأينا مخلوقًا يعاني، نعاني نحن أيضًا معه ونحبه.

الآلية الأولى تفصل بيننا، وتبني بيننا حاجزًا، أما الثانية فتهدم ذلك الحاجز، وتُوحدنا جميعًا. الأولى تعلمنا أن كافة المخلوقات ليست هي «الأنا»، والأخرى تعلمنا أن كافة المخلوقات هي «الأنا» كذلك، وهي التي نتعرف بها عليهم).

«شوبنهاور».

-٨-

كلما يعيش الإنسان من أجل روحه، كلما يجد نفسه أكثر في كافة المخلوقات. عِش من أجل الجسد، وستجد نفسك وحيدًا بين غرباء. عِش من أجل الروح وستجد كل ما حولك قريبًا منك.

-٩-

لا يشبه النهر البِركة، وكذلك البركة لا تُشبه البرميل، ولا يشبه البرميل مغرفةً مليئةً بالماء، ومع ذلك فالماء ذاته في جميعهم. كذلك يختلف البشر عن بعضهم البعض، لكن الروح التي تحيا فيهم جميعًا واحدة.

-١٠-

عندما يفهم الإنسان حياته، حينها فقط سيرى نفسه في كل إنسان آخر.

-١١-

تحدث مع إنسان، وانظرْ مليًّا في عينيه، وستشعر أنك قريب منه، كما لو كنتَ تعرفه من قبل.

ما تفسير ذلك؟ السبب أن مصدر الحياة بداخل كليكما واحد.

-١٢-

في كل إنسان تحيا تلك الروح، وما من شيء في العالم أسمى منها، لذلك فكل إنسان في العالم، سواء كان قيصرًا أو مدانًا... أسقفًا أو فقيرًا... الجميع سواسية، في كل واحدٍ منهم تحيا الروح التي هي أسمى ما في العالم. وإن بجَّلت القيصر أو الأسقف أكثر من الفقير أو المدان، فكأنك تبجل عملة ذهبية أكثر من آخرى؛ لأن الأولى ملفوفة بورقة بيضاء والأخرى بسوداء. لا بد أن نفهم دائمًا أن الروح ذاتها في كل إنسان، لذلك يجب أن نعامل الناس جميعًا بنفس الاحترام والتبجيل.

-١٣-

(من الأمور الرئيسة في تعاليم المسيح أنه أطلق على كافة البشر «إخوة».

لقد كان يرى في الإنسان «أخًا» له؛ لذلك أحب البشر بكافة أنواعهم. لم يكن ينظر إلى ما هو خارجي، ولكن إلى ما هو داخلي. لم يكن ينظر إلى الجسد وإلى ثياب الأغنياء وأسمال الفقراء؛ بل إلى الروح الخالدة. كان ينظر في الإنسان الفاسد الساقط إلى ما يمكن أن يحوله إلى إنسان عظيم تقي، وهي نفس الروح التي جعلته عظيمًا مقدسًا).

«تشانينج».

-١٤-

الأطفال أحكم من البالغين. لا يُخفض الطفل من قدر الناس، ويشعر من كل روحه أن في كل إنسان يحيا ما يحيا بداخله هو أيضًا، وما يحيا في كافة البشر.

-١٥-

إن لم يرَ الإنسان في كل قريب له الروح ذاتها التي توحده بكافة البشر في العالم، فإنه يحيا كما لو كان في حلم. وحده مَن يستيقظ ويعش في الحاضر، هو مَن سيرى في كل قريب له ذاته والله أيضًا.

مصدر روحي واحد للحياة، يعيش لا في كافة البشر فقط، بل في كل ما هو حيّ:

-١-

نشعر في قلوبنا أن جوهر حياتنا هو ما ندعوه «الأنا»، وهو ليس موجودًا فقط في كل إنسان؛ بل حتى في الكلب والجواد والفأر والدجاجة والعصفور والنحل والنباتات.

-٢-

إن قلنا إن الطيور والجياد والكلاب والقرود غريبة عنا تمامًا، فلماذا لا نقول إن الهمجيين والزنوج والأجناس المغولية الصفراء غريبة عنا تمامًا كذلك؟ وإن قلنا إن هؤلاء البشر غرباء عنا تمامًا، فكذلك من حق الزنوج والأجناس المغولية الصفراء أن يعتقدوا أن الجنس الأبيض غريب عنهم تمامًا. مَن هو القريب إذنْ؟ ثمة إجابة واحدة عن ذلك السؤال: لا تسأل مَن القريب، بل عامل كل ما هو حي كما تود أن يعاملك.

-٣-

(كل ما هو حيّ يخشى المعاناة والموت، لذا فيجب عليك أن تدرك نفسك ليس فقط في كل إنسان، بل في كل ما هو حيَ، ولا تقتل ولا تتسبب في المعاناة أو الموت. كل ما هو حيّ يرغب تمامًا فيما ترغب فيه، لذا فعليك أن تدرك ذاتك في كل ما هو حيّ).

"حكمة بوذية".

-٤-

ليس الإنسان أسمى من الحيوانات لأنه يستطيع أن يعذبها؛ بل لأنه يمكنه أن يُشفق عليها. والإنسان يشفق على الحيوانات؛ لأنه يشعر أن ما يحيا فيها هو ما يحيا بداخله.

-٥-

(من الضروري جدًا أن يشعر المرء بالشفقة على كل ما هو حيّ، إن أراد أن يتحرك في طريق الفضيلة. ومَن يشعر بالشفقة، لن يؤذي ولن يسيء، بل سيسامح.

لا يمكن للإنسان الصالح ألَّا يتمتع بالشفقة، وإن كان الإنسان شريرًا جائرًا، فمن المؤكد أنه لا يشعر بالشفقة، فدون الشفقة على كل ما هو حيّ لا يمكن للإنسان أن يصبح صالحًا).

"شوبنهاور".

-٦-

من الممكن أن تمنع نفسك تمامًا عن الشعور البشري بالشفقة على الحيوانات. هذا يظهر جليًا في ممارسة الصيد. أولئك الصالحون الذين تكيفوا مع ممارسة الصيد، يقومون بتعذيب الحيوانات والإساءة إليها، دون

أن يلاحظوا حتى مدى القسوة في فعل ذلك.

-٧-

وصية "لا تقتل"[٢٤] لا تنطبق على الإنسان فقط؛ بل على كل ما هو حيّ. إنها وصية قد كُتِبت على القلب قبل أن تُكتب على الحجر.

-٨-

لا يعتقد البشر أنه من المحرم أن يتناولوا الحيوانات، وذلك لأن المعلمين الكذبة أكدوا لهم على أن الله قد سمح للناس بتناول الحيوانات. هذا غير صحيح. لم يُكتب في أي كتاب أبدًا أن قتل الحيوانات وتناولها ليس خطأً، وما هو مكتوب في قلب كل إنسان أوضح ممَّا هو مكتوب في أي كتاب، وهو أن الإنسان لا بد وأن يشعر بالشفقة على الحيوانات، ومن المستحيل أن يقتلها هي أيضًا كما هو الأمر مع البشر. جميعنا يعلم ذلك، إن لم نخمد أصوات ضمائرنا.

-٩-

لو أن كل مَن يأكل لحوم الحيوانات قام بنفسه بقتلها، لرفض نصف الناس تناول لحوم الحيوانات.

-١٠-

نتعجب من وجود بشر كانوا –ولا يزالون– يقتلون بشرًا آخرين من أجل تناول لحوم أجسادهم. ولكن سيأتي وقت سيتعجب فيه أحفادنا من أن أجدادهم كانوا يقتلون يوميًّا ملايين الحيوانات؛ كي يتناولوا لحومهم، مع أنه كان بإمكانهم تناول طعام شهي وصحي من ناتج الأرض.

---

(٢٤) إحدى الوصايا العشر.

-١١-

من الممكن أن يمنع الإنسان نفسه عن الشعور بالشفقة حتى تجاه بني البشر، ومن الممكن أن يُعوِّد نفسه على الشفقة حتى مع الحشرات.

كلما يزداد الشعور بالشفقة داخل الإنسان، كلما يكون ذلك أفضل بالنسبة لروحه.

-١٢-

بداخلنا جميعًا -نحن البشر- شيء واحد، ونحن نشعر به بقوة. نفس الشيء موجود لدى الحيوانات، لكننا لا نشعر به بقوة. ويقل شعورنا به أكثر في الحشرات. ولكن إن تأملنا في الحياة وفي تلك المخلوقات الصغيرة، فسنشعر بوجود نفس الشيء بداخلها.

-١٣-

ولكن أليس من المستحيل ألا نقتل الذباب والبراغيث؟ ففي كل حركة نقوم بها نقضي على حياة مخلوقات لا نلاحظها بشكل عفوي. هذا ما يُقال عادة، كي تُبرَّر قسوة البشر صوب الحيوانات. ولكن مَن يقولون ذلك يتناسون أنه لم يُعْطِ لإنسان أن يصل إلى الكمال. يحاول الإنسان فقط أن يقترب من الكمال. هكذا هو الأمر أيضًا بالنسبة للشفقة على الحيوانات. نحن لا نستطيع أن نعيش دون أن نتسبب في مقتل مخلوقات أخرى، لكنا يمكننا أن نصبح أقل أو أكثر شفقةً، وكلما نزداد شفقة صوب كافة الحيوانات، كلما يكون الأمر أفضل لأرواحنا.

كلما عاش الناس حياة أفضل، كلما زاد إدراكهم وضوحًا لمصدر الحياة الرباني الوحيد الذي يحيا بداخلهم:

-١-

(إن عشت لأجل نفسك فقط، فأنت في الحقيقة تعيش لجزء وحيد من أناك الحقيقية. إن عشت من أجل الآخرين، فستشعر كما لو أن أناك تتسع. عش من أجل نفسك فقط، وستشعر أنك في وسط أعداء، وستشعر أن خير إنسان آخر يعارض مصالحك. عش من أجل الآخرين، وستشعر أنك وسط أصدقاء، وسيصبح خير كل إنسان هو خيرك أنت).

«شوبنهاور».

-٢-

إن سعادة الإنسان تكمن فقط في خدمة القريب؛ وهذا لأن خدمة القريب تُوحِّد الإنسان مع الروح الإلهية التي تعيش في داخلنا.

-٣-

يبدو للناس أنهم جميعًا منفصلون عن بعضهم البعض. وإن عاش فعلًا كل إنسان حياته بمعزل عن الآخرين، لم استمرت الحياة البشرية. إن الحياة الإنسانية ممكنة لسبب واحد فقط، وهو أن روحًا إلهيةً واحدةً تعيش في البشر جميعًا، وهم يعلمون ذلك.

-٤-

(يعتقد بعض المعاصرين أنهم وحدهم كل شيء، وأن الآخرين لا يمثلون شيئًا على الإطلاق. وكثير من البشر يفكرون كذلك، ولكن هناك أيضًا العاقلون والصالحون من البشر، والذين يدركون أن حياة الآخرين، بل وأيضًا حياة الحيوانات لها نفس الأهمية التي لحياتهم. هؤلاء البشر لا يعيشون داخل

ذواتهم فقط، بل يرون ذواتهم داخل الآخرين والحيوانات أيضًا. يبدو كما لو أن أولئك البشر يعيشون ويموتون في سلام، وعندما يموت البشر، لا يموت سوى ما عاشوا فيه، فإن عاشوا في الآخرين؛ فهذا يعني أنهم باقون. كذلك من يعيش من أجل ذاته وحده، يعيش داخل أطر محدودة جدًّا، ويموت بقسوة شديدة؛ لأنه يعتقد أنه عندما يموت، يموت معه كل شيء).

«شوبنهاور».

-٥-

عليك أن تدرك أنه في كل إنسان تعيش تلك الروح التي تحيا في داخلك، وهذا سبب اتصال روحك بروح كل إنسان في ذلك العالم. يمكننا أن ندرك تمامًا تلك الروح الإلهية التي تعيش في داخلنا فقط عندما نحب القريب.

-٦-

(أي عمل صالح حقيقي يحدث عندما ينسى الإنسان نفسه ويفكر في احتياج نفس أخرى، وسيكون أمرًا مدهشًا وغير مفهوم إن قام الإنسان بهذا الفعل بطريقة طبيعية وكأنه مجرد عادة. لماذا يحرم الإنسان نفسه من أي شيء وينزعج لا من أجل نفسه، ولكن من أجل إنسان لا يعرفه ومن أجل كل هؤلاء البشر في ذلك العالم؟ لا يمكن تفسير ذلك إلا عندما يدرك ذلك الإنسان أن الآخر الذي يقوم بالخير من أجله ليس مخلوقًا منفصلًا عنه، لكنه مماثل له، ولكن في هيئة مختلفة).

«شوبنهاور».

-٧-

كل ما في العالم إما أننا نعرفه بطريقة فقيرة عن طريق حواسنا الخمس؛ أي أننا نرى ونسمع ونلمس الأشياء، أو بما نختبره عندما نعيش حياة تلك

المخلوقات الأخرى. إن أدركنا الأشياء عن طريق حواسنا الخمس فقط، لظل العالم غير مفهومًا إلى الأبد. فكل ما عرفناه عن العالم قد عرفناه فقط بسبب أننا يمكننا أن نشعر بالمخلوقات الأخرى عن طريق الحب ونحيا حياتها. إن الناس منفصلون عن بعضهم من ناحية الجسد، ولا يمكنهم فهم بعضهم البعض، والحب هو ما يوحدهم، وفي هذا خير عظيم.

-٨-

من أين يأتي إلينا هذا الشعور الحسن الذي يراود أرواحنا بعد كل فعل حب؟ هذا يحدث لأن كل فعل حب يؤكد لنا أن «أنانا» الحقيقية ليست داخل ذواتنا فقط، بل في كل ما هو حيّ.

-٩-

إن عشت حياة روحية، فستشعر بالمعاناة الروحية عند كل انفصال مع البشر. ما سبب تلك المعاناة؟ كما أن الألم الجسدي يشير إلى خطورة تهدد الحياة الجسدية، فهكذا الألم الروحي يشير إلى ما يهدد الحياة الروحية للإنسان.

-١٠-

قال حكيم هندي: «ثمة روح واحدة للحياة تحيا بداخلك وبداخلي وبداخل كل المخلوقات، وأنت تغضب مني ولا تحبني. عليك أن تفهم أننا واحد. أيًا كنت فأنا وأنت واحد».

-١١-

مهما كان إنسانًا شريرًا وغير عادل... إنسانًا أحمقًا غير لطيف، فعليك أن تدرك أنك إن توقفت عن احترامه، فأنت بذلك لا تمزق فقط الرابطة التي تربطك به، بل بكل العالم الروحي.

-١٢-

إن أردت أن تعيش في راحة مع كل إنسان، فعليك أن تفكر فيما يوحدك به، لا فيما يفرقك عنه.

-١٣-

تعتقد أنها خطيئة لا يمكن أن تُغتفر أن يتعامل المرء بغير احترام مع الأيقونات والكتب المقدسة والهياكل، لكنك لا تعتقد أنها خطيئة لا يمكن أن تغتفر عندما تفعل الأمر ذاته مع الإنسان، بينما حتى في أكثر البشر فسادًا يحيا ما هو أسمى من البشرية بأكملها. إن كافة الكتب والأيقونات والهياكل هي من صنع الإنسان.

-١٤-

يمكن للإنسان أن يتحمل الحزن عندما لا يكون بسبب البشر، ولكن من المرض أو من الحرائق أو من الفيضان أو من الزلزال، لكن المرء يعاني بشدة عندما يحزن من إنسان آخر... عندما يحزن بسبب أشقائه. إنه يعرف أن الناس يجب أن تحبه، لكنهم يعذبونه بدلًا من ذلك. يفكر في نفسه قائلًا: «الناس.. كل الناس هم أنا، فلماذا يعذبونني؟»، ولهذا يستطيع الإنسان أن يتحمل الحزن بسبب المرض والحرائق والجفاف عن ذلك الحزن الذي يسببه شر إنسان آخر.

نتائج إدراك تلك الروح الواحدة التي في كل البشر:

-١-

(تُرى هل فهمنا أخوتنا الروحية؟ تُرى هل فهمنا أن مصدرًا إلهيًّا واحدًا للحياة في أرواحنا نحن البشر جميعًا كما هو في أرواحنا؟ لا... يبدو أننا لا نزال لم نفهم ذلك، رغم أن هذا الفهم هو الذي يمكنه أن يمنحنا وحده الحرية

والخير الحقيقيين. لا يمكن أن يكون هناك خير أو حرية ما لم يفهم البشر وحدتهم. إن فهم البشر هذه الحقيقة الأساسية للمسيحية؛ ألا وهي وحدة البشر أجمعين عبر جوهر روحي واحد للحياة بداخلهم لتغيرت حياة البشر أجمعين، وتأسست بين البشر تلك العلاقات التي لا يمكننا أن نؤسسها الآن. وحينها سنشعر بصدمة أخلاقية عنيفة من تلك الجرائم الرهيبة التي نرتكبها بالتسبب في تلك الإساءات والأحزان والمظالم للآخرين من أشقائنا البشر دون حتى أن نلحظ ذلك. نعم... نحن في حاجة إلى وحي جديد، لا عن النعيم والجحيم، ولكن عن الروح التي تعيش في داخلنا).

«تشانينج».

-٢-

إن أراد إنسان أن يميز نفسه عن الآخرين بالثروة أو الفخر أو الألقاب، فإنه في حقيقة الأمر لا يرفع نفسه، فهو لن يشعر بالاكتفاء أبدًا، ولا بالهدوء والسرور. ولكن إن أدرك أن بداخله ذلك المصدر الإلهي الذي يعيش بداخل كافة البشر، فحينها سيشعر بالهدوء والسرور اللذين لم يشعر بهما من قبل؛ لأنه سيدرك حينها أن ما بداخله هو أسمى ما في العالم.

-٣-

كلما عاش البشر، كلما ازداد فهمهم لحقيقة أنهم لن يعيشوا حياةً حقيقيةً سعيدةً، إلا إن أدركوا وحدتهم في تلك الروح الواحدة التي تحيا بداخلهم أجمعين.

-٤-

الحب ينتج حبًّا، ولا يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك؛ لأن ما يبعثه الله في قلبك يبعثه في قلب إنسان آخر.

-٥-

من الحسن عند اللقاء بكل إنسان، حتى إن بدا منفرًا وغير لطيف، أن تتذكر أنك لديك إمكانية للتواصل مع ذلك الجوهر الروحي الذي يعيش بداخله وبداخلك وبداخل العالم كله. لذا لا تشعر بالضيق من ذلك التواصل، بل كن شاكرًا لأنك تتمتع بهذه النعمة.

-٦-

(الفرع المفصول عن الغصن قد انفصل عن الشجرة بأكملها. هكذا هو الإنسان المتخاصم مع إنسان آخر... إنه منفصل عن البشرية بأكملها. ولكن الفرع قد فصلته يد غريبة عن الغصن، أما الإنسان فيفصل نفسه عن قريبه بدافع من كراهيته، وهو لا يفكر حينها أنه بذلك يفصل نفسه عن البشرية كلها).

«ماركوس أوريليوس».

-٧-

(ما من فعل شرير لم يعاقب عليه أحد سوى صاحبه فقط. لا يمكننا أن نتحد سويًّا، إلا إن لم ينتقل الشر الذي بداخلنا إلى الآخرين. إن أفعالنا الطيبة والشريرة تشبه أطفالنا... إنها لا تحيا وفق إرادتنا، بل لها حياتها الخاصة).

«جورج إليوت»[(٢٥)].

-٨-

إن جسد الإنسان يريد خيره هو وحده، والبشر يستسلمون لهذا الخداع. وعندما يحيا الإنسان من أجل جسده فقط، لا من أجل روحه، ينفصل عن الناس وعن الله، ولا يحصل على ذلك الخير الذي يبحث عنه.

---

(٢٥) ماري آن إيفانس - Mary Ann Evansx هي روائية إنجليزية، هي أكثر شهرةً باسمها القلمي جورج إليوت، رواياتها تحصل معظم أحداثها في إنجلترا، وهي معروفة بواقعيتها والبعد النفسي فيها.

الله

نحن نعلم أنه بالإضافة إلى كل ما هو مادي في الإنسان وفي العالم كله، هناك ما هو غير مادي، وهو ما يمنح الحياة لجسدنا ويرتبط به. إنه كيان غير مادي يرتبط بجسدنا ندعوه «الروح». وهناك ما هو غير مادي ولا يرتبط بشيء ويمنح كل شيء الحياة ونطلق عليه «الله».

مكتبة
t.me/soramnqraa

يدرك الإنسان الله في داخله:

-١-

كل إيمان يتأسس على الآتي: بالإضافة إلى ما نراه ونشعر به في أجسادنا وأجساد الآخرين هناك ما هو غير مرئي. هناك كيان غير مادي، وهو ما يمنحنا الحياة، وكذلك يمنحها لكل ما هو مرئي ومادي.

-٢-

(أعرف أني لم أكن لأوجد من دونه... وإني أطلق عليه «الله»).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٣-

يمكن لكل إنسان يفكر في ماهيته أن يدرك أنه ليس كل شيء، بل هو مجرد جزء من الكل. وما إن يفهم ذلك حتى يألف الإنسان فكرة وجود عالم خارجي بالإضافة إلى وجوده: هذه الأرض التي يعيش عليها، والتي عاش عليها أسلافه، وهذه السماء وتلك النجوم والشمس وكل ما يراه.

ولكن ما إن يفكر الإنسان في ذلك بشكل أعمق، أو ما إن يعرف ما فكَّر فيه حكماء العالم، حتى يدرك الآتي: صحيح أن الناس يشعرون أنهم منفصلون بعضهم عن بعض، ولكن هناك ذلك العالم الخارجي الذي يمتد دون حدود مكانية ولا زمانية... هناك شيء آخر. إن أمعن الإنسان الفكر في ذلك وعرف ما فكَّر فيه حكماء العالم، فسيدرك أن هذا العالم الخارجي الذي لم يبدأ في زمانٍ ما، ولن ينتهي في زمانٍ ما، والذي ليس له حدود، ولا يمكن أن تكون له حدود غير موجود في حقيقة الأمر، بل هو مجرد حلم، وهناك ما نشعر أننا منفصلون عنه، وهناك شيء ما ليس له بداية ولا نهاية في الزمان والمكان، لكنه جوهر روحي غير مادي.

هذا هو ما يدعوه الإنسان جوهر حياته، وهو ما أطلق عليه كافة حكماء العالم «الله».

-٤-

لا يمكن التعرف على الله سوى بداخل الإنسان. إن لم يجده الإنسان بداخله، فلن يجده أبدًا في أي مكان.

-٥-

لا تبحث عن الله في المعابد أو الهياكل. إنه قريب منك. إنه بداخلك. إنه يحيا فيك. سلِّم نفسك له، وستسمو فوق مستوى السعادة والتعاسة.

-٦-

أدرك بداخلي كيانًا روحيًّا منفصلًا عن كل شيء. كما أني أدرك كيانًا روحيًّا موجودًا في أناس آخرين، فإن كنت أدركه بداخلي وأدركه بداخل مخلوقات أخرى، فهذا لا يعني أنه ليس له وجود في ذاته. نحن نطلق على هذا الكيان الذي له وجود في ذاته «الله».

-٧-

(لست أنت مَن يعيش بداخلك... ليست أناك التي تموت، لكنه الله مَن يحيا بداخلك).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٨-

(لا تعتقد أنك تسترضي الله بأفعالك، فهي جميعًا سواء أمامه. لست في حاجة إلى استرضائه؛ بل إلى الاتحاد به).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٩-

إن لم نكن قد رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا ولمسنا بأيدينا، لما كنا عرفنا شيئًا عما يحيط بنا. وإن لم ندرك الله بداخلنا، لما عرفنا شيئًا عن أنفسنا، ولم نكن لنعرف في أنفسنا ذلك الشخص الذي يرى ويسمع ويلمس العالم مَن حوله.

-١٠-

(مَن لا يستطيع أن يصبح ابنًا لله، سيظل إلى الأبد في الحظيرة مع البهائم).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١١-

إن عشت حياة دنيوية، يمكنني أن أتدبر أمري من دون الله. لكني سأظل أفكر من أين جئت، ومتى ولدت وإلى أين سأمضي بعد أن أموت، ومتى سأموت، ولن يمكنني إدراك ذاك الكيان الذي جئت منه، والذي سوف أمضي إليه. لن يمكنني أن أعترف أني جئت إلى هذا العالم من شيء ما غير مفهوم، وأني سوف أمضي إليه. هذا الكيان غير المفهوم الذي جئت منه هو ما أطلق عليه «الله».

-١٢-

(كلما خرجتَ من أناك، كلما دخل الله إلى قلبك).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١٣-

يقولون إن الله محبة، أو إن المحبة هي الله. يقولون أيضًا إن الله عقل، أو إن العقل هو الله. كل هذا غير دقيق، فالحب والتعقل هما من صفات الله، والتي نتعرف عليها بداخلنا، ولكن جوهر الله ذاته لا يمكننا أن ندركه أبدًا.

-١٤-

(أمر حسن أن تخاف الله، ولكن الأفضل أن تحبه. الأفضل من كل ذلك أن تجعله حيًّا في داخلك).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١٥-

الإنسان في حاجة إلى الحب، والحب الحقيقي قد يكون موجهًا فقط إلى ما لا عيب فيه، ووحده الله مَن لا عيب فيه.

-١٦-

(إن لم يكن الله يحب ذاته بداخلك، لم تكن لتتمكن من أن تحب نفسك، ولا كنت قد أحببت الله أو القريب).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١٧-

إن كان الناس يقولون أحيانًا أمورًا مختلفة عن ماهية الله، إلا أن جميع مَن

يؤمنون بالله بإخلاص يفهمون دائمًا ما يريده الله منهم بالطريقة ذاتها.

-١٨-

(إن الله يحب الخصوصية. إنه لا يدخل إلى قلبك إلا عندما يجد نفسه وحيدًا فيه، وعندما لا تفكر في شيء سواه).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١٩-

سمعت مرة تلك الحكاية العربية: يُحكى أنه بينما كان موسى يتجول في الصحراء، سمع راعيًا يصلي إلى الله. كان راعي الغنم يصلي كالآتي: «يا سيدي... يا مَن جبلتني وجعلتني عبدًا لك. إني أرغب بكل سرور لو أخلع عنك نعليك وأغسل قدميك وأقبلهما، وأصفف لك شعرك، وأغسل ثيابك وأرتب لك مهجعك وأقدم لك اللبن من غنمي. إني أرغب فيك بكل قلبي!». وما إن سمع موسى هذه الكلمات، حتى غضب على الراعي، وقال له: «أنت تجدف على الله، فالله ليس له جسد، وليس في حاجة إلى الثياب والمهجع ولا إلى الخدمة. لقد تحدثت بالشر». واغتم الراعي. لم يكن يستطيع أن يتصور الله دون جسد واحتياجات جسدية، ولم يستطع أن يصلي ثانية ويتعبد لله، وأصاب اليأس قلبه. حينها قال الله لموسى: «لمَ تُبعد عني عبدي الصالح؟ لكل إنسان أفكاره وطريقة صلاته. ما يراه واحد غير حسن، قد يكون حسنًا لآخر، وما تراه مرًّا كالسم، قد يبدو حلوًا كالعسل لآخر. الكلمات لا تعني شيئًا. إني أرى قلب مَن يتوجه إليَّ».

-٢٠-

يقول البشر عن الله أمورًا مختلفة، لكن ما يشعرون به ويدركونه أمرٌ واحدٌ.

-٢١-

(من المستحيل ألا يؤمن الإنسان بالله، كما أنه من المستحيل ألا يسير على قدمين، ولكن ذلك الإيمان قد يتغير بين الناس، ومن الممكن أن يموت تمامًا، ولكن دونه لا يمكن للإنسان أن يدرك ذاته).

«ليشتنبرج»[٢٦].

-٢٢-

إن كان الإنسان لا يعرف أنه يتنفس الهواء، فإنه عندما يشعر بالاختناق، يدرك أن شيئًا غائبًا عنه، ومن دونه لا يمكن له أن يعيش. هكذا الأمر عندما يفقد الإنسان إيمانه بالله، وهو لا يدرك سبب معاناته.

لا يمكن للإنسان العاقل ألَّا يتعرف على الله :

-١-

يقول الناس إن الله يعيش في السماوات، ويقولون أحيانًا إنه يحيا داخل الإنسان، ولكن الحقيقة مختلفة. إنه في السماء، بمعنى أنه في العالم غير المحدود، وهو كذلك في روح الإنسان. وهكذا فالله هو جوهر الحياة التي يدركها الإنسان في داخله وفي العالم كله، في صورة الرغبة في الخير وإدراك ذاته.

-٢-

عندما يدرك الإنسان -وهو في ذلك الجسد المنفصل- وجوده الروحي الذي لا يتجزأ -أي الله-، وعندما يرى هذا الوجود -الله- في كل ما هو حيّ، يسأل الإنسان نفسه لماذا يتجلى الله -هذا الكيان الروحي الواحد الذي

(٢٦) كاتب ألماني وناقد فني ١٧٤٢- ١٧٩٩.

لا يتجزأ- في أجساد منفصلة لمخلوقاته، مثلي ومثل بقية المخلوقات؟ لماذا يُجزِّئُ هذا الكيان الروحي الواحد نفسه؟ لماذا يصبح الروحي الذي لا يتجزأ ماديًّا ومجزئًا؟ لماذا يربط الخالد نفسه بالفاني؟

ولا يمكن لأحد أن يجيب عن هذه الأسئلة إلا ذلك الإنسان الذي ينفذ إرادة مَن أرسله إلى هذه الحياة. يقول هذا الإنسان: «لقد صُنع كل هذا لخيري. وإني أشكره على ذلك، ولا أسأله شيئًا».

-٣-

ذاك مَن ندعوه «الله» نراه في السماء وفي كل إنسان. تأمل السماء في ليلة شتوية، وانظر في النجوم، نجمًا خلف نجم، ولا نهاية لها. وحينها فكِّر في أن هذه النجوم أكبر بأضعاف المرات من الأرض التي نعيش عليها، وأنه من خلف تلك النجوم التي نراها هناك الآلاف ومئات الآلاف، بل والملايين من نجوم مثلها، بل وأضخم منها، وأنه لا نهاية للسماء، وحينها ستدرك أننا لا يمكننا أن ندرك ما هو موجود.

وعندما نتأمل أرواحنا التي بداخلنا -تلك التي ندعوها أنفسنا-، وعندما نرى فيها ما لا يمكننا أن ندركه، لكننا نعرفها أكثر من أي شيء آخر، وندرك كل ما هو موجود عبرها، فهذا يعني أننا ندرك في أرواحنا شيئًا أكثر عظمة وغموضًا مما نراه في السماوات.

ذلك الذي نراه في السماوات، وندركه في داخلنا، في أرواحنا... ذلك هو ما ندعوه «الله».

-٤-

في كل زمان، ولدى كل الشعوب، كان هذا الإيمان الذي يقول إن هناك قوة ما غير مرئية تحكم هذا العالم.

-٥-

(أطلق القدماء على هذه القوة: العقل الكلي- الحياة- الأبدية، وأطلق عليها المسيحيون: الروح- الآب- السيد- العقل- الحقيقة. والعالم المتبدل المنظور بمثابة ظل لهذه القوة. وكما أن الله أبدي، فكذلك ظله أبدي، لكنه مجرد ظل، أما الوجود الحقيقي فهو للقوة غير المنظورة فقط: الله).

«سكوفورودا».

-٦-

(هناك كيان، من دونه لم يكن للسماء والأرض أن يوجدا. إنه كيان هادئ غير مادي، سماته الحب والتعقل، لكنه ليس له اسم في ذاته... إنه أكثر أنواع الوجود بعدًا وقربًا في الآن ذاته).

«لاو تسو».

-٧-

سألوا أحد الناس: «لماذا أنت متيقن من وجود الله؟»، وقد أجابهم قائلًا: «وهل أنا في حاجة إلى شمعة كي أرى شروق الشمس؟!».

-٨-

(إن اعتبر إنسان شيئًا ما عظيمًا، فهذا يعني أنه لا ينظر إلى الأشياء من علو الله(.

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٩-

من الممكن ألا نفكر في ماهية هذا العالم غير المحدود، وفي ماهية الروح التي تدرك نفسها، ولكن إن فكرنا في ذلك، فمن المستحيل ألا نتعرف على ما ندعوه «الله».

-١٠-

وُلدت إحدى الفتيات في أمريكا عمياء بكماء صماء. علموها القراءة والكتابة باللمس، وعندما حدثتها معلمتها عن وجود الله، قالت الفتاة إنها كانت تعرف ذلك دائمًا، لكنها لم تكن تعرف ماذا تدعوه.

إرادة الله :

-١-

نحنِ لا نعرف الله بالعقل فقط، فبالإضافة إلى ذلك نشعر بسلطانه، مثلما يشعر الطفل الرضيع بين أيدي أمه.

-٢-

لا يعرف الطفل مَن يعتني به ويدفئه ويطعمه، لكنه يعرف جيدًا أن هناك شخصًا ما يقوم بذلك، وليس ذلك فقط، بل إنه يحب هذا الشخص الذي أوجده بإرادته. هكذا هو أمر الإنسان مع الله.

-٣-

كلما نفذ الإنسان إرادة الله، كلما ازدادت معرفته به. إن لم ينفذ الإنسان إرادة الله تمامًا، فإنه لا يعرفه تمامًا، حتى وإن قال إنه يعرفه، وأخذ يصلِّي له.

-٤-

كما أنه لا يمكن التعرف على شيء إلا بالاقتراب منه، فكذلك لا يمكن للإنسان أن يعرف الله إلا عندما يقترب منه، ولا يمكن التقرب لله إلا بالأعمال الصالحة. وكلما عوَّد الإنسان ذاته على الحياة الصالحة، كلما ازدادت معرفته بالله عن كثب. وكلما ازدادت معرفته بالله، كلما ازداد حبه للناس، فالأمر هكذا... كل خطوة تساعد على الوصول إلى الأخرى.

-٥-

لا يمكننا أن ندرك الله، لكن يمكننا أن ندرك قانونه وإرادته كما بيَّنت الأناجيل. وعندما نعرف قانونه فيمكننا أن نستنتج أن هناك مَن صنع هذا القانون، لكننا لا يمكننا أن ندرك كُنهه. نحن نعرف عن حق أننا يجب أن ننفذ قانون الله في الحياة، وأن هذا القانون سيجعل حياتنا أفضل.

-٦-

لا يمكن للإنسان ألَّا يشعر أن شيئًا ما يحدث من خلال حياته، وأنه صنيعة آخر، وإن كان صنيعة آخر، فهذا يعني أن هناك مَن يعمل من خلاله. إنه الله.

-٧-

من المدهش جدًّا كيف أمكنني ألا أدرك من قبل تلك الحقيقة البسيطة، وهي أنه خلف هذا العالم هناك شخص ما، شيء ما، يدرك لماذا قد وُجِد هذا العالم، ولماذا نحن فيه، كالفقاعات في المياه المغلية تندفع وتتلاشى.

نعم... هناك عمل ما يُصنع من خلال هذا العالم؛ يُصنع عبر كافة المخلوقات الحية، وعبري وعبر حياتي. وإلا فلماذا هذه الشمس وهذا الربيع وهذا الشتاء؟ ولماذا كل هذه المعاناة والولادة والموت والجرائم، ولماذا كل هذه المخلوقات المنفصلة التي -كما هو واضح- ليست لديها فكرة عني، ومع ذلك تعيش في كامل قوتها، وتحفظ حياتها؟ إنها مخلوقات تنشد الحياة بكل ما لديها من قوة. إن حياة هذه المخلوقات تزيد من قناعتي أكثر من أي شيء آخر أنها لازمة لهدف ما ولكيان عاقل صالح، لكني لا يمكنني الإحاطة به.

-٨-

إن أنايا الروحية لا ترتبط بجسدي... لقد أصبحت في جسدي، لكن ليس بإرادتها، بل بإرادة أعلى منها. إنها إرادة مَن ندعوه «الله».

-٩-

(من المستحيل أن تُبجِّل الله وتعظمه حق قدره. كل يمكنك أن تفعله هو أن تخدمه في صمت).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-١٠-

(طالما أن الإنسان يتغنى صارخًا: «آآه يا سيد... آآه يا سيد!»، فاعلم أنه لم يجد السيد. ذاك لأن مَن يجده، يصمت).

«راما كريشنا».

-١١-

إن كنت لا تشعر بالله في الأوقات الصعبة، وتشك فيه، فهناك وسيلة واحدة صحيحة للخلاص من ذلك: توقف عن التفكير في الله، وفكِّر فقط في قانونه وتنفيذه، وأحب الجميع، وحينها سيتلاشى الشك، وستجد الله مجددًا.

لا يمكن الإحاطة بالله كاملًا بالعقل:

-١-

من الممكن أن تشعر بالله في داخلك. ليس من الصعب أن يحدث ذلك. ولكن أن تدرك ماهية الله، فهذا غير ممكن وغير ضروري أيضًا.

-٢-

(من المستحيل أن يدرك الإنسان ماهية الله بالعقل وكذلك ماهية الروح، كما أنه من المستحيل أيضًا أن يعتقد الإنسان أن الله ليس موجودًا، وأنه ما من روح).

«باسكال»[٢٧].

(٢٧) فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي، اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات، وهو مَن اخترع الآلة الحاسبة.

-٣-

لماذا أنا منفصل عن كل ما هو موجود؟ ولماذا أعرف بوجود كل ما أنا منفصل عنه؟ ولماذا لا يمكنني أن أفهم ماهية كل هذه الموجودات؟ ولماذا لا تكف أنايا عن التغير؟ لا يمكنني أن أفهم شيئًا من كل ذلك. لكني لا يمكنني إلا أن أعتقد أن هناك فكرة وهدفًا خلف كل ذلك، ولا يمكنني إلا أن أعتقد أن هناك وجودًا ما يفهم كل ذلك ويدرك سبب كل ما سبق.

-٤-

يمكن للجميع أن يشعروا بالله، ولكن لا يمكن لأحد أن يدرك ماهيته. لذا لا تحاول أن تفعل ذلك، بل حاول أن تنفذ إرادته، وستشعر به بداخلك بشكل أقوى.

-٥-

(إن مَن نعتقد أنه الله، ليس هو الله في الحقيقة. فالله الذي نعرفه قد أصبح محدودًا مثلنا. من المستحيل أن ندرك كُنه الله. سيظل غير مُدرَكٍ إلى الأبد).

«فيفي كاناندا»(٢٨).

-٦-

(إن عمت عيناك عن الشمس، فلا تقل إنه ما من شمس. لا تقل إن الله غير موجود؛ لأن عقلك قد ضلَّ وتعثر عندما حاول أن يدرك أصل وسبب كل شيء).

«أنجيلوس سيليسيوس».

(٢٨) ١٨٦٣ - ١٩٠٢ كان تلميذًا عند الرئيس راماكريشنا، ولقد ساهم مساهمة كبيرة في إدخال ثقافة اليوغا إلى العالم الغربي، كما ساهم في تحديث الديانة الهندوسية في الهند الحديثة.

-٧-

(قال الله لموسى.: لماذا تسأل عن اسمي؟ إن عرفت مَن كان موجودًا دائمًا خلف كل ما يتحرك فستعرفني. إن اسمي كجوهري: أنا الكائن! أنا الوجود. مَن يريد أن يعرف اسمي فلن يعرفني).

سكوفورودا». »

-٨-

(يمكن للعقل أن يدرك، لكنه لا يمكن أن يدرك العقل الأبدي. ويمكن أن نطلق اسمًا على الموجودات، لكننا لا يمكن أن نطلق اسمًا على الوجود الأعلى).

"لاو تسو".

-٩-

الله بالنسبة لي هو مَن أسعى إليه، ويتألف معنى حياتي عبر هذا السعي، وهو سبب وجودي، ولا يمكنني أن أدركه أو أطلق عليه اسمًا. إن أدركته لكنت قد وصلت إليه، ولما كان هناك سعي إليه، ولم تكن الحياة لتوجد من الأساس. لكني لا أستطيع أن أدركه أو أسميه، وبدلًا من ذلك فإني أعرفه وأعرف الطريق إليه، بل وإن ذلك يعتبر بالنسبة لي أكثر معارفي يقينية.

-١٠-

من الغريب أني لا أعرفه، لكني في الوقت ذاته أشعر دائمًا بالخوف عندما أفارقه، ولا أطمئن إلا عندما أكون في قربه. من الغريب أيضًا أنه من غير الضروري لي أن أعرفه بصورة أفضل وأكبر من معرفتي له الآن في هذه الحياة. يمكنني أن أتقرب إليه، وفي هذا معنى حياتي، لكن هذا الاقتراب لا يزداد أبدًا، ولا يمكنه أن يُزيد من معرفتي به. كل محاولة أتصور فيها أني

أدركه -مثل أن أتصور مثلًا أنه الخالق أو أنه رحيم أو ما إلى ذلك- تبعدني عنه وتحول دون تقربي منه. حتى الضمير "هو" الذي نطلقه على الله يحول بيني وبين معرفته بأي طريقة ممكنة. إنها كلمة تقلل من شأنه.

-١١-

(كل ما يمكن قوله عن الله لا يشبهه إطلاقًا. من المستحيل أن تُعبِّر الكلمات عن الله).

"أنجيلوس سيليسيوس".

عن الكفر بالله:

-١-

(يبحث الإنسان العاقل داخل نفسه عن مفهوم روحه والروح المطلقة؛ أي الله، وعندما يدرك أنه ما من وسيلة تُمكِّنه أن يصل إلى إدراك هذه المفاهيم بشكل جلي تمامًا، يتوقف أمامها بإذعان دون أن يلمس هذا الحجاب الذي يحجبها عنا.

ولكن كان هناك دومًا أناس من ذوي العقول النقية، وقد اكتسبوا معرفة حقيقية حاولوا بها أن يُعبروا بالكلمات عن مفهوم الله. إني لا أدينهم، لكنهم ليسوا على حق عندما يقولون إن الله غير موجود. إني أعترف أنه من الممكن أن يخطر على البال أن بعض المحتالين الخطرين من الناس يمكنهم أن يقنعوا الناس أن الله غير موجود، ولكن هذا الإنكار لا يمكن له أن يستمر. فبطريقة أو بأخرى سوف يظل الإنسان في حاجة إلى الله. إن كانت الإلوهية قد أعلنت عن نفسها بشكل أكثر جلاءً، فإني على يقين أن هؤلاء الملحدين كانوا سيبحثون عن طرق آخرى لنفي وجود الله. إن العقل يخضع دائمًا لما يريده القلب).

«روسو».

-٢-

يرى لاو تسو أن الكفر بالله يشبه تمامًا أن تعتقد بأنك عندما تحرك مروحة اليد يأتي التيار من المروحة لا من الهواء، وأن المروحة يمكنها دائمًا أن تنتج ذلك التيار، حتى إن لم يكن هناك هواء.

-٣-

عندما يقول الناس الذين يحيون حياة شريرة إن الله غير موجود، فهم على حق. الله موجود فقط لأولئك الذين ينظرون صوبه ويقتربون منه. أما الذين يشيحون بأوجههم بعيدًا عنه ويبتعدون عنه، فالله غير موجود، ولا يمكن أن يكون موجودًا.

-٤-

(هناك نوعان من البشر يعرفون الله: أصحاب القلوب المتواضعة سواء كانوا أذكياء أو لا، وأصحاب العقول الحصيفة فعلًا. أما المتكبرون وأصحاب العقول الوضيعة فلا يعرفون الله).

«باسكال».

-٥-

من الممكن ألا نطلق على الله اسمًا، وألا نقول هذه الكلمة، ولكن من المستحيل ألا نعرفه.

-٦-

مَن ينكر الله هو وحده مَن لا يبحث عنه. ابحث عنه، وسيتجلَّ لك.

-٧-

قال موسى لله: «أين أجدك يا سيدي؟»، وأجاب الله: «لقد وجدتني فعلًا عندما بحثت عني».

-٨-

إن تبادر إلى ذهنك أن كل ما اعتقدته عن الله غير حقيقي، وأن الله غير موجود، فلا تخفْ... لقد حدث ذلك مع كل الناس. ولكن لا تعتقد أنك إن توقفت عن الإيمان بالله، فإن هذا بسبب أنه غير موجود. إن كنت لا تؤمن بالله الذي آمنت به سابقًا، فهذا بسبب أن ثمَّ شيئًا خاطئًا في إيمانك. إن توقف الإنسان البدائي عن الإيمان بإلهه الخشبي، فهذا لا يعني أن الله غير موجود، ولكن ذلك يعني أن الله غير خشبي. لا يمكننا أن نفهم كُنه الله، ولكن يمكن أن تزداد معرفتنا به أكثر فأكثر. لذا فإن ملنا إلى مفهوم بليد عن الله، فهذا أمر صالح لنا. هذا يحدث من أجل أن نكتسب مفهومًا أفضل وأسمى عن ذلك الكيان الذي نطلق عليه «الله».

-٩-

تريدني أن أبرهن على وجود الله! ربما ما من فكرة أغبى من هذه الفكرة. إنها تشبه أن أبرهن على حياتي! أبرهن لـمَن؟ وكيف ولماذا؟ إن لم يكن الله موجودًا، فما من شيء موجود. كيف أبرهن على وجوده؟

-١٠-

الله موجود. لسنا في حاجة لأن نبرهن على ذلك. البرهنة على وجود الله، والتجديف عليه وإنكاره... كل هذا مجرد جنون وخبل. إن الله يحيا في ضمائرنا، وفي وعي كل إنسان، وفي الكون المحيط بنا. تحت قبة السماء المرصعة بالنجوم وعند توابيت الموتى وأمام فرحة الشهيد بإعدامه. لا يمكن

سوى لشخص بائس جدًّا أو فاسد للغاية أن ينكر وجود الله.

أن تحب الله:

«إني لا أفهم ماذا يعني أن نقول إننا نحب الله. أيمكن أن نحب كيانًا غامضًا مجهولًا؟ يمكننا أن نحب القريب... هذا مفهوم وواضح، ولكن أن نحب الله فهي مجرد كلمات لا معنى لها». هكذا يقول ويعتقد الكثيرون، لكنهم يخطئون بشدة عندما لا يفهمون أن محبة القريب ليست أمرًا مريحًا ومفيدًا لنا، خاصة عندما يكون البشر جميعهم سواء لنا، مع أننا قد نلتقي بأكثر الناس بغضًا وعداوةً. لا يمكن لأحد أن يحب القريب إلا ذاك الذي يحب الله... الله الواحد الموجود في جميع البشر. لذلك فما هو غير مفهوم ليس حب الله، بل حب الجار دون حب الله.

* * *

الحب

الروح البشرية مفصولة عن الله بالجسد، وكذلك عن أرواح المخلوقات الأخرى، وهي تسعى إلى الاتحاد بما قد انفصلت عنه. وكلما تعي النفس الله الذي في داخلها أكثر فأكثر، تتحد به، وبممارسة هذا الحب تتحد كذلك بأرواح المخلوقات الأخرى.

الحب يُوحِّد الناس بالله وبالمخلوقات الأخرى:

-١-

(تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ) هكذا قال الناموسي الفريسي[٢٩] للمسيح، وقد قال له المسيح: (بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. اِفْعَلْ هذَا، فَتَحْيَا).

-٢-

(كم أنتم بائسون دنيويون! تحملون المحن والمصائب فوق رؤوسكم، وتجدونها أسفل أقدامكم، وعلى اليمين وعلى اليسار، بينما أنتم لغز بالنسبة لأنفسكم. وهذه الألغاز ستظل أمامكم إلى الأبد بلا حل، إن لم تعودوا بسطاء ومحبين كالأطفال. ولكنك فقط عندما تدركني ستدرك نفسك، وحينها فقط

(٢٩) ناموسي: أي خبير في أمور الناموس، أي الكتب اليهودية المقدسة، والفريسيون هم حزب سياسي ديني برز خلال القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين؛ يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية، ويشير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين؛ كان الفريسيون يتبعون مذهبًا دينيًّا متشددًا في الحفاظ على شريعة موسى والسنن الشفهية التي استنبطوها.

ستسيطر على نفسك. وعندما تنظر فقط إلى العالم من منظار روحك، سيبدو كل شيء لك خيِّرًا... في العالم وفي نفسك).

«من التعاليم البوذية».

-٣-

يمكنك فقط أن تحب الكمال، وكي تحب يلزمك أمر من اثنين: إما أن تعتبر غير الكامل كاملًا، أو أن تحب الكمال؛ أي الله. إن اعتبرت غير الكامل كاملًا، فسيتبين لك خطؤك آجلًا أو عاجلًا، وسينتهي الحب. أما حب الله؛ حب الكمال، فلا يمكن أن ينتهي.

-٤-

(اَللهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ، يَثْبُتْ فِي اللهِ وَاللهُ فِيهِ.

اَللهُ لَمْ يَنْظُرْهُ أَحَدٌ قَطُّ. إِنْ أَحَبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، فَاللهُ يَثْبُتُ فِينَا، وَمَحَبَّتُهُ قَدْ تَكَمَّلَتْ فِينَا.

إِنْ قَالَ أَحَدٌ: «إِنِّي أُحِبُّ اللهَ» وَأَبْغَضَ أَخَاهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ. لأَنَّ مَنْ لاَ يُحِبُّ أَخَاهُ الَّذِي أَبْصَرَهُ، كَيْفَ يَقْدِرُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ الَّذِي لَمْ يُبْصِرْهُ؟

أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا؛ لأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ. وَمَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ، لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ)(٣٠).

«رسالة يوحنا الأولى - إصحاح ٤».

-٥-

لا يمكن للناس أن يتحدوا إلا في الله. وكي يتحد الناس ليس لزامًا عليهم أن يمضوا للقاء بعضهم البعض، بل عليهم أن يسيروا صوب الله. إن كان هناك

(٣٠) آيات متفرقة دون ترتيب من الإصحاح الرابع من رسالة يوحنا الأولى.

هيكل ضخم حيث يخترقه الضوء من أعلى في منتصفه، فكي يتحد الناس في ذلك الهيكل فعليهم أن يسيروا صوب الضوء في منتصف الهيكل. كذلك هو الأمر في العالم... على الناس أن تسير صوب الله، وحينها سيتحدون جميعًا.

-٦-

(أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا؛ لأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ، فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ. وَمَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ؛ لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ)(٣١).

هكذا قال يوحنا الرسول.

قد يبدو حب الناس أجمعين أمرًا صعبًا، ولكن هكذا تبدو كل الأمور التي لم نتعلمها. يدرس الناس كل شيء: الحياكة، والرسم، والحرث، والحصاد، والقراءة، والكتابة. علينا أيضًا أن نتعلم كيف نحب كل الناس. وليس من الصعب على المرء أن يتعلم ذلك؛ لأن محبة الناس لبعضهم البعض موجودة في قلوبهم. «اَللهُ لَمْ يَنْظُرْهُ أَحَدٌ قَطُّ. إِنْ أَحَبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، فَاللهُ يَثْبُتُ فِينَا»(٣٢).

وإن تكملت محبة الله بداخلنا، فلن يجد الإنسان أن تعلم محبة الآخرين أمر صعب. علينا فقط أن نحاول أن نتخلص من كل ما يعوق الحب وما يحول دون تحرره. وحينما نبدأ في فعل ذلك، ستتعلم أكثر العلوم أهمية وضرورة لنا: محبة الناس.

-٧-

لا يوجد ما يبعث فينا السرور أكثر من أن نعلم أن الناس يحبوننا. وليس من

---

(٣١) رسالة يوحنا الأولى ٤: ٧-٨.

(٣٢) رسالة يوحنا الأولى ٤: ١٢.

الغريب أنه كي يحبنا الناس ليس علينا أن نقوم بإرضائهم، بل أن نقترب فقط من الله. اقترب فقط من الله ولا تفكر في الناس، وستجد الناس يحبونك.

-٨-

لا تطلب من الله أن يتحد بك. إنه متحد بك بالفعل، فقد وضع روحه الواحدة داخل الجميع. عليك أن تزيل من نفسك فقط ما يفرقك عنه، وحينها ستتحد به.

-٩-

يبدو للإنسان أنه هو مَن يرغب في الخير لنفسه. ولكن هذا ما يبدو، فالله الذي يعيش داخل الإنسان هو مَن يريد الخير له. الله يريد الخير للجميع.

-١٠-

مَن يقول إنه يحب الله ولا يحب القريب، يخدع الناس. ومَن يقول إنه يحب القريب ولا يحب الله، يخدع نفسه.

-١١-

يُقال إن علينا أن نخاف الله. هذا غير صحيح. علينا أن نحب الله، لا أن نخاف منه. من المستحيل أن تحب مَن تخافه. بالإضافة إلى ذلك من المستحيل أن تخاف الله؛ لأن الله محبة. كيف يمكن أن تخاف من المحبة؟ عليك ألا تخاف من الله، بل أن تدركه في نفسك. وإن أدركت الله في داخلك فلن تخاف من شيء في العالم.

-١٢-

يُقال إنه في اليوم الأخير ستقام محكمة عامة، وإن الله الصالح سوف يغضب. ولكن لا شيء كهذا يمكن أن يحدث من الله الصالح. ومهما كانت المعتقدات في العالم، فثمَّ إيمان وحيد صحيح، وهو أن الله محبة. ولا يمكن

أن ينتج الحب إلا كل ما هو صالح.

(لا تخف، فلا يمكن أن يحدث في الحياة أو ما بعدها سوى كل ما هو صالح).

«حكمة فارسية».

-١٣-

الحياة مع الله تعني أن نشبه الله. وكي نشبه الله علينا ألَّا نخاف شيئًا وألَّا نرغب في شيء. وكي نفعل ذلك، علينا فقط أن نحب.

-١٤-

(يقول أحدهم: «ادخلْ إلى ذاتك، وستجد الهدوء بداخلها». وهذه ليست الحقيقة كاملة. على النقيض من ذلك يقول آخرون: «اخرجْ من ذاتك، وحاول أن تنسى نفسك، وستجد السعادة والرضى». هذا أيضًا غير حقيقي. وليس من الصحيح أيضًا أنه يمكننا أن نتخلص من المعاناة بالملذات. إن الهدوء والسعادة ليست في داخلنا ولا بخارجنا... إنها في الله، والله بداخلنا وبخارجنا. أحب الله، وستجد فيه ما تبحث عنه).

«باسكال».

كما يحتاج الجسد إلى الطعام ويعاني في غيابه، هكذا تحتاج الروح إلى الحب وتعاني من دونه:

-١-

كل الأشياء تنجذب نحو الأرض وتنجذب نحو بعضها البعض. هكذا الأمر أيضًا مع الأرواح تنجذب جميعها صوب الله وصوب بعضها البعض.

-٢-

الناس لا يحيون بالتفكير في أنفسهم، بل بحب الناس. ولذلك لا يحيون منفصلين عن بعضهم البعض، بل سويًا. ولم يكشف لهم الله أن كل إنسان لازم لنفسه، بل إن جميعهم لازمون لبعضهم البعض. وذلك كي يعرف البشر أن

جميعهم لازمون لبعضهم البعض، دخل الله إلى قلوبهم جميعًا، وحدَّثهم بالحب.

-٣-

إن مصائب الناس جميعًا ليست من سوء الحصاد، ولا من الحرائق ولا من الأشرار، ولكن من حقيقة أنهم يعيشون منفصلين عن بعضهم البعض.

-٤-

طالما يعيش الإنسان حياة بهيمية، سيبدو له أنه منفصل عن الآخرين، وأن هذا أمر حتمي، ولا يمكن ألا يكون إلا كذلك. ولكن ما إن يبدأ الإنسان في الحياة وفقًا للروح، حتى يبدو له انفصاله عن الآخرين أمرًا غريبًا غامضًا، بل ومؤلمًا، ويسعى صوب الاتحاد معهم. ولا يُوحِّد الناس سوى الحب.

-٥-

يعرف كل إنسان ما هو في حاجة إليه، لا ما يفرقه عن الناس؛ بل ما يوحده بهم. يعرف الإنسان ذلك، ليس بسبب أن أحدهم قد أمره بذلك؛ بل لأنه يدرك أن حياته سوف تكون أفضل إن اتحد بالناس، وكذلك ستكون حياته أسوأ بقدر ما ينفصل عنهم.

-٦-

يكمن معنى حياة كل إنسان في أن تصبح أفضل فأفضل مع مرور كل عام، وكل شهر، وكل يوم. وكلما أصبح الناس في حال أفضل، كلما اقتربوا من الاتحاد ببعضهم البعض، وكلما اتحدوا ببعضهم البعض، كلما أصبحت حياتهم أفضل.

-٧-

كلما أحببتَ شخصًا، كلما قلَّ شعورك بالانفصال عنه، وبدا لك أنه أنت وأنك هو.

-٨-

إن كنا قد تمسكنا بشدة بما يوحدنا مع الناس وفيما نحن متفقون فيه معهم، ولم نطلب منهم أن يوافقونا فيما يختلفون فيه معنا، لكنا أقرب إلى المسيح من أولئك الذين يطلقون على أنفسهم مسيحيين، ويفصلون أنفسهم باسم المسيح عن أصحاب المعتقدات الأخرى، ويطلبون منهم أن يوافقوهم فيما يعتبرونه الحقيقة.

-٩-

يمكن للإنسان أن يتعلم الطريق صوب الوحدة بسهولة، كما نتعلم المرور فوق ألواح خشبية فوق المستنقع. وإن حدتَ قليلًا فقط عن الطريق، ستجد نفسك عالقًا في مستنقع الاضطراب الدنيوي والنزاع والخبث.

الحب لا يكون حقيقيًا إلا عندما يكون موجهًا للجميع:

-١-

أراد الله أن نكون سعداء، ولذلك وضع بداخل قلوبنا الشعور بالحاجة إلى السعادة. لقد أراد أن ننعم جميعًا بالسعادة، لا كأشخاص منفصلين عن بعضهم البعض، لذا ألهم قلوبنا بالحب. لذا فلا يمكن للناس أن يصبحوا سعداء حقًّا إلا عندما يحبون بعضهم البعض.

-٢-

قال الحكيم الروماني سينيكا[٣٣]: «إن كل ما نراه، وكل حي جسد واحد: إننا جميعًا كالأيادي والأقدام والمعدة والعظام.. إننا جميعًا أعضاء في هذا الجسد. لقد ولدنا جميعًا على حد السواء، وجميعنا يرغب في الخير لنفسه،

(٣٣) فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي روماني، كتب أعماله باللغة اللاتينية. وُلد في قرطبة Corduba في إسبانيا، وتُوفي بالقرب من روما. ويُلقب بسينيكا الفيلسوف أو الأصغر؛ تمييزًا له عن والده الخطيب الشهير.

وجميعنا يعلم أنه من الأفضل أن نساعد بعضنا البعض بدلًا من أن ندمر بعضنا البعض، وفي قلوبنا جميعًا نفس الحب الذي نكنه لبعضنا البعض. إننا كالصخور، جميعًا أسفل تلك القنطرة.. سنهلك إن لم ندعم بعضنا البعض».

-٣-

يحاول كل إنسان أن يزيد من صلاحه، والصلاح الأكبر في هذا العالم هو أن نعيش في حب وتوافق مع كل الناس. كيف يمكن أن نصل إلى هذا الصلاح بينما نشعر بالحب صوب البعض، وبالكراهية صوب الآخرين؟ علينا أن نتعلم أن نحب أولئك الذين لا نحبهم. إن الإنسان يتعلم أصعب الفنون، ويتعلم القراءة والكتابة وكل العلوم والحرف اليدوية. إن ثابر الإنسان على تعلم الحب كما يثابر على تعلم العلوم والحرف، فسريعًا ما سيمكنه أن يحب الآخرين بسهولة، حتى أولئك الذين يشعر بالبغض صوبهم.

-٤-

إن أدركت أنِ الحب هو أهم ما في الحياة، فلن تفكر فيما سيعود عليك بالنفع من اتحادك بأحدهم، بل فيما سيعود عليه هو بالنفع. افعل ذلك، وستجد نفسك تقوم للآخرين بأكثر مما تقوم به لنفسك.

-٥-

إن أحببنا الذين يروقون لنا ويمدحوننا ومَن يفعلون لنا الخير، فهذا يعني أننا نحبهم لأجل أنفسنا؛ كي نصبح أفضل حالًا. أما الحب الحقيقي فهو الذي لا يكون من أجلنا، ولا لأجل الذين يريدون الخير لنا، ولا لِـمَن نحبهم، ولا لِـمَن نعتقد أنهم نافعون لنا ويتصرفون بالخير معنا، بل لأننا ندرك في داخل كل إنسان هذه الروح التي تعيش بداخله.

عندما نحب بهذه الطريقة، حينها فقط يمكننا أن نحب كما علمنا المسيح

أولئك الذين لا يحبوننا وأولئك الذين يبغضوننا وكذلك أعداءنا.

-٦-

(علينا أن نحترم كل إنسان مهما كان مثيرًا للشفقة أو السخرية. علينا أن نتذكر دائمًا أن بداخل كل إنسان تعيش هذه الروح الكامنة. حتى عندما نجد إنسانًا بغيضًا بالروح والجسد، علينا أن نفكر هكذا: «نعم.. لا بد أن يكون مثل هؤلاء المسوخ في العالم، وعلينا أن نحتملهم». إن أبدينا اشمئزازنا من هؤلاء البشر، فنحن غير عادلين.

أيًا ما كان الإنسان عليه، فهو لا يستطيع أن يُرمِّم نفسه، ولن يفعل شيئًا سوى أن يحاربنا كأعداء مميتين إن أظهرنا له العداء. في الحقيقة نود أن نصبح صالحين معه إن تغير عن الحالة التي هو عليها. وهو لا يستطيع فعل ذلك. لذا يجب علينا أن نكون صالحين مع الجميع أيًا كانت شخصياتهم، ولا نطالب أحدًا بما لا يمكنه أن يفعله. لا تطالب إنسانًا أن يكف عن أن يكون نفسه).

«شوبنهاور».

-٧-

حاول أن تحب مَن لا تحبه وتدينه ومَن يسيء إليك. وإن كان في إمكانك أن تفعل ذلك، فستختبر شعورًا جديدًا سعيدًا. وكما يتألق الضوء الساطع بعد الظلام، كذلك مَن تحرر من الكراهية، يتقد ضوء الحب بداخله بشكل أقوى، ويبعث شعورًا أقوى بالسرور.

-٨-

(خير الناس أنفعهم للناس).

«محمد».

-٩-

لماذا يبدو الخلاف مع إنسان آخر ثقيلا إلى هذا الحد، والأكثر ثقلًا منه محبة

إنسان آخر؟ لأننا نشعر جميعًا بشيء في داخلنا يوحدنا جميعًا. لذلك فعندما لا نحب الآخرين، فنحن نضايق ما هو واحد في الجميع... نضايق أنفسنا.

-١٠-

«أشعر بالحزن والكآبة. أشعر بالوحدة». نعم.... ومَن جعلك تبتعد عن الجميع وتحبس نفسك في سجن أناك الكئيبة التافهة؟

-١١-

(تصرف بالطريقة التي تجعلك تقول للجميع: «افعل معي كما أفعل معك»).

«كانط».

-١٢-

(طالما لم أرَ حتى الآن أنك تلتزم بأهم قاعدة للمسيح «حب الأعداء»، فإني لا أؤمن أنك مسيحي حقيقي).

«ليسينج».

لا يمكن أن يحب المرء فعلًا سوى الروح:

-١-

يحب الإنسان ذاته، ولكن إن كان ما يحبه في ذاته هو جسده فهو مخطئ في ذلك، ولن يؤدي هذا الحب سوى إلى المعاناة. حب الذات لا يكون حسنًا إلا عندما يحب الإنسان في نفسه (روحه). إن الروح واحدة في جميع البشر، ولذا فإن أحب الإنسان روحه، سيحب أرواح الآخرين.

-٢-

الناس جميعًا يريدون شيئًا واحدًا، ويسعون إليه بكل قوتهم؛ ألا وهو أن

يعيشوا حياة حسنة. لذا فمنذ أقدم الأزمنة فكَّر الأتقياء والحكماء دائمًا في كل مكان في ذلك الأمر، وعلَّموا الناس كيف يعيشون حياة صالحة غير شريرة. وقد علَّم هؤلاء الأتقياء والحكماء الناس في أزمنة وأماكن مختلفة نفس التعليم. فحوى هذا التعليم وافٍ وبسيط. إنه يتلخص في أن بداخل الناس جميعًا روحًا واحدةً، لكنهم متفرقون جميعًا عن بعضهم البعض في هذه الحياة في أجساد منفصلة، ولذا فإن أدركوا أن روحًا واحدةً تعيش داخلهم جميعًا فسيتحدون جميعًا بالحب. وإن لم يدرك الناس ذلك واعتقدوا أنهم يعيشون فقط في أجسادهم المنفصلة، فسيعادون بعضهم البعض ويكونون تعساء.

-٣-

لذا فالتعليم كله يتلخص فيما يجب أن يفعله البشر كي يتحدوا ببعضهم البعض، وفيما لا يجب أن يفعلوه؛ لأنه يفصلهم عن بعضهم البعض. والإيمان بهذا التعليم أمر سهل؛ لأنه في قلب كل إنسان. إن عاش الإنسان بالجسد فقط، فهذا يشبه تمامًا أن يزج بنفسه داخل السجن. وحدها الحياة بالروح تفتح باب السجن، وتقود الإنسان صوب الحياة الحرة السعيدة لجميع البشر.

-٤-

الجسد يريد خيره فقط، حتى وإن كان سيسبب ضررًا للروح، والروح تريد خيرها حتى وإن كان سيسبب ضررًا للجسد. لا تنتهي هذه الحرب إلا عندما يتفهم الإنسان أن حياته ليست في الجسد؛ بل في الروح، وأن روحه يجب أن تتسلط كاملًا على جسده.

-٥-

إن سار اثنان من الناس من موسكو إلى كييف، فلا يهم حجم المسافة التي تفصل بينهما، فإن افترضنا أن أحدهم قد اقترب من كييف، والآخر قد خرج

لتوه من موسكو، فكلاهما ذاهب إلى الوجهة ذاتها وسيلتقيان آجلا أو عاجلا، ولكن مهما كان إنسانان قريبين من بعضهما البعض، وأحدهما ذاهب إلى موسكو والآخر إلى كييف، فسيظلان دائمًا متفرقين عن بعضهما البعض.

هكذا الأمر مع البشر، فإن عاش تقي من الناس وفقًا للروح، وكذلك عاش أضعف الناس وأكثرهم إثمًا من أجل الروح، فإنهما سويًا في الطريق ذاته، وسيلتقيان آجلًا أو عاجلًا، ولكن إن عاش اثنان من الناس سويًا، ولكن أحدهما يعيش من أجل الجسد والآخر من أجل الروح، فلا مفر من أن يتفرقا مع الوقت أكثر فأكثر.

-٦-

تصعب حياة البشر عندما لا يعلمون الهدف منها، وهناك من البشر مَن هم على ثقة من أن هذا أمر مستحيل معرفته، حتى إنهم يتباهون بذلك.

ومعرفة ذلك أمر ضروري وسهل، ففكرة الحياة كلها تتمحور في أمر واحد، وهي أن يحرر الناس أرواحهم من أسر أجسادهم شيئًا فشيئًا ويتحدون عبرها مع المخلوقات الأخرى ومع مصدر الحياة لهم جميعًا: الله. يفكر الناس ويقولون ذلك؛ لأنهم لا يعيشون وفقًا لتعاليم كافة حكماء ذلك العالم، ولا طبقًا للعقل والضمير.

الحب متأصل في الناس:

-١-

(من الطبيعي تمامًا أن يشعر الإنسان بالحب، كما تتدفق المياه من أعلى إلى أسفل).

«حكمة مشرقية».

ثمَّ مرشد واحد أمين لدى كافة البشر. إنها الروح الكلية التي تهيئُ كل إنسان

لأن يفعل ما يتوجب عليه فقط. إنها هي مَن توجه النبات صوب الشمس، وهي مَن تجعل النبات ينتج البذرة، وهي مَن تجعل البذور تسقط على الأرض لتنمو ثانية. إنها الروح التي تجعل الإنسان يتحد بالحب مع المخلوقات الأخرى.

-٣-

على النحل أن يطير كي يعيش بموجب قانونه، وعلى السمك أن يسبح، وعلى الإنسان أن يحب. لذا فإن فعل الإنسان الشر للناس بدلًا من أن يحبهم، فإنه يتصرف بغرابة طائر يسبح وسمكة تطير.

-٤-

قال أحد الحكماء الهنود ذات مرة: «كما تعتني الأم بطفلها الوحيد وترعاه وتصونه وتربيه، هكذا على كل إنسان أن يُنمِّي ويربي ويصون أغلى ما في هذا الكون: إنه حبه صوب الناس وصوب كل حيّ». وقد علَّمت كل المعتقدات ذلك التعليم: البراهمية والبوذية واليهودية والصينية والمسيحية والإسلام. لذا فأهم ما يجب أن يتعلمه الإنسان هو الحب.

-٥-

(ينقذ الجواد نفسه من العدو بعدوه سريعًا، وهو لا يشعر بالتعاسة عندما يُحرم من الغناء كالديك، بل عندما يُحرم من قدرته على العدو السريع.

كذلك تكمن موهبة الكلب في تشمم رائحة الطريدة، ولا يشعر بالتعاسة عندما يُحرم من الطيران، بل عندما يُحرم من هذه الموهبة.

كذلك الأمر مع الإنسان. إنه لا يشعر بالتعاسة عندما لا يستطيع أن يطرح الدب أو الأسد أو الأشرار من الناس، لكنه يشعر بالتعاسة عندما يفقد أغلى ما قد مُنح إياه؛ إنها طبيعته الروحية وقدرته على الحب.

ليس أمرًا يدعو للأسف عندما يموت الإنسان أو يفقد أمواله أو لا يكون

لديه دار أو ممتلكات... كل هذا لا ينتمي للإنسان، لكنه أمرٌ يدعو للأسف عندما يفقد ممتلكاته الحقيقية وخيره الأعظم؛ إنها قدرته على الحب).

«إبيكتيتوس»[٣٤].

-٦-

كانت هناك فتاة عمياء بكماء صماء، علموها القراءة والكتابة باللمس، وعندما بدأت معلمتها تشرح لها ما هو الحب قالت لها: «نعم.. إني أفهم ما هو.. إنه ذلك الشعور الذي يشعر به دومًا الناس صوب بعضهم».

-٧-

سألوا حكيمًا صينيًا: «ما العلم؟»، فأجابهم «أن يعلم الناس». سألوه: «ما الفضيلة؟»، فأجاب: «أن يحب الناس».

-٨-

كان لدى الصينيين حكماؤهم: كونفوشيوس، ولاو تسو، وحكيم آخر أقل شهرةً يُدعى مي تي. وقد علَّم مي تي قائلًا: إنه من الواجب أن نحض الناس على الاحترام، لا ذاك الاحترام الموجه إلى القوة ولا الثروة ولا السلطة ولا الشجاعة، بل للحب فقط. قال:

«لقد نشأ الناس على اعتبار الثورة والشهرة أغلى ما لديهم، وعلى الاهتمام فقط باكتساب الشهرة والثروة بقدر الإمكان، ولكن يلزم أن ينشأ الناس على اعتبار الحب أغلى ما في حياتهم، وعلى الاهتمام بتعويد أنفسهم على حب الناس، وعلى بذل كل قواهم في تعلُّم الحب».

ولم يستمعوا لمي تي. تجادل مندزي أحد تلاميذ كونفوشيوس مع مي

(٣٤) فيلسوف رواقي روماني، قال إن معين السعادة هو النفس لا الأشياء الخارجية. دعا إلى الإخاء، ولم يكتب شيئًا، فروى عنه تلميذه أريان.

تي قائلًا له: إنه من المستحيل أن يحيا المرء بالحب وحده. واستمع الصينيون لمندزي. مرت خمسمائة عام على ذلك، ثم علَّم المسيح الناس ما علمه مي تي، بل وكان تعليمه أفضل وأقوى وأوضح. ورغم أنه ما من أحد الآن يجادل ضد تعليم الحب، إلا أن تلاميذ المسيح لا يزالون لا ينفذون تعاليمه. ولكن الوقت يمر، وسيدرك الناس ذات يوم أنه ليس من المستحيل أن ينفذوا هذه التعاليم؛ لأنها موجودة في قلوبهم، وهما يعانون أكثر فأكثر عندما لا ينفذونها.

-٩-

يومًا ما سيتوقف الناس عن قتال بعضهم البعض، وعن القتل والإعدام، وسيحبون بعضهم البعض. لا يمكن ألا يأتي ذلك الوقت؛ لأن عدم الكراهية ومحبة الآخرين مغروسة في قلوب كل البشر. دعونا نقوم بكل ما في إمكاننا؛ كي نُسرع من لحظة حلول هذه اللحظة.

الحب وحده ما يمنحنا الخير الحقيقي:

-١-

أتريد الخير؟ ستحصل على الخير عندما تريد الخير للجميع، وهو لا يمكن أن يصل إليه أحد سوى بالحب.

-٢-

«فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ، يُهْلِكُهَا. وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ، فَهُوَ يُخَلِّصُهَا. لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟»(٣٥).

هكذا قال المسيح. وهكذا قال الإمبراطور الروماني الوثني ماركوس أوريليوس:

---

(٣٥) مرقس ٨ : ٣٥ – ٣٦ بتصرف بسيط من قبل تولستوي.

«متى تسود روحي جسدي؟ متى تتحررين من كل الرغبات الدنيوية والأحزان وتتوقفين عن الشعور بالحاجة لأن يخدمك الناس بحياتهم أو بمماتهم؟ متى تدركين أن خيرك الحقيقي وسلطانك الوحيد في أن تحبي كل الناس؟».

-٣-

(مَنْ قَالَ إِنَّهُ فِي النُّورِ وَهُوَ يُبْغِضُ أَخَاهُ، فَهُوَ إِلَى الآنَ فِي الظُّلْمَةِ. مَنْ يُحِبُّ أَخَاهُ يَثْبُتُ فِي النُّورِ وَلَيْسَ فِيهِ عَثْرَةٌ. وَأَمَّا مَنْ يُبْغِضُ أَخَاهُ فَهُوَ فِي الظُّلْمَةِ، وَفِي الظُّلْمَةِ يَسْلُكُ، وَلاَ يَعْلَمُ أَيْنَ يَمْضِي، لأَنَّ الظُّلْمَةَ أَعْمَتْ عَيْنَيْهِ. يَا أَوْلاَدِي، لاَ نُحِبَّ بِالْكَلاَمِ وَلاَ بِاللِّسَانِ، بَلْ بِالْعَمَلِ وَالْحَقِّ! بِهذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا مِنَ الْحَقِّ وَنُسَكِّنُ قُلُوبَنَا قُدَّامَهُ)(٣٦).

«رسالة يوحنا الأولى».

-٤-

لست أعرف أهؤلاء أو أولئك من المعلمين الدينيين هم الذين على حق، ولكن أفضل ما يمكنني أن أفعله هو أن أزيد من الحب بداخلي. هذا أمر أعرفه يقينًا، ولا يمكن الشك فيه أبدًا. السبب في ذلك هو أن زيادة الحب بداخلي يزيد من نعمتي.

-٥-

لة اتحد الناس جميعًا في كيان واحد، لما كان هناك ما ندعوه خاصًّا بنا وليس للآخرين؛ لأن حياتنا كانت ستجمع كل ما هو متفرق أكثر فأكثر. وهذه هي الحياة الحقة والخير الوحيد الحقيقي في حياة الناس.

(٣٦) آيات متفرقة من رسالة يوحنا الأولى.

-٦-

(يمكننا أن نجد كل شيء، عدا أنفسنا. يا له من أمر غريب! يعيش الإنسان في النور أعوامًا طويلة دون أن يلاحظ متى تكون نفسه في أفضل حال. إن لاحظ فقط الإنسان ذلك، لاتضح أمامه أين يكمن خيره الحقيقي، ولأدرك أنه سيكون بخير عندما تحب روحه فقط كل الناس. من الواضح أننا لا نمارس التأمل بشكل منفرد، حتى إننا لا نزال لا ندرك ذلك. لقد شوهنا عقلنا، ولم نحاول أن نفهم ما نحن في حاجة إليه حقًّا. إن توقفنا ولو لبرهة وسط صخب الحياة، لسبرنا غور الأمر، وأدركنا أين يكمن خيرنا الحقيقي.

إن جسدنا ضعيف، غير طاهر، وفانٍ، لكنه يخفي بداخله كنزًا؛ إنها الروح الإلهية الخالدة. علينا أن ندرك هذه الروح التي بداخلنا، وحينها سنحب الناس، وإنا أحببناهم، فسنصل إلى كل مراد قلوبنا، سنصبح سعداء).

«سكوفورودا».

-٧-

عندما يدرك الإنسان حياته الجسدية الضعيفة الكارثية، حينها فقط سيدرك كل الخير الذي يمكن أن يمنحه الحب إياه.

-٨-

الخيرات الجسدية، وكل المتع لا نحصل عليها إلا عندما تقل لدى الآخرين، أما الخيرات الروحية؛ بركة الحب الذي نصل إليه، فهي على النقيض من ذلك، تحدث فقط عندما يزداد خير الآخرين.

-٩-

كل التطورات التي لحقت بحياتنا: السكك الحديدية والبرق وكل وسائل المواصلات قد تكون نافعة من أجل توحيد الناس، وبالتالي من أجل الإسراع

بحلول ملكوت الله، ولكن الأمر المؤسف هو أن الناس يهتمون بشدة بها، ويعتقدون أنهم إن صنعوا وسائل مواصلات مختلفة، فهذا في حد ذاته يقربهم من ملكوت الله. وهذا هو نفس الخطأ الذي يمكن أن يرتكبه إنسان عندما يحرث الأرض ولا يزرع شيئًا. كي تجلب كل هذه المخترعات فائدة لنا على الناس أن يقوموا بتطوير أرواحهم ويزرعوا الحب بداخلها. فدون الحب لا يمكن للهواتف والبرق والطائرات أن توحد الناس؛ بل على العكس ستفصلهم أكثر فأكثر.

-١٠-

(إنسان بائس ومثير للسخرية، ذاك الذي يبحث عن شيء معلق على ظهره. كذلك هو الإنسان الذي يبحث عن النعمة وهو لا يدري أنها في الحب الموجود داخل قلبه. لا تهتم بالعالم وشؤون الناس، بل اهتم بروحك وستجد فيها خيرك الذي بحثت عنه هناك ولم تجده... ستجد الحب، وحينما تجده ستدرك كم هو خير عظيم لدى مَن يحوزه، حتى إنه لن يرغب في أي شيء آخر سواه).

«كريشنا».

-١١-

عندما تشعر بالضيق، وعندما تخاف الناس، وعندما ترتبك حياتك، قل لنفسك: فلأتوقف عن الاهتمام بما سيحدث لي، سأحب كل مَن ألتقيه، ولا شيء أكثر من ذلك، وليكن ما يكون.

جرِّب أن تعيش هكذا، وسترى كيف تنحل كل خيوط اللغز، ولن تعود تخشى أو تريد شيئًا.

-١٢-

(أَسْدِ الخير لأصدقائك حتى يحبوك هم أيضًا. وأَسْدِ الخير لأعدائك، حتى تجعلهم أصدقاءك).

«كليوبولوس»[٣٧].

-١٣-

كما تتساقط المياه من الدلو المثقوب، كذلك تتلاشى الفرحة من روح الإنسان إن كانت محملة بالكراهية لإنسان واحد.

-١٤-

يقولون: لماذا تفعل الخير لأناس يقابلون خيرك بالشر؟ ولكن إن أحببت مَن يصنع لك الخير، ستكون قد حصلت بالفعل على مكافأة الحب الذي تُكنُّه له، وكذلك ستحصل على مكافأة ضخمة داخل روحك إن نجوتَ بحبك من هذا الشر الذي يقوم به صوبك.

-١٥-

إن كان الإنسان يقوم بالخير من أجل شيء ما، فهو ليس خَيِّرًا. أنت تحبُّ حقيقةً عندما لا تعرف السبب ولا الهدف.

-١٦-

كثيرًا ما يعتقد الناس أنهم إن أحبوا القريب، فإنهم هكذا يستحقون الله، ولكن الأمر على النقيض تمامًا. إن أحببنا القريب، فهذا لا يعني أننا نستحق الله، بل إن الله قد منحك ما لا تستحقه... منحك الخير الأعظم في الحياة: إنه الحب.

---

(٣٧) أحد الفلاسفة الإغريق من القرن السادس قبل الميلاد، يُعَدُّ من حكماء الإغريق السبعة، حكم إسبرطة في اليونان القديم.

-١٧-

(نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّنَا قَدِ انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ؛ لأَنَّنَا نُحِبُّ الإِخْوَةَ. مَنْ لاَ يُحِبَّ أَخَاهُ، يَبْقَ فِي الْمَوْتِ).

"رسالة يوحنا الأولى ٣: ١٥".

-١٨-

إن كان من الممكن التأثر بالإيحاء، وإيحاء الآخرين لنا بتبجيل المقدسات المتخيلة: القرابين- الرفات- الكتب، فمن الضروري إذنْ أن نوحي للأطفال وقليلي التفكير من الناس بعدم تبجيل أي شيء مُتخيَّل قداسته، بل بتبجيل أكثر المشاعر حقيقة ووضوحًا وبعثًا على السرور: إنها مشاعر الحب للآخرين. سيأتي وقت -وسريعًا ما سيأتي- الذي قال عنه المسيح إنه يشتاق إليه جدًا. سيأتي وقت حين لا يفتخر الناس بأنهم قد سيطروا على الناس وعملهم بالقوة، وحين لا يشعرون بالسرور من أنهم قد أوحوا إليهم بالخوف وكراهية الناس؛ بل يفتخرون بأنهم يحبون الجميع، ويشعرون بالسرور؛ لأنه بالرغم من كافة الأحزان التي سببوها للناس ومعاناتهم من ذلك الشعور، فإنهم أخيرًا قد تحرروا من كل ذلك.

حكاية رمزية عن الحب:

-١-

عاش إنسان لم يهتم أبدًا بنفسه أو يفكر فيها؛ بل كان يفكر ويهتم فقط بالأقارب. وكانت حياة هذا الإنسان مدهشة فعلًا، حتى إن الأرواح غير المنظورة أحبت حياته الفاضلة وسعدت به.

وذات مرة قالت إحدى تلك الأرواح للأخرى: «إنه تقي، والغريب أنه لا يدرك ذلك. لا يوجد في العالم مثله إلا قليلون. فلنسأله كيف يمكننا أن نخدمه،

وأي عطايا يود أن نهديها له». فأجابت الأرواح الأخرى: «حسنًا»، وهكذا قامت إحدى تلك الأرواح غير المسموعة أو المرئية، لكنها قالت بوضوح لذلك الإنسان الفاضل: «لقد رأينا كيف تسلك في حياتك بتقوى، ونود أن نعرف ماذا يمكننا أن نمنحك؟ قل لنا: ماذا تريد؟ من الممكن أن نخلصك من الفقر والحاجة فقل لنا ماذا تريد؟ يمكننا أن نقوم بذلك، أو إن شئت يمكننا أن نمنحك القوة التي يمكنك بها أن تُخلِّص الناس من المرض والمعاناة أو أيًا ما ترغب فيه ولا تموت قبل وقتك. كل هذا داخل نطاق سلطاننا. أم أنك تريد أن يشعر كل مَن في العالم من رجال ونساء وأطفال بالحب صوبك؟ يمكننا أن نقوم بذلك. قل لنا ماذا تريد؟».

فقال الرجل التقي: «إني لا أرغب في شيء من ذلك؛ لأنه الله هو المسؤول عن تخليص الناس ممَّا أرسلهم إليه: من الحاجة والمعاناة، ومن المرض والموت المبكر. أما حب الناس فإني أخشاه، فقد يغويني هذا الحب البشري ويعوقني عن عملي الرئيس، وهو زيادة الحب بداخلي صوب الله والناس».

حينها قالت الأرواح جميعًا: «نعم... إن هذا الإنسان تقي فعلًا، ويحب الله حقًّا».

إن الحب يمنح، ولا يأخذ شيئًا.

* * *

خطايا وإغواءات وخرافات

كان من الممكن أن تصبح الحياة خيرًا لا ينتهي، لو لم تحرم الخرافات والإغواءات والخطايا الناس من إمكانية الوصول إلى ذلك. الخطية هي الانغماس في الشهوات الجسدية، والإغواءات هي افتراضات مزيفة لدى الإنسان عن علاقته بالعالم، أما الخرافات فهي قبول إيمان مزيف.

الحياة الحقيقية ليست في الجسد، بل في الروح:

-١-

الخطية في الزراعة هي ألا يمسك الحارث بالمحراث، ويغادر الأرض دون أن يقوم بما يجب القيام به.

هكذا الأمر في الحياة... الخطية هي ألا يمسك الإنسان جسده، ويغادر إلى طريقه دون أن يفعل ما يتوجب عليه فعله.

-٢-

في فترة الشباب لا يدرك الناس الهدف الحقيقي للحياة؛ ألا وهو الاتحاد بالحب، ويتخذون لأنفسهم هدفًا آخر؛ ألا وهو إشباع شهوات الجسد. كان الأمر سيصبح محتملًا إن كان هذا الضلال مقتصرًا على العقل فقط، ولكن المشكلة أن إشباع شهوات الجسد يُفسد الروح، عندما تتلوث روح الإنسان يفقد قدرته على اكتشاف نعمته الحقيقية في الحب. يشبه هذا إنسانًا أراد أن يشرب مياهًا نقيةً، فقام بتلويث المغرفة التي سيشرب بها الماء.

-٣-

(تريد أن تقدم أكبر متعة ممكنة لجسدك، ولكن تُرى إلى متى سيعيش جسدك؟ الاهتمام بخير الجسد يشبه بناء منزل على الثلج. ما السرور والهدوء الذي يمكن أن يحصل عليه الإنسان من حياة بهذا الشكل؟ ألن تخشى ذوبان الثلوج آجلًا أو عاجلًا، وأن يتوجب عليك في النهاية أن تغادر جسدك الفاني؟

فلتبنِ منزلك على أرض صلبة، ولتعمل على ما لا يموت: نقِّ روحك وحررها من الخطايا والإغواءات والخرافات، وستجد خيرك في ذلك).

«سكوفورودا».

-٤-

لا يكتشف الطفل الروح في داخله، لذلك فلا يحدث معه ما يحدث مع إنسان بالغ حين يتحدث بداخله صوتان متناقضان في الآن ذاته. يقول أحدهما: «أشبعْ نفسك»، ويقول الآخر: «قدمها لِـمَن يطلبها منك». يقول أحدهما: «طالبْ بما لك»، ويقول الآخر: «اصفح عما ألحقوه بك من إساءة». يقول لك الأول: «آمنْ بما يقولون لك»، ويقول الآخر: «فكِّر بنفسك».

وكلما ازداد عمر الإنسان، كلما سمع هذين الصوتين المتناقضين: صوت الجسد، وصوت الروح. والخير أن يُعلِّم الإنسان نفسه أن يستمع إلى صوت الروح.

-٥-

يرى البعض مغزى حياتهم في النهم، والبعض الآخر في الشهوات الجنسية، وهناك نوع ثالث يرى حياته في السلطة، ورابع في الكبرياء، وجميعهم يبدد قواه في كل ذلك، بينما الناس جميعًا في حاجة لأمر واحد دائمًا: رعاية الروح. هذا وحده ما يمنحهم النعمة الحقيقية؛ هذه النعمة التي لا

يمكن لأحد أن يسرقها من صاحبها.

-٦-

(لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ؛ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ).

«متى ٦: ٢٤».

-٧-

لا يمكنك العناية بروحك وبالشهوات الدنيوية في الآن ذاته. إن أردت الشهوات الدنيوية ستتخلى عن روحك، وإن أردت أن تعتني بروحك، فستهمل الشهوات الدنيوية. خلاف ذلك ستجد نفسك قد انقسمت ولم تصل لا لهذا ولا لذاك.

-٨-

الناس يريدون تحقيق الحرية برعاية أجسادهم ومنع أي شيء يمكن أن يعرقل الجسد ويحول دون أن يصل إلى مراده، وفي هذا مكمن الخطأ. طالما يحول الناس بين كل أنواع الكبح والتقييد وبين أجسادهم، ويحققون له: الغنى، المكانة الرفيعة، السمعة، فهذا لا يمنحهم الحرية المنشودة؛ بل على النقيض من ذلك، هذا يزيد من القيود. أراد الناس أن يصلوا إلى الحرية فبنوا سجنًا من خطاياهم وإغواءاتهم وخرافاتهم وحبسوا أنفسهم فيه.

-٩-

علينا أن نقوم بشيئين في هذا العالم: العمل على ازدهار الروح، والعمل الآخر هو أن نقيم ملكوت الله على الأرض. وكي نحقق العمل الأول أو الثاني فما من وسيلة أمامنا سوى واحدة، أن نحرر ذلك النور الإلهي الكامن بداخلنا.

الطريق الحقيقي مستقيم ومجاني، ولن تتعثر إن سرت فيه. إن شعرت أن قدميك تتعثران في الحياة الأرضية، فاعلم أنك ضللت الطريق الحقيقي.

طبيعة الخطايا:

-١-

طبقًا لتعاليم البوذيين، فهناك خمس وصايا: لا تقتل مخلوقًا حيًّا عن عمد- لا تستولِ على شيء ما لغيرك- كن طاهرًا عفيفًا- لا تكذب- لا تشوش نفسك لا بالخمور ولا بالتدخين. الخطايا إذنْ عند البوذيين تتلخص في: القتل- السرقة- الزنا- الكذب- السُّكر.

-٢-

أما طبقًا لتعاليم الإنجيل، فهناك فقط وصيتان بالحب:

«وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ نَامُوسِيٌّ، لِيُجَرِّبَهُ قِائِلًا :"يَا مُعَلِّمُ، أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ الْعُظْمَى فِي النَّامُوسِ؟"، فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ[٣٨]».. لذلك فالخطايا في المسيحية هي ما يتناقض مع هذين الوصيتين.

-٣-

لا يُعاقب الناس بسبب خطاياهم، بل يعاقبون أنفسهم بالخطايا. وهذه هي العقوبة الأصعب والأكثر إنصافًا.

---

(٣٨) متى ٢٢: ٣٥- ٣٩.

-٤-

يبدو الإنسان آثمًا مخادعًا، ويحيا حياته ويموت وهو في كامل الغنى والمجد، ولكن هذا لا يعني أنه مات دون عقوبة على خطاياه. لن تكون عقوبته في مكان لم يكن فيه أحد ولن يكون، بل ستكون العقوبة هنا. سيُعاقب هذا الإنسان بالشكل الآتي: مع كل خطية جديدة يرتكبها سيفصل نفسه أكثر فأكثر عن النعمة الحقيقية وهي الحب، وستتلاشى سعادته أكثر فأكثر. الأمر يشبه السكير... لن يُعاقبه الناس على سكره، لكنه يُعاقب قطعًا طوال الوقت، فبالإضافة إلى الشعور المتواصل بالصداع والغثيان، تسوء حالة جسده وروحه أكثر فأكثر كلما شرب المزيد من الخمر.

-٥-

إن اعتقد الناس أنه بإمكانهم أن يتحرروا من الخطايا في هذا العالم، فإنهم مخطئون. قد يكون الإنسان مذنبًا بدرجة أو بأخرى، لكنه لا يمكن أن يكون بارًّا بشكل كامل. ولا يمكنه ذلك بسبب أن الحياة الإنسانية بأكملها تتلخص في محاولة التحرر من الخطايا، وفي هذا وحده الخير الحقيقي.

الإغواءات والخرافات:

-١-

على الإنسان أن يقوم بعمل واحد في هذا العالم؛ ألا وهو تنفيذ إرادة الله. وإرادة الله هي زيادة الحب داخل الإنسان واستعلانه للعالم. ماذا يمكن أن يفعل الإنسان كي يزداد الحب بداخله؟ يستطيع أن يقوم بأمر واحد: أن يتخلص من كل ما يعوقه. وما الذي يعوق الحب؟ الخطايا هي ما تحول دون استعلان الحب.

وهكذا هناك أمر واحد على الإنسان أن يفعله كي ينفذ إرادة الله؛ ألا وهو التحرر من الخطايا.

-٢-

أسوأ الخطايا هو تبرير الخطايا. إنه عمل شيطاني.

-٣-

طالما الإنسان لا يتمتع بالعقل، ويعيش كالحيوانات، وسواء كان هذا حسنًا أو سيئًا له، فهو غير مذنب في ذلك، ولكن يأتي الوقت الذي يمكن فيه للإنسان أن يتعقل ويدرك ما هو في حاجة إليه، وماذا يجب أن يفعل. وبدلًا من أن يدرك هذا الإنسان ما قد كشفه له العقل ممَّا يجب أن يفعله وما لا يجب أن يفعله، يستخدم عقله في تبرير شروره التي تروق له والتي تَعوَّد على فعلها.

هذا ما يقود البشر صوب الإغواءات والخرافات التي يعاني منها العالم أكثر من أي شيء آخر.

-٤-

أمر سيئ أن يعتقد إنسان ما أنه بلا خطية، وأنه لا حاجة له للعمل على نفسه، وكذلك أمر سيئ أن يعتقد إنسان أنه قد وُلِدَ بكامله في الخطايا وسيموت بها، ولذلك فلا حاجة له بالعمل على نفسه. كلا الفكرتين خادعتان وكارثيتان.

-٥-

أمر سيئ أن يحيا الإنسان وسط الخطاة دون أن يتمكن من رؤية لا خطاياه ولا خطايا الآخرين، ولكن الأسوأ من ذلك هو أن يرى الإنسان خطايا الآخرين ولا يرى خطاياه.

-٦-

في بداية عمر الإنسان لا ينمو له سوى جسد، ويعتبر الإنسان نفسه مجرد جسد. وحتى عندما يبدأ الإنسان في الوعي بروحه يستمر في تلبية مطالب الجسد التي تُناقض رغبات روحه، وهذا يسبب له ضررًا بالغًا، فيخطئ ويأثم.

ولكن كلما عاش الإنسان أطول، كلما ارتفع صوت الروح بداخله أعلى فأعلى، ورويدًا رويدًا تتصادم رغبات الروح والجسد سويًّا. ثم يحين الوقت الذي يهرم فيه الجسد ويضعف، وتقل متطلباته تدريجيًّا، وتنمو الأنا الروحية أكثر فأكثر. ويكون الناس حينها قد تعودوا على رعاية رغبات الجسد، لذا يختلقون تلك الإغواءات والخرافات التي تبرر لهم الحياة في الخطية؛ كي لا يفارقوا هذا النمط الذي ألفوا الحياة عليه في الماضي. ولكن بغضِّ النظر عن كل محاولاتهم للدفاع عن الجسد ضد الأنا الروحية، دائمًا ما تنتصر الأنا الروحية حتى ولو في الدقائق الأخيرة من الحياة.

-٧-

كل خطأ، وكل خطية تقيدك في المرة الأولى التي تقوم بها. وفور أن ترتكب الخطية تقيدك بسهولة وتحكم حولك الخناق كخيط العنكبوت. إن كررتها تتحول إلى خيط حقيقي، ثم خيط سميك، وإن كررتها مرة أخرى فتشدك أولًا بحبل، يتكرر الأمر مرارًا وتكرارًا.

في البداية تبدو الخطية غريبة عن روحك، ثم تصبح ضيفًا، وعندما تألفها تصبح سيدة المكان داخل روحك.

-٨-

تصل الروح إلى تلك الحالة التي لا يعود بإمكان الإنسان فيها التعرف على الشرور التي يرتكبها، عندما لا يرغب في فحص سلوكه بالعقل؛ بل ويستخدمه كي يبرر تصرفاته الشريرة ويسقط تحت تأثير الإغواءات والخرافات المرتبطة بها.

-٩-

يشعر الإنسان بالذنب دائمًا في المرة الأولى التي يخطئ فيها، ولكن مَن يكرر الخطية مرارًا وتكرارًا، وخاصة عندما يكون مَن حوله يقومون بالخطية ذاتها، يسقط تحت تأثير الإغواءات ولا يعود يشعر بخطيئته.

-١٠-

يقوم الشباب في مستهل حياتهم بطرق طُرِق جديدة غير مطروقة ويروحون يمينًا ويسارًا صوب طرق غير معروفة... طرق ناعمة فاتنة سعيدة. كل ما يريدونه في البداية هو أن يسيروا في هذا الطريق، ويبدو لهم في البداية طريقًا جميلًا ممتعًا، ويمضون فيه بعيدًا حتى لا يعودوا يدركون كيف يمكنهم -إن أرادوا- أن يعودوا إلى الطريق القديم الجذري، فيمضون أبعد فأبعد حتى يهلكوا.

-١١-

عندما يرتكب الإنسان الخطية ويدرك أنه قد أذنب، فأمامه طريقان: الأول أن يعترف بها ويفكر كيف لا يمكنه أن يكررها، والآخر ألا يثق في ضميره ويتواءم مع نظرة الناس صوب هذه الخطية، فإن لم يدن الناس هذه الخطية، يستمر في ارتكابها دون أن يعترف بخطاياه:

«جميعهم يفعلون ذلك، فلماذا لا أقوم أنا أيضًا بالأمر ذاته؟».

وما إن يسير الإنسان في ذلك الطريق الثاني المصقول، حتى لا يعود يلاحظ كم قد ابتعد عن الحياة الفاضلة.

-١٢-

تحيط الإغواءات والخرافات بالإنسان من كل ناحية. والسير فيها خطير كالسير في مستنقع، تفكر طوال الوقت كيف تسير وسط هذه القيود، وكيف يمكنك أن تهرب.

-١٣-

«لا بد أن تأتي العثرات»[٣٩]. هكذا قال المسيح، وأعتقد أن الفكرة الكامنة

(٣٩) متى ١٨: ٧. العثرات هنا بالروسية هي نفس الكلمة التي يستخدمها تولستوي والتي ترجمتها بالإغواءات، لكنني تركتها في هذه المرة: عثرات؛ لأنها هكذا وردت في ترجمة الإنجيل العربية الشائعة.

خلف وجهة النظر هذه هي أن معرفة الحقيقة لا تكفي لإبعاد الناس عن الرذيلة، وجذبهم صوب الفضيلة. فبسبب الخطايا والإغواءات والخرافات يتوجب على معظم الناس كي يدركوا الحقيقة أن يصلوا إلى آخر درجات الضلال والمعاناة الناتجة عنها.

-١٤-

الجسد ينتج الخطية، وآراء الناس تنتج الإغواءات، وعدم الثقة في العقل يُنتج الخرافات.

-١٥-

يسير الإنسان بحذر إن ارتدى حذاءً نظيفًا، ولكن ما إن يتعثر ويتلطخ الحذاء، حتى تقل درجة حذره، وعندما يرى حذاءه وقد تلطخ تمامًا، حتى يسير بحرية كاملة في الوحل، ويتلطخ أكثر فأكثر بالوحل.

هكذا الأمر مع الإنسان في شبابه، فطالما لا يزال طاهرًا عن الزنى والفسوق يحترس ويحاذر من الفسق، وما إن يخطئ مرةً حتى يفكر في نفسه: سيان أن أحاذر أو لا، وينغمس في كافة الموبقات.

لا تفعل ذلك. إن تدنست، فطهر نفسك وزد من حذرك، وتب عن خطيتك، وزد من حذرك من الخطية.

-١٦-

تخفت قوة الخطايا الجسدية مع الوقت، ولكن الإغواءات والخرافات على النقيض من ذلك... إنها تزداد قوةً مع مرور الوقت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

العمل الأهم في حياة الإنسان هو أن يحرر نفسه من الخطايا والإغواءات والخرافات:

-١-

يفرح الإنسان عندما يتحرر من الأسر والسجن. فيكف لا يفرح عندما يتحرر من الخطايا والإغواءات والخرافات التي تأسر روحه؟

-٢-

تخيل لو أن الناس يعيشون حياة حيوانية ولا يحاربون شهواتهم، فكم ستكون الحياة مريعة! كم سيكره كل الناس بعضهم البعض! كم سينتشر العهر وكذلك القسوة! ولكن ما إن يدرك الناس ضعفاتهم وشهواتهم ويناضلون ضد خطاياهم وإغواءاتهم وخرافاتهم، حتى يكون بإمكانهم أن يعيشوا سويًا.

-٣-

يُقيِّد جسد الإنسان الروح التي تحيا بداخله. لكن الروح تناضل داخل الجسد وتتحرر أكثر فأكثر. وفي هذا الصراع يكمن مغزى الحياة.

سواء أراد الإنسان أو لم يرد، فحياته تود الانعتاق من أسر الخطايا أكثر فأكثر، والإنسان الذي يدرك ذلك يسعى بكل ما لديه من قوة كي يحقق ذلك، وحياته ستكون سهلة لأنها ستتوافق مع ما يفعله.

-٤-

لا يزال الأطفال لم يألفوا الخطية، ويشعرون بالاشمئزاز من كافة أنواعها، أما البالغون فقد سقطوا في فخ الإغواءات والخطايا ولم يلحظوا ذلك بعد.

-٥-

يشبه الإنسان الذي لا يدرك خطاياه زجاجة محكمة الغلق، لا يمكنه قبول

ما يمكن أن يحرره من خطاياه. ولكن إن استسلم وخضع، فهذا يعني أن يفتح الزجاجة ويجعل نفسه قادرًا على التحرر من الخطايا.

-٦-

التوبة تعني أن تعترف بخطاياك، وتكون على أهبة الاستعداد للنضال ضدها، لذا فمن الحسن أن تتوب وأنت لا تزال في كامل قواك. يجب أن نملأ المشكاة بالزيت طالما لم تُضئْ بعد.

-٧-

ذهبت امرأتان إلى أحد الشيوخ لسماع الموعظة. الأولى اعتبرت نفسها خاطئة للغاية. في شبابها خانت زوجها، ولم يَكُف شعورها بالخيانة عن تعذيبها حتى الآن[٤٠]. أما الأخرى فقد عاشت طوال حياتها بحسب الإنجيل، ولم توبخ نفسها على أي خطية وكانت راضية عن نفسها.

سأل الشيخ كلا الامرأتين عن حياتهما. الأولى اعترفت بالدموع بخطيتها العظيمة. لقد اعتبرت أن خطيتها عظيمة حتى إنه لا يمكن الصفح عنها، أما الأخرى فقالت إنها لا تعرف أي خطايا قد ارتكبتها. قال الشيخ للأولى:

تعالي يا أمة الله عند السياج وجِدِي لي حجرًا كبيرًا يمكنك رفعه وأحضريه معكِ.

وقال للثانية التي لا تعرف أي خطايا كبيرة قد ارتكبتها:

أما أنتِ فأحضري أيضًا بعض الأحجار لكن الصغيرة منها فقط.

ذهبت الامرأتان ونفذتا أمر الشيخ. أحضرت الأولى حجرًا كبيرًا، والأخرى

---

(٤٠) القسوة المفرطة في تعذيب النفس فكرة أصيلة عند تولستوي، ويمكننا أن نلمح آثارًا لها في أعماله الأدبية، مثل قصته: الأب سرجييه، الذي يعاقب فيها سرجييه نفسه بقطع إحدى أصابعه عند شعوره بأنه على وشك السقوط في خطية.

أتت بشوال من الأحجار الصغيرة.

نظر الشيخ إلى الأحجار، وقال:

والآن هذا ما ستفعلانه: خذا معكما الأحجار إلى الخلف وعودا بها من حيث أتيتما بها، وعندما تقومان بذلك عودا إليَّ.

وذهبت الامرأتان لتنفذا أمر الشيخ. استطاعت الأولى أن تجد مكان الحجر بسهولة ووضعته، أما الأخرى فلم تستطع أن تتذكر الأماكن التي أتت منها بتلك الأحجار الصغيرة، لذلك لم تستطع أن تنفذ أمر الشيخ، وعادت إليه بشوال الأحجار الصغيرة. قال الشيخ:

هكذا يحدث مع الخطايا. لقد تمكنت بسهولة من إعادة الحجر الكبير الثقيل إلى مكانه؛ لأنها لا تزال تذكر من أين أتت به، لكنك لم تستطيعي ذلك؛ لأنك لم تذكري من أين أتيتِ بالأحجار الصغيرة. هكذا هو الأمر مع الخطايا. لقد تذكرتِ خطيتك وتحملتِ توبيخ الناس وتوبيخ ضميرك، وأذللتِ نفسك، لذا تمكنتِ من التحرر من نتاج الخطية، أما أنتِ فلم تتذكري خطاياك ولم تتوبي عنها، وألفتِ الحياة مع الخطية، بينما تدينين الآخرين على خطاياهم، تسقطين أكثر في فخ خطاياكِ.

-٨-

الإنسان مولود في الخطايا، فالجسد لا يُنتج إلا الخطية، ولكن الروح التي تعيش داخل الإنسان تصارع الجسد. إن حياة الإنسان بأكملها ما هي إلا حرب ضروس بين الروح والجسد، لذا فمن الحسن للإنسان في هذه الحرب ألا يقف في جانب الجسد، ذلك الطرف الذي سيُهزم، ولكن في طرف الروح التي ستنتصر لا محالة، حتى وإن حدث ذلك في آخر ساعة من حياة الإنسان.

-٩-

من الخطأ تمامًا أن نعتقد أنه يمكن التحرر من الخطية بالإيمان أو بغفران الناس. لا شيء يمكنه أن يحرر الإنسان من الخطية سوى الاعتراف بها ومحاولة عدم تكرارها.

-١٠-

إياك ألا تخجل أمام الخطية. لا تقل لنفسك أبدًا: «لا يمكنني ألا أخطئ. لقد تعودت على ذلك. أنا ضعيف». طالما تعيش فبإمكانك دائمًا أن تحارب الخطية وتتغلب عليها، وإن لم يكن اليوم فغدًا، وإن لم يكن غدًا فبعد غد، وإن لم يكن بعد غد، فيقينًا قبل الموت. إذا رفضت القتال قدمًا، فإنك ترفض أهم ما يجب عليك فعله في هذه الحياة.

-١١-

من المستحيل أن تجبر نفسك على الحب. ولكن عندما لا تحب فهذا لا يعني أنه ما من حب بداخلك، لكن هذا يعني أن هناك شيئًا ما في داخلك يحول بينك وبين هذا الحب. إن كانت زجاجة مسدودة بالفلين، فمهما حاولت أن ترجها أو تديرها فلن يسقط منها شيء. هكذا هو الأمر مع الحب. إن روحك مليئة بالحب، لكنه لا يمكن أن يُستعلن؛ لأن خطاياك تحول دون أن يتحرك. حرِّر روحك مما يثقل كاهلها، وحينها ستشعر بالحب لكل الناس، حتى أولئك الذين كنت تكرههم وتسميهم أعداء.

-١٢-

ويل لهذا الشخص الذي يقول لنفسه أنه قد تحرر من الخطايا.

-١٣-

ذاك الذي لا يعي وحدة روحه مع الله ومع كل ما هو حيّ هو قطعًا بلا خطية. لذلك فالنباتات والحيوانات بلا خطية، أما الإنسان الذي يعي في داخله وحدته مع الله ومع كل ما هو حيّ، لا يمكنه أن يكون بلا خطية. نحن نقول إن الأطفال بلا خطية، وهذا غير صحيح. الطفل ليس بريئًا من الخطية، لكنه يحمل خطايا أقل من البالغين؛ يحمل خطايا الجسد. هكذا أيضًا أكثر الناس سلوكًا بالتقوى في الحياة.. ليسوا بلا خطية. لديهم خطايا أقل، لكنها موجودة، فمن دون الخطية ما من حياة.

-١٤-

كي تُدرِّب نفسك على الصراع ضد الخطية، من المفيد لك أن تتوقف بين الحين والآخر عن فعل ما تعودت عليه، حتى تدرك أنه بإمكانك التسلط على جسدك، بدلًا من أن يتسلط عليك.

أهمية الخطايا والإغواءات والخرافات في استعلان الحياة الروحية:

-١-

أولئك الذين يؤمنون بأن الله قد خلق العالم، كثيرًا ما يتساءلون: لماذا خلق الله الناس على هذا الحال بحيث إنه لا بد لهم وأن يخطئوا، ولا يمكنهم ألا يخطئوا؟ هذا التساؤل يشبه أن نتساءل: لماذا خلق الله الأمهات على هذا الحال، بحيث يتوجب عليهن إن ولدن أن يعانين ويربين ويرعين الأطفال؟ ألن يكون من الأسهل إن منح الله الأمهات أطفالا جاهزين دون ولادة ورضاعة وعمل ورعاية وخوف؟ ما من أمٍّ تسأل مثل هذا السؤال؛ لأنها تشعر أن طفلها عزيز على قلبها بسبب آلام الولادة والرضاعة والتنشئة، وهي تعتبر أن عنايتها

بالأطفال هي أعز ما لديها في العالم. هكذا هو الأمر مع الحياة الإنسانية: ففي الخطايا والإغواءات والخرافات، والحرب ضدها جميعًا والانتصار عليها هدف وسعادة الحياة الإنسانية.

-٢-

يبدو للإنسان أنه من الصعب عليه أن يدرك خطاياه، ولكن عندما يتحرر منها سيشعر بفرحة كبيرة. دون ليل لن نفرح بضوء الشمس، ودون خطية لن يفرح الإنسان بالتقوى.

-٣-

إن لم تكن هناك روح بالإنسان، لما عرف خطايا الجسد. وإن لم تكن هناك خطايا الجسد، لما أدرك أن بداخله روحًا.

-٤-

منذ أن وُجِد البشر -هذه المخلوقات العاقلة- في هذا العالم، وقد ميَّزوا بين الخير والشر، وتميزوا بذلك الصراع الذي يشنونه ضد الشر، وقد بحثوا عن الطريق الحقيقي الأفضل، وتحركوا في هذا الطريق ببطءٍ، لكن بمثابرة. ستظل بعض المعوقات أمامهم في هذا الطريق كالإغواءات المتنوعة والخرافات والتعاليم المزيفة التي يقولها الناس، مثل القول بأن هذه الحرب لا يجب القيام بها، ولا يجب البحث عن شيء، وأنه من الضروري والحسن أن يعيش المرء بنفس الطريقة التي اعتاد العيش بها.

-٥-

إن الخطايا والإغواءات والخرافات هي الأرض التي يجب أن تُلقى عليها بذور الحب كي تتمكن من النمو.

الإفراط

نعمة الإنسان الحقيقية والوحيدة تكمن في الحب. ويُحرم الإنسان من هذه النعمة إن عمل على زيادة متطلبات الجسد وإشباع رغباته بدلًا من الحب.

كل إفراط في متطلبات الجسد يضر الجسد والروح معًا :

-١-

يجب أن نخدم الجسد عندما يتطلب الأمر ذلك فقط. استخدام العقل في ابتكار ملذات للجسد يعني أن نحيا بشكل عكسي، فلا يجب أن يجبر الجسدُ الروحَ على خدمته؛ بل يجب أن تجبر الروحُ الجسدَ على خدمتها.

-٢-

كلما قلت متطلبات الإنسان، كلما كانت حياته سعيدة، ولكن هذه الحقيقة القديمة أبعد من أن يعترف بها الناس جميعًا.

-٣-

(كلما عوَّدتَ نفسك على الترف، كلما استُعبدت أكثر؛ لأنه كلما ازدادت احتياجاتك، كلما انخفض سقف حريتك. إن الحرية الحقيقية هي ألَّا يحتاج الإنسان شيئًا، والدرجة التي تليها هي أن تقتصر احتياجات الإنسان على أمور قليلة).

«يوحنا فم الذهب»[٤١]

(٤١) بطريرك القسطنطينية، اشتهر كقديس ولاهوتي. عُرف باليونانية بـ«فم الذهب» لفصاحته؛ إذ كان تلميذ معلم البلاغة الشهير ليبانيوس.

-٤-

هناك خطايا موجهة ضد الناس، وخطايا ضد نفسك. الأولى سببها ألا يحترم الإنسان الروح الإلهية في إنسان آخر، أما الثانية فبسبب أنه لا يحترم الروح الإلهية التي بداخله.

-٥-

إن أردت أن تعيش في هدوء وحرية، افطم نفسك عن كل ما يمكنك أن تدبر معيشتك من دونه.

-٦-

كل ما يحتاج إليه الجسد فعلًا يمكن الوصول إليه بسهولةٍ، أما ما لا يحتاجه فهو الذي يصعب الحصول عليه.

-٧-

(حسنٌ أن تصل إلى مرادك، ولكن الأفضل ألَّا تريد شيئًا على الإطلاق سوى ما لديك).

«مينيديموس»[٤٢].

-٨-

إن كنت تتمتع بصحة جيدة، وعملت حتى شعرت بالإنهاك، فسيبدو لك الخبز والماء طعامًا شهيًّا أكثر من المرق والشراب بالنسبة للثريِّ، وسيبدو لك فِراش من القش أكثر راحةً من فراش زنبركي بالنسبة للثريِّ، وسيبدو لك زي العامل أكثر راحةً لجسدك من الثياب المخملية الحريرية بالنسبة للثريِّ.

---

(٤٢) فيلسوف يوناني قديم.

-٩-

إن زودت جسدك بكميات مفرطة من الطعام فستضعفه، وإن جعلته يعاني كثيرًا ستضعفه أيضًا. إن كان على المرء أن يختار بين الاثنين فعليه أن يُنهك الجسد بدلًا من أن يدلــله، لذلك فمن الأفضل أن يُقلل الإنسان من الطعام والنوم ويزيد من عمل الجسد؛ لأن حينها سيوضح له جسده خطأه في الوقت الحاضر. ولكن إن دللت الجسد فلن تدرك خطأَك الآن، ولكن فيما بعد حينما ستجده قد أصابه الضعف والمرض.

-١٠-

امتنع سقراط عن تناول أي طعام بهدف التذوق، لا بهدف إسكات الجوع، وقد أقنع تلاميذه بذلك. قال لهم إن الإفراط في الطعام والشراب لا يلحق ضررًا بالجسد فقط، ولكن بالروح أيضًا، ونصحهم بترك الطعام بينما لا يزالون يشعرون بالرغبة في تناوله. لقد ذكَّر تلاميذه بتلك الحكاية عن ذلك الحكيم عوليس، وكيف لم تتمكن الساحرة من فتن لبه لسبب وحيد؛ هو أنه لم يستمر في تناول الطعام مع رفاقه فور أن هجموا على الطعام الشهي، فتحولوا جميعًا إلى خنازير.

-١١-

يبدو أنه لا بد وأن يفهم المثقفون والأغنياء وأولئك الذين يطلقون على أنفسهم «متنورين» أنه ما من شيء صالح في النهم والسكر وفي الثياب الفاخرة، فأولئك الناس تحديدًا هم مَن ابتكروا الأطعمة الشهية وشرب الخمور المسكرة وارتداء الثياب الفاخرة، وبالإضافة إلى إفساد أنفسهم يقنعون الطبقة العاملة بذلك: «إن كان المثقفون قد وجدوا السرور في الحياة الفاخرة، فلا بد وأنها ضرورية». هكذا يقول أفراد الطبقة العاملة ويفسدون

حياتهم بمحاكاة الأغنياء.

-١٢-

في أيامنا هذه يعتقد القطاع الأكبر من الناس أن نعمة الحياة في خدمة الجسد. وهذا بسبب أن أكثر التعاليم شيوعًا الآن هي تعاليم الاشتراكيين[٤٣]، فالحياة ذات الاحتياجات القليلة طبقًا لتعاليمهم هي حياة بهيمية، وزيادة الاحتياجات هي سمة الإنسان المثقف الأولى، وعلامة إدراكه لكرامته الإنسانية. وقد صدق الناس في زماننا هذا ذلك التعليم الكاذب الذي لم يكن يواجهه الحكماء قديمًا سوى بالسخرية.

-١٣-

(انظرْ إلى العبد وكيف يعيش. إنه يريد إطلاق سرحه قبل كل شيء، فهو يعتقد أنه دون ذلك لا يمكنه أن يعيش حرًّا أو سعيدًا. إنه يقول: إن أطلقوا سراحي، سأشعر الآن بالسعادة كاملةً. لن أكون مضطرًّا لخدمة سيدي والتزلف إليه، بل سيمكنني أن أتحدث إليه في أي وقت كندٍّ لي، وسيمكنني أن أذهب أينما أشاء دون أن يسألني أحد عن وجهتي.

وفور أن يطلقوا سراحه يسعى مباشرة إلى تناول طعام أفضل، وهو مستعد لارتكاب كل أنواع الفواحش كي يفعل ذلك، وفور أن يُحاكي الأغنياء يسقط ثانية في شرك العبودية التي أراد أن يتخلص منها.

إن أصاب هذا الإنسان الثراء سيجلب لنفسه محظية، وهي عبودية أسوأ. وإن ازداد ثراؤه، ستقل حريته. وحينها ستبدأ المعاناة ويبدأ البكاء. وحين تزداد

(٤٣) الحقيقة أن أغلب المفكرين الاشتراكيين يؤكدون على العكس. ربما كان بعضهم في وقت تولستوي يردد فحوى هذه التعاليم، إلا أن كثير من الاشتراكيين الإنسانيين قد أكدوا على العكس فيما بعد مثل إريش فروم.

صعوبة حياته سيتذكر عبوديته الماضية، ويقول: كان الحال على ما يرام عند سيدي. لم أكن أحمل همَّ شيء، وكانوا يكسونني الثياب، ويزودون قدمي بالحذاء، ويطعمونني، ولم أكن أُصب بالمرض أبدًا، وكانوا يعتنون بي. ولم يكن عمل الخدمة صعبًا. ولكن كم من الأعمال عليَّ أن أقوم بها الآن! كان لديَّ سيدٌ واحدٌ، لكني الآن لديَّ الكثير منهم. كم من السادة عليَّ أن أخدمهم!).

«إبيكتيتوس».

شراهة شهوات الجسد:

-١-

كي نحفظ حياة الجسد، لسنا في حاجة إلى الكثير. أما إرضاء نزواته، فهو أمرٌ لا ينتهي أبدًا.

-٢-

يمكن بسهولة تلبية احتياجات جسد الإنسان. فليس من الصعب توفير ما يكسو به جسده، وكسرة خبز لإخماد الجوع. ولكن لا يمكن لقوة على الأرض أن تجعل الإنسان يلبي كل ما يتمناه.

-٣-

الطفل الذي لا يمكنه التفكير بعمق، يبكي ويصرخ عندما لا يمنحونه ما يرغب فيه جسده. ولكن فور أن يمنحوه ذلك، يهدأ ولا يسأل شيئًا آخر. ولكن ليس الأمر هكذا مع البالغين الذين يبددون حياتهم بأكملها في الجسد لا الروح. إنهم لا يهدؤون أبدًا، وطوال الوقت يشعرون أنهم في حاجة لشيء ما.

-٤-

إشباع رغبات الجسد، والإفراط في تقديم أشياء فوق احتياجاته خطأ كبير؛ لأن الحياة المترفة لا تؤديَ لشيء سوى قلة الرضا التي يبعثها الغذاء والراحة

والنوم والثياب والسكن. إن تناولت طعامًا شهيًّا بإفراط دون شعور بالجوع، ستكدر المعدة، وستشعر بعدم السرور من الطعام. إن ذهبتَ راكبًا إلى مكانٍ يمكنك أن تذهب إليه سيرًا على الأقدام، وإن تعودت على الثياب الناعمة والطعام الشهي والزينة المترفة في المنزل، واعتدت على إجبار الآخرين على القيام بما تستطيع القيام به بنفسك، فلن تشعر بالسرور من الراحة بعد العمل ولا بالدفء بعد البرد ولا بالنوم العميق، وسيزداد جسدك ضعفًا واضطرابًا، وستتلاشى فرحتك وكذلك هدوؤك وحريتك.

-٥-

على البشر أن يتعلموا من الحيوانات كيف يمكنهم تدبر شؤون أجسادهم؛ فما إن يحصل الحيوان على ما يلزم جسده فقط، حتى يهدأ. أما الإنسان فلا يقتصر الأمر معه على إشباع جوعه والفرار من تقلبات الجو السيئ بتدفئة نفسه، إنه يبتكر كل أنواع الأكلات الشهية المختلفة، ويشيد القصور، ويُعد ثيابًا زائدة عن الحد، ويتزود بكل أنواع الترف التي ليس في حاجة إليها، والتي لا تؤدي لتحسين حياته، بل تجعلها أسوأ.

خطية الإفراط في الطعام:

-١-

إن تناول الناس الطعام فقط عندما يشعرون بالجوع، وتناولوا طعامًا بسيطًا صافيًا صحيًّا، لما عرفت أجسادهم المرض، ولوجدوا أن محاربة شهواتهم أمر سهل.

-٢-

قال أحد الحكماء: «أشكرُ الله على أنه قد جعل كل ما هو ضروري سهلًا، وكل ما هو غير ضروري صعبًا». وهذا الكلام صحيح بشكل خاص فيما يتعلق

بالطعام. الطعام اللازم للإنسان حتى يكون في حالة صحية جيدة ويمكنه العمل بسيط ورخيص: الخبز والفاكهة والخضراوات والماء. يمكننا أن نجد هذه الأنواع في كل مكان. ولكن من الصعب إعداد طعامًا بارعًا مثل المثلجات في الصيف وما إلى ذلك. هذه الأطعمة بالإضافة إلى أنها صعبة الإعداد، ضارة أيضًا. هكذا فإن مَن يأكلون الخبز والماء والكاشا[٤٤] ويتمتعون بالصحة ليس عليهم أن يحسدوا الأغنياء وأطعمتهم الفاخرة؛ بل على الأغنياء أن يحسدوا الفقراء ويتعلموا منهم كيف يتناولون طعامهم.

-٣-

قليلون مَن يموتون جوعًا، وكثيرون جدًّا مَن يموتون من فرط تناول الطعام الفاخر وعدم العمل.

-٤-

علينا أن نأكل كي نعيش، لا أن عيش كي نأكل.

-٥-

ما الأنفع: أن ننفق أربع ساعات في الأسبوع في إعداد الخبز، ثم نتناول طوال الأسبوع هذا الخبز بصحبة الماء، أم أن ننفق إحدى وعشرين ساعةً في الأسبوع في إعداد الطعام الشهي اللذيذ؟ ما الأكثر قيمةً لدينا: سبعة عشر ساعة في الأسبوع أم الطعام الشهي؟

خطية تناول اللحوم:

-١-

كان الحكيم اليوناني فيثاغورس لا يتناول اللحوم. وعندما سألوا الكاتب

(٤٤) عصيدة مصنوعة من الحبوب المطبوخة.

اليوناني بلوتارخ الذي كتب عن حياة فيثاغورس عن سبب عدم تناول فيثاغورس اللحوم وهدفه من ذلك، أجاب أنه لا يتعجب من أن فيثاغورس لم يكن يتناول اللحوم، لكنه يتعجب من أن الناس الذين يستطيعون أن يملؤوا بطونهم بالحبوب والخضر يصطادون الحيوانات ويذبحونها ويتناولون طعامها.

-٢-

حتى في أقدم العصور كان الحكماء يعلمون أنه ليس من الضروري أن يتناول الإنسان لحوم الحيوانات، بل عليه أن يكتفي بتناول النباتات، لكن أحدًا لم يصدقهم، ولا يزال الناس يتناولون اللحوم. ولكن في زماننا، ومع مرور كل عامٍ يزداد عدد الناس الذين يعتبرون أن تناول اللحوم خطيئة ويمتنعون عن تناولها.

نحن نشعر بالدهشة حينما نعرف أنه كان -ولا يزال- هناك بشر في إفريقيا يتناولون لحوم الموتى من البشر، ولكن سيأتي وقت حينما سنندهش فيه متسائلين كيف يمكن للبشر أن يقتلوا الحيوانات ويتناولوا طعامها.

-٣-

لعشرة أعوام تمدك البقرة بالغذاء، وتمدك الخراف بالثياب والتدفئة عن طريق صوفها. بماذا تُكافئُهم؟ بالذبح وتناول لحومهم!

-٤-

(إن لم نكن نتمتع بالشراهة، لما سقط طائر واحد في شباكنا، ولما اصطاد صائد الطيور طيرًا واحدًا، ولكن الناس يصطادون بسبب الإغواء. إن المعدة تمثل قيودًا باليد وأصفادًا على القدمين. عبد المعدة دائمًا على نفس الحال. إنه يريد التحرر من المعدة قبل كل شيء، ويتصارع معها.

لا تتناول الطعام إلا لكي تُسكت جوعك. لا تأكل كي تستمتع).

«سعدي الشيرازي»[٤٥].

-٥-

إن وصية «لا تقتل» ليست متعلقة بالإنسان فقط؛ بل بكل ما هو حيّ. وهي وصية مكتوبة في قلب كل إنسان قبل أن تُكتب في سيناء.

-٦-

(إن الرحمة بالحيوانات سمة ترتبط بالشخصية الفاضلة، ويمكن أن نؤكد بكل ثقة أن مَن يتعامل بقسوة مع الحيوانات لا يمكنه أن يكون فاضلًا).

«شوبنهاور».

-٧-

(لا ترفع يدك على أخيك، ولا تهرق دم أي كائن حيّ على هذه الأرض: لا دماء بشر ولا حيوانات أليفة أو متوحشة ولا طيور. ثمَّ صوت نبوي داخل أعماق روحك يمنعك عن ذلك، فالدم هو الحياة، والحياة لا يمكن إعادتها).

«لامارتين»[٤٦].

-٨-

ذلك السرور الذي يشعر به الإنسان عندما يشعر بالشفقة والرأفة على الحيوانات، سيعوضه أكثر مائة مرة من ذلك الذي سيشعر به عندما يصطاد

---

(٤٥) شاعر ومتصوف فارسي، تميزت كتاباته بأسلوبها الجزل الواضح وقيم أخلاقية رفيعة، مما جعله أكثر كُتَّاب الفرس شعبيةً، فتخطت سمعته حدود البلدان الناطقة بالفارسية إلى عدد من مناطق وأقاليم العالم الإسلامي، وبلغت الغرب أيضًا.

(٤٦) ألفونس دو لامارتين: شاعر وسياسي فرنسي. يُعدّ أحد أكبر شعراء المدرسة الرومانسية الفرنسية. خاض غمار السياسة، فتولى رئاسة الحكومة المؤقتة، بعد ثورة ١٨٤٨. من أشهر أعماله "تأملات شعرية"، و"جوسلين"، و"سقوط ملاك".

الحيوانات ويتناول لحومها.

خطية إدمان الخمور والتبغ والأفيون وما إلى ذلك:

-١-

كي يحيا الإنسان حياة صالحة، فإن أكثر ما يحتاجه هو العقل، لذا فعليه أن يرعاه بعناية أكثر من أي شيء آخر، بينما هناك من البشر مَن يجدون متعتهم تحديدًا في إهلاك هذا العقل بالتبغ والخمر والفودكا والأفيون، فما سبب ذلك؟ السبب يتلخص في أنهم يريدون أن يحيوا حياة فاسدة، وإن لم يهلكوا العقل فسيشير إليهم إلى فساد الحياة التي يحيونها.

-٢-

لو يكن للتبغ والخمور والأفيون تأثير شديد على العقل، ولو لم يكن كل ما سبق يهلكه، ويمنح الإنسان إرادة كي يقوم بأفعال شريرة، لم يكن أحد ليشرب الخمور أو يستنشق رائحة الشراب المرير والدخان.

-٣-

لماذا لدى الناس عادات مختلفة، بينما عادة التدخين والسُّكر واحدة عند الجميع أغنياء كانوا أو فقراء؟ هذا لأن غالبية البشر لا يشعرون بالرضا عن حياتهم، وهذا لأنهم يسعون خلف إرضاء الجسد، ولا يمكن للجسد أبدًا أن يمنح الإنسان شعورًا بالشبع، ولهذا فهؤلاء الذين لا يشعرون بالرضا -أغنياء كانوا أو فقراء- يحاولون النسيان عبر التدخين والسُّكر.

-٤-

إنسان يسير في قلب الليل، ومصباحه في يده، يتعثر في طريقه... يضل عنه، ثم يعود إليه مرة أخرى. ثم يمل الرجل من تيه الطريق، ويطفئ مصباحه، ويذهب لينام في أي مكان يجده.

أليس هذا هو ما يفعله الإنسان عندما يربك نفسه بالتبغ والخمور والأفيون؟! من الصعب أن يتخبط الإنسان في طريق الحياة، ويتعثر، ثم يتعثر ثانية ويحيد عن الطريق.

وهناك أناس يُطفئون نور العقل الذي فيهم بالتدخين والسُّكر؛ كي لا يشعروا بالتعب من ضلال الطريق.

-٥-

إن أفرط الإنسان في تناول الطعام من الصعب عليه ألا يكون كسولًا. وإن شرب الإنسان حتى السُّكر، فمن الصعب عليه أن يكون طاهرًا.

-٦-

لا الخمور ولا الأفيون ولا التبغ لازمة لحياة الإنسان. يعلم الجميع أن لها جميعًا تأثيرًا ضارًّا على الجسد والروح. وبينما يتعاطون هذه السموم يتبدد عمل ملايين الناس[٤٧]. لماذا يقومون بذلك إذنْ؟ السبب أنهم بعد أن سقطوا في خطية خدمة الجسد، ورأوا أن الجسد لا يمكنه أبدًا أن يمنحهم الإشباع ابتكروا هذه الوسائل التي تخدرهم بقوة حتى يتمكنوا من نسيان أن ليس لديهم ما يرغبون فيه فعلًا.

-٧-

إن قضى إنسان حياته في خدمة الجسد ولم يحصل على ما يرغب فيه، سيحاول أن يخدع نفسه، ويضع نفسه في ذلك الوضع الذي يبدو له فيه أن لديه ما يرغب فيه؛ سيخدر نفسه بالتبغ والخمر والأفيون.

-٨-

لم يحدث أبدًا أن قام أي شخص بشرب الخمور أو تعاطي التبغ أو

(٤٧) المقصود هم الملايين الذين يعملون في مصانع التبغ والخمور وما إلى ذلك.

المخدرات؛ كي يقوم بفعل صالح مثل العمل، أو التفكر في قضية ما، أو زيارة مريض، أو الصلاة لله. أغلب الأفعال الشريرة تتم في حالة من السُّكر.

-٩-

عندما تخدر نفسك، فإنك لا ترتكب جريمة، بل تعد نفسك لها.

-١٠-

ثمة ثلاث بلايا: السُّكر- تناول اللحوم- التدخين.

من الصعب أن يتخيل المرء حجم التغيير الجيد الذي يمكن أن يصيب حياتنا إن توقفنا عن تخدير أنفسنا بالفودكا وكل أنواع الخمور والتبغ والأفيون[٤٨].

خدمة الجسد تضر بالروح:

-١-

إن توفر لشخص واحد الكثير مما يفيض عن حاجته؛ فهذا يعني نقص لاحتياجات ضرورية لدى آخرين.

-٢-

من الأفضل أن تُناسب الثيابُ الضميرَ، من أن تُناسب الجسد.

-٣-

كي تُدلل جسدك، سيتوجب عليك أن تقسو على روحك.

-٤-

مَن الأفضل؟ الذي يطعم نفسه من عرق جبينه إلى الدرجة التي يسد فيها

(٤٨) القارئ للأدب الروسي في العصر الذهبي سيدرك جيدًا حجم تأثير إدمان الخمور في إهلاك الناس، وفي ارتكاب الجرائم في القرى والمدن على السواء في تلك الفترة.

جوعه فقط، ويرتدي ما يستر عريه فقط، ويبني نفسه بما لا يجعلها فقط كئيبة باردة، أم التسول والخدمة، أم الأكثر شيوعًا من ذلك وهو الاحتيال والحصول بالعنف على الطعام الشهي والثياب الفاخرة والملكيات؟

-٥-

لا تعوِّدْ نفسك على الترف؛ لأنه كلما تساهلتَ مع جسدك، كلما توجَّب عليك أن تشقى من أجله ومن أجل أن تطعمه وتكسوه وتهتم به. مَن لا يلحظون ذلك الخطأ، هم فقط الذين استطاعوا أن يدبروا حياتهم بالخداع بطريقة أو بأخرى؛ كي يجبروا الناس على العمل لا من أجل أنفسهم بل من أجلهم، ولذلك فالأمر لا يتوقف على عدم ملاحظة الأغنياء من الناس لذلك، بل إنهم يرتكبون الشرور بسبب تعودهم على الترف.

-٦-

إن لم يكن الناس قد ابتكروا كل أساليب الترف في السكن والثياب والطعام، لكان كل المعوزين الآن يعيشون دون عوز، والأغنياء دون خوف على أنفسهم وعلى ثرواتهم.

-٧-

أولى قواعد الحكمة معرفة الذات؛ لأن وحده مَن يعرف ذاته هو مَن يمكنه أن يعرف الآخرين. كذلك فأولى قواعد الرحمة والإحسان هي الرضا بالقليل، فوحده هذا الإنسان مَن يمكنه أن يحسن على الآخرين.

«جون راسكن»[٤٩].

(٤٩) جون راسكن كان شاعرًا إنجليزيًّا وناقدًا فنيًّا ومفكرًا اجتماعيًّا، وله العديد من المؤلفات والأعمال الأدبية والفنية، وقد كان لكتاباته وفنه أثر كبير في العصر الفكتوري والعصر الإدواردي.

-٨-

أن تعيش فقط من أجل جسدك، يعني أن تقوم بما قام به ذلك العامل الذي بدلًا من أن يشتري بمال سيده الحاجات اللازمة للعمل كما طلب منه سيده، بدَّد المال في اللهو.

لقد منحنا الله روحه؛ كي ننفذ عمله حتى نحيا حياة صالحة، بينما نحن نبدد ذلك الروح في خدمة أجسادنا. وهكذا فنحن لا ننفذ إرادة الله، وبالتالي نحيا حياة شريرة.

-٩-

من الطبيعي ألا يشعر الإنسان العاقل بالرغبة في الانغماس في الملذات، ومن الطبيعي أن يناضل ضدها دائمًا، ويمكن للجميع أن يستنتجوا بالتجربة من ذلك أنه كلما أرضى الإنسان احتياجات جسده، كلما ضعفت قوى روحه، والعكس صحيح. كان الحكماء والأتقياء دومًا يتمتعون بضبط النفس والعفاف.

-١٠-

(كما يدفع الدخان النحل للخروج من الخلية، كما يطرد النهم والسُّكر كل قوى الإنسان الروحية من داخله).

«باسيليوس الكبير»(٥٠).

-١١-

ليست كارثةً أن يُعاني الجسد من العمل الروحي، ولكن ليس حسنًا أن يعاني أثمن شيء في الإنسان -الروح- من شهوات الجسد.

---

(٥٠) كان باسيليوس قيصريًا والمعروف أيضًا باسم القديس باسيليوس الكبير الأسقف اليوناني للقيصرية، الموجودة في كبادوكيا، آسيا الصغرى وهو من أشهر وأهم رجال الكنيسة.

-١٢-

(مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ).

«محمد».

-١٣-

«حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ، يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا»[٥١]. هذا ما ذُكِرَ في الإنجيل. إن اعتبر الإنسان كنزه هو جسده، فسوف يبدد قواه حتى يمتع جسده بأطايب الطعام والسكن الهادئ والثياب الجميلة وكل أنواع اللذة. وكلما بدد قواه على الجسد، كلما قلل ما يتبقى من أجل حياة روحه.

وحده الحر هو مَن يتسيد على شهوات جسده:

-١-

إن عاش الإنسان من أجل جسده لا روحه، فكأنه طائر يسافر من مكان للآخر على قدميه الضعيفتين، بدلًا من أن يُحلِّق بجناحيه إلى المكان الذي يريده.

-٢-

(تعتقدون أن السعادة هي الطعام الشهي والثياب الفاخرة وكل أنواع الترف. لكني أعتقد أن عدم الرغبة في أي شيء هو منتهى السعادة، وكي يقترب الإنسان من هذه السعادة السامية عليه أن يُعوِّد نفسه ألا يحتاج إلى الكثير).

«سقراط».

-٣-

كلما قللتَ من إشباع الجسد بالطعام والثياب والسكن المريح واللهو،

(٥١) متى ٦: ٢١.

كلما ازدادت حريتك. وعلى النقيض من ذلك، كلما زدتَ من الطعام والثياب وراحة السكن واللهو، فلن تخلو أبدًا من الهموم ودواعي القلق.

-٤-

أن تحيا فقيرًا أفضل من أن تحيا غنيًّا؛ لأن الأغنياء يربطون أنفسهم بالخطايا أكثر من الفقراء. وخطايا الأغنياء مخادعة ومعقدة ومن الصعب إدراكها. أما خطايا الفقراء فغير خادعة، والتحرر منها سهل[٥٢].

-٥-

لم يأسف أحدٌ أبدًا على أنه قد عاش حياةً بسيطةً.

-٦-

كما تعود الأغنياء على خطية خدمة الجسد، ولم يعودوا يلاحظونها وصدقوا تمامًا أن هذا فعل واجب من أجل خير أبنائهم، فهكذا أيضًا يعودونهم من الأعوام الأولى على الإفراط في الغذاء والترف والبطالة، أي أنهم يفسدونهم ويعدونهم لحياة مليئة بالمعاناة الشديدة.

-٧-

ما يحدث مع المعدة عندما تُتخم بالطعام، يحدث مع اللهو. كلما حاول البشر أن يشبعوا شراهتهم أكثر في الطعام وابتكروا أنواعًا معقدة منه، كلما

(٥٢) لا يجب أن نفهم على الإطلاق هذه الكلمات في إطار محاولة تهدئة الفقراء للرضا بالظلم والاضطهاد، وتشجيع الأغنياء على التمادي في الظلم؛ لأن القارئ لكتابات تولستوي والكتابات التي كتبت عن حياته سيدرك جيدًا مدى الهجوم الرهيب الذي شنه تولستوي على الأغنياء ورجال الكنيسة والمثقفين في أيامه الذين جعلوا من حياة الناس مستحيلة، لكنه يتحدث هنا عن الفقر والغنى من حيث ارتباط الإنسان وتعلقه بالشهوات، لذا فالفقر عندما يكون اختياريًّا يختلف كثيرًا عن التضور جوعًا.

ضعفت بطونهم وقلَّت المتعة بالطعام. هكذا أيضًا كلما زاد الناس من الاستمتاع بأنواع معقدة من اللهو، كلما تلاشت سعادتهم أكثر.

-٨-

الجسد وحده مَن يختبر المعاناة، أما الروح فلا تعاني. كلما ضعفت الحياة الروحية، كلما زادت المعاناة، لذا فإن أردت ألا تعاني، عِش أكثر بالروح، وعِش أقل بالجسد.

* * *

الشهوة الجنسية

من الضروري أن يسعى الإنسان إلى العفة الكاملة:

-١-

من الحسن أن تعيش في زواج طاهر، ولكن من الأفضل ألا تتزوج على الإطلاق. عدد نادر من الناس مَن يستطيع أن يفعل ذلك. ولكن مَن يستطيع، فحسنًا أن يفعل ذلك.

-٢-

إن تزوج الناس بينما في إمكانهم ألا يتزوجوا، فإنهم يفعلون ما يفعله إنسان حين يسقط دون أن يتعثر. إن تعثرت فسقطت فليس في يدك شيء، ولكن إن لم تتعثر فلماذا سقطتَ؟ إن استطعت أن تعيش طاهرًا دون خطية، فمن الأفضل لك ألَّا تتزوج.

-٣-

ليس صحيحًا أن العفة أمر ضد الطبيعة الإنسانية. إنها ممكنة وتمنح الإنسان خيرًا أعظم من الزواج السعيد.

-٤-

الإفراط في الطعام يقضي على الحياة الفاضلة، ولكن الإفراط في الجنس أكثر خطورةً من الطعام، فكلما قلَّل الإنسان من تعلقه بهذا وذاك، كلما كان الأمر أفضل لحياته الروحية. الفارق كبير بين الإفراط في الطعام، وبين الإفراط في الجنس. إن تخلى الإنسان عن الطعام كاملًا فهو يدمر حياته، لكن عندما

يتخلى الإنسان عن الجنس لن تتوقف حياته ولا حياة الجنس البشري التي لا تعتمد فقط على ذلك.

-٥-

(غَيْرُ الْمُتَزَوِّجِ يَهْتَمُّ فِي مَا لِلرَّبِّ كَيْفَ يُرْضِي الرَّبَّ، وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجُ فَيَهْتَمُّ فِي مَا لِلْعَالَمِ كَيْفَ يُرْضِي امْرَأَتَهُ. إِنَّ بَيْنَ الزَّوْجَةِ وَالْعَذْرَاءِ فَرْقًا: غَيْرُ الْمُتَزَوِّجَةِ تَهْتَمُّ فِي مَا لِلرَّبِّ لِتَكُونَ مُقَدَّسَةً جَسَدًا وَرُوحًا. وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجَةُ فَتَهْتَمُّ فِي مَا لِلْعَالَمِ كَيْفَ تُرْضِي رَجُلَهَا).

«رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس الأولى ٧: ٣٢- ٣٤».

إن اعتقد المتزوجون أنهم يخدمون الله والبشر بزواجهم، لأنهم هكذا يسمحون للجنس البشر أن يستمر، فإنهم يخدعون أنفسهم. فبدلًا من زيادة عدد الأطفال، على هؤلاء الناس ببساطة أن يزيدوا أكثر من دعمهم في إنقاذ حياة ملايين الأطفال الجوعى الذي يموتون من الحاجة والإهمال.

-٧-

بالرغم من أن عددًا قليلًا جدًّا من الناس مَن يمكنهم أن يعيشوا في بتولية، إلا أن كل إنسان يدرك أنه يمكنه دومًا أن يكون أكثر عفافًا من الماضي، ويمكنه أن يعود إلى عفافه الذي خرقه، وأنه كلما اقترب الإنسان من العفاف الكامل، كلما حصل على نعمة حقيقية لنفسه، وكلما تمكن من خدمة القريب بشكل مستمر.

-٨-

يُقال إنه إن أصبح الجميع بتوليين، سينقرض الجنس البشري، ولكن طبقًا لإيمان الكنيسة فلا بد أن ينتهي العالم في النهاية، وطبقًا للعلم فلا بد للحياة البشرية أن تنتهي على الأرض؛ بل والأرض نفسها لا بد وأن تتلاشى،

فلماذا يشعر الناس بالصدمة حينما يدركون أن الحياة الأخلاقية الصالحة هي الأخرى ستؤدي إلى نهاية الجنس البشري؟

ما هو جوهري في ذلك الأمر هو أن ندرك أن نهاية الجنس البشري أو عدم نهايته ليست من شأننا. أما الذي من شأن كل واحد منا هو أمر واحد؛ ألا وهو أن يعيش حياة صالحة، والحياة الصالحة في علاقتها بالشهوة الجنسية تعني أن نحاول قدر الإمكان أن نعيش في عفاف.

-٩-

أجرى أحد العلماء دراسة، ذكر فيها أنه إن تضاعف عدد البشر كل خمسين عام -كما يحدث الآن-، ففي غضون سبعة آلاف عام سيكون عدد الناس الذين ينتجهم زواج واحد هائلًا، حتى إنهم إن وقفوا بجانب بعضهم البعض كتفًا إلى كتف في كل أنحاء الكرة الأرضية، فيمكن للجزء السابع والعشرين فقط منهم أن يملأ الأرض كاملًا.

كي لا يحدث هذا علينا أن نقوم بأمر واحد فقط، وهو ما تحدث عنه كل حكماء العالم، وهو الموجود داخل قلب كل إنسان: إنه العفاف والسعي إلى أكبر درجة منه.

-١٠-

(قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَزْنِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ). متى ٥: ٢٧- ٢٨.

لا يمكن أن يكون لهذه الكلمات معنى آخر إلا أنه طبقًا لتعاليم المسيح فعلى الإنسان أن يسعى صوب العفاف الكامل. لكن الناس تقول: ولكن كيف يمكن أن يفعل الإنسان ذلك؟ إن تمسك البشر بالعفاف الكامل فهذا يعني أن الجنس البشري سوف يتلاشى. ولكن عندما يقول الناس ذلك، فإنهم يتناسون

أن السعي الواجب عليهم نحو الكمال لا يعني أنه على الإنسان أن يصل إلى مرحلة الكمال تمامًا. لم يُعْطَ للإنسان أن يصل إلى الكمال المطلق، ولكن المطلوب من الإنسان أن يحاول الاقتراب من الكمال.

خطية الزنا:

-١-

يشعر الإنسان حيّ الضمير دومًا بالتقزز والخجل من مجرد التفكير والتحدث عن العلاقات الجنسية. حافظْ على هذا الشعور، فهو غير موجود داخل قلوب البشر عبثًا. إنه يساعد الإنسان أن يحفظ نفسه من خطية الزنا، وأن يعيش في عفاف.

-٢-

يطلقون كلمة «الحب الروحي» على التالي: حب الله، وحب القريب، والحب الجنسي الذي يكنه الزوج للزوجة أو العكس. هذا خطأ كبير. لا يوجد شيء مشترك بين هذين الشعورين. الأول: حب الله وحب القريب هو صوت الله، أما الآخر وهو الحب الجنسي بين الزوج والزوجة فهو صوت الجسد.

-٣-

يعيش روح الله داخل كل البشر، الأزواج منهم والزوجات. فيا لها من خطية أن نتعامل مع حامل الروح الإلهي كمصدر للمتعة! يجب أن تكون كل امرأة بالنسبة للرجال شقيقة قبل أي شيء آخر، وكل رجل بالنسبة للنساء شقيقًا.

-٤-

قانون الله الذي يقضي بحب الله والقريب مقصود به كل البشر بلا استثناء، ولكن في العلاقة الجنسية يُكِنُّ الرجل لامرأة بعينها حبًّا أكثر من بقية البشر، وكذلك تفعل المرأة، ولذلك فالحب الجنسي يُلهي الإنسان عن تنفيذ قانون الله.

الكوارث التي تنتج عن الإغواء الجنسي:

-١-

(طالما لم تقضِ تمامًا بعد على الشبق الذي في داخلك والتعلق بالنساء، ستظل روحك متعلقة بكل ما هو أرضي، كتعلق الطفل بثدي أمه.

الناس الذين استولت عليهم الشهوة والشبق يتعثرون كالأرنب في المصيدة. وطالما ظلوا عالقين داخل قيود الشهوات الجنسية ستستمر آلامهم ومعاناتهم طويلًا).

«حكمة بوذية».

-٢-

طارت فراشة ليلية فوق النيران؛ لأنها لا تعلم أن أجنحتها سوف تحترق. وابتلعت سمكةٌ طعم الصنارة؛ لأنها لا تعلم أن هذا سوف يقضي عليها. لكننا نعلم أن الشهوة الجنسية لا بد أنها ستمسك بنا في شباكها وستقضي علينا، ورغم ذلك نمنح أنفسنا لها.

-٣-

(كما تقود اليراعات البشر صوب المستنقع ثم تسقط هي نفسها، كذلك تفعل فتنة الشهوة الجنسية بالبشر. يتلطخ الناس ويفسدون حياتهم بها. وعندما ينخدعون ويتقهقرون إلى الخلف، يكون الأوان قد فات؛ فقد دمروا حياتهم).

«شوبنهاور».

الموقف الآثم تجاه الزنا من قِبل الحكومة ومرشدي البشر:

-١-

كي نفهم بوضوح حياة الشعوب المسيحية اللا أخلاقية والمناقضة

للمسيحية، علينا أن نذكر فقط أمرًا واحدًا؛ ألا وهو أن الحكومة في كل مكان تسمح بعمل العاهرات؛ بل وتنظم الأمر.

-٢-

في أوساط الأغنياء تنامت قناعة يدعمها العلم الكاذب؛ ألا وهي أن العلاقة الجنسية ضرورية للصحة، وأن الزواج ليس ممكنًا طوال الوقت، لذا فالعلاقة الجنسية خارج إطار الزواج لا تُلزِم الرجال بشيء سوى بمبلغ من المال، وهو أمر طبيعي تمامًا. هذه القناعة أصبحت إلى حد كبير عامة وراسخة، حتى إن الوالدين يرتبون الإغواء والفسق من أجل أبنائهم، وهكذا تفعل الحكومة والتي من المفترض أن واجبها الوحيد هو رفاهية المواطنين، فتسمح بوجود طبقة من النساء يُهلكن أنفسهن جسديًا وروحيًا من أجل إغواء الرجال.

-٣-

القول بأن العلاقات الجنسية مفيدة أو ضارة لصحة الرجال، وأنهم لن يستطيعوا العيش من دونها، يشبه تمامًا إثارة النقاش حول ما إن كان شرب دماء الناس مفيد أو ضار لصحة الإنسان.

نضال الإنسان ضد خطيئة الزنا:

-١-

إن سلك الإنسان كالحيوان، فعليه أن يقاتل المخلوقات الأخرى، ويتكاثر كي يزيد بني جنسه، ولكن كإنسان عاقل محب فعليه ألا يقاتل المخلوقات الأخرى؛ بل أن يحب الجميع ولا يتكاثر بهدف زيادة عدد بني جنسه؛ بل أن يسلك بعفاف. ينتج عن لقاء هذه الصراعين المتناقضين أن يكافح الإنسان في نضاله ضد الشهوة الجنسية وسعيه صوب الحب والتعفف، وحينها يسيطر على حياته كما لا بد له أن يفعل.

-٢-

ما العمل مع الشباب والشابات الأطهار حينما تتأجج بداخلهم الشهوة الجنسية؟ ما الذي يجب أن يرشدهم؟

عليك أن تحفظ نفسك طاهرًا وتكافح صوب الوصول إلى التعفف أكثر فأكثر في أفكارك ورغباتك.

ماذا يفعل الشباب والشابات الذين سقطوا في الإغواءات والذين سيطرت على أذهانهم أفكار الحب غير الموجه لهدف بعينه أو الحب صوب شخصية معينة؟

الأمر عينه: لا تسمح لنفسك بالسقوط، عالـمًا أن كل بلية لن تحررك من الإغواء؛ لكنها تُقوِّي فقط من إرادتك وهكذا فعليك أن تمضي صوب التعفف أكثر فأكثر.

-٣-

ماذا يفعل الناس حينما لا يقاتلون جيدًا ويسقطون؟

إن مشاهدة السقوط لا تشبه مراقبة متعة مشروعة كما يمكن أن يبررها الناس الآن ببعض الشعائر الطقسية، وليست متعة عارضة يمكن أن تكررها مع آخرين، وليست أيضًا كالتعاسة التي تشع بها عندما تقوم بالأمر مع شخص غير ندٍّ لك خارج إطار الزواج، بل انظرْ إلى هذا السقوط على أنه التزام بعلاقة زوجية سرمدية.

وماذا يجب أن يفعل الرجال والنساء المتزوجون؟

الأمر ذاته: على الزوج والزوجة أن يناضلا سويًا لتحرير نفسيهما من الشهوة الجنسية.

-٤-

السلاح الرئيس الذي يمكن أن نقاوم به في نضالنا ضد الشهوة الجنسية هو وعي الإنسان بروحانيته. يلزم الإنسان أن يتذكر مَن هو؛ لينظر إلى الشهوة الجنسية على أنها سمة من السمات المذلة للحيوان.

-٥-

(النضال ضد الشهوة الجنسية أمر واجب. ولكن يلزم الإنسان أن يدرك قوة عدوه مقدمًا، ولا يخدع نفسه بآمال كاذبة بالنصر السريع. إن الحرب مع هذا العدو تبدو صعبة. ولكن لا يجب أن تسقط الروح، رغم أن الإنسان لا بد وأن يحظى بهزائم على أي حال. لا تكتئب... عندما يتعلم الطفل المشي يسقط مئات المرات ويخطئ ويبكي وينهض مجددًا، ثم يسقط مرة أخرى لكنه يتعلم السير في نهاية الأمر.

لكن السقوط أمر مريع، والأسوأ منه تبرير السقوط... مريع هو ذلك الكذب الذي يعرض السقوط على أنه محتوم لا مفر منه أو أنه أمر سامٍ رائع. لكننا سنسير في طريق تحرير الذات من الأمور البطالة صوب الكمال متعثرين، وسنحاول بكل قوتنا التوجه صوب الكمال. لن نقول أبدًا إن الدنس هو قدرنا، ولن نكذب على أنفسنا بطرقة فلسفية أو شعرية ونبرر السقوط، بل سنذكر بثبات أن هذا شر وأننا لا نريد أن نفعله).

«إيفان ناجيفين»[٥٣].

-٦-

إن الحرب مع الشهوة الجنسية هي الأصعب، ولا يتحرر الإنسان من تلك الحرب إلا في أعوام الطفولة الأولى والأعوام الأخيرة من الشيخوخة، ولذلك

(٥٣) إيفان ناجيفين ١٨٧٤- ١٩٤٠، كاتب روسي.

فعلى البالغ -رجلًا كان أو امرأةً- لا الشيخ أن يكون حذرًا دائمًا من العدو الذي يتحين الفرصة فقط للهجوم عليه.

-٧-

كل الرغبات والعواطف تترعرع داخل الفكر، وتجد تأييدها من الأفكار. ولكن ما من عاطفةٍ تجد تأييدًا ودعمًا لها من الأفكار مثل الشهوة الجنسية. لا تتملَّ في الأفكار الجنسية، بل اطردها من عقلك.

-٨-

كما يتوجب على الناس أن يتعلموا من الحيوانات ضبط النفس بالنسبة للطعام وعدم تناوله إلا عند الشعور بالجوع وعدم تناول الطعام حد التخمة، على الناس أيضًا أن يتعلموا من الحيوانات ما يتعلق بالشهوة الجنسية، فهي تمسك عن الانخراط الكامل في الجنس، ولا تُقدم عليه إلا عندما تتعذر عليها السيطرة على الرغبة، وفور أن تظهر أعراض الحمل تتوقف عن الممارسة.

-٩-

كي تحيا حياة صالحة، عليك أن تكون متقشفًا جدًّا في حياتك الجنسية.

الزواج:

-١-

(فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَن لَّا يَمَسَّ امْرَأَةً، وَلَكِنْ لِسَبَبِ الزِّنَا، لِيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ امْرَأَتُهُ، وَلْيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ رَجُلُهَا).

«رسالة بولس إلى أهل كورنثوس الأولى ٧: ١- ٢.

-٢-

لا يمنح التعليم المسيحي الجميع القواعد ذاتها، لكنه يشير إلى كل منهم

إلى الكمال الذي يجب أن يسعى صوبه. هكذا هو الأمر أيضًا مع الشهوة الجنسية، فالكمال هو التعفف الكامل. ولكن الناس الذين لم يفهموا الروح المسيحية يريدون قواعد عامة لأجل الجميع. وهكذا ابتكروا لأجل هؤلاء البشر ذلك الزواج الكنسي. إن الزواج الكنسي ليس مسيحيًّا على الإطلاق؛ لأن السماح في ظروف معينة بالاتصال الجنسي من شأنه أن يصنع انسحابًا عن المتطلبات المسيحية، والتي تتلخص في السعي من قبل الجميع صوب الكمال أكثر فأكثر.

-٣-

الزواج هو تعهد بين اثنين: رجل وامرأة، بإنجاب أطفال من بعضهما البعض فقط. مَن لا يلتزم منهما بهذا التعهد، يصنع خطيئة من شأنها أن تجعل كل شيء يسير صوب الأسوأ بالنسبة له.

-٤-

كي تصل إلى هدفك، يجب أن تصوب نحوه. وكي يستمر الزواج إلى الأبد، على كل الزوجين أن يُخلص للآخر، ويجب أن يسعى كلاهما صوب العفاف.

-٥-

يخطئ جدًّا أولئك الذين يعتقدون أن الزواج الشعائري الكامل يُحررهم من ضرورة ضبط النفس في العلاقة الجنسية من أجل الوصول إلى الاتحاد الأخوي والعفاف أكثر فأكثر.

-٦-

إن كان الرجل يرى في العلاقة الجنسية -حتى وإن كانت داخل إطار الزواج- مصدرًا كبيرًا للذة، فسيقع حتمًا في الفجور.

-٧-

العلاقة التي يمكن أن تُنتج أطفالًا هي زواج حقيقي، وكافة أنواع الطقوس تتم في الغالب للاعتراف بعلاقة واحدة رسمية من قلب كل هذه العلاقات.

-٨-

كما أنه ما من أساس في التعليم المسيحي الحقيقي لقوانين الزواج الرسمية، كذلك لا يؤمن معاصرونا في العالم المسيحي بالزواج الكنسي، شاعرين أن هذه القوانين ليس لها أساس في التعليم المسيحي، وفي الوقت ذاته لا يعترفون بتعاليم المسيح عن العفة الكاملة، ويسيرون في حياتهم فيما يتعلق بالزواج دون أي إرشاد. وتنتج عن ذلك ظاهرة غريبة، وهي أن الشعوب التي تؤمن بتعاليم دينية أقل في مستواها بكثير من المسيحية لديها تعريفات محددة للزواج، مثل تأسيس الأسرة والثقة الزوجية، وهي أصلب بكثير جدًّا من الزواج الذي لدينا، والذي نطلق عليه مسيحيًّا. لديهم حدود في عدد المحظيات أو عدد الزوجات المسموح بهن، ولكن ليس مسموحًا بحالة غير محدودة من الفسق وتمتع بعدد لا نهائي من المحظيات أو الزوجات، مثل تلك السائدة في العالم المسيحي والتي تتخفى تحت الإطار المتخيل للزواج من واحدة فقط.

-٩-

إن كان الهدف من الطعام هو حصول الجسد على الغذاء اللازم له، فهذا يعني أن مَن يتناول وجبتين سويًّا قد يشعر بلذة أكبر، لكنه لن يحقق هدفه؛ لأن المعدة لن تستطيع هضم الوجبتين. إن كان الهدف من الزواج هو تكوين أسرة، فالذين يريدون أن يحظوا بأكثر من زوجة أو زوج قد يشعرون بلذة أكبر،

لكنهم لن يشعروا بالسرور الأساسي في الزواج، والذي يُبرره تكوين الأسرة. فيما يخص الطعام فالإنسان يصل إلى هدفه بصورة أفضل إن تناول الطعام فقط عندما تشعر بطنه بالحاجة إليه، وهكذا الأمر أيضًا مع الزواج، فهو يصل إلى هدفه حينما لا يكون لدى الزوج زوجات أكثر مما هو في حاجة إليهن، والأمر ذاته مع الزوجات لتربية الأطفال، وهذا ممكن فقط في حالة الزوج والزوجة الواحدة.

-١٠-

سألوا المسيح هل يمكن للإنسان أن يترك زوجته ويتزوج بأخرى؟ وأجاب المسيح عن ذلك قائلًا إن ذلك لا يجب أن يحدث، فالإنسان الذي يتزوج، عليه أن يتحد بزوجته حتى يصبحا جسدًا واحدًا، وهذا قانون الله، فإنَّ ما جمعه الله لا يفرقه إنسان.

وقد قال التلاميذ عن ذلك: إن الحياة مع زوجة واحدة فقط كما يقول أمر صعب. فأجابهم يسوع: إن الإنسان يمكنه ألَّا يتزوج على الإطلاق، ولكن عليه أن يحيا حياة طاهرة.

-١١-

حتى يصبح الزواج أمرًا عقلانيًّا وأخلاقيًّا، يجب الآتي:

أولًا: لا يجب أن يفكر كل رجل وكل امرأة -كما هو الأمر الآن- أنه لا بد له أو لها من الزواج قطعًا، بل على النقيض من ذلك على كل إنسان أن يفكر أنه خير له أن يحفظ طهارته؛ لكي لا يعوقه شيء عن خدمه إلهه بكل قواه.

ثانيًا: النظر إلى العلاقة الجنسية لأي شخص مع أي شخص على أنها علاقة زواج لا يمكن أن تنفصم.

ثالثًا: لا يجب النظر إلى الزواج على أنه وسيلة شرعية للسماح بمتعة الشهوة الجنسية كما هو الأمر الآن، بل كخطيئة يتطلب التحرر منها الوفاء

الكامل بواجبات المرء صوب أسرته.

انظر متى ١٩: ٤- ٧.

-١٢-

لا يتوقف الأمر على أن السماح بالزواج بين اثنين من جنسين مختلفين وممارسة الجنس لا يتفق مع التعاليم المسيحية عن العفاف، بل إنه يعارضها بشكل مباشر. إن العفاف في المسيحية هو ذلك الكمال الذي يحاول الإنسان الذي يعيش حياة مسيحية أن يقترب منه، لذا فكل ما يعوقه عن الوصول إلى العفاف -كالسماح بالعلاقات الجنسية- يناقض متطلبات الحياة المسيحية.

-١٣-

عندما ينظر الإنسان إلى الزواج كوسيلة للتحرر من السعي صوب التعفف، فهذا الزواج لا يصبح قيدًا للشهوة، بل وقودًا لها. للأسف هكذا ينظر معظم البشر إلى الزواج.

-١٤-

فكِّر عشرًا وعشرين ومائة مرة قبل أن تتزوج في أنك ستربط حياتك بحياة إنسان آخر برباط جنسي، وهو أمر شديد الأهمية.

التكفير عن الخطايا الجنسية:

-١-

إن وصل البشر إلى التعفف الكامل، لتوقف الجنس البشري عن الوجود، ولم يكن أحد ليعيش على هذه الأرض؛ لأن الناس كانوا سيصبحون كالملائكة الذين لا يتزوجون كما قيل في الإنجيل. ولكن طالما البشر لم يصلوا بعد إلى الكمال في التعفف، فعليهم إذنْ أن يأتوا إلى الأرض بأجيال جديدة يمكنها أن تحقق ذلك الكمال الذي يجب أن يصل إليه البشر.

-٢-

إن الزواج الحقيقي الذي يتألف من إنجاب الأطفال وتربيتهم يمكن أن يكون وسيلة غير مباشرة لخدمة الله عبر الأطفال. «إن لم أفعل ما يمكنني فعله وما يتوجب عليَّ فعله، فسوف يقوم أطفالي نيابة عني بفعله».

لذا نجد لدى المتزوجين الذين يريدون إنجاب أطفال ذلك الشعور دائمًا، الذي يمثل نوعًا من السلوى والراحة، فهم ينقلون جزءًا من واجباتهم إلى أطفالهم المستقبليين. لكنه شعور مبرر فقط عندما يحاول الزوجان تربية الأطفال بحيث لا يعوقوا عمل الله، بل ينشأون على أن يصبحوا خدمًا له. إدراك أنه إن لم يمكنني أن أكرس نفسي كاملا لله فإنه يمكنني أن أفعل ذلك عبر أطفالي، يمنح الزواج والتربية بُعدًا روحيًا.

-٣-

(الطفولة المباركة تنقل لنا بُعدًا سماويًا على هذه الأرض القاسية. هذه المواليد التي تبلغ ثمانين ألف مولود في كل يوم كما تخبرنا الإحصائيات تنشئ تدفقًا من البراءة والطزاجة، والتي تناضل ليس فقط ضد اختفاء الجنس البشري؛ بل أيضًا ضد تشوهه وضد إفساد الخطيئة كاملًا له. بإمكان الطفولة والمهد بعث كافة المشاعر الصالحة في الإنسان وهو ما يمثل إحدى أسرار العناية الإلهية العظيمة.

أما القضاء على هذه النداوة العذبة عبر دوامة من الشهوات الأنانية فهي كالنار، من شأنها أن تجفف المجتمع البشري كاملًا.

إن افترضنا أن الإنسانية تألفت من مليار من المخلوقات الخالدة، وعددها لا يمكنه أن يزيد أو يقل، فيا إلهي على ما كنا سنصبح عليه! يقينًا لكنا قد أصبحنا أكثر ذكاءً ألف مرة، ولكن أسوأ ألف مرة.

ولهذا فطوبي لتلك الطفولة المباركة من أجل الخير الذي تمنحنا إياه دون أن تدركه أو حتى ترغب فيه، لكنها تجبر نفسها وتسمح لها بالحب. وبسبب هذا وحده يمكننا أن نختبر جزءًا من الفردوس على هذه الأرض.

طوبى للموت. ليس بإمكان الملائكة أن تحتاج إلى الولادة أو الموت كي تعيش، ولكن البشر لا بد لهم من ذلك بالإضافة إلى أمور أخرى).

«أميل»[٥٤].

-٤-

وحدهم الأطفال مَن يبررون ويقدسون الزواج، فإن لم نستطع أن نفعل بأنفسنا كل ما يطلبه الله منا، فمن الممكن أن نقوم به عبر الأطفال، ومن الممكن عن طريقهم أن نخدم الله. لذا فالزواج الذي لا يريد طرفاه أن ينجبا أطفالًا أسوأ من الزنا وكل أنواع الفسوق.

-٥-

بين الأغنياء من الناس مَن يرى الأطفال بمثابة عائق عن الحصول على المتعة، أو أنهم قد أتوا عن طريق مصادفة تعيسة أو أنهم نتاج للمتعة، وعندما ينجب الوالدان الأطفال بعدد معين، لا يتم تربيتهم في ضوء هذه الاعتبارات الإنسانية التي يستحقونها كمخلوقات عاقلة محبة، بل يتم تربيتهم في ضوء تلك الظروف التي يستطيع الوالدان توفيرها. القسم الأكبر من تربية هؤلاء الأطفال لا يحظى بالاهتمام الرئيس من الوالدين الذين يجب أن يُعدا أطفالهما لنشاط إنساني حق، بل يهتم الوالدان فقط -مدعمين في هذا بأفكار العِلم الكاذب الذي يطلق على نفسه علم الطب- بتنشئة أجسادهم وزيادة أطوالهم

(٥٤) هناك عدة شخصيات بهذا الاسم، ولكن المرجح أن المقصود هو هنري فريدريك أميل (١٨٢١-١٨٨١) وهو كاتب وشاعر سويسري.

والعناية بنظافتهم ونظافة ثيابهم، وإطعامهم حد التخمة واحمرار وجوههم، وبالتالي جعلهم مخنثين وحسيين. الثياب والقراءة والعروض والموسيقى والرقص والطعام الشهي وكل ظروف الحياة التي نجدها في الرسومات الفنية والروايات والقصص والشعر تؤجج من تلك الحسية، ولا ينتج عن كل ذلك سوى أسوأ النواقص والأمراض الجنسية، تلك التي تغير ظروف النمو الطبيعية لأولئك الأطفال التعساء أبناء الأغنياء.

-٦-

بدلًا من أن تصبح ولادة الأطفال مبرر وهدف العلاقات الجنسية، تفقد مغزاها بالنسبة لأولئك الذين ينظرون إلى الحب الجنسي كمصدر للمتعة، وتصبح عائقًا أمام استمرار المتع. لذا فإن وسائل منع الحمل آخذة في الانتشار بين المتزوجين وغيرهم. لا يتوقف الأمر على أن هؤلاء الناس يحرمون أنفسهم من الفرحة الوحيدة ومن الافتداء الذي من الممكن أن يمنحهما إياه الأطفال، بل يتجاوز الأمر ذلك حتى يصل إلى أنهم يحرمون أنفسهم من نموذج الكرامة الإنسانية.

-٧-

على الإنسان أن يسمو عن البهائم في كل مناحي الحياة خاصة في إنجاب الأطفال، ولا يتدنى تحت هذا المستوى أبدًا. ولكن البشر أدنى من الحيوانات في أغلب نواحي الحياة. إن الحيوانات لا تلتقي جنسيًا سويًا إلا عندما يكون إنجاب الأطفال ممكنًا، أما الرجال فيعاشرون النساء من أجل المتعة دون أن يفكروا ما إن كان بإمكانهم أن ينجبوا أطفالًا عن هذه المعاشرة أو لا.

-٨-

ليس من شأننا أن نفكر ما إن كان إنجاب الأطفال يمثل خيرًا أو لا. ولكن ما هو من شأننا أن نقوم بواجبنا تجاه هذا الأمر إن أنجبنا أطفالًا.

الحياة البطَّالة على حساب عمل الآخرين

ليس من العدل أن تستفيد من عمل الناس أكثر مما تقدمه إليهم. ولكن لأنه من المستحيل أن يزن المرء بالضبط ما يقدمه إلى الناس وما يأخذه منهم، وبالإضافة إلى أنه يمكنك في أي لحظة أن تصبح عاجزًا عن العمل أو مريضًا وتضطر إلى الأخذ دون أن تعطي، لذلك طالما لديك قوة عليك أن تزيد من عملك من أجل الناس، وتقلل من أخذك ناتج عملهم بقدر ما تستطيع.

خطيئة عظيمة أن يعيش المرء عالةً على الآخرين دون أن يعمل:

-١-

(مَنْ لَا يُرِدْ أَنْ يَعْمَلَ، فَلَا يَأْكُلْ).

«بولس الرسول».

-٢-

بينما تستخدم أي شيء، تذكر دائمًا أنه نتاج لعمل إنساني، وأن تبديد وتدمير وإفساد هذا الشيء يعني أنك تبدد عملًا وأحيانًا حياة شخص.

-٣-

(مَن لا يأكل من عرق جبينه ويجبر الآخرين على إعالته، هو آكل لحوم بشر).

«حكمة مشرقية».

-٤-

يمكن تلخيص كل الأخلاق المسيحية عند التطبيق العملي في أن تعتبر الجميع إخوة لك، وجميعهم مُساوٍ لك، وكي تقوم بذلك عليك أن تتوقف قبل كل شيء عن إجبار الآخرين على العمل من أجلك، وكي ندبر أمور الحياة العامة علينا أن نقلل قدر الإمكان من استغلال عمل الآخرين، ذلك الذي يتم مقابل المال، وأن ننفق أقل قدر من المال قدر الإمكان.

-٥-

لا تجعل أحدًا يقوم من أجلك بشيءٍ يمكنك أن تقوم به بنفسك. إن قام كل شخص بالتنظيف أمامه، فسيصبح الشارع كله نظيفًا.

-٦-

(ما أكل أحد طعامًا قط خير من أن يأكل من عمل يديه).

«محمد».

-٧-

من المفيد جدًّا للأثرياء أن يفارقوا حياتهم المترفة -ولو لوقت قصير- ويعيشوا من عمل أيديهم، كما يفعل العاملون لديهم . وما إن يقوم الثري بذلك، حتى يرى كم هي خطيئة عظيمة تلك التي كان يرتكبها. إن عاش كذلك، فسيدرك على الفور مدى شر حياة الأغنياء.

-٨-

أَلِفَ الناسُ الاعتقادَ أن الطهو والحياكة وتمريض الأطفال عمل يخص المرأة، وأنه من المخجل أن يقوم به الرجل. وعلى النقيض من ذلك، فما هو مخجل حقًّا للرجل هو أن يحيا عالة على الآخرين ويقضي وقته في التفاهات دون أن يفعل شيئًا، في الوقت الذي تقوم فيه امرأة منهكة -وكثيرًا ما تكون

ضعيفة- بالطهو والغسيل والتمريض.

-٩-

من المستحيل أن يشعر أولئك الذين يحيون حياة مترفة بالمحبة للآخرين. من المستحيل أن يحبوا؛ لأن كل ما يستغلونه هو من احتياجات الآخرين، والذين يقومون به كثيرًا صابين اللعنات على أولئك الذين يجبرونهم على العمل من أجلهم. كي يتمكنوا حقًّا من محبة الآخرين، عليهم بادئ ذا بدء أن يتوقفوا عن تعذيب الآخرين.

-١٠-

هرب أحد الرهبان إلى الصحراء، ولم يتوقف عن قراءة الصلوات، وكان ينهض مرتين في الليل كي يصلي. كان الفلاحون يجلبون له الطعام، ثم ساورت الشكوك نفسه: هل حياته صالحة أم لا؟ فمضى إلى أحد الشيوخ ليأخذ مشورته. وصل إلى الشيخ وحكى له عن حياته وكيف يصلي وبأي كلمات وكيف ينهض في الليل وكيف يأكل من الصدقات، وسأله: هل أفعل الصالح أم لا؟ أجابه الشيخ قائلًا: كل هذا حسن، ولكن اذهب وانظر كيف يعيش هذا الفلاح الذي يجلب إليك الطعام. فمضى الراهب إلى الفلاح وقضى معه يومًا وليلةً. نهض الفلاح في الصباح الباكر، ولم يقل سوى: «سيدي»، ثم مضى إلى عمله وأخذ يحرث الأرض طوال اليوم. عاد قبل المساء، وعندما استلقى لينام قال ثانية: «سيدي».

تأمل الراهب في حياة الفلاح وقال: «ليس هناك ما يمكنني أن أتعلمه من حياة هذا الفلاح». هكذا قال في نفسه، وتعجب من إرسال الشيخ له إليه.

عاد الراهب إلى الشيخ وحكى له عن كل شيء؛ كيف كان الأمر عند الفلاح، وكيف لم يجد شيئًا ليتعلمه منه قائلا: «إنه لا يفكر في الله، ولا يذكره

سوى مرتين في اليوم».

حينها قال الشيخ: «خذ هذا الوعاء واملأه بالزبدة، وسر حول القرية وعُد ثانية، ولكن حاذر أن تنسكب قطرات الزبد منك على الأرض». فعل الراهب كما قيل له، وعندما عاد سأله الشيخ: «قُل لي كم مرت ذكرت الله بينما تحمل الوعاء؟»، فاعترف الراهب أنه لم يذكره ولو مرة واحدة قائلًا: «كل ما كنت أفكر فيه ألَّا أسكب الزبدة». حينها قال الشيخ: «إنه وعاء واحد قد شغلك تمامًا عن ذكر الله، أما الفلاح فعليه أن يعيل نفسه وأسرته، وقد ذكر الله مرتين».

تنفيذ قانون العمل ليس صعبًا، بل يبعث السرور في قلب الإنسان:

-١-

(«تأكل خبزك من عرق جبينك». هذا قانون جسدي ثابت. كما أعطيت النساء قانون أن تعاني في ولادة الأطفال، هكذا أُعطِي الرجال ذلك القانون. لا يمكن للنساء أن يتحررن من قانونهن. إن تبنت طفلًا لم تلده، فسيكون طفلًا غريبًا، وستُحرم من فرحة الأمومة. هكذا الأمر مع الرجل فيما يخص العمل. إن أكل الإنسان خبزه من عمل الآخرين، فهو بذلك يحرم نفسه من فرحة العمل).

«بونداريف».

-٢-

يخشى الإنسان الموت ويشعر بالذعر منه. يبدو الإنسان الذي لا يعرف الخير ولا الشر أسعد حالًا، لكنه يسعى صوب ذلك الوعي رغمًا عن نفسه. يحب الإنسان الحياة البطالة وإشباع شهواته دون معاناة، ورغم ذلك فالملل والمعاناة وحدهما هما اللذان من شأنهما أن يمنحا البشرية الحياة.

-٣-

(إنه خطأ مريع أن يعتقد المرء أن أرواح البشر بإمكانها أن تحيا حياة روحية سامية، في الوقت الذي تظل فيه أجسادهم تحيا حياة مترفة بطَّالة.

الجسد دومًا هو التلميذ الأول للروح).

«ثورو».

-٤-

إن عاش إنسان حياته وقد أعفى نفسه من قانون العمل، فهو الملوم على ضعف جسده وتبدد قواه. وإن أعفى الإنسان نفسه عن هذا القانون بإجبار الآخرين على الكدح بدلًا منه، فهو وحده الملوم على إفساد روحه والحط من قدرها.

-٥-

يحيا الإنسان بجسده وروحه، وهناك قانون للجسد وقانون للروح. العمل هو قانون الجسد، أما قانون الروح فهو الحب. إن خرق الإنسان قانون الجسد؛ العمل، فلا مناص من أن يخرق قانون الروح؛ الحب.

-٦-

مهما كانت ثياب القياصرة رائعة، فتلك التي تصنعها بيدك أفضل. ومهما كانت أطعمة الأغنياء شهية، فالخبز الذي على منضدتك هو أفضل غذاء.

-٧-

إن عملت كثيرًا من أجل الآخرين، فلا تشعر أنه عبء عليك، ولا تنتظر مديحًا من أحد، بل اعلم أن عملك -إن قمت به من أجل الآخرين بمحبة- ينفع روحك أكثر من أي شخص آخر.

-٨-

إن قوة الله تعادل بين الناس، فتنتزع من ذاك الذي لديه الكثير، وتعطي ذاك الذي لديه القليل. لدى الغني أغراض كثيرة، ولكن سرور قليل، أما الفقير فلديه أغراض قليلة، ولكن سعادة أكثر. لكسرة الخبز مذاق أكثر حلاوةً بكثير للفقير والعامل الكادح من الأطعمة الغالية والشراب بالنسبة للغني الذي يحيا حياة بطَّالة. لقد تناول وشرب كل شيء وسأم منه، ولم يعد يشعر بالسرور. أما بالنسبة للعامل فالطعام والشراب والراحة يحملون في كل مرة سرورًا جديدًا.

-٩-

(حُفَّت النار بالشهوات، وحُفَّت الجنة بالمكاره).

«محمد».

-١٠-

دون عمل اليد يفقد الجسد صحته، ولا تساور العقل أفكار معقولة.

-١١-

إن أردت أن تنعم بحال جيد دومًا، فاعمل حتى تشعر بالإنهاك، ولكن ليس بالإكراه. القلوب غير الراضية تظهر لدى مَن يعيشون حياة بطَّالة دون عمل، وكذلك لدى الذين يعملون بالإكراه.

-١٢-

(الراحة بعد العمل هي واحدة من أفضل وأنقى المتع).

«كانط».

العمل بالزراعة هو أفضل عمل على الأرض:

-١-

(يدرك الناس جميعًا مع الوقت تلك الحقيقة التي أدركها التقدميون منذ

زمن بعيد في جميع الشعوب؛ ألا وهي أن الفضيلة الإنسانية الرئيسة تتمثل في الخضوع لقانون الموجود الأعلى: «أنت رماد، وإلى الرماد تعود». إنه القانون الأول الذي ندركه في حياتنا، أما الثاني فهو أنه يتوجب علينا أن نزرع هذه الأرض التي أُخِذنا منها وسنعود إليها. بهذه الزراعة وذلك الحب اللازم لنا أن نشعر به صوب الحيوانات والنباتات يمكن للإنسان أن يفهم حياته بأفضل ما يكون وأن يعيشها).

«جون راسكن».

-٢-

إن الزراعة ليست من الأعمال الغريزية داخل إنسان بعينه، بل هي داخل كافة البشر، وهذا العمل يمنح الإنسان الحرية والخير أكثر من أي شيء آخر.

-٣-

(تقول الأرض لمن لا يزرعها: لأنك لا تزرعني بيدك اليمنى واليسرى، ستظل واقفًا دومًا على أبواب غريبة بصحبة كافة المتسولين، تطلب دومًا أن تحصل على بقايا وفضلات الأغنياء).

«زرادشت».

-٤-

لقد أصبحت حياة البشر في عالمنا هذا على هذا النحو: يحصل الناس على معظم المكافآت لقاء أكثر الأعمال سوءًا وضررًا؛ ألا وهو العمل في الجيش والشرطة والمحاكم والبنوك والعمل بالصحافة والطباعة والعمل في المستودعات العسكرية ومحلات صنع الحلوى ومصانع التبغ والصيدليات والأعمال التجارية والكتابة والموسيقى... إلخ، وقليل من الناس يحصلون على مكافآتهم مقابل الزراعة. إن قارنا بينهم من ناحية المكافآت المالية، فسنجد الأمر

غير عادل، ولكن إن وجَّهنا اهتمامنا الرئيس للسعادة التي يمنحنا إياها هذا العمل، وتأثيره على الصحة الجسدية وجاذبيته الطبيعية، فسيكون ذلك عادلًا تمامًا.

-٥-

العمل اليدوي وخاصة الزراعة مفيدٌ ليس فقط للجسد، ولكن للروح أيضًا. يبدو أنه من الصعب للناس الذي لا يمارسون العمل اليدوي أن يفهموا حقيقة الأشياء بشكل سليم. إنهم لا يتوقفون عن التفكير والتحدث والسماع والقراءة. لا يحظى عقلهم براحة، ويتعثرون ويغضبون. أما الزراعة فهي عمل نافع للإنسان، فبالإضافة إلى الراحة التي تبعثها في داخله تساعده على أن يدرك ببساطة ووضوح ومنطقية وضعه في الحياة.

-٦-

(إني أحب الفلاحين. ثقافتهم القليلة تحول دون أن يدركوا الأمور على نحو خاطئ!).

«مونتسيكو».

ما يدعونه تقسيم العمل هو مجرد ذريعة؛ كي يحيا البعض عالةً على الآخرين:

-١-

يقول الكثيرون في الآونة الأخيرة إن أحد أسباب نجاح الناس في الإنتاج هو تقسيم العمل، أما نحن فنقول:

إن مصطلح تقسيم العمل ليس صحيحًا. ما من عمل يتم تقسيمه في مجتمعنا، ولكن الناس هم مَن يتم تقسيمهم وكسرهم إلى قطع وشرائح صغيرة ككسرة الخبز: في المصنع يقوم أحدهم بجزء صغير من العمل؛ وكأن هذا الجزء الصغير من ملكة التفكير الموجود بداخله غير كافٍ؛ كي يصنع وحده دبوسًا أو مسمارًا

بأكمله، ويُبدِّد وقته كله في صناعة نهاية الدبوس أو رأس المسمار. صحيح أنه من الجيد والمحبذ أن نصنع دبابيس كثيرة في اليوم، ولكن إن كان بإمكاننا فقط أن نرى كم من الرمال علينا أن نكشطها من عليها فربما نرى أن هذا أيضًا ليس مفيدًا. ليس مفيدًا لأننا نكشط الرمال عن أرواحنا البشرية.

من الممكن أن تُكبِّل الناس بالسلاسل وأن تعذبهم وتجرهم كالبهائم وتقتلهم كالذباب الطائر من حولك، ومن الممكن كذلك أن يبقى الناس أحرارًا، وهو الوضع الأمثل بالنسبة إليهم. ولكن منع الهواء عن أرواحهم الخالدة وتحويلهم إلى آلات، فهذه هي العبودية الحقة. إن الحط من قدر الإنسان وتحويله إلى آلة يقود العمال إلى النضال عبثًا من أجل حريتهم بجنون وتدميرية، دون أن يفهموا هم أنفسهم جوهر هذه الحرية المفقودة. وليس ضغط الجوع هو ما يثير حنقهم وغضبهم على الأغنياء والسادة، لكنها تلك الطلقات المميتة ضد كرامتهم، وهذا السبب هو ما ينتج دومًا ردود أفعالهم، ولكن أساسات المجتمع لم تكن هشة يومًا كما هي الآن. الأمر ليس أن الناس يأكلون طعامًا سيئًا، لكنه يكمن في أن الناس لم يعودوا يشعرون بالرضى من العمل الذي يحصلون لقائه على الخبز، وأنهم ينظرون الآن إلى الغِنى على أنه الوسيلة الوحيدة للشعور بالرضى.

الأمر ليس أنهم يعانون من احتقار الطبقات العليا، لكنهم لم يعودوا يحتملون ذلك الاحتقار الذي يكنونه هم صوب أنفسهم من شعورهم بأن العمل الذي يقومونه به مُذل ويُحوِّلهم إلى مخلوقات متدنية.

(لم يحدث أبدًا أن أبدت الطبقات الغنية الحب والتعاطف للفقراء كما يحدث الآن، وفي الوقت ذاته لم يحدث أبدًا أن أبدى الفقراء كل هذه الكراهية للأغنياء كما هم الآن).

«جون راسكين».

-٢-

يتوجب على الإنسان أن يعمل بيديه وقدميه مثلما هو الأمر مع الحيوان. يمكن للإنسان أن يجبر الآخرين على أن يقوموا بما هو ضروري له، لكن سيتوجب عليه أن يُبدد قواه الجسدية في أي شيء، فإن لم يقم بما هو واجب عليه وبما هو منطقي، سيفعل إذنْ أفعالًا غير ضرورية بل وحمقاء. هذا ما يحدث بين الطبقات الغنية.

-٣-

إن الطبقات الغنية التي تستفيد من كدح العمال وتجبر الناس على أعمال صعبة تُبرِّر ذلك قائلة إنها تنتج للشعب الدين والعلم والفن اللازمين له. إنهم يقومون بذلك فعلًا، ولكن ما يمنحونه للشعب للأسف هو دين وعلم وفن مزيف. هذا ما يمنحونه للشعب مقابل عمله. إنهم لا يقوموا بشيء سوى خداعه وإفساده.

-٤-

يفتخر الأوربي أمام الصيني بميزات الإنتاج الآلي قائلًا: «إنه يحرر الإنسان من العمل»، فجيب الصيني قائلًا: «ولكن تحرير الإنسان من العمل بلاء عظيم، فمن دون عملٍ، ما من سعادة».

-٥-

(يمكن للإنسان أن يصبح غنيًّا عن طريق ثلاث وسائل فقط: العمل- التسول- السرقة. ولكنه يحصل على مقابل قليل للعمل؛ لأن غالبية الثروة تمنح بالوسيلتين الأخريين: التسول- السرقة).

«هنري جورج»(٥٥).

---

(٥٥) عالم اقتصاد وفيلسوف وكاتب أمريكي.

-٦-

يعيش كافة الأغنياء الذين لا يعملون بأنفسهم على عمل الآخرين، لذا فإن استولوا على نتاج عمل الآخرين دون أن يعملوا بأنفسهم فهم جميعًا لصوص، وهي التسمية التي لا يطلقونها على أنفسهم. وهؤلاء السراق ينقسمون إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول لا يرى ولا يود أن يرى أنهم لصوص، لذا فهم يسرقون أشقائهم دون تأنيب ضمير. يرى النوع الثاني أنهم على غير حق لكنهم يعتقدون أنه بإمكانهم تبرير سرقتهم بأنهم يعملون في وظائف عسكرية أو أية وظائف أخرى مثل أن يقوموا بالتعليم أو الكتابة أو طباعة الكتب، ويواصلون السرقة. أما النوع الثالث، فيزداد وعيهم – والحمد لله – بخطيئتهم أكثر فأكثر ويحاولون التخلص منها.

نشاط الناس الذين حرروا أنفسهم من قانون العمل يبدو دائمًا بلا معنى أو هدف:

-١-

لا يقتصر الأمر على أن الجزء الأكبر من معارف الناس الذين لا يعملون لا يُسهِّل من عمل الطبقات العاملة، بل يتجاوز الأمر ذلك لدرجة أنه يُحملهم أعباءً جديدة في العمل.

-٢-

كما لا يمكن لعربة بعجل يجرها جوادٌ على منحدرٍ أن تتوقف، بل يجب عليها أن تستمر في طريقها، كذلك لا يمكن للإنسان ألَّا يفعل شيئًا. السبب في ذلك هو أن جدارة الإنسان في عمله –وهذه حقيقية تُماثل حقيقة الجواد

الذي يجر العربة ذات العجل على منحدر- لا تكمن فيما يصنعه الإنسان، بل في قيمة العمل في حد ذاته.

-٣-

إن كرامة الإنسان وواجبه المقدسان يكمنان في مسؤوليته عن استخدام يديه وقدميه في العمل الذي قد مُنح يديه وقدميه من أجله، وفي تناول الطعام من أجل العمل الذي ينتج مثل هذا الطعام، لا في تبديده، ولا في غسل وتنظيف الطعام وحشره هو والشراب والتبغ داخل الفم.

-٤-

(قد يبدو أولئك الذين حرروا أنفسهم من العمل اليدوي أذكياء، لكنهم نادرًا ما يبدون عقلاء. إن كان هناك كل هذا الهراء والحماقة في الكتابات التي تُنشر وتُطبع وتُدرس في مدارسنا ومعاهدنا، وإن كانت كل كتاباتنا وموسيقانا ولوحنا الفنية معقدة وغير مفهومة إلى هذه الدرجة بالنسبة للجميع، فهذا بسبب أن كل مَن يمارسون هذه الأعمال قد حرَّروا أنفسهم من العمل اليدوي، ويعيشون حياة مريحة بطَّالة.)

«إمرسون».

-٥-

تكمن أهمية العمل اليدوي في أنه يحول دون ضلال العقل والتفكير في محض ترهات.

-٦-

عقل الإنسان الذي يعيش حياة بطالة دون عمل هو مقر إقامة الشيطان.

-٧-

يبحث الناس عن السعادة، ويترنحون من جانب للآخر؛ لأنهم يشعرون

بالخواء الذي يجثم فوق حياتهم، لكنهم لا يزالون لا يشعرون بخواء هذا المرح الذي يجذبهم.

-٨-

لم يُحسب بعد عدد هذه الأيام الثقيلة المليئة بالتوتر لملايين العمال، والتي قد تشكل آلاف الحيوات التي نبددها في هذا العالم من أجل إعداد وسائل اللهو والتسلية. وهذا ما يجعل التسلية في عالمنا لا تبعث على الفرح.

-٩-

الإنسان مثله مثل أي حيوان قد جُبِل على ضرورة العمل؛ لكي لا يموت من الجوع والبرد. هذا العمل لا يبعث الحزن في الإنسان -مثله مثل الحيوان- بل السرور، إن لم يكن هناك من يعوق إتمام هذا العمل.

ولكن البشر قد نظَّموا حياتهم بحيث لا يعمل قسم منهم، ويجبر الآخرين على العمل من أجله، ولشعورهم بالملل من جراء ذلك، يقومون بابتكار كل أنواع الحماقات والبذاءات حتى يشغلون أنفسهم، في الوقت الذي يعمل فيه الآخرون تحت تهديد القوة، شاعرين بالملل؛ لأنهم في الأساس لا يعملون من أجل أنفسهم، بل من أجل الآخرين.

ذلك ليس حسنًا لا لهؤلاء ولا لأولئك. ليس حسنًا لِـمَـن لا يعملون؛ لأنهم يفسدون أرواحهم بسبب حياتهم البطَّالة الخالية من العمل. وليس حسنًا للآخرين؛ لأنهم يبددون قوة أجسادهم بالإكراه من أجل الآخرين، ولكن الذين يعملون أفضل من الذين لا يعملون، فالروح أغلى من الجسد.

ضرر الحياة البطَّالة الخالية من العمل:

-١-

لا يجب أن يشعر الإنسان بالخزي من أي نوع من أنواع العمل حتى أقذر

الأعمال[٥٦]، بل عليه أن يشعر بالخزي فقط من الحياة البطَّالة الخالية من العمل.

-٢-

لا يجب أن نحترم الناس بسبب ألقابهم أو ثرواتهم، ولكن بسبب العمل الذي يؤدونه. كلما أدَّى أحدهم عملًا أنفع للناس، كلما استحق تبجيلًا أكثر من الآخرين. ولكن في عالمنا هذا يبدو الأمر على النقيض من ذلك: إننا نُبجِّل الذين يحيون حياة بطالة خالية من العمل، ولا نحترم أولئك الذين يقومون بأهم الأعمال: الزُرَّاع والعُمَّال.

-٣-

يهتم الأغنياء والذين لا يعملون من الناس بذرّ الرماد في الأعين وتضليل الناس. إنهم يدركون أنه لولا ذلك لشعر الآخرون أنهم لا يستحقون ثرواتهم.

-٤-

(من العار على الإنسان أن ينصحه الآخرون بالكدح في العمل كالنمل، ويتضاعف العار إن نصحوه بأنه لا يتوجب عليه ذلك).

«التلمود».

-٥-

واحد من أكثر الأوهام المثيرة للدهشة؛ ذلك الوهم الذي يقضي بأن سعادة الإنسان تكمن في ألا يفعل شيئًا.

-٦-

(لا بد وأن يكون عذاب الجحيم عبارة عن حياة أبدية بلا عمل، والعكس

(٥٦) لا يقصد بالقذارة عملًا غير شريف، بل يقصد القذارة الجسدية.

بالنسبة لنعيم الجنة الذي يحوي عملًا أبديًا يبعث على السرور).

«مونتسيكو».

-٧-

ذاك الذي لا يجد شيئًا ليفعله، دائمًا ما يكون لديه كثير من المساعدين.

-٨-

دائمًا ما يكون «تقسيم عمل» مبررًا في القطاع الأكبر منه لعدم فعل شيء أو للقيام بأي هراء أو لغمر الآخرين بالعمل الذي يجب أن تقوم به بنفسك. ذاك الذي يأمر بمثل هذا التقسيم دائمًا ما يتولى جزء العمل الذي يبدو له مريحًا، ويختار للآخرين أجزاء العمل التي تبدو لهم صعبة. المدهش في ذلك أن هؤلاء الناس دائمًا ما يخطئون، فالعمل الذي اختاروه لأنفسهم وظنوه الأسهل دائمًا ما يتضح في النهاية أنه الأكثر صعوبةً، لذا فهم يتهربون من فعله.

-٩-

لا تزعج أحدًا أبدًا بالقيام بما تستطيع القيام به بنفسك.

-١٠-

(الشك والحزن والاكتئاب والغضب واليأس... على الإنسان أن يحتاط من هذه الشياطين، فما إن يحيا حياة بطّالة خالية من العمل، حتى تهاجمه سريعًا. والخلاص الحقيقي من هذه الشياطين يعتمد أولًا وأخيرًا على العمل.

إن انشغل الإنسان في العمل لا يمكن لهذه الشياطين أن تقترب منه، بل سيقتصر الأمر على أن تدمدم في غضب منه).

«كارليل»[٥٧].

(٥٧) توماس كارليل: كاتب إسكتلندي وناقد ساخر ومؤرخ. وكان لأعماله تأثير كبير بالعصر الفكتوري، وهو من عائلة كالفينية صارمة.

-١١-

ما إن يصطاد الشيطان الناس في شباكه، حتى يوجه إليهم طعناته محاولًا أن يغويهم، ولكن بالنسبة للإنسان الذي يحيا حياةً بطالةً دون عمل، فالشيطان ليس في حاجة لفعل ذلك، فهو يذهب من نفسه عاريًا صوب الفخ.

-١٢-

ثمة حكمتان: «لا ينوب الإنسان من العمل سوى الكلل»، و«عمل التقوى لا يمنح صاحبه المأوى»[٥٨]، وهما حكمتان خاطئتان، فمن الأفضل أن يصيب الإنسان الكلل عن أن يصيب الغِنى، وعمل التقوى أفضل كثيرًا من حصول الإنسان على مأوى فاخر.

-١٣-

يُحكى أنه كان هناك شقيقان؛ الأول يعمل لدى القيصر ، والآخر يأكل من عمل لديه. قال الأخ الغني ذات مرة للفقير: «لماذا لا تعمل مثلي لدى القيصر؟ إن فعلتَ ذلك، لما عانيت من أي عمل مُضْنٍ». أجاب الفقير: «ولماذا لا تكدح في العمل؟ إن فعلتَ ذلك، لما كنت قد عرفت الحط من قدرك ولا العبودية».

(قال الحكماء إنه من الأفضل للإنسان أن يأكل في هدوء خبزًا من عرق جبينه، من أن يحمل ذهبًا، ويكون عبدًا لشخص آخر. من الأفضل أن تغمس يديك في الوحل والطين، عن أن تضعهما على صدرك علامة على الإذعان والخضوع).

«سعد الشيرازي».

(٥٨) حاولنا الحفاظ على السجع الذي في الحكمتين الروسيتين، وترجمتهما الحرفية كالآتي: "لا يؤدي العمل إلى الثروة بل إلى ثني الظهر"، و"لا يمكنك أن تحصل على منزل حجري من عمل الخير".

-١٤-

(لأن يحتطب أحدكم حزمةً على ظهره، خيرٌ له من أن يسأل أحدًا، فيعطيه أو يمنعه).

«محمد».

-١٥-

(لا تقف عند أبواب الأغنياء وتتضرع إليهم. هذا أفضل لحياتك، وكي لا يحدث ذلك عليك ألا تخشى العمل).

«من الجيتوباديوشا الهندية»[٥٩].

-١٦-

إن لم تعمل، فإما أنك ستحط من قدر نفسك، أو ستجبر آخرين على العمل من أجلك.

-١٧-

يكون العمل الصالح إحسانًا فعلًا عندما تُعطي من ناتج عملك. يقول المثل: «اليد الجافة بخيلة، والمتعرقة معطاءة». وفي تعاليم الرسل مكتوب: «فلتكن صدقتك من يدك».

-١٨-

لم يكن فلسا الأرملة الفقيرة مساويين فقط لعطايا الأغنياء[٦٠]، لكنهما

---

(٥٩) كتاب هندي يحوي كثيرًا من الحكم والقصص والأساطير.

(٦٠) الإشارة إلى القصة الإنجيلية الآتية: "وتطلع فرأى الأغنياء يلقون قرابينهم في الخزانة. ورأى أيضًا أرملة مسكينة ألقت هناك فلسين، فقال: بالحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع؛ لأن هؤلاء من فضلتهم ألقوا في قرابين الله، وأما هذه فمن إعوازها، ألقت كل المعيشة التي لها». لوقا ٢١: ١ - ٤.

ينمانِ عن صدقة حقيقية. وحدهم الفقراء الكادحون مَن يمكنهم أن يشعروا بسعادة العطاء، أما الأغنياء الذي يعيشوا حياة بطَّالة بلا ملل فلا يمكنهم الشعور بذلك.

-١٩-

كان لدى أحد الأغنياء كل ما يرغب فيه البشر: كان لديه الملايين وقصر جميل وزوجة فاتنة ومئات الخدم وولائم فاخرة وكل أنواع المشهيات والخمور وإسطبل مليء بالجياد، لكنه ملَّ من كل ذلك، فكان يجلس طوال اليوم في حجراته الفاخرة متنهدًا شاكيًا من فرط الملل. لم يكن لديه عمل يسر به سوى تناول الطعام، يستيقظ من النوم وينتظر الإفطار، ثم الغداء، فالعشاء. وسرعان ما حُرم من ذلك؛ فلأنه كان يتناول كثير من الطعام الحلو، فسدت معدته، ولم يعد بإمكانه تناول كل هذا الطعام. استدعى الأطباء، فمنحوه الأدوية ونصحوه بالسير ساعتين كل يوم. وذات مرة بينما كان يسير أخذ يفكر في حزنه وعن رغبته في الطعام واقترب منه أحد الفقراء قائلًا: «أعطني صدقة باسم المسيح». كان الغني مشغولًا في أحزانه ولم يرد أن يمنح الفقير صدقة. فقال الفقير ثانية: «أشفق عليَّ يا سيدي، فلم أتناول طعامًا طوال اليوم». وما إن سمع الغني أمر الطعام، حتى توقف.

ماذا تريد أن تأكل؟

إني لا أريد يا سيدي، بل إني أتضور جوعًا.

ففكر الغني في نفسه قائلًا: «إنه إنسان محظوظ»، وأخذ يحسده.

هكذا يحسد الفقراء الأغنياء، ويحسد الأغنياء الفقراء. الأمر سيان، ولكن الفقراء أفضل حالًا من الأغنياء؛ لأنهم ليسوا المسؤولين عن فقرهم، ولكن الأغنياء دائمًا ما يكونون مسؤولين عن غناهم.

الجشع

إن خطية الجشع هي أن ترغب في الحصول على المزيد والمزيد من الأشياء أو الأموال اللازمة للآخرين، وفي أن تضم أشياءً وأموالًا إلى نطاق سلطتك؛ كي تستغل عمل الآخرين من أجل تحقيق رغباتك.

جوهر خطية الثراء:

-١-

(في مجتمعنا لا يمكن لإنسان أن ينام دون أن يدفع لقاء المكان الذي ينام فيه. لا يمكنه أن يتمتع بالهواء والماء وضوء الشمس الذين يستحقهم جميعًا إلا لقاء ثمن غالٍ. الحق الوحيد الذي يوفره له القانون هو أن يسير في هذا الطريق الواسع طالما لم يسقط بعد من فرط الإنهاك، فليس بإمكانه أن يتوقف؛ بل أن يواصل السير فقط).

«جرانت ألين»[٦١].

-٢-

عشرة من الطيبين يتجولون، ثم يستلقون ليغفوا قليلًا، مستظلين بقطعة واحدة من القماش، بينما يعيش ثريان في عشر غرفٍ. إن حصل إنسان طيب على قطعة خبز يمنح نصفها لجائع، ولكن إن قام أحد القياصرة بغزو جزء من العالم، فلا يهدأ حتى يغزو الجزء الآخر.

---

(٦١) مؤلف إنجليزي كندري، واشتراكي أيضًا، ١٨٤٨ - ١٨٩٩.

-٣-

لدى ثلاثة أثرياء خمس عشرة غرفة، ومن المستحيل أن يسمحوا لفقير أن يستدفئ ويقضي ليلته في إحداها. بينما لدى أحد الفلاحين كوخ يضم سبعة أفراد، لكنه يسمح طوعًا للغريب بالدخول قائلا إن الله قد أمر أن يُقسَّم كل شيء بين الناس.

-٤-

(يكمل الأغنياء والفقراء بعضهم البعض. إن كان هناك أغنياء، فلا بد أن يكون هناك فقراء. إن كان هناك ثراء فاحش، فهذا يستلزم وجود فقر مدقع يجبر المحتاج أن يخدم صاحب هذا الثراء الفاحش.

الأغنياء مجرد لصوص، والفقراء هم الذين يُسرقون. لذلك أحب المسيح الفقراء، وابتعد عن الأغنياء. فطبقًا لتعاليمه خير لك أن تُسرق من أن تَسرق. وفي مملكة الحق التي كان يبشر بها لم يكن من الممكن أن يوجد فقراء وأغنياء).

«هنري جورج».

-٥-

(لا يمكن ظهور مليونير دون ظهور متشرد).

«هنري جورج».

-٦-

مسرات الأغنياء تسقيها دموع الفقراء.

-٧-

(عندما يتحدث الأغنياء عن خير المجتمع، فإني أدرك أن ما أسمعه ليس

إلا مؤامرة من الأغنياء الباحثين عن تحقيق مصالحهم تحت ذريعة خير المجتمع).

«توماس مور»[(٦٢)].

-٨-

(لا يمكن للشرفاء من الناس أن يكونوا أغنياء، ولا يمكن للأغنياء أن يكونوا شرفاء).

«لاو تسو».

-٩-

(«لا تسرق الفقير؛ لأنه فقير» هكذا يقول سليمان. ولكن هذا ما يحدث بصورة طبيعية جدًّا، فالغني يستغل احتياج الفقير؛ كي يجبره على العمل من أجله، أو كي يشتري الغني ما يبيعه الفقير بأرخص الأسعار. يسرق الأغنياء مبالغ هائلة، وإن سرقت غنيًّا ستتعرض لمخاطر جمة، ولكن سرقة الفقير لا تعرضك لأي مخاطر).

«جون راسكن».

-١٠-

إن عشت غنيًّا، ستشعر بالخزي أكثر فأكثر. وإن عشت فقيرًا، ستشعر بالضيق أكثر فأكثر.

-١١-

كثير ما يحاول الشعب الكادح أن ينتقل إلى طبقة القادرين الذين يعيشون على عمل الآخرين. إنهم يطلقون على ذلك انتقالًا إلى طبقة أفضل، ولكن

(٦٢) كان قائدًا سياسيًّا ومؤلفًا وعالمًا إنجليزيًّا عاش في القرن السادس عشر، يُتذكر عادة لمفهوم اليوطوبيا أو المدينة الفاضلة في كتابه اليوتوبيا. وهو قديس حسب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

يجب أن يطلقوا على ذلك النقيض: الانتقال إلى طبقة أسوأ.

-١٢-

(إن الثراء خطية عظيمة أمام الله، والفقر خطية عظيمة أمام الناس).

«حكمة».

جريمة ملكية الأرض:

-١-

كل ثراء هو محض خطيئة وعمل قذر؛ لأن الثراء يتأسس على ملكية الأرض. ما يطلقون عليه حق تملك الأرض يحرم نصف سكان الأرض من إرثهم الشرعي والطبيعي.

-٢-

(لا يجب أن تُباع أجساد الرجال والنساء مثلما هو الحال مع أرواحهم. وإن كان الأمر كذلك، فلا يجب أن تُباع الأرض؛ لأنها لازمة من أجل دعم أجساد وأرواح البشر).

«جون راسكن».

-٣-

ذلك الذي يمتلك قطعةً من الأرض أكثر مما يحتاج من أجل إطعام نفسه وأسرته، ليس فقط مشاركًا في مشكلة عوز الفقراء، بل أيضًا هو أحد المذنبين فيها وفي الفساد الذي يعاني منه الشعب الكادح.

-٤-

يدين ملاك الأراضي الناس في المحاكم على التعدي على ملكيات خاصة. من المستحيل ألا يكونوا قد أدركوا أنهم قد استولوا من الناس على

أكثر الملكيات التي لا يجب أن تُمنح لأحد بعينه. عليهم أن يشعروا بالخزي فور أن يسمعوا كلمة «الاستيلاء» وألا يدينوا أو يعاقبوا أحدًا على ما لم يتوقفوا عن ارتكابه هم بأنفسهم.

-٥-

(لجميع الناس من البداية وقبل ظهور أي قانون أن يستفيدوا من الأرض التي هم عليها، والتي أسكنتها إياهم الطبيعة أو المصادفة).

«كانط».

-٦-

(كما أنني قد وُلِدت على هذه الأرض، كذلك قد مُنِحت لي الأرض كي أخذ منها ما يلزمني، وكي أحرثها وأزرعها، ولديَّ الحق في أن أستفيد من جزء منها. أرني إذنْ أين هي تلك الأرض؟).

«إمرسون».

-٧-

(إن الأرض هي أمنا جميعًا. إنها تطعمنا وتمنحنا المأوى والدفء والفرحة، ومن لحظة مولدنا وحتى نعود ثانية إليها فإنها تعانقنا بلطف.

ورغم ذلك فها هم الناس يجادلون في أحقية بيعها، وبالفعل في عصرنا هذا المميز ببيع الأرض، تُعرض الأرض في الأسواق ويُحدَّد سعرها كي يتم بيعها فيما بعد. ولكن بيع الأرض التي خلقها صانع السماوات يعد هراء مفزعًا. إن الأرض ملك الله كلي القدرة وحده، وهي لأجل كافة أبنائه الذين يعملون عليها، أو الذين سيعملون عليها. إنها ليست ملكًا لأحد بعينه ولا لجيل بذاته، بل إنها

لكل الراحلين والحاضرين والذين سيأتون في المستقبل ويعملون عليها).

«كار لايل».

-٨-

(نعمل على أرض الجزر التي نعيش عليها، وقد ألقى البحر إلينا ببحَّار يتعلق بحطام سفينة رسا على شاطئنا. أليس لديه الحق -مثلنا جميعًا- بأن يشغل جزءًا من الأرض يعمل عليها؛ كي يتمكن من إطعام نفسه؟ بدا لنا أن ذلك من حقه تمامًا. ورغم ذلك فالبشر يولدون على هذه الجزيرة التي هي أرضنا التي نعيش عليها، بينما ينكر الآخرون عليهم هذا الحق).

«لافيلا»[٦٣].

-٩-

(إن افترضنا أن كل الأرض الصالحة للسكنى ملك للملاك الأغنياء، وأن لديهم الحق فيها، وليس لدى أحد آخر أي حق فيها. بهذا لا يمكن لغير الملَّاك أن يتواجدوا على هذه الأرض إلا بقبول أصحابها من الملَّاك. علاوة على ذلك فهم لا يحصلون على حق أن تطأ أقدامهم هذه الأرض إلا بموافقة الملاَّك الأغنياء، وهكذا فإن لم يرغب الملَّاك الأغنياء في منح الآخرين مكانًا للراحة، فبإمكانهم أن يطيحوا بهم من على وجه الكرة الأرضية!).

«هربرت سبنسر»[٦٤].

-١٠-

(إن ملكية الأرض تشبه ملكية العبيد. استولِ على أموال أو بضائع أو بهائم

---

(٦٣) إميل لويس فيكتور دي لافيلا (١٨٢٢ - ١٨٩٢) اقتصادي بلجيكي.

(٦٤) هربرت سبنسر هو فيلسوف بريطاني. مؤلف كتاب "الرجل ضد الدولة" الذي قدم فيه رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها. كان سبنسر، وليس داروين، هو الذي أوجد مصطلح "البقاء للأصلح". رغم أن القول يُنسب عادة لداروين.

إنسان أو شخص ما، وسينتهي أمر سرقتك العنيفة لكل ذلك بأن يتحول إلى قيام هذا الإنسان أو الشعب بخدمتك. ولا يمكن بالطبع لمرور الوقت أن يجعلك جريمتك أمرًا حسنًا، لكنه يقضي على عواقبها. يمكن استعادة ما تم سرقته من الناس، ولكن إن انتزعت منهم الأرض، فستبقى معك إلى الأبد. ومع ظهور كل جيل جديد سوف تكون بمثابة جريمة جديدة في كل عام وفي كل يوم).

«هنري جورج».

العواقب الضارة للغنى:

-١-

يشتكي الناس من الفقر، ويحاولون الوصول إلى الثراء بكل وسيلة ممكنة. بينما يمنح الفقر والحاجة الناس القوة والصلابة، يقود الإفراط والترف الناس صوب الضعف والهلاك.

عبثًا يرغب الفقراء في تغيير الفقر النافع للجسد والروح إلى الغنى الضار بالجسد والروح على السواء.

-٢-

(إن احتجت، ستأكل. وإن تعذبت، ستتعلم. أما إن اغتنيت، فسيبتلعك الغنى).

«حكمة».

-٣-

الحزن للفقير، وضِعفه للغني.

-٤-

يحيا الغني حياة سيئة؛ لأنه لا يمكن أن ينعم بالهدوء، ويشعر بالخوف

دائمًا على ثروته، لذا فكلما تزداد ثروته كلما يزداد قلقه وانشغال باله. والسبب الرئيس في حياة الغني السيئة هو أنه لا يمكنه أن يلتقي بكثير من الناس سوى الأغنياء مثله. أما بقية الفقراء فلا يمكنه أن يلتقي بهم. فإن التقى الفقير فسيرى خطيئته بوضوح، ولا بد أنه سيشعر بالخزي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-٥-

(الغني له الذهب، والفقير له العسل).

«مثل شعبي».

-٦-

(تجعل الثروة أصحابها يألفون الكبرياء والقسوة وإرضاء الذات والبربرية والفجور).

«بيوسيه».

-٧-

(الغني لا يبالي ولا يشعر بأحزان غيره).

«التلمود».

-٨-

لا يمكن لحياة الأغنياء الذين حرروا أنفسهم من العمل الواجب عليهم، ألّا تكون مجنونة. إن الذين لا يعملون، أي الذين لا ينفذون واحدة من قوانين الحياة الأساسية، لا يمكنهم إلا أن يُصابوا بالجنون. يحدث معهم ما يحدث مع الحيوانات الأليفة التي نجعلها تأكل بإفراط سواء كانت جيادًا أو كلابًا أو خنازير. تقفز من أماكنها وتتعارك وتنتقل من مكان للآخر دون أن تعرف السبب.

-٩-

(الحاجة تجعلك أكثر حكمة، والثراء يجعلك أكثر غباءً، والسمنة تجعلك تنبح بغضب كالكلب).

«مثل شعبي».

-١٠-

(الغني لا يشفق... قطعًا لا يشفق).

«مثل من إقليم منشوريا».

-١١-

يبحث الناس عن الثراء، ولكن إن علموا فقط كم سيفقدون من الفضيلة وهم يسعون خلف الثراء ويعيشون فيه، لحاولوا الهروب منه بالحرارة ذاتها التي يحاولون بها الآن الوصول إليه.

-١٢-

سيأتي وقت حين يتوقف الناس عن تصديق أن الثراء بإمكانه أن يمنح صاحبه السعادة ويدركون في النهاية هذه الحقيقة البسيطة، وهي أن اكتساب الثروة والحفاظ عليها لن يجعلهما في حال أفضل، وأنها لن تفسد حياة الآخرين فقط، بل حياتهم هم أيضًا.

علينا ألا ننظر إلى الثراء بعين الحسد، بل كأمر يدعو إلى الخزي:

-١-

لا يتوجب علينا أن نُبجِّل الأغنياء ولا أن نحسدهم؛ بل أن نبتعد عن حياتهم ونشفق عليهم. لا يتوجب على الثري أن يفتخر بثرائه؛ بل أن يخجل منه.

-٢-

حسنٌ أن يرى الأغنياء الخطية التي ارتكبوها بثرائهم، وألا يدينوا الفقراء على حسدهم وضغينتهم، ولكن من السيئ أن يدينوا الفقراء على ضغينتهم نحوهم ولا يرون خطيئتهم. وحسنٌ أيضًا أن يرى الفقراء خطيئتهم في حسد الأغنياء وضغينتهم نحوهم، وألا يدينوا الأغنياء بل أن يشفقوا عليهم، ومن السيئ أن يدينوا الأغنياء دون أن يروا خطيتهم.

-٣-

إن شعر الفقير بالحسد صوب الغني، فهو إذنْ ليس أفضل حالًا منه.

-٤-

إن عجرفة الأغنياء أمر سيئ فعلًا، ولكن حسد الفقراء ليس أقل منها سوءًا. كثيرًا ما نجد أولئك الفقراء الذين يتعاملون مع الأكثر فقرًا منهم مثلما يعاملهم الأغنياء بالضبط.

تبريرات الثراء:

-١-

(إن حصلت على مقدار من الدخل، ولم تظهر لديك حاجة لإنفاقه، فهذا يعني يقينًا أنه هناك مَن يعمل ولا يحصل على دخل).

«موسى بن ميمون»[(٦٥)].

-٢-

وحده مَن يشعر أنه ليس مثل بقية البشر بل أفضل منهم، هو مَن يمكنه

(٦٥) أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي المشهور في الغرب باسم ميمونيدس، ويُشار إليه كذلك باسم "رمبم"، واشتهر عند العرب بلقب الرئيس موسى، كان فيلسوفًا يهوديًا سفارديًا، وكان من أكثر علماء التوراة اجتهادًا ونفوذًا في العصور الوسطى.

بضمير صاف أن يمتلك الثروة بين الفقراء. ومجرد أن يقتنع بهذه الفكرة؛ وهي أنه أفضل من الآخرين، يمكنه أن يبرر لنفسه وقتها ثراءه وسط الفقراء. الأعجب من كل ذلك أن مقدار ملكية الأثرياء -وهو الأمر الذي يجب أن يشعروا منه بالخجل- تصبح بالنسبة لهم دليلًا على أفضليتهم على الفقراء: «أنا أتمتع بالثروة؛ لأني أفضل من الآخرين، وأنا أفضل من الآخرين لأني أتمتع بالثروة»، هكذا يقولون!

-٣-

لا شيء يوضح بجلاء تام كذب الإيمان السائد الذي يعظوننا به أكثر من أن الناس الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين لا يمتلكون فقط ثروات طائلة وسط الفقراء؛ بل ويفخرون بذلك أيضًا.

-٤-

يمكن للبشر أن يحصلوا على القوت بثلاث وسائل فقط: بالسرقة، أو من الصدقات، أو بالعمل. من السهل أن نميز مَن يحصلون على قوتهم بالعمل، كما أنه من السهل أن نلاحظ مَن يحصلون على قوتهم من الصدقة، أما الذين يحصلون على قوتهم من السرقة فهم وحدهم الذين لا يمكن التعرف عليهم فورًا، لأنهم نوعان: الأول يتمثل في مَن يقومون بالسرقات البسيطة، الذن إما ينتزعون أغراض الآخرين بالعنف أو يسرقونهم. وهؤلاء يعرفهم جميع الناس، وهم أنفسهم يدركون أنهم سراق ولصوص، وكثيرًا ما يتم إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم. أما النوع الآخر من اللصوص، فهم أولئك الذين لا يعتبرون أنفسهم كذلك، ولا يتم القبض عليهم ولا معاقبتهم، لكنهم أولئك الذين تسمح لهم الحكومة من خلال وسائلها العديدة بسرقة الشعب الكادح وانتزاع ثمرة عمله منه.

-٥-

واحدة من أكثر الأخطاء شيوعًا وأهمية تلك التي تؤثر في أحكام الناس وفيما يحبونه. يحب الناس الثراء، ورغم أن شر الثراء واضح للعيان، فإنهم يحاولون أن يقنعوا أنفسهم أنه أمر حسن.

-٦-

كما أنه من المستحيل على السارق الذي استولى على محفظة إنسان آخر في وضح النهار أن يؤكد للجميع أنه لم يكن متيقنًا من أن الآخر لا يود أن يعطيه محفظته، هكذا أيضًا يبدو من المستحيل أن يؤكد الأغنياء في عالمنا لأنفسهم وللآخرين أنهم لا يعرفون شيئًا عن أفراد الشعب الكادح المفروض عليهم أن يعملوا تحت الأرض، وفي المياه في حرارة قائظة من عشر إلى أربع عشرة ساعة في اليوم، وفي المساء أيضًا في كثير من المصانع والورش يعملون هذا العمل الذي يبعث على العذاب؛ لأنه عبر هذا العمل وحده يمنحهم الأغنياء فرصة الوجود. يبدو أنه من غير الممكن أيضًا إنكار ما هو واضح تمامًا. وبينما يتعامى الأغنياء عن رؤية ذلك، فهم يبدون كالأطفال الذين يتعامون عن رؤية ما يبعث الخوف بداخلهم.

-٧-

هل منح الله شيئًا لشخص بعينه لم يمنحه للآخر؟ هل يمكن للأب أن يحرم أطفاله من شيء؟ أنت تطالب بحق حصري في استغلال عطاياه، فأين هي وصيته التي بموجبها يُحرم فيها بقية الأخوة من عطيته؟

لامينز

-٨-

(صحيح أن الثراء ينتج عن تراكم العمل، ولكن من الواضح أن أحدًا

يعمل، والآخر يراكم العمل. وهذا ما يطلق عليه المثقفون: «تقسيم العمل»).

«مقولة إنجليزية».

-٩-

الثراء بالنسبة للوثنيين يعني الفضيلة والمجد، أما بالنسبة للمسيحيين الحقيقيين فيعني الشر والخزي. القول بأن هناك «ثريًا مسيحيًا» يشبه القول بأن هناك «ثلجًا سائلًا».

-١٠-

يبدو أنه بينما يدرك الأغنياء -ولا يمكن ألا يكونوا قد أدركوا ذلك- الفقر المدقع الذي تحيا فيه الطبقة العاملة التي تموت من العوز ومن العمل المضني، فإنهم يستغلون حياة أولئك البشر وناتج عملهم، وإن لم يكن هؤلاء الأغنياء وحوشًا، لما أمكنهم أن يصمتوا على ذلك لدقيقة واحدة. وبينما لا يشعر أولئك الأغنياء والليبراليون وأصحاب النزعة الإنسانية بشفقة شديدة عند رؤيتهم لمعاناة الإنسان وحده؛ بل للحيوان كذلك، فإنهم لا يتوقفون عن استغلال عملهم، ويحاولون الإثراء أكثر فأكثر، أي استغلال عمل الفقراء، ويقومون بذلك بضمير مستريح تمامًا.

والسبب في ذلك يعود إلى أنه بينما يقوم الناس بأفعال شريرة، فإنهم دائمًا ما يختلقون تلك المجادلات التي تجعلهم يعتقدون أن هذه الأعمال الشريرة ليست شريرة، وأن هذه النتائج لا يمكن تغييرها وأنها خارج سلطان قوانين البشر.

تأسست هذه المجادلات في العصور القديمة على فكرة أن إرادة الله الغامضة التي لا تتغير هي من أودت بأحد الناس إلى ذلك الوضع والعمل الحقير، وجعلت الآخر في منزلة سامية، لذا فبإمكانه أن يستفيد من خيرات الحياة.

في البداية عندما كان هناك عبيد، كانوا يجادلون بأن الله هو من قسَّم الناس إلى سادة وعبيد، وعلى كل منهم أن يرضى بما قسَّمه الله له، وأن أوضاع العبيد سوف تكون أفضل في العالم الآخر، وأنه على السادة أن يكونوا رحماء بعبيدهم.

وعندما بدأ تحرير العبيد، جادلوا بأن الله يمنح الثروة لأناس بأعينهم؛ لكي يستغلوا قسمًا منها في الأعمال الصالحة.

وكانت هذه الأفكار تُرضي الفقراء والأغنياء على السواء، وخاصة الأغنياء. ولكن أتى الوقت الذي لم تعد فيه مثل هذه التفسيرات كافية، وحينئذٍ ظهر تفسير جديد في هيئة علم الاقتصاد السياسي، الذي كشف عن القوانين التي يتم بموجبها تقسيم العمل، والذي يعتمد على العرض والطلب ورأس المال والريع والرواتب والقيمة والربح... إلخ.

وحول هذا الموضوع كُتبت في فترة قصيرة الكتب والمنشورات، وأعلنت الأطروحات اللاهوتية، وإلى الآن لا يزالون يكتبون أكوامًا من الكتب والمنشورات، ويلقون المحاضرات.

والاستنتاج الذي يطرحه مثل هذا العلم هو أنه إن ظهر في مجتمع ما عدد كبير من السراق واللصوص يحرمون الشعب الكادح من ناتج عمله، فالسبب في ذلك هو أن السارقين واللصوص يقومون بأفعال شريرة، ولأن تلك القوانين الاقتصادية الثابتة لا يمكن تغييرها إلى عن طريق العلم والتطور البطيئين، ولذا يعتقد العلم أنه من الممكن للصوص أو السراق أو المخبرين، الذين يستفيدون من تلك السرقة أن يواصلوا الاستفادة بهدوء من تلك السرقات.

وأغلب معاصرينا، حتى وإن لم يدركوا تفاصيل هذه التفسيرات العلمية الـمُسكِّنة، فمثلهم مثل كثير من السابقين الذين لا يدركون تفاصيل التفسيرات اللاهوتية، يبررون أوضاعهم، مع أن جميعهم يدرك بالطبع أن مثل

هذه التفسيرات تظهر فقط كي يتمكن المثقفون والأذكياء من الاستمرار في البرهنة على أن النظام الحالي هو الواجب، لذا فبالإمكان الحياة بهدوء في ظل هذا النظام دون محاولة تغييره.

هذا ما يمكنه أن يفسر خسوف الضمير المذهل الذي نجده عند أناسنا الطيبين في هذا العالم، والذين يتمنون بإخلاص الخير للحيوانات، وفي الوقت ذاته يلتهمون حياة إخوانهم من البشر بضمير صاف.

خير المرء لا يكمن في زيادة ثروته، بل في زيادة الحب بداخله:

-١-

(لاَ تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا عَلَى الأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. بَلِ اكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ لاَ يُفْسِدُ سُوسٌ وَلاَ صَدَأٌ، وَحَيْثُ لاَ يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلاَ يَسْرِقُونَ؛ لأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا)[٦٦].

والقول بأن تكنزوا لكم كنوزًا في السماء يعني أن يزيد الإنسان الحب بداخله. والأمر لا يقتصر فقط على أن الحب لا يتفق مع الثراء؛ بل إنه يعارضه بشكل مباشر. الإنسان الذي يعيش بالحب لا يمكنه أن يصبح ثريًا، ولا يمكنه الحفاظ على الثروة إن وجدها لديه.

-٢-

(نَلْ لنفسك هذه الثروة التي لا يمكن لأحد أن ينتزعها منك، والتي يمكنها أن تبقى حتى بعد موتك، ولا يمكنها أن تطفئ توهجك أبدًا. إنها روحك!).

«حكمة هندية»

---

(٦٦) متى ٦: ١٩- ٢١.

-٣-

(يهتم الناس باكتساب الثروة أكثر بآلاف المرات من اهتمامهم باكتساب العقل، مع أنه يبدو أن الجميع بإمكانهم أن يفهموا أن ما بداخل الإنسان أهم بكثير جدًّا لسعادة الإنسان مما لديه).

«شوبنهاور».

-٤-

(وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا قَائِلًا: «إِنْسَانٌ غَنِيٌّ أَخْصَبَتْ كُورَتُهُ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ قَائِلًا: مَاذَا أَعْمَلُ؛ لأَنْ لَيْسَ لِي مَوْضِعٌ أَجْمَعُ فِيهِ أَثْمَارِي؟ وَقَالَ: أَعْمَلُ هذَا: أَهْدِمُ مَخَازِنِي وَأَبْنِي أَعْظَمَ، وَأَجْمَعُ هُنَاكَ جَمِيعَ غَلاَتِي وَخَيْرَاتِي، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ لَكِ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ، مَوْضُوعَةٌ لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ. اِسْتَرِيحِي وَكُلِي وَاشْرَبِي وَافْرَحِي! فَقَالَ لَهُ اللهُ: يَا غَبِيُّ! هذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ، فَهذِهِ الَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ تَكُونُ؟).

«لوقا ١٢: ١٦- ٢٠».

-٥-

(لماذا يريد الإنسان أن يصبح ثريًّا؟ لماذا يشعر بالحاجة إلى امتلاك جياد ثمينة وثياب فاخرة وغرف رائعة والحق في دخول المحافل العامة واللهو؟ هذا كله بسبب ما يكتنف حياته الروحية من خلل. امنح مثل هذا الإنسان حياة داخلية روحية حقيقية ولن يشعر بالحاجة إلى كل ذلك).

«إمرسون».

-٦-

(كما تعوق الثياب الثقيلة الجسد عن الحركة، هكذا يفعل الثراء بالروح).

«ديموفيل».

النضال ضد خطية الجشع:

-١-

إن كنت تريد رحمة الله، فأرني أفعالك. ولكن ربما يقول الآن شخص ما مثلما قال الشاب الغني: (فَقَالَ: «هذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي»[٦٧]. فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ ذلِكَ قَالَ لَهُ: «يُعْوِزُكَ أَيْضًا شَيْءٌ: بعْ كُلَّ مَا لَكَ وَوَزِّعْ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي)[٦٨].

(«اتبعني» تعني أن تحاكي أفعاله. وما هي الأفعال التي يجب أن نحاكي المسيح فيها؟ حب القريب، وإن كان هناك شاب كهذا لديه كل تلك الثروة ولا يمكنه أن يوزعها على الفقراء، فكيف يمكنه أن يقول إنه يحب القريب؟ إن كان الحب قويًّا، فيجب أن يظهر في الأفعال لا في الأقوال. وكي يظهر الغني محبته فهذا يعني أن يتخلى عن ثروته).

«يوحنا ذهبي الفم».

-٢-

(مَن لديه أقل مما يرغب فيه، لديه أكثر مما يستحقه).

«ليشتنبرج»[٦٩].

---

(٦٧) يقصد الوصايا التي ذُكِرت في الآية السابقة: لَا تَزْنِ. لَا تَقْتُلْ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ بِالزُّورِ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ.

(٦٨) القصة مذكورة في إنجيل متى وإنجيل لوقا على السواء.

(٦٩) جورج كريستوف ليشتنبرغ، عالم وشاعر وكاتب ألماني. ولد عام ١٧٤٢ بالقرب من مدينة دارمشتادت، ومات عام ١٧٩٩ في غوتينغن. كان ليشتنبرغ الابن الثامن عشر لأحد الجنرالات. ودرس الرياضة والعلوم في غوتينغن، وأصبح هناك في عام ١٧٧٠ أستاذًا للطبيعة التجريبية.

-٣-

هناك وسيلتان يمكن بهما التخلص من الفَقر: الأولى زيادة الثروة، والأخرى تعويد النفس على الرضى بالقليل. زيادة الثروة غير متاحة في كل الأوقات، ومن الممكن أن تتم بطرق غير شريفة، أما تقليل الرغبات فهي دائمًا في إمكاننا، ودائمًا ما يكون لها أثر طيب على الروح.

-٤-

ليس اللص الشرير مَن يستولي على ما هو في حاجة إليه، بل مَن يحتفظ بما ليس في حاجة إليه، وفي الوقت ذاته يحتاج إليه الآخرون. وهذا ما يفعله الأغنياء.

-٥-

(وَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ مَعِيشَةُ الْعَالَمِ، وَنَظَرَ أَخَاهُ مُحْتَاجًا، وَأَغْلَقَ أَحْشَاءَهُ عَنْهُ، فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَحَبَّةُ اللهِ فِيهِ؟ يَا أَوْلاَدِي، لاَ نُحِبَّ بِالْكَلاَمِ وَلاَ بِاللِّسَانِ، بَلْ بِالْعَمَلِ وَالْحَقِّ!).

«رسالة يوحنا الأولى : ٣ : ١٧– ١٨.

-٦-

كي لا تصبح محبة الغني مجرد كلمات، بل تتحول إلى أفعال حقيقية، يجب أن نعطي مَن يسألنا كما قال المسيح. وإن منح المرء كل مَن يسأله، فبغض النظر عن كمٍّ ممتلكاته، فلن يصبح غنيًّا. وحين يتوقف المرء عن كونه غنيًّا، حين ينفِّذ ما قاله المسيح للشاب الغني، ولن يكون لديه حينها ما حال بين الشاب الغني واتباع المسيح.

-٧-

يقول الحكماء الصينيون: «على الرغم من أنه ليس من الحسن أن يحسد الفقراء الأغنياء، إلا أنه أمر مفهوم، ولكن ما لا يمكن التسامح معه هو مضاعفة الأغنياء لثرواتهم دون مشاركتها مع الفقراء».

-٨-

الصدقة لا تكون حقيقية إلا عندما تُمنح من أعوازك، وحينها لا يحصل السائل على صدقة مادية فقط؛ بل بركة روحية أيضًا. إن لم تمنح من أعوازك بل ما يتفضل عنك فقط، فهذا لا يؤدي إلا إلى مضايقة السائل.

-٩-

المحسنون الأغنياء لا يرون عادةً أنهم ينتزعون من يد الفقير أكثر مما يمنحونه له كصدقة.

-١٠-

(لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ؛ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ. لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟)[٧٠].

-١١-

(انْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟ وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ

---

(٧٠) متى ٦: ٢٤- ٢٥.

يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟ وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ. وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا. فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ فَإِنَّ هذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الأُمَمُ. لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذِهِ كُلِّهَا. لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلًا مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ. فَلاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ)[٧١].

هكذا قال المسيح، وهكذا لا بد أن يعيش كل إنسان.

-١٢-

كم من الجهود والخطايا على الإنسان أن يقوم بها كي يحصل على الثروة ويحميها؟! ورغم ذلك فلا يوفر لنا المال سوى نوع واحد من السرور؛ ألا وهو السرور بإدراك كل شرور الثروة، وإدراك ضرورة البعد عنها.

* * *

(٧١) متى ٦: ٢٦- ٣٤.

الغضب

أساس خطية الضغينة:

-١-

(قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ).

«متى ٥: ٢١- ٢٢».

-٢-

إن شعرت بألم في جسدك، فستدرك أن شيئًا ما خاطئًا قد ألم به، فإما أنك قمت بما لا يجب القيام به، أو أنك لم تقم بما توجب عليك القيام به. هكذا هو الأمر أيضًا بالنسبة للحياة الروحية، فإن شعرت بألم الغضب فاعلم أن أمرًا ما خاطئًا قد ألم بك، فإما أنك تحب ما لا يجب أن تحبه، أو أنك لا تحب ما يجب عليك أن تحبه.

-٣-

خطايا الإفراط في الطعام والحياة البطَّالة التي بلا عمل والفسق شريرة في حد ذاتها. ولكن الأكثر شرًّا من تلك الخطايا أنها تنتج أكثر الخطايا سوءًا؛ ألا وهي الضغينة وانعدام المحبة صوب الناس.

-٤-

لا يجب أن نخشى السرقة ولا القتل ولا الإعدام، فما السرقة على أي

حال؟ إنها انتقال ملكية من شخص لآخر، وهذا كان موجودًا دائمًا، وسيستمر إلى الأبد، ولا شيء يخيف فيه. وما القتل والإعدام؟ إنهما انتقال الناس من حالة الحياة إلى الموت، ودائمًا ما يحدث هذا الانتقال، وسيظل يحدث، ولا شيء يخيف في ذلك أيضًا. ليس القتل والإعدام هما ما يخيفان؛ بل مشاعر الكراهية التي يُكِنُّها البشر لآخرين... كراهية البشر هي ما يخيف.

حماقة الغضب:

-١-

يقول البوذيون إن الحماقة هي أصل كل خطية، وهذا صحيح مع كافة الخطايا، خاصة مع الضغينة. قد يغضب صياد السمك أو الطيور على السمكة أو الطير؛ لأنه لم يستطع اصطيادهما، وقد أغضب من إنسان؛ لأنه فعل ما هو لازم له، لا ما أريده أن يفعله. أليس ذلك هو الحماقة ذاتها؟

-٢-

يسيء إليك إنسان ما، ثم تغضب منه. لقد انتهى الأمر، لكنك تحمل ضغينة في قلبك ضد هذا الإنسان، وعندما تفكر فيه تزداد غضبًا.

الأمر يشبه شيطانًا يقف دائمًا عند باب قلبك، ليستغل تلك الساعة التي تشعر فيها بالضغينة صوب إنسان ما، وإن فتحت ذلك الباب يدخل الشيطان ويجلس داخل قلبك ويتسيد عليه. اطرده! وكن على حذر دائمًا. لا تفتح الباب الذي يُمكِّنه من الدخول إلى قلبك.

-٣-

يُحكى عن فتاة حمقاء، فقدت البصر من المرض، ولم تستطع أن تدرك أنها قد فقدته، وكانت تغضب من كل ما يعوقها في طريقها وتصطدم به. اعتقدت أنها ليست هي مَن تصطدم بالأشياء؛ بل الأشياء هي التي تصطدم بها.

هكذا هو الأمر مع الناس عندما يصيبهم العمى في حياتهم الروحية. يبدو لهم أن كل شيء يحدث معهم عن سوء نية، ويشعرون بالغضب من الناس، ولا يفهمون أنهم مثل تلك الفتاة ليسوا في حال حسنة، ومردُّ ذلك ليس إلى الناس، بل إلى عماهم في حياتهم الروحية، وحياتهم من أجل الجسد وحده.

-٤-

كلما ازداد تفكير الإنسان في ذاته، كلما سهل عليه رؤية الشر في الناس. وكلما ازداد حلم الإنسان، كلما ازدادت طيبته ويقل غضبه.

-٥-

(لا تعتقد أن الفضيلة تكمن في الشجاعة والقوة، فإن استطعت أن تسمو فوق الغضب، فاصفح عمن أساء إليك وأحبه، وافعل أفضل ما يمكن أن يقوم به المرء للآخر).

«حكمة فارسية».

-٦-

صحيح أنه قد لا تكون لديك القوة كي تُمسك نفسك عن الغضب ممن أساء إليك، لكن يمكنك دائمًا أن تمتنع عن التعبير عن الغضب المعتمل بداخلك بالكلام أو بالفعل.

-٧-

الضعف منشأ الغضب والضغينة.

-٨-

(لا تُجارِ الشخص الذي يوبخك بقسوة ويسيء إليك، ولا تجعله يجذبك صوب الطريق الذي يريده، ولا تقوم بما يريدك أن تقوم به).

«ماركس أوريليوس».

الغضب على الإخوة غير صائب؛ لأن الله الواحد يعيش في قلوبهم جميعًا:

-١-

(عندما تريد أن تتغلب على شيطان داخل إنسان، فاحذر أن تسيء إلى الله الذي بداخله). هذا يعني أنه بينما تدين إنسانًا، لا تنس أن روح الله بداخله.

-٢-

(عليك من بداية اليوم أن تحترس من نفسك وتقول لها: «يمكن أن ألتقي الآن بإنسان وقح سفيه، أو منافق أو مزعج أو حقود. كثيرًا ما نلتقي بهؤلاء الناس. إنهم لا يعرفون ما هو صالح وما هو طالح، ولكن إن كنت أعرف تمامًا ما هو صالح وما هو طالح، وأدركت أن الشر الذي سيطولني حقيقة هو الذي سأفعله بنفسي، فحينها لا يمكن لأحد أن يضر بي. لا أحد يمكنه أن يجبرني على فعل الشر. وإن تذكرت دومًا أن كل إنسان هو قريب لي، ليس على مستوى اللحم والدم، بل من ناحية الروح، وأن روحًا إلهيّة واحدة تعيش فينا جميعًا، فحينها لا يمكنني أبدًا أن أغضب على مخلوق قريب مني. إني أدرك أننا قد خُلقنا الواحد من أجل الآخر، كاليد للأخرى، والقدم للأخرى وكما تساعد كل عين الأخرى، وكما تساعد الأسنان بعضها البعض، فكيف يمكنني إذنْ أن أشيح بوجهي بعيدًا عن قريبي إن ألحق بي شرًّا وهو أمر مناقض لطبيعته الحقيقية؟).

«ماركوس أوريليوس».

-٣-

إن غضبتَ على إنسان، فهذا يعني أنك تعيش حياة جسدية لا إلهية. إن عشت حياة إلهية، فلا يمكن لأحد أن يسيء إليك؛ لأنه لا يمكن الإساءة إلى

الله، والله الذي في داخلك لا يمكنه أن يغضب.

-٤-

كي تعيش بصلاح مع البشر، عليك أن تفهم عندما تلتقي بهم أن ما هو هام ليس ما أنت في حاجة إليه، ولا ما يريده الآخر؛ بل الله الذي يعيش في داخلنا. تذكر هذا فقط عندما تشعر بشعور سيئ بداخلك، وسوف تتحرر منه.

-٥-

ليس عليك أن تحتقر أو أن تبجل شخصًا بعينه. إن احتقرت شخصًا ما، فأنت لا تقدر الفضيلة التي بداخله، وإن بجَّلت شخصًا ما بعينه، فأنت تطلب منه الكثير. كي لا تخطئ عليك أن تشعر بالازدراء لذلك الإنسان الجسدي الذي بداخلك، وأن تبجل ذلك الوجود الروحي الذي يعيش روح الله فيه.

كلما قلَّ فهم الإنسان لذاته، كلما اعتقد أنه أكثر فضيلة:

-١-

(يقولون إنه من المستحيل ألَّا يشعر الإنسان الصالح بالغضب من الأشرار، ولكن إن كان الأمر كذلك، فكلما كان الشخص أفضل في مواجهة الآخرين، كلما توجب عليه أن يغضب منهم، ولكن يبدو أن العكس هو ما يحدث، فكلما أصبح الإنسان أكثر صلاحًا، كلما ازداد وداعة وفضيلة مع الآخرين. والسبب في ذلك هو أن الإنسان الصالح يذكر دائمًا كم يرتكب من خطايا، وأنه إن غضب من الآخرين فيجب أن يغضب من نفسه أولًا).

«سينيكا».

-٢-

من المستحيل للإنسان العاقل أن يغضب من الأشرار والمتهورين.

وكيف لا يغضب إن كانوا لصوصًا وغشاشين؟

ومَن هو اللص والغشاش؟ إنه إنسان ضال. إنه إنسان يستحق الشفقة لا الغضب. إن كان ذلك في مقدورك، فعليك أن تقنعه أنه ليس من الحسن أن يعيش هكذا، وأنه عليه أن يتوقف عن فعل الشر. إن لم يقتنع بذلك فليس عجبًا أن يعيش هذه الحياة الشريرة. لكنك ستقول لي إن مثل هؤلاء يجب أن نعاقبهم. حسنًا... إن مرضت عينا إنسان ما وأصابه العمى من جراء ذلك، فمن الواضح أنه لا يمكنك أن تعاقبه على ذلك، فلماذا إذنْ تريد أن تعاقب ذلك الإنسان المحروم مما هو أغلى من العينين؛ محروم من أغلى بركة لدى الإنسان؛ ألا وهي قدرته على أن يعيش بشكل عقلاني؟ لا يجب أن تغضب من هؤلاء الناس حتى لا تزداد مرارة من ضلالهم. تذكر دومًا كيف أخطأت أنت كثيرًا، ومن الأفضل أن تغضب من كثرة الشرور والنقائص التي في روحك.

«إبيكتيتوس».

-٣-

تقول إن كل مَن حولك هم أشرار. إن كنت تفكر بهذه الطريقة، فهذه علامة قوية على أنك شرير للغاية.

-٤-

كثير من الناس يُظهرون أنفسهم عبر ملاحظة عيوب الناس. إنهم لا يُظهرون سوى ضعفهم. كلما كان الإنسان أكثر ذكاءً وطيبةً، كلما رأى الخير في الناس. وكلما كان أكثر غباءً وشرًّا، كلما رأى العيوب والنواقص فيهم.

-٥-

صحيح أنه من الصعب أن تكون صالحًا مع إنسان فاسق كاذب، خاصة إن كان يسيء إليك، ولكن هذا هو بالذات مَن يجب أن تكون صالحًا معه...

لأجله ولأجل نفسك.

-٦-

عندما تغضب على شخص ما، فعادة ما تبحث عن أعذار لنفسك، محاولًا أن ترى الشر فيمن تغضب عليه. وهذا يزيد من ضغينتك. عليك أن تفعل العكس تمامًا: كلما ازداد غضبك، كلما توجب عليك أن تبحث بانتباه عن كل ما هو حسن في ذلك الشخص الذي تشعر بالغضب صوبه، وإن نجحت في العثور على شيء ما صالح بداخله وأحببته، فهذا لن يقلل فقط من حدة غضبك، بل سيجعلك أيضًا تشعر بالسرور.

-٧-

يا لبؤس الإنسان عندما يتعرى ويشعر بالبرد والجوع، ولكن الذي يستحق شفقة أكثر هو المخادع والسكير واللص والقاتل! الأول إنسان يعاني بالجسد، ولكن الآخر يشعر بالمعاناة في أغلى شيء في الوجود؛ ألا وهي الروح.

من الحسن أن يشفق الإنسان على الفقير ويساعده، ولكن الأفضل من ذلك ألا تدين الفاسق؛ بل أن تشفق عليه وتساعده.

-٨-

(إن أردتَ أن تلوم إنسانًا على عدم اتساقه، فلا تصف أفعاله أو أقواله بالحماقة، ولا تقل أو تفكر أن ما فعله أو قاله ليس له معنى على الإطلاق. بل على النقيض من ذلك: افترض دائمًا أنه أراد أن يقول أو يفعل شيئًا عاقلًا، وحاول أن تجده. علينا أن نحاول أن نجد تلك الأفكار المضللة التي خدعت هذا الإنسان وجعلته يرتكب هذا الخطأ، وهو المخلوق العاقل. لا يمكن إقناع الناس إلا بالعقل، وكذلك لا يمكنك إقناع إنسان بلا أخلاقية أفعاله إلا عبر شعور أخلاقي. لا يجب أن تفترض أن أكثر الناس لا أخلاقية لا يمكنه أن

يقوم بفعل أخلاقي؛ لأنه ما من إنسان يمكنه أن يتوقف تمامًا عن كونه مخلوق أخلاقي حر).

"كانط".

-٩-

إن غضبت على إنسان بسبب أنه فعل أمرًا ما أنت تعتبره شريرًا، فحاول أن تدرك السبب الذي دفع ذلك الإنسان لفعل ما تراه شريرًا. وما إن تدرك ذلك، فمن المستحيل أن تشعر بالغضب نحوه، كما أنه من المستحيل تمامًا أن تغضب من حجر يسقط إلى الأسفل بدلًا من أن يصعد إلى أعلى.

ضرورة الحب في التعامل مع الناس:

-١-

حتى تتعامل مع الناس، لا يجب على أحد منكم أن يعاني. لا تتعامل مع الناس إن لم تكن تشعر بالحب تجاههم.

-٢-

دون الحب يمكن للإنسان أن يتعامل فقط مع الأشياء. من الممكن مثلا أن تقطع شجرة أو تصنع لبنة أو تطرق الحديد، ولكن من المستحيل أن تتعامل مع الناس دون حب كما أنه من المستحيل تمامًا أن تتعامل مع النحل دون حذر. النحل مفطور على أنك إن لم تتعامل معه بحذر فسيلحق ضررًا بك، وهكذا هو الأمر مع الناس. إن لم تشعر بالحب تجاههم فاجلس بانتباه واعتنِ بأمورك وبما تريد، ولكن لا تتعامل مع الناس إلا بالحب، ولا تتراجع عن إنسانيتك وتتصرف مثل الوحش، وإلا تأذّى الناس وعذبوك.

-٣-

إن أساء إليك إنسان، فيمكنك أن ترد على إساءته مثلما يفعل الكلب أو

البقرة أو الجواد. إما أنك ستركض خلفه، وإن كان أقوى منك فإما ستعضه أو تصطدم به أو ترفسه. ويمكنك أن تجيب عن إساءته كإنسان عاقل. من الممكن أن تقول لنفسك: لقد أساء إليَّ هذا الإنسان، وهذا شأنه، لكني سأقوم بما أراه حسنًا. سأتصرف معه مثلما أريد أن يتصرف معي.

-٤-

عندما أرى الناس، وأجدهم جميعًا لا يشعرون بالرضى، يدينون الجميع والأشياء على حد سواء، أود أن أقول لهم: «لستم تعيشون من أجل إدراك لا معقولية الحياة وإدانتها والشعور بالغضب ثم الموت. لا يمكن أن يكون الأمر هكذا. فكر: لا يجب عليك أن تغضب. لا تُدِن، واعمل على معالجة الشر الذي تراه.

ولن يمكنك أن تزيل الشر الذي تراه بالغضب، ولكن بالشعور بالخير صوب جميع الناس، وهو الشعور الذي يسكن بداخلك، والذي ستشعر به فور أن تتوقف عن الغرق».

-٥-

علينا أن نُعوِّد أنفسنا على ألَّا نشعر بالرضى عن أنفسنا، كما لا نشعر بالرضى على الآخرين. علينا ألَّا نكون راضين عن تصرفاتنا لا عن أرواحنا، تمامًا كما يجب أن نفعل مع الناس؛ ندين تصرفاتهم ولكن نشعر صوبهم هم أنفسهم بالحب.

-٦-

إن أردتَ ألَّا تفعل الشر لقريبك وتحبه، فعليك أن تعوِّد نفسك على ألا تقول له أو عنه شيئًا سيئًا، وكي تتعود على فعل ذلك عليك أن تتعود أولًا على

ألَّا تفكر فيه بالشر، وألَّا تسمح حتى لشعور الضغينة أن يراود أفكارك.

-٧-

(هل يمكنك أن تغضب على شخص لأنه مصاب بجروح متقيحة؟ إنه ليس مذنبًا في أن منظر جرحه يتسبب في شعورك بالضيق. هكذا يجب أن تتعامل مع عيوب الآخرين.

ولكنك ستقول لي إن الإنسان لديه عقل كي يمكنه التعرف على عيوبه وإصلاحها، وهذا صحيحٌ فعلًا، كما أنك لديك عقل ويمكنك أن تبحث في أمر ألَّا تغضب على إنسان بسبب عيوبه؛ بل على العكس، عليك أن تحاول بالعقل والخير أن تتدبر الأمر دون غضب ونفاذ صبر وعجرفة، وأن توقظ ضميره في داخله).

«ماركس أوريليوس».

-٨-

بعض الناس يحبون الغضب. إنهم مشغولون دائمًا بشيء ما ويتحينون الفرصة دائمًا كي يقاطعوا ويسبوا ذاك الذي يفعل معهم أي شيء. تبدو هذه النوعية من الناس بغيضة جدًّا، ولكن يجب أن نتذكر أنهم تعساء للغاية، ولا يدركون فرحة الخير الكامنة داخل قلوبهم، لذا فعلينا ألا نغضب منهم، بل أن نشفق عليهم.

-٩-

(لا يمكنك خنق الغضب سريعًا بالقول للغاضب على الشخص الذي تسبب في غضبه: «إنه بائس». الرحمة بالنسبة للغضب كالماء بالنسبة للنار. لنتخيل شخصًا يود أن يلحق الشر بعدوه، وقد صنع به فعلًا كل أنواع

الشرور، وقد عانى عدوه منه جسديًّا وروحيًّا: إنه يعاني من الألم والمرض والاحتقار والفقر، وقد أدرك الشخص الأول أن كل هذا من فعل يديه. إن حدث ذلك فسيتوقف هذا الشخص عن فعل الشر وقد أدرك معاناة عدوه فعلًا).

«شوبنهاور».

-١٠-

اطلب الصفح من الله على تظاهرك بالحب والشفقة، بينما أنت لست كذلك. إن هذا أسوأ من الكراهية. وحاذر لئلَّا يفارقك الله، ولا يُشعل في قلبك شرارة الشفقة والحب الإلهي صوب عدوك. فما من شيء أغلى من ذلك.

النضال ضد خطية الضغينة:

-١-

(إنهم يدينونني، وإني لأشعر بالضيق والانزعاج. كيف يمكنني أن أتجنب هذه المشاعر المزعجة؟ بالاتضاع قبل كل شيء. عندما تدرك ضعفك لن تغضب من النقائص التي يشير الآخرون إليها فيك. إنها فظاظة من جانبهم، لكنهم على حق. الوسيلة الثانية هي التفكير: عليك أن تفكر في أنك في نهاية الأمر ستبقى كما أنت، وإن كنت تُكِنُّ احترامًا زائدًا عن الحد لنفسك، فعليك إذنْ أن تُغيِّر رأيك في نفسك. أما الوسيلة الثالثة والأساسية فهي الغفران: هناك وسيلة واحدة يمكننا بها ألا نكره أولئك الذين يُسيئون إلينا ويفعلون بنا الشر، وهي أن نفعل لهم الخير، فإن لم يُغيِّرهم هذا، فعلى الأقل سيكبح شكيمتهم).

«أميل».

-٢-

إن شعرتَ بالغضب، فقبل أن تقول أو تفعل شيئًا، عُدَّ حتى عشرة. إن شعرتَ بغضب شديد جدًّا، فعُدَّ حتى مائة. إن تذكرت ذلك حينما تشعر بالغضب فلن يتعين عليك العد.

-٣-

(أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك).

«محمد».

-٤-

كلما عاش الإنسان أكثر من أجل روحه، كلما قلَّ ظهور العوائق في كافة شؤونه، وبالتالي كلما قلَّ غضبه.

-٥-

(تفهم جيدًا وتذكر أن كل إنسان يتصرف دومًا بما يراه الأفضل بالنسبة إليه. إن تذكرت هذا دائمًا فلن تغضب من أحد، ولن تسخر من أحد أو توبخه بعنف؛ لأنه إن كان من الأفضل أن يقوم الإنسان بما هو مزعج لك، فهو على حق ولا يمكنه أن يتصرف بطريقة مختلفة. وإن أخطأ وقام بما هو ليس حسنًا بالنسبة إليه، فهو مخطئ إذنْ وسيشعر بالندم، ولكن لا يمكن الغضب منه).

«إبيكتيتوس».

-٦-

إن النهر العميق لا يضطرب عندما تُلقي بداخله حجرًا، وهكذا الحال مع الإنسان. لذا فإن غضب الإنسان من إساءة ما فهو ليس نهرًا، بل مجرد بِركة صغيرة.

-٧-

(إن تذكرنا دائمًا أننا جميعًا متساوون على هذه الأرض، سنتحلى باللطف والدماثة).

«سعد الشيرازي».

الشعور بالضغينة يضر كل مَن يختبره:

-١-

بغض النظر عن تأثير الغضب السيئ على الجميع، إلا أنه أكثر ضررًا على مَن يغضب. ودائمًا ما يكون الغضب أكثر ضررًا لك، وهذا في حد ذاته يزيد من غضبك.

-٢-

(هناك مَن يحبون الغضب وتشويه الناس دون أي سبب على الإطلاق. من الممكن أن نفهم لماذا يقوم إنسان بخيل بتشويه الآخرين. إنه يريد الاستيلاء على الملكية حتى يزداد ثراءً، لذا فهو يضر بالآخرين من أجل مصالحه، ولكن يا له من إنسان شرير ذاك الذي يضر الآخرين دون سبب! يا له من جنون!).

«سقراط».

-٣-

(لا تفعل الشر حتى لأعدائك. في هذا تكمن الفضيلة العظمى. ذلك الذي يفكر في إهلاك الآخرين لا بد وأنه سيهلك. لا تفعل الشر. إن الفقر لا يمكنه أن يبرر الشر، فإن فعلت الشر، ستزداد فقرًا.

يمكن للناس أن يتجنبوا عواقب الأفعال الشريرة لأعدائهم، لكن لا يمكنهم أبدًا أن يتجنبوا عواقب خطاياهم الخاصة. سوف تتبعهم كالظل حتى

تدمرهم. مَن لا يريد أن يعيش في الحزن والأسى، عليه ألا يفعل الشر لأحد. إن أحب الإنسان نفسه، فعليه ألَّا يفعل الشر مهما كان قليلًا.

«الكورال الهندي»(٧٢)

-٤-

(أن تكون فاضلا يعني أن تكون حر الروح. الناس الذين يغضبون دائمًا من أي شخص، ويخافون من أي شيء ويتصرفون طبقًا لعواطفهم، لا يمكنهم أبدًا أن يكونوا أحرار الروح. مَن لا يمكنه أن يكون حر الروح يرى ولا يرى، يسمع ولا يسمع، يذوق ولا يتذوق).

«كونفوشيوس».

-٥-

أنت تعتقد أن مَن تغضب عليه هو عدوك، ولكن عدوك الحقيقي هو غضبك الذي يتأجج بداخلك. لذا عليك أن تصالح عدوك سريعًا، وتُطفئ هذا الشعور المعذِّب بداخلك.

-٦-

(قطرة إثر قطرة ويمتلئ الدلو، وهكذا يمتلئ الإنسان شرًّا، مع أنه إن غضب على الناس لا يجمع بداخله شرًّا كبيرًا في مرة واحدة. يعود الشر إلى صانعه، كالغبار الذي يُلقى في وجه الريح.

ما من مكان في هذا العالم، لا في السماء ولا في البحر ولا فوق أعلى الجبال، يمكن فيه للإنسان أن يتحرر من ذلك الشر الذي يعتمل في داخله. تذكر ذلك جيدًا).

«دخامبادا»(٧٣).

---

(٧٢) كتاب فلسفي هندي يتكون من ١٣٣٠ مقطوعة مقسمة على ثلاثة أجزاء.

(٧٣) واحدة من أهم الكتابات الأدبية البوذية.

-٧-

منصوص على الآتي في القانون الهندي: كما أن الجو يكون باردًا في الشتاء، ودافئًا في الصيف، هكذا يبدو الشرير في حالة سيئة والفاضل في حال طيبة. دعنا لا ننخرط أبدًا في أي شجار حتى وإن عانينا وأُسِيء إلينا. دعنا لا نُسِئْ إلى أحد لا بالفعل ولا بالقول ولا بالتفكير. فكل هذا يحرم الإنسان من خيره الحقيقي.

-٨-

لو أدركت أن الغضب يحرمني من خيري الحقيقي، فلن يمكنني أن أُعادي الآخرين أبدًا عن وعي، ولن يمكنني أبدًا -كما فعلت سابقًا- أن أبتهج بغضبي وأفتخر به، وأبرره وأعتبر نفسي شخصًا مهمًّا وذكيًّا، والآخرين تافهين ضالين مجانين، ولن يمكنني عندما أتذكره الآن أن أستسلم لغضبي وألَّا أعتبر نفسي مذنبًا وألَّا أبحث عن وسيلة أصل بها إلى ترضية مع عدوي.

ولكن هذا يحدث قليلًا. إن كنت أدرك الآن أن الغضب يأتي بالشر إلى روحي، لكنتُ أدركت أني أترك نفسي تنقاد إلى هذا الشر. وبينما أترك نفسي تنقاد إلى هذا الشر، أتناسى أن بداخل جميع البشر يعيش تلك الروح التي تحيا بداخلي. يمكنني أن أرى الآن أن هذا يفصلني عن الناس، وأن اعتبار نفسي أفضل من الآخرين واحد من الأسباب الرئيسة لعدائي مع الناس. وبينما أتذكر حياتي بأكملها يمكنني أن أرى الآن أني لم أسمح أبدًا لشعوري بالعداء أن يستشيط بداخلي ضد هؤلاء البشر الذي أشعر أنهم أفضل مني ولم أُسِئ إليهم أبدًا، ولكن أقل تصرف غير لطيف يقوم به صوبي شخص أشعر أني أفضل منه، كان كافيًا كي أستشيط غضبًا منه وأسيء إليه، وكلما أشعر أني أفضل منه كلما تسهل الإساءة إليه. بل وفي بعض الأحيان كنت أتصور أنه

يقوم صوبي بدناءة، وهو أمر مُتخيل، وكان هذا كافيًا كي أسيء إليه.

-٩-

ذات شتاء ذهب فرانسيس مع شقيقه ليف من بيروزا إلى بورتسيونكول، وكان الجو باردًا جدًّا، حتى إنهما كانا يرتجفان من قسوته. نادى فرانسيس على أخيه الذي يتقدمه وقال له: «آه يا أخي ليف... الحمد لله أن الله قد منح إخواننا أن يقدموا لنا على هذه الأرض مثالًا للحياة المقدسة، اكتبْ هذا... إلا أن السعادة الكاملة ليست في ذلك».

ولم يمضيا مدة طويلة حتى نادى فرانسيس أخاه ليف مرة أخرى، وقال له: «اكتبْ أيضًا يا أخي ليف أنه إن قام أشقاؤنا بمداواة المرضى وطرد الأرواح الشريرة، وفتح أعين العميان وإقامة الموتى بعد أربعة أيام على موتهم... ففي هذا أيضًا لا تكمن السعادة الكاملة».

ثم سارا لمدة أخرى، وقال فرانسيس لليف: « اكتبْ أيضًا يا أخي ليف أنه إن أتقن أشقاؤنا كل اللغات وكافة العلوم وكل الكتابات وتنبؤوا ليس فقط بالمستقبل، بل عرفوا كافة مكنونات الضمائر والأرواح، ففي هذا أيضًا لا تكمن السعادة الكاملة».

ثم سارا لوقت آخر، وحينها نادى فرانسيس مرة أخرى على ليف، وقال له: «واكتب أيضًا يا أخي ليف أنه إن تعلمنا نحن خراف الله أن نتكلم بألسنة الملائكة، وإن عرفنا حركة النجوم، وإن كُشفت أمامنا كافة كنوز الأرض، وعرفنا كل أسرار حياة الطيور والأسماك وكافة الحيوانات والناس والنباتات والأحجار والمياه... في كل هذا لا تكمن السعادة الكاملة أيضًا».

ثم سارا مدة أخرى غير طويلة، ونادى فرانسيس على أخيه ليف قائلًا:

«اكتبْ أيضًا أنه حتى إن صرنا مبشرين، وأتينا بجميع الأمم إلى الإيمان بالمسيح، ففي هذا لا تكمن السعادة الكاملة».

حينها فقط قال ليف لأخيه فرانسيس: «إذنْ فيمَ تكمن السعادة الكاملة يا أخي فرانسيس؟».

حينها أجاب فرانسيس: «تكمن السعادة في الآتي: أن نصل إلى بورتسيونكيول ونحن في حالة رثة ونشعر بالبرد والإنهاك من الجوع والبرودة، ونطلب أن يسمحوا لنا بالدخول، فنجد الحارس يقول لنا: «آآه منكم أيها المتشردون... تتسكعون في كل مكان وتخدعون الناس وتتسولون التعاطف من فقراء الناس. ابتعدوا عن هنا!»، ولا يفتح لنا الباب. وإن لم نشعر وقتها بالضيق من الإهانة، بل وفكرنا بحب أن الحارس على حق، وقضينا وقتنا حتى الصباح وسط الرطوبة والبرد والجوع والثلج دون تذمر واستياء من الحارس... فحينها فقط يا أخي ليف نكون قد وصلنا إلى السعادة الكاملة».

* * *

الكبرياء

يبدو من الصعب لنا أن نتحرر من الخطايا، والسبب الرئيس في ذلك هو الإغواءات التي تدعمها. وسنتحدث هنا عن إغواء الكبرياء.

عبثية وحماقة الكبرياء:

-١-

المتكبرون مشغولون دائمًا بوعظ الناس، حتى إنه ليس لديهم وقت للتفكير في أنفسهم أو في لماذا يعتبرون أنفسهم صالحين. وكلما انهمكوا في الوعظ أكثر فأكثر، كلما انحدر بهم الحال أسوأ فأسوأ.

-٢-

كما أنه لا يمكن للإنسان أن يرفع نفسه، كذلك ليس بإمكانه أن يُعظِّم من شأن نفسه.

-٣-

يفخر الناس بما يجب أن يخجلوا منه: الثراء والشهرة والوجاهة.

-٤-

إن كنت أقوى وأغنى وأكثر علمًا من الناس، فحاول أن تخدمهم بما لديك وليس لديهم. إن كنت أقوى فساعد الضعيف، وإن كنت أذكى فساعد مَن هو أقل ذكاءً منك، وإن كنت أكثر علمًا فساعد الأقل علمًا منك، وإن كنت ثريًا فساعد الفقير. ولكنَّ المتكبرين لا يفكرون بهذه الطريقة. إنهم يعتقدون أنه إن كان لديهم ما ليس لدى الآخرين، فلا يتوجب عليهم أن يقسموه بينهم وبين الآخرين، بل عليهم أن يفخروا به أمامهم.

-٥-

ليس حسنًا أن يغضب الإنسان على أشقائه بدلًا من أن يشعر بالحب صوبهم. ولكن الأسوأ من ذلك أن يعتبر الإنسان نفسه ليس مثل الآخرين، بل أفضل منهم، فيتعامل معهم بطريقة تختلف عن الأخرى التي يريد منهم أن يعاملوه بها.

-٦-

من الحماقة أن يفتخر الإنسان بشخصيته أو بجسده، والأكثر حماقة من ذلك عندما يفتخر الناس بوالديهم أو أسلافهم أو أصدقائهم أو مقاطعاتهم أو شعوبهم.

إن الجزء الأكبر من شر هذا العالم ينتج عن هذا الكبرياء. هذا ما يثير الصراعات التي تندلع بين الناس وبين الأسر، وهذا ما يجعل الحروب تندلع بين الشعوب بعضها وبعض.

-٧-

لا يمكنك أن تعتبر نفسك أذكى وأفضل وأكثر خيرًا من الآخرين، فلا أحد يمكنه أن يُثمِّن عقله ولا فضائله، ولا أحد أيضًا يمكنه أن يُثمِّن عقل وفضيلة الآخرين بالتحديد.

-٨-

يعتبر المتكبرون أنفسهم أعلى وأرفع مقامًا من الآخرين. آخرون من المتكبرين لا يعتبرون أنفسهم كذلك؛ بل يعتبرونها الأفضل والأرفع مقامًا في العالم بأسره. وهم لا يترددون في ذلك، بل إنهم على ثقة كاملة أن مَن يعتبر نفسه أرفع وأعلى مقامًا منهم، فلا بد وأنه مخطئ، فالحقيقة أنهم وحدهم كذلك.

-٩-

من الأمور الباعثة على السخرية أن ترى اثنين من المتكبرين قد التقيا ببعضهما البعض، وكل منهم يعتبر أنه أفضل من العالم بأسره. يثير ذلك السخرية، لكنه ليس كذلك بالنسبة لهما، فهم يكرهون بعضهما البعض، ويتعذبان من ذلك.

-١٠-

من الممكن أن تكون أحمق وغير متكبر، ولكن لا يمكن أن تكون متكبرًا دون أن تكون أحمق أيضًا.

-١١-

(تعلم من المياه التي في أعماق البحار أو التي في الوهاد الجبلية. إنها تتدفق بقوة، لكن البحر الشاسع صامت، بالكاد يموج).

«حكمة بوذية».

-١٢-

كلما خفَّ وزن وكثافة المادة، كلما شغل مساحة أكبر. هكذا هو الكبرياء.

-١٣-

العجلة السيئة تصر بصوت أعلى، والأذن الفارغة تسمع بصوت أوضح. هكذا الأمر مع الإنسان الشرير الفارغ.

-١٤-

كلما ازداد رضى الإنسان عن نفسه، كلما قلَّ بداخله ما يمكنه أن يبعث فعلًا على الرضى.

-١٥-

يشبه المتكبر لحاءً متجمدًا. فعبر هذا اللحاء المتجمد لا يمكن أن تمر أي

مشاعر فاضلة.

-١٦-

من الأسهل تنوير شخص غبي عن شخص متكبر.

-١٧-

إن عرف فقط المتكبرون كيف يفكر فيهم أولئك الأشخاص الذين يستغلون كبرياءهم من أجل مصالحهم الذاتية، لتوقفوا تمامًا عن الشعور بالكبرياء.

-١٨-

كلما ازداد كبرياء الإنسان، كلما ازداد مَن يستغلونه، ويعتبرونه أحمقًا، وهم غير مخطئين في ذلك؛ لأنهم يخدعونه بأكثر الطرق وضوحًا وجلاءً، لكنه غير قادر على رؤية ذلك. إن الكبرياء هو نوع من الحماقة بلا شك.

الكبرياء القومي:

-١-

أن تعتبر نفسك أفضل من الجميع، أمرٌ ينم عن الشر والحماقة. جميعنا يدرك ذلك. إن اعتبرت أسرتك أفضل من كافة الأسر، فهذا أكثر شرًّا وحماقةً، لكن كثيرًا ما لا ندرك ذلك، بل نرى في ذلك أمرًا يبعث على الشعور بالكرامة. أما إن اعتبرت شعبك أفضل من كافة الشعوب الأخرى، فهذا أكثر شرًّا وحماقةً من أي شيء آخر. ولكن الأمر لا يتوقف على أننا لا نعتبر هذا شرًّا؛ بل إننا نعتبره فضيلة عظيمة!

-٢-

بداية الكبرياء في حب الذات وحدها. ما الكبرياء سوى أنانية غير محدودة.

-٣-

يُعادي بعضهم البعض وهم يعرفون أن هذا ليس حسنًا، وكي يخدعوا أنفسهم ويقتلوا ضمائرهم، يُلفِّقون تبريرات لسلوكهم العدائي. واحدة من هذه التبريرات تتلخص في أني أفضل من الآخرين، وهم لا يدركون ذلك، ولذلك فإني لا أستطيع أن أتفق معهم. وهناك تبرير آخر، وهو أن أسرتي أفضل من بقية الأسر، وثالث: مقاطعتي أفضل من المقاطعات الأخرى، ورابع: شعبي أفضل من الشعوب الأخرى.

لا شيء بإمكانه تفريق الناس عن بعضهم البعض مثل الكبرياء الشخصي أو الأسري أو المحلي أو القومي.

-٤-

لا يتوقف الأمر على أن المتكبر يعتبر نفسه أفضل من الجميع؛ بل إنه يعتبر شعبه أيضًا هو الأفضل من بين كافة الشعوب. هكذا هو الأمر مع الألماني والروسي والبولندي واليهودي... جميعهم يعتبر شعبه هو الأفضل من بين كافة الشعوب. ولذلك فالكبرياء ليس مضرًّا فقط على المستوى الفردي؛ بل على المستوى الدولي، بل وأكثر ضررًا بكثير. ملايين وملايين من البشر يقضون نحبهم بسببه.

ما من أساس يمكنه أن يبرر تبجيل شخص واحد أكثر من الآخرين؛ لأن روحًا إلهيةً واحدةً تحيا بداخل الجميع:

-١-

الإنسان لا يعتبر نفسه أفضل من الآخرين إلا عندما يحيا حياة جسدية. قد يبدو جسد أحدهم أقوى وأفضل من جسد إنسان آخر، ولكن إن كان الإنسان

يحيا حياة روحية، فمن المستحيل أن تبدو له نفسه أفضل من الآخرين؛ لأن روحًا واحدةً تحيا داخل الجميع.

-٢-

يطلقون على بعض الناس: صاحب المعالي- فخامتك- صاحب الجلالة- صاحب الكرامة- السيد العزيز- الأب الكاهن- السيد[٧٤]، ولكنَّ اسما واحدًا دون أي ألقاب يناسب الجميع ولا يسيء إلى أي شخص، ألا وهو: أخ- أخت.

من مميزات هذا الاسم أنه يذكرنا جميعًا بأبينا، الذي بموجبه نحن جميعًا إخوة وأخوات.

-٣-

يعتبر الناس أن البعض أسمى من غيرهم والبعض أدنى من غيرهم. على المرء أن يتذكر فقط أن روحًا واحدة تحيا داخل البشر جميعهم؛ ليدرك كيف أن هذه الفكرة غير عادلة تمامًا.

-٤-

يكون الإنسان على حق إن اعتقد أنه ما من إنسان على الأرض أسمى منه، ولكنه يخطئ تمامًا إن اعتقد أن هناك إنسانًا على الأرض أدنى منه.

-٥-

حسنٌ أن يُبجِّل الإنسان نفسه؛ لأن روح الله تحيا بداخله، ولكن من البلية

(٧٤) يطلق غالبية المسيحيون على الكاهن (أبونا) وعلى الأسقف (سيدنا) بما يخالف صراحة قول المسيح لتلاميذه: (وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تُدْعَوْا سَيِّدِي؛ لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ، وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ. وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ). "متى ٢٣: ٨- ٩".

أن يفتخر الإنسان بما هو إنساني بداخله: عقله- معرفته- نبله- ثروته- أفعاله الصالحة.

-٦-

إنسان صالح ذاك الذي يُثمِّن أناه الروحية الإلهية عاليًا، ولكن عندما يريد أن يرتفع فوق الناس بأناه الحيوانية الجسدية الطموحة الاستثنائية، فهذا أمر مريع.

-٧-

إن افتخر الإنسان بمميزاته الخارجية، فهو بذلك لا يشير سوى إلى أنه لا يدرك قيمته الداخلية مقارنة بمميزاته الخارجية كالشمس في مقابل الشمعة.

من المستحيل أن يتكبر الإنسان على الآخرين؛ وذلك لأن ما هو ثمين بداخله هو روحه، وقيمة الروح داخل الإنسان لا يستطيع أحد أن يحددها سوى الله.

-٨-

ليست الكبرياء أن يعرف الإنسان قيمته؛ بل إنها ما ينتج عن الفخر الكاذب والمديح المزيف من الناس. إن معرفة قدر الإنسان تتناسب عكسيًّا مع الإذلال والإدانة الكاذبة للناس.

عواقب إغواء الكبرياء:

-١-

إن الكبرياء لا يدافع عن نفسه فحسب، بل أيضًا عن كافة خطايا الإنسان. عندما يُعلي الإنسان من شأن ذاته، فهو لا يمكنه أن يرى خطاياه، ومن شأن هذا أن يجعلها تلتحم به.

-٢-

كما ينمو الزوان مع القمح، وتخرج الرطوبة والسوائل من الأرض، ويتوارى القمح عن ضوء الشمس، هكذا يخفي الكبرياء كافة قوى الإنسان ويحجب عنها ضوء الحقيقة[٧٥].

-٣-

الوعي بالخطية كثيرًا ما يكون مفيدًا للإنسان، فهو يذل الإنسان، وكل ما يحطم كبرياء الإنسان أمر حسن.

-٤-

هناك عقوبات كثيرة لكبرباء الإنسان، ولكن العقوبة الأساسية والأكثر حدة هي ألا يحبه الناس مهما كانت كرامته.

-٥-

حينما تشعر بالسرور من نفسك، قل لها: «يا لي من خلد[٧٦] جيد مناسب لحفرته»!

---

(٧٥) الزوان هو عشب شيطاني، قد ينمو مع القمح ويؤدي إلى قتله، والإشارة هنا إلى المثل الذي قاله المسيح:
(يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا فِي حَقْلِهِ. وَفِيمَا النَّاسُ نِيَامٌ جَاءَ عَدُوُّهُ وَزَرَعَ زَوَانًا فِي وَسْطِ الْحِنْطَةِ وَمَضَى. فَلَمَّا طَلَعَ النَّبَاتُ وَصَنَعَ ثَمَرًا، حِينَئِذٍ ظَهَرَ الزَّوَانُ أَيْضًا. فَجَاءَ عَبِيدُ رَبِّ الْبَيْتِ وَقَالُوا لَهُ: يَا سَيِّدُ، أَلَيْسَ زَرْعًا جَيِّدًا زَرَعْتَ فِي حَقْلِكَ؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ زَوَانٌ؟. فَقَالَ لَهُمْ: إِنْسَانٌ عَدُوٌّ فَعَلَ هذَا. فَقَالَ لَهُ الْعَبِيدُ: أَتُرِيدُ أَنْ نَذْهَبَ وَنَجْمَعَهُ؟ فَقَالَ: لاَ! لِئَلَّا تَقْلَعُوا الْحِنْطَةَ مَعَ الزَّوَانِ وَأَنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ. دَعُوهُمَا يَنْمِيَانِ كِلاَهُمَا مَعًا إِلَى الْحَصَادِ، وَفِي وَقْتِ الْحَصَادِ أَقُولُ لِلْحَصَّادِينَ: اجْمَعُوا أَوَّلاً الزَّوَانَ وَاحْزِمُوهُ حُزَمًا لِيُحْرَقَ، وَأَمَّا الْحِنْطَةَ فَاجْمَعُوهَا إِلَى مَخْزَنِي). «متى ١٣: ٢٤-٣٠».

(٧٦) حيوان آكل للحشرات.

-٦-

إن كان الإنسان متكبرًا، فهو يفصل نفسه عن الآخرين، وهذا يحرمه من أفضل سعادة في الحياة؛ ألا وهي التعامل الحر السعيد مع كافة البشر.

-٧-

إن المتكبر يخشى من أي إدانة له، والسبب في ذلك أنه يشعر بأن عظمته ليس صلبة، وأنها لا تزال تحافظ على نفسها، طالما لم يقم أحد بأقل ثقب ممكن في هذه الفقاعة التي يرتديها من حوله.

-٨-

طالما الناس يحبون الكبرياء ويألفونها، فستظل أمرًا مفهومًا، ولا شيء يبعث على النفور أكثر من الكبرياء. رغم ذلك فالناس يواصلون الشعور به.

-٩-

الزهو بالنفس يربك الناس. في البداية يعزو الناس إلى الشخص الزاهي بنفسه المعنى ذاته الذي يعزوه إلى نفسه، ولكن سرعان ما يمر ذلك سريعًا، ويشعر الناس بخيبة الأمل ويدركون الخداع الذين سقطوا ضحيته ويردون عليه بالازدراء.

-١٠-

يدرك الإنسان أنه يعيش حياة شريرة، ولكن بدلًا من أن يُبدِّل حياته صوب الأفضل، يحاول أن يؤكد لذاته أنه ليس مثل بقية البشر؛ بل أفضل منهم، لذا فعليه أن يعيش بهذه الطريقة التي يحيا بها الآن. وهذا يشير لنا أن مَن يحيون حياة شريرة لا بد وأن يكونوا متكبرين.

النضال ضد إغواء الكبرياء:

-١-

(لولا الكبرياء لقل الشر في العالم بشكل ملحوظ. كيف نتخلص من الكبرياء التي تتسبب في الشر؟ هناك وسيلة واحدة يمكننا بها أن نتخلص منها: أن يعمل كل إنسان على نفسه. كثيرًا ما نفكر أن قوانين الحكومة يمكنها أن تُسدي إلينا خدمة عظيمة، ولكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا؛ لأن مَن يكتبون قوانين الحكومة هم بشر يعانون هم أيضًا من إغواء الكبرياء. لذا فلا يمكن أن نأمل شيئًا من قوانين الحكومة. لا يمكننا أن نأمل أبدًا في أن إغواء الكبرياء سوف يدُمَّر من نفسه في نفوس الحكام. إن الكبرياء يمكن أن يتم تدميرها فقط عندما يدمر الإنسان في داخله ذلك الجذر العميق للشر. طالما هي تعيش قلوبنا، فكيف يمكننا أن نأمل أن تموت في قلوب الآخرين؟ لذا فالأمر الوحيد الذي يمكننا أن نفعله من أجل خيرنا وخير الآخرين هو أن ندمر في نفوسنا جذر الشر الذي يعاني الناس من جرائه. ليس من الممكن إجراء أي تحسينات قبل أن يجري الإنسان تحسينات بداخل ذاته)[٧٧].

«لامنيه».

---

(٧٧) الحقيقة أن هناك فارقًا دقيقًا جدًا بين دعوى تولستوي الروحية - سواء قالها على لسانه أو على لسان آخرين- وبين الدعاوي الملفقة لقبول الاستبداد. دائمًا ما نسمع دعاوى إصلاح النفس أولًا من جماعات السلفيين التي تستغل هذه المقولات الدينية في الدعوة إلى قبول الاستبداد وترك الحاكم، وإصلاح النفس لدى كثير من السلفيين يتعلق في الأساس بالحفاظ على مجموعة من الطقوس الدينية التي لا تتعارض مع نظام الحكم في شيء، وليس من شأنها التأثير بشكل حقيقي في المجتمع، أما إصلاح النفس الذي يدعو إليه تولستوي يتعلق -كما نفهم في معظم كتاباته- بالامتناع عن الشر الذي يترجمه تولستوي دائمًا في العصيان، فهو يرى أن الحكومات تعتمد في قوتها على أفراد الشعب الذين يشكلون قوة الشرطة والجيش، لذا فإصلاح النفس يعني الامتناع عن فعل الشر والامتناع عن مساعدة الشرير، والعيش طبقًا لقانون المسيح الذي بينه في الموعظة على الجبل، ومن شأن هذا أن يحدث تغيرات ثورية في المجتمع. يمكننا أن نتأمل في تجربة غاندي السياسية لنرى نوعًا من التطبيق السياسي لتعاليم تولستوي.

-٢-

(من الصعب جدًّا أن نحطم كبرياء الناس، فما إن ترتق ثقبًا واحدًا، حتى تجده قد تمزق ثانية قبل أن تلتفت مرة أخرى، وإن رتقته ستجد ثالثًا قد تمزق، وهكذا).

«ليشتنبرج».

-٣-

إن خطية الكبرياء لا يمكن تدميرها سوى بإدراك الروح الواحدة التي تعيش داخل كل البشر. وما إن يدرك الإنسان ذلك، حتى لا يعود بإمكانه أن يعتبر نفسه أو أقاربه أو شعبه أفضل من الآخرين.

-٤-

لا يمكن أن يعيش الإنسان في راحة، إلا عندما لا يعتبر أحدًا أفضل منه، ولا يعتبر نفسه أفضل من أحد.

-٥-

العمل الأهم في الحياة هو تهذيب الروح. دائمًا ما يعتبر المتكبر نفسه صالحًا تمامًا، وهذا تحديدًا مكمن ضرر الكبرياء. إنها تعوق الإنسان عن أهم ما في الحياة، وهو أن يصير أفضل.

-٦-

الحياة من أجل الروح تختلف عن الحياة الدنيوية، فمَن يعيش من أجل الروح لا يمكنه أن يكون راضيًا عن نفسه، بغض النظر عمَّا يفعله من أعمال صالحة، فهو لا يعتبر أنه فعل شيئًا سوى ما يلزم عليه فعله، ولم يفعل كل شيء. لذا فهو لا يكف عن توبيخ نفسه، ولا يمكنه أن يشعر بالكبرياء أو

الرضى عن الذات.

-٧-

(وَأَكْبَرُكُمْ يَكُونُ خَادِمًا لَكُمْ. فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِع) «متى ٢٣: ١١- ١٢».

مَن يتضع هو مَن يرفع نفسه أمام أعين الناس؛ لأن مَن يعتبر نفسه جيدًا وذكيًا وفاضلًا، لن يحاول أبدًا أن يصبح أكثر ذكاءً وفضيلةً.

ذاك الذي يضع نفسه يرتفع؛ لأن مَن يعتقد أنه إنسان سيئ سيحاول أن يكون أفضل فضيلةً وتعقلًا.

يقوم المتكبرون بما يقوم به المشاة عندما يمتطون طوّالة الرجل. إنهم بذلك يصبحون أعلى ولا يمكن للوحل أن يصلهم، وتصبح خطواتهم أوسع، ولكن المشكلة أنهم لا يستطيعون أن يمضوا بعيدًا على هذه الطوالات، وآجلًا أو عاجلًا سوف تسقط في الوحل ويسخر الناس منك.

هكذا هو الأمر مع المتكبرين. إنهم يتخلفون للغاية عن أولئك الذين لا يرفعون أنفسهم عن منزلتهم، وبالإضافة إلى ذلك فهم يسقطون عن طوالات الأرجل ويصبحون موضعًا للسخرية.

* * *

عدم المساواة

إن أساس حياة البشر هو تلك الروح الإلهية التي تحيا بداخلهم. إن الروح الإلهية واحدة داخل البشر أجمعين، ولذلك فالبشر جميعًا متساوون.

جوهر إغواء اللامساواة:

-١-

قديمًا آمن البشر أنهم ينحدرون من سلالات مختلفة؛ من عظام سوداء وبيضاء، أو من نسل يافث أو حام، وأنه لا بد أن يكون بعضهم أسيادًا، والآخرون عبيدًا. وقد اعترف الناس بهذا التقسيم للبشر: أسياد- عبيد؛ لأنهم اعتقدوا أنه من الله. إنها خرافة حمقاء ومهلكة، ورغم ذلك فلا تزال يعترف بها حتى يومنا هذا.

-٢-

نحن جميعًا إخوةٌ، ورغم ذلك ففي كل صباح يحمل لي شقيقي أو شقيقتي كأس شرابي. نحن جميعًا إخوة، ورغم ذلك فإني في حاجة في كل صباح إلى أن يحمل لي أحد أشقائي أو شقيقاتي المساوين لي سيجارًا وسُكَّرًا ومرآةً، ومثل هذه الأشياء التي أفقدتني صحتي ولا تزال. نحن جميعًا إخوة، وأنا أعمل في بنك أو في تجارة أو في متجر مهمته أن يجعل كل ما يحتاج إليه أشقائي أغلى سعرًا. نحن جميعًا إخوة، وأنا أحصل على راتبي مقابل أن أدين وأحاكم وأعدم لصًّا أو عاهرةً وجودهما مشروط بأماكن أو ظروف أعرفها جيدًا طوال أيام حياتي، في الوقت الذي أدرك فيه جيدًا أنه من الممكن تقويمهما بدلًا من

إعدامهما. نحن جميعًا إخوة، بينما أحصل على راتبي مقابل أن أعظ الناس بمسيحية وهمية تحرمهم من معرفة المسيحية الحقيقية. نحن جميعًا إخوة، بينما أمنح الفقير أعمالًا تعليمية وطبية وأدبية مقابل المال فقط. نحن جميعًا إخوة، بينما أحصل على راتبي مقابل أن أقوم بالقتل وأتعلمه وأصنع السلاح والبارود وأُشيِّد الحصون.

-٣-

من الجدير أن نلقي النظر على حياة الشعوب المسيحية: إنها منقسمة إلى مجموعات، يقضي أفرادها حياتهم بأكملها في عمل رهيب قاتل ليسوا في حاجة إليه، وآخرون قد ملوا من حياة البطالة وكل أنواع المتع التي أنتجتها تلك اللا مساواة المريعة التي وصلت إليها هذه الشعوب التي تقر بقانون المسيحية، وهذه الكذبة التي يدعون بها المساواة في تعليمهم هي أكثر رعبًا من أكثر أنواع اللا مساواة وضوحًا وقسوةً.

-٤-

تعد الهندوسية واحدة من أقدم وأعمق المعتقدات، والسبب في ذلك أنها لم تصبح عقيدة عالمية، وأنها لم تمنح الناس تلك الثمار التي يمكنها أن تمنحها لهم، وقد علَّم معلموها الناس عدم المساواة وانقسام الناس إلى طبقات، وبالنسبة للناس الذي يؤمنون بأنهم غير متساوين لا يمكن أن يكون هناك إيمان حقيقي.

-٥-

الناس لا يقدمون أنفسهم للآخرين بما هم حقيقةً، بل يقدمون أنفسهم على أنهم أمراء أو تجار أو محافظون أو قضاة أو ضباط أو قياصرة أو وزراء أو جنود. وجميعهم يعتبرون أن واجبهم الرئيس ليس هو ما يتوجب على كل

إنسان أن يفعله، بل ما يتوجب على الأمير أو التاجر أو المحافظ أو القاضي أو الضابط أو القيصر أو الوزير أو الجندي أن يفعله.

-٦-

كان من الممكن أن نفهم سبب عدم مساواة الناس؛ لأن أحدهم أقوى جسديًّا أو أذكى من الآخر أو أكثر أناقة أو أوسع معرفة أو أكثر فضيلة، ولكن عادة ما لا يكون هذا هو السبب في تقسيم الناس واعتبار أحدهم أعلى من الآخرين. الناس غير متساوين؛ لأن أحدهم يطلق على نفسه أميرًا وجنرالًا والآخر فلاحًا وعاملًا... أحدهم يرتدي ثيابًا فاخرةً، والآخر يرتدي حذاءً مهترئًا.

-٧-

إن معاصرينا يفهمون بالفعل أن عدم المساواة هي خرافة، وهم يدينونها في داخلهم، ولكن مَن يستفيدون منها لا يفارقونها، أما أولئك المتضررون منها فلا يعرفون كيف بإمكانهم أن يدمروها.

-٨-

اعتاد الناس أن يقسموا الآخرين بينما يفكرون إلى نبلاء وغير نبلاء، إلى عظماء وأندال، متعلمين وجهلة، وقد اعتادوا على هذه التقسيمات حتى إنهم يعتقدون في واقع الأمر أن أحدهم يمكنه أن يصبح أفضل من الآخرين، وأحدهم أكثر مدعاة للتبجيل من الآخرين؛ لأن الناس قد صنفت البعض في طبقة والآخرين في طبقة أخرى.

-٩-

من التقاليد المقبولة لدى الأثرياء أنه على الواحد منهم أن يخضع لأحدهم ولا يخضع للآخرين، أن يدعوا بعضهم إلى الفندق، بينما يلتقي بالآخرين عند

الردهة. مثل هذه التقاليد توضح مدى انتشار اللامساواة بين الناس.

-١٠-

لو لم تكن لدينا خرافة اللا مساواة، لما ارتكب الناس كل هذه الشرور، ولم يتوقفوا عن فعلها حتى الآن؛ لسبب واحد ألا وهو أنهم لا يعتبرون أن كل الناس متساوون.

تنظيم المجتمع المعاصر يعتمد على عدم المساواة بين الناس:

-١-

استمع أو اقرأ أحاديث مَن يعيشون حياة مترفة. جميعهم يعترف بمساواة جميع البشر ويعارضون كل أنواع الجبر والإكراه والظلم وخرق حريات الطبقات العاملة. ولكن انظرْ إلى حياتهم، وستجد أن الأمر لا يقتصر على أنهم متعايشون مع هذا الظلم والجبر وخرق حريات الطبقات العاملة، بل إن الأمر يتجاوز ذلك حيث أنهم يعارضون كلما أمكنهم محاولات الطبقات العاملة للتخلص من الظلم والعبودية والإكراه.

-٢-

الإنسان الوارث لأراضٍ تبلغ مساحتها ملايين أو حتى عشرات الآلاف من الديسياتين[٧٨]، ولديه بالطبع منزل ضخم وجياد وسيارات وخدم، يعتبر نفسه إنسانًا مميزًا. كل هذا الترف من حوله يُسكره حتى يجعله غير قادر على احتمال هذا العامل الذي يُضرب عن العمل في مصنعه، أو ذلك الفلاح المعدم الذي يقطع شجرة من غابته، ودون أي شعور بتأنيب الضمير يقوم بإعدام ذلك الفلاح أو العامل إن أمكنه.

---

(٧٨) الديسياتين: وحدة قياس روسية قديمة.

-٣-

أدرك العبد قديمًا أنه كذلك بسبب الطبيعة ذاتها، أما العامل المعاصر، فمع وعيه بعبوديته، فهو يعلم أنه ليس عليه أن يكون عبدًا، لذا فهو طوال الوقت يريد شيئًا لا يمكنه بلوغه أبدًا، لذا فهو يشعر بمزيد من المعاناة.

تبرير اللا مساواة:

-١-

لا شيءَ يمكنه أن يمنح مثل هذه الثقة للقيام بعمل شرير مثل اشتراك مجموعات في عمله، أي السماح لأفراد منفصلين عن بقية الناس بالاتحاد ببعضهم البعض بفعل هذا الشر.

-٢-

كل البشر الذين يربطهم هيكل الدولة ينقلون مسؤولية أعمالهم إلى الآخرين: الفلاح يؤخذ إلى العسكرية وينقل المسؤولية للأمير أو التاجر الذي يعمل كضابط، الذي ينقلها بدوره للأمير الذي يشغل وظيفة المحافظ، وينقل المحافظ المسؤولية للموظف أو الأمير الذي يعمل كوزير، والوزير للقيصر، والقيصر بدوره للجميع: موظفين وأمراء وتجار وفلاحين. الأمر لا يقتصر على أن البشر يتخلصون بهذه الطريقة من إدراك مسؤولياتهم للقيام بأعمال بعينها؛ بل إنهم أيضًا يفقدون الوعي الأخلاقي لمسؤولياتهم، وبهذا يتطور هيكل الدولة، ويؤكد البشر لأنفسهم وللآخرين باستمرار وتوتر أنهم ليسوا متماثلين؛ بل إنهم مختلفون عن بعضهم البعض كاختلاف النجم عن الآخر، ويؤمنون بقوة بتلك الفكرة.

تلك اللا مساواة، وتبجيل مجموعات من الناس، والحط من قدر مجموعات أخرى، تستند بشكل خاص على قدرة الناس على التعامي عن

رؤية عبثية النظام القائم وقسوته وإجراميته، وعن رؤية ذلك الخداع الذي تقوم به مجموعة وتقره مجموعات أخرى.

-٣-

فيما يتعلق باللا مساواة؛ فالمذنبون هم مَن يرفعون أنفسهم فوق الآخرين، وأيضًا أولئك مَن يقرون بدنو أنفسهم عن الآخرين.

-٤-

نشعر بالدهشة من حجم الفجوة بين ما نطلق عليه «المسيحية» اليوم، وبين تعاليم المسيح، ومن حجم ابتعاد حياتنا عن المسيحية. ومع ذلك فلا يمكن أن يعترف بشر يؤمنون بأن الله قد قسَّم الناس إلى سادة وعبيد، وإلى مؤمنين وغير مؤمنين، وإلى أغنياء وفقراء، بالمساواة بين الناس، وأن جميع البشر هم أبناء لله، وأن جميعهم أشقاء، وأن حياتهم جميعًا مقدسة. بالنسبة للذين قبلوا تعاليم المسيح لم يكن أمامهم سوى أمر من الاثنين: إما أن يُبدِّلوا النظام القائم تمامًا، أو أن يتحولوا عن هذا التعليم. وقد اختاروا الأمر الثاني.

-٥-

(يقر التعليم المسيحي بأن الله أب لجميع البشر، وأن كل البشر إخوة، لذا فلا يمكن أن يكون بين المسيحيين عبيد، ولا يمكن أن يكون هذا الكذب العظيم الذي يمكن عن طريقه لحفنة من الناس أن تعيش حياة مترفة على حساب عمل العمال الفقراء، ولهذا اضطهد الأغنياءُ المسيحيين الأوائل، وعندما أدركوا أنهم لا يمكنهم إخفاء الحقيقة، حرَّفوا التعليم المسيحي، حتى لم يعد ينتمي إلى المسيحية الحقيقية فعلًا؛ بل أصبح خادمًا لمصالح الأغنياء).

«هنري جورج».

خرافة الوطنية:

-١-

من الحماقة أن يعتبر إنسان ما نفسه أفضل من الآخرين، ولكن الأكثر حماقةً أن يعتبر شعب ما نفسه أفضل من الشعوب الأخرى، وكل شعب آخر، أو بالأحرى غالبيته يعيش في كنف هذه الخرافة الغبية الشريرة.

-٢-

يشبه النداء في وقتنا هذا بأن يحب كل واحد شعبه ويستعد للهجوم على شعب آخر أو حماية نفسه بالحرب من هجوم العدو بدلًا من الاتصال العالمي بين الشعوب، بالنداء بحب كل قروي لقريته فقط، وأن على كل قرية أن تجمع القوات وتشيد الحصون. كان بإمكان حب كل إنسان لشعبه قديمًا أن يُوحِّد الناس، ولكن في زماننا هذا، وبينما استطاع البشر الاتحاد تجاريًّا وصناعيًّا وعلميًّا وفنيًّا بوسائل الاتصالات، وقبل كل ذلك توحدوا في الوعي الأخلاقي، فهذا الحب الذي لشعب كل إنسان على الخصوص لا يمكنه أن يوحد الناس، بل يفرقهم.

-٣-

إن كان للوطنية معنى في العصور القديمة عندما كان كل شعب يخضع لسلطة إلهية غير محدودة لسيده الأعظم، ويتصور نفسه على أنه جزيرة تكافح بين تيارات محيط هائج، فحينئذ كان من الممكن أن تكون الوطنية أمرًا حسنًا، ولكن إن كان هذا الشعور المنصرم يطالب الناس بما يناقض عقلهم وشعورهم الأخلاقي ودينهم: أي المساواة بين البشر وإخوة جميع الناس، فلا يمكن إذنْ للوطنية إلا أن تكون أكثر الخرافات حماقة.

-٤-

كان من الحسن لليهودي واليوناني والروماني أن يؤمن بصلابة أن شعبه هو الشعب الحقيقي الصالح والطيب وأن بقية الشعوب ما هم إلا مجرد أوغاد ولصوص عندما يدافع عن شعبه من القتل، بل ويُخضع الشعوب الأخرى أيضًا بالقتل. استطاع أيضًا بشر العصور الوسطى أن يؤمنوا بذلك، بل وحتى فترة قريبة كان البشر يؤمنون بذلك حتى نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي. لكن بغضِّ النظر عن مدى غضبنا لم يعد بإمكاننا أن نؤمن بذلك، وقد أصبحت هذه الخرافة بالنسبة لمعاصرينا محض حماقة لا يمكنهم أن يعيشوا دون أن يتحرروا منها.

-٥-

الإنسان الذي يفهم هدف الحياة ومعناها لا يمكنه ألا يشعر بمساواته وأُخوته ليس فقط مع شعبه، بل مع البشر أجمعين.

كثيرًا ما رأيت في سيفاستوبول[٧٩] -أثناء الهدنة- الجنود الروس والفرنسيين يمضون مع بعضهم سويًّا، ودون أن يفهم أحد منهم لغة الآخر كانوا يبتسمون بأخوة، ويربتون على أكتاف بعضهم البعض أو على بطونهم. كان هؤلاء الجنود أسمى من أولئك الذين شنوا الحروب وأوقفوا الهدنة محاولين جعل الآخرين يظنون أنهم ليسوا أشقاء، بل ينتمون إلى شعوب مختلفة متحاربة، مجبرين إياهم على العودة لقتال بعضهم البعض.

-٦-

كل إنسان قبل أن يكون نمساويًّا أو صربيًّا أو تركيًّا أو صينيًّا هو إنسان، أي

(٧٩) إحدى مدن أوكرانيا، وتقع في شبه جزيرة القرم، والإشارة إلى الحرب الشهيرة التي كتب عنها تولستوي حكايات سيفاستوبول.

مخلوق عاقل محب، ولا تكمن وظيفته في أن يحمي أو يدمر الدولة الصربية أو التركية أو الصينية أو الروسية؛ بل في أمر واحد وهو تنفيذ وظيفته الإنسانية في ذلك العمر القصير الذي لديه، والتي من أجلها خُلق ليعيش في هذا العالم. إنها وظيفة واحدة ومحددة تمامًا: حب كل البشر.

-٧-

يلتقي الطفل بطفل آخر، مهما كانت طبقته أو إيمانه أو شعبه بنفس الابتسامة التي تنم عن العطف والسرور. أما الإنسان البالغ والذي لا بد وأن يكون أكثر تعقلًا من الطفل، فقبل أن يلتقي بإنسان آخر يحرص على معرفة طبقته وإيمانه وشعبه، وبحسب كل ما سبق يقرر كيف يمضي معه تحديدًا. ليس عبثًا إذنْ أن قال المسيح: «كونوا الأطفال»(٨٠).

-٨-

أعلن المسيح للناس أن تقسيم الناس إلى أتباع وأمم غريبة هو نوع من الخداع والشر. وعندما يدرك المسيحي ذلك، فليس بإمكانه أن يشعر بأي حقد أو ضغينة صوب شعب غريب، ولا يمكنه أن يبرر -كما كان يفعل سابقًا- الأفعال القاسية ضد الشعوب الغريبة، واعتبار شعبه أفضل منها. لا يمكن للمسيحي ألا يدرك أن التفريق بينه وبين الشعوب الأخرى هو محض شر وإغواء، لذا فلا يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ مما فعله سابقًا؛ ألا وهو العمل على دعم هذا الإغواء.

لا يمكن للمسيحي ألا يدرك أن خيره مرتبط بخير الناس جميعًا، لا بخير

(٨٠) الإشارة إلى تلك الآية: (اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ). «متى ١٨: ٣».

شعبه هو فقط. إنه يعرف أن وحدته مع كل البشر في العالم لا يمكن أن تحدها أربعة حدود وأوامر حكومية تقضي بانتمائه إلى هذا الشعب أو ذاك. إنه يعرف أن البشر في كل مكان هم إخوة، ولهذا فهم متساوون.

وما إن يدرك ذلك، حتى لا يعود بإمكان المسيحي ألا يغير علاقته بالآخرين وبالحكومة وما كان يعتقده سابقًا أمرًا ساميًا؛ ألا وهو حب الوطن وحب شعبه ودولته، وخدمتهم عن طريق الإضرار بالآخرين، والحملات العسكرية... كل هذا أصبح في ضوء المسيحية أمرًا غير سامٍ ولا رائع، بل على النقيض من ذلك؛ أمر شرير ودنيء. ما بدا في السابق شائنًا وشريرًا، ألا وهو التخلي عن الوطن والخلاف حول قتال أولئك المدعوين أعداء، أصبح الآن أمرًا ساميًا ورفيعًا. إن كان المسيحي في لحظة نسيان يرغب أكثر في نجاح دولته أو شعبه، فلا يمكنه أبدًا في لحظة هدوء أن يصدق هذه الخرافة، ولا يمكنه أبدًا أن يشارك في تلك الأعمال التي تتأسس على الاختلافات بين الدول كالجمارك وجمع الضرائب وصنع القذائف والأسلحة أو أي شيء يخص التسليح، أو في الخدمة العسكرية، ولا في الأسوأ من كل ذلك؛ ألا وهو الحرب مع الشعوب الأخرى.

كل البشر متساوون:

-١-

المساواة اعترافٌ بأن كافة البشر لديهم حقوق متساوية في الاستفادة من خيرات العالم الطبيعية، وحقوق متساوية في الخيرات التي تظهر في الحياة الاجتماعية، ونفس الحقوق في الحصول على الاحترام اللائق.

-٢-

(إن قانون مساواة البشر يضم بين طياته كافة القوانين الأخلاقية. إنه الدرجة التي لا يمكن أن تصل إليها القوانين، لكنها تقترب منها).

«إدوارد كاربنتر»[٨١].

-٣-

إن «أنا» الإنسان الحقيقية ذات طبيعة روحية، وهي واحدة في كافة البشر. فكيف يمكن ألا يكون البشر متساوين؟

-٤-

(جَاءَ إِلَيْهِ أُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ، وَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ لِسَبَبِ الْجَمْعِ. فَأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ: «أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ وَاقِفُونَ خَارِجًا، يُرِيدُونَ أَنْ يَرَوْكَ».فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أُمِّي وَإِخْوَتِي هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ كَلِمَةَ اللهِ وَيَعْمَلُونَ بِهَا»).

«لوقا: ٨- ١٩».

-٥-

أراد ابنا زبدي[٨٢] أن يصبحا حكماء كيسوع المسيح. قال لهما: لماذا تريدان ذلك؟ كي تعيشا وتولدا من الروح من جديد مثلي، يتوجب عليكما أن تفعلا مثلي، وبالتالي تصبحا أعظم من الآخرين. طبقًا لتعاليمي ما من أحد أكثر أو أقل أهمية من الآخرين. كي يحكم القيصر شعبه عليه أن يصبح في مكانة أرفع وأهم من شعبه، لكنكما لستما في حاجة إلى ذلك؛ لأنه طبقًا لتعاليمي من الأفضل للإنسان أن يصبح أدنى من الآخرين لا أرفع. طبقًا لتعاليمي مَن

(٨١) ١٨٤٤ - ١٩٢٩، وهو شاعر وفيلسوف اشتراكي إنجليزي.

(٨٢) المقصود يعقوب ويوحنا من تلاميذ المسيح الاثني عشر.

هو أدنى من الآخرين هو الأرفع منهم. طبقًا لتعاليمي على الإنسان أن يكون خادمًا للجميع.

-٦-

لا أحد يدرك المساواة الحقيقية في العالم كالأطفال. إن كان البالغون المجرمون يقومون بالقضاء على هذا الشعور المقدس بالأطفال ويعلمونهم أنه هناك ملوك وأثرياء وأشخاص بارزون، على الجميع أن يعاملوهم باحترام، وهناك خدم وعدم وفقراء عليهم أن يعاملوهم بازدراء، فيسري عليهم قول المسيح: (ويل لمن تأتي من قبله العثرات، خير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويطرح في البحر من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار).

"لوقا ١٧: ١- ٢".

-٧-

(إن إرادة الله أن يصبح عبيده كيانًا واحدًا، وأن يتحدوا بالحب، لذا فكافة القوانين والتشريعات التي تؤسس لانفصال الناس عن بعضهم البعض كلها من اختلاق الإنسان).

"بيوتر خيلتشيتسكي"[(٨٣)].

-٨-

السبب في أننا نحيا حياة تبعث فينا الاستياء هو أننا نبحث عن الخير في المكان الخاطئ. في هذا مصدر كافة الإغواءات. لقد منحنا الله حياة طيبة لا يمكن مقارنتها بشيء، مليئة بالبهجة والسرور، بينما نحن نقول: إن السعادة قليلة. لقد منحنا الله أعظم بهجة في الحياة؛ ألا وهي الاتصال ببقية البشر، بينما نحن نقول: أريد خيري الخاص. أريد خير أسرتي.. أريد خير شعبي.

(٨٣) ١٣٩٠- ١٤٦٠: معلم روحي تشيكي.

-٩-

أيُّ إنسان معاصر لنا، سواء كان أرفع الناس ثقافة، أو كان مجرد إنسان بسيط... سواء كان فيلسوفًا وعالمًا أو كان جاهلًا... سواء كان ثريًّا أو فقيرًا... سواء كان رجل دين من أي نوع، أو كان شخصًا عسكريًّا... كل إنسان في وقتنا هذا يدرك جيدًا ـن لدى البشر جميعًا الحقوق ذاتها في الحياة وفي خير العالم، وأنه ما من إنسان أفضل من الآخر أو أسوأ من الآخرين، وأن كل الناس سواسية، ورغم ذلك فالجميع يعيشون كما لو أنهم لا يدركون ذلك، ولهذا فضلالة اللا مساواة بين الناس قوية.

السبب في أن كل الناس سواسية:

-١-

مهما كان الناس، ومهما كان آباؤهم وأسلافهم، فهم جميعًا كقطرتي ماء؛ لأن روحًا إلهيةً واحدةً تحيا داخلهم جميعًا.

-٢-

لا يستطيع أحد أن يعتبر أن هناك بعض البشر أهم من الآخرين، إلا ذاك الذي لا يدرك أن الله يعيش في داخله.

-٣-

عندما يحب الإنسان شخصًا ما أكثر من بقية البشر، فهذا حب إنساني، أما الحب الإلهي فيرى كافة البشر سواسية.

-٤-

هذا الشعور وتلك العاطفة الواحدة التي نختبرها عندما نرى طفلًا قد وُلِد لتوه، وعند موت إنسان، أيًّا كانت طبقته تكشف لنا عن الوعي بالمساواة بين البشر المتأصل فينا.

-٥-

(حاذر عندما تريد أن تحطم شيطانًا داخل إنسان أن تخدش الله الذي بداخله). هذا يعني أنه بينما تدين إنسانًا، لا تنسَ الروح الإلهية التي تسكن بداخله.

-٦-

أن تعتبر أن الجميع سواسية لا يعني أنك قوي أو حاذق أو ذكي أو فاضل بنفس الدرجة التي في الآخرين، ولكن هذا يعني أن الروح الإلهية التي بداخلك -وهي أغلى ما في الوجود- هي بداخل كافة البشر أيضًا.

-٧-

القول بأن البشر ليسوا سواسية يوازي القول بأن النار التي في الموقد والتي في الحريق والتي في الشمعة ليست هي نفس النار. الروح الإلهية تحيا داخل كل إنسان، فكيف يمكننا أن نفرق بين حاملي الروح الإلهية؟

النار تتقد داخل أحدهم، وتشتعل بشدة داخل الآخر، لكن النار واحدة، ونحن نتعامل مع النار بالطريقة ذاتها.

الاعتراف بمساواة البشر أمر ممكن، والبشرية تقترب من ذلك الاعتراف:

-١-

يُبدي الناس اهتمامًا بمساواة البشر أمام القوانين، لكنهم لا يريدون أن يدركوا تلك المساواة التي أقرها القانون الإلهي، والتي يخرقونها بقوانينهم.

-٢-

(ليس علينا أن نسعى صوب تنظيم الحياة الذي لا يصبح فيه الصعود في درجات السلم الاجتماعي أمرًا غير ساحر؛ بل علينا أن نخيف الناس بأن

نجعلهم يدركون أن هذا الصعود في السلم الاجتماعي من شأنه أن يحرم أحدهم من خير الحياة الأساسي، ويحول دون أن يعيش الناس كلهم بموجب العلاقة ذاتها).

«جون راسكين».

-٣-

يقولون إن العمال على غير حق عندما يريدون أن يجلسوا على مقاعد الرأسماليين: إنهم فقراء يريدون الجلوس على مقاعد الأغنياء. هذا غير حقيقي. قد يكون العمال والفقراء على غير حق إن أرادوا ذلك في عالم يعترف وينفذ تعاليم المسيح عن حب القريب ومساواة البشر جميعًا، لكنهم يريدون ذلك في عالم يعترف وينفذ قانون تعليم واحد، وهو يقضي بأن قانون الحياة هو أن يصارع كافة البشر ضد بعضهم البعض، وهكذا فإن الرغبة على الجلوس على مقاعد الأغنياء هي المثال الوحيد الذي تمنحه حياة الأغنياء للفقراء.

-٤-

يقولون إن المساوة بين البشر غير ممكنة. لا بد وأن نقول العكس: اللامساواة هي الأمر غير الممكن بين المسيحيين.

مستحيل أن نساوي بين إنسان طويل وآخر قصير، بين إنسان قوي وآخر ضعيف، سريع الملاحظة وبطيء الإدراك، إنسان بارد وآخر ساخن... ليس هذا ممكنًا، ولكن علينا أن نحب ونحترم القوي مثل الضعيف، الطويل مثل القصير، والذكي مثل الغبي.

-٥-

يقولون: «سيكون هناك للأبد مَن هم أقوياء ومَن هم ضعفاء، واحد ذكي

والآخر غبي». لهذا السبب تحديدًا يقول ليشتنبرج إنه يجب أن تتساوى الحقوق بين الناس. إن كان هناك -فضلًا عن اللا مساواة في القوة والذكاء- لا مساواة في الحقوق، فهذا يعني أن قمع الأقوياء للضعفاء سوف يزداد.

-٦-

لا تصدق أن المساواة غير ممكنة، أو أنه لا يمكن تطبيقها سوى في المستقبل البعيد. تعلَّم من الأطفال. يمكن أن تكون المساواة بين الجميع، ولسنا في حاجة لأي قوانين لتطبيق ذلك. يمكنك أن تطبق بنفسك المساواة مع جميع الناس. عليك فقط ألا تُبدي تبجيلًا خاصًا لإنسان بعينه تعتبره أرفع وأسمى من الآخرين، والأهم من ذلك أعربْ عن احترامك لجميع الضعفاء والفقراء.

الجميع سواسية أمام الذي يحيا حياة روحية:

-١-

اعتبار بعض الناس أرفع مقامًا من آخرين، والاعتراف بعدم المساواة بين الناس أمر ممكن فقط لأولئك الذين يعيشون حياة جسدية. إن عاش الإنسان حياة روحية، فلا يمكن أن يعترف بأي نوع من أنواع اللا مساواة.

-٢-

كشف المسيح للبشر أنهم طوال الوقت كانوا يعرفون أن البشر جميعًا سواسية، وهذا بسبب أن روحًا إلهية واحدة تحيا بداخلهم جميعًا. ولكن البشر انقسموا منذ عصور سحيقة فيما بينهم إلى قياصرة وأرستقراطية وأغنياء وعمال وفقراء، وهم يدركون أنهم جميعًا سواسية، يعيشون كما لو أنهم لا يدركون ذلك، ويقولون إنه من المستحيل أن يكون البشر جميعًا سواسية.

لا تصدق ذلك. تعلَّمْ من الأطفال. يحترم الطفل القيصر بنفس الدرجة

التي يحترم بها الإنسان البسيط، فافعل كما يفعل الأطفال. تعامل مع الجميع بالحب والحنان ذاته. إن كان بعض البشر يرفعون من شأن أنفسهم، فلا تبجلهم أكثر من تبجيلك للآخرين. إن كان بعض الناس يحطون من قدر بعض الناس، فحاول أن تحترمهم جميعًا بالقدر ذاته. وتذكر أن روحًا إلهيةً واحدةً تعيش بداخل جميع البشر، ولسنا نعرف مَن هو أعلى قدرًا منها.

-٣-

الحب بالنسبة للمسيحي هو ذلك الشعور الذي يريد الخير للجميع. كلمة «الحب» بالنسبة لكثيرين تشير إلى شعور مناقض تمامًا لما ذكرناه. إن الحب بالنسبة لأولئك الذين يعيشون حياة حيوانية هو ذلك الشعور الذي يجعل أُمًا تريد إطعام أبنائها تحرم أُمًا أخرى من إطعام ابنها. إنه ذلك الشعور الذي يجعل أبًا يحرم أطفالًا جائعين من آخر قطعة خبز كي يطعم أبناءه... إنه ذلك الشعور الذي تعاني منه المرأة العاشقة ويجبرها على المعاناة، مغويًا إياها... إنه ذلك الشعور الذي يجعل بعض الناس يضرون بمجموعات من البشر غريبة عنهم لصالح مجموعات أخرى قريبة لهم... إنه ذلك الشعور الذي يجعل الإنسان العاشق يعذب نفسه من أجل شؤون شخص آخر، ونفس الأمر من شأنه أن يجلب الحزن والمعاناة لمن حوله من الناس... إنه الشعور الذي يجعل البشر لا يتحملون الإساءة الموجهة لوطنهم الأم، ويملؤون الأرض بالقتلى والجرحى منهم ومن الغرباء.

كل هذه المشاعر ليست حبًّا؛ لأن هؤلاء الناس الذين يختبرونها في داخلهم لا يعتبرون كل البشر سواسية، ودون الاعتراف بمساواة البشر لا يمكن للبشر أن يشعروا بحب حقيقي للآخرين.

-٤-

لا يمكنك أن تقرن بين اللا مساواة والحب. الحب يكون حقيقيًّا فقط عندما يكون مثل الشمس الساطعة، تشرق على الجميع. ولكن عندما تتعامل مع شخص وتنحي الآخر، فهذا يمكن أن يكون أي شيء آخر عدا الحب... إنه يشبهه فقط، لكنه ليس هو.

-٥-

من الصعب أن تحب كل الناس بالدرجة نفسها، وهذا لا يعني أننا لا يجب أن نسعى صوب ذلك، فكل شيء صالح صعب.

-٦-

كلما ازدادت اللا مساواة بين الناس من حيث صفاتهم، كلما توجَّب علينا أن نتحرى المساواة في التعامل معهم.

-٧-

(يمنح الله الحياة فيك وفيَّ وفي كل إنسان. عبثًا تغضب مني ولا تتحملني. اعلمْ أننا جميعًا سواسية).

«حكمة هندية».

❊ ❊ ❊

العنف

واحد من الأسباب الرئيسة لشقاء الناس هي تلك الفكرة الكاذبة التي تقول إن أحد الناس يمكنه أن يستخدم العنف من أجل تدبير حياة الآخرين.

وهْمُ إمكانية استخدام الناس للعنف في تدبير شؤون حياتهم:

-١-

ظهر الوهم القائل بإمكانية أن يجبر أحد الناس الآخرين بالقوة على العيش وفقًا لقانونه بسبب أن أحدهم قد لفَّق هذه الخدعة، فبينما استسلم البعض لشهواتهم ومارسوا العنف على الآخرين، حاولوا أن يختلقوا مبررًا لذلك العنف.

-٢-

يرى الناس بعض الأمور السيئة في حياتهم، والتي يجب إصلاحها. ولا يمكن للإنسان أن يصلح من شيء سيئ فيه إلا بسلطته الشخصية؛ أي بنفسه. ولكن كي تصلح نفسك عليك أولًا أن تعترف أنك غير صالح، وهذا ما لا تريده. لذا فبدلًا من أن توجه كافة انتباهك إلى نفسك وإلى ما داخل نطاق سلطتك، توجهه صوب الظروف الخارجية التي تقع خارج نطاق سلطتك، وإلى الظروف التي تلعب دورًا بسيطًا في تحسين حياة البشر، تمامًا كما لا يمكن لهز النبيذ ونقله إلى سفينة أخرى أن يغير من جودته. تبدأ أولًا في عيش حياة بطَّالة، ثم تبدأ نشاط ضار متكبر فاسد... متكبر لأنك تقول في نفسك أنه بإمكانك إصلاح حياة الآخرين، وشرير لأنك تقتل الناس الذين يحولون دون وجهة نظرك في تحقيق الخير العام.

-٣-

تعتقد الحكومات أنه بإمكانها أن تجبر الناس بالعنف على أن يعيشوا حياة فاضلة، وهم بهذا العنف يمنحون الناس نموذجًا شريرًا للحياة. الناس غارقون في الوحل، وبدلًا من إخراجهم من هذا الوحل تقوم بتعليمهم كيف يلطخون أنفسهم به.

-٤-

الضلالة التي تعتقد أنه يمكن تدبير شؤون الناس عن طريق العنف ذات ضرر بالغ؛ لأنها تنتقل من جنس للآخر. إن البشر الذين نشأوا وسط العنف كوسيلة لإدارة شؤون الحياة لا يسألون أنفسهم ما إن كان من الضروري والجيد أن يُجبر الناس بالقوة على فعل شيء ما، وهم يعتقدون بقوة أنه من دون العنف يستحيل أن يعيش الناس.

-٥-

يتحدثون في الدولة عن الحرية، وبينما يتحدثون تجد أن كل إجراءاتهم تتأسس على العنف، وهو ما يناقض هذه الحرية التي يتحدثون عنها.

-٦-

تدبير شؤون حياة الآخرين أمر سهل؛ لأنك لن تعاني إن قمت بذلك بشكل سيئ، بل هم وحدهم الذين سيعانون.

-٧-

يعتقدون أنه لا يمكن تدبير شؤون حياة الآخرين إلا بالعنف، ولكن ذلك لا يدبرها، بل يفسدها.

-٨-

وحده مَن لا يؤمن بالله هو مَن يُصدِّق أن بشرًا مثله بإمكانهم أن يرتبوا حياته بشكل أفضل.

-٩-

إن الضلالة التي تقضي بإمكان لبعض الناس بتنظيم شؤون الآخرين مريعة جدًّا؛ لأنها تجعل الناس يثمنون للغاية اللا مساواة بين الناس.

-١٠-

أولئك مَن لديهم السلطة على ثقة دائمًا أن تدبير شؤون الناس لا يمكن أن يتم إلا بالعنف، وقد استطاعوا استخدام العنف من أجل تدعيم النظام القائم. النظام القائم لا يتشبث بالعنف؛ بل بالرأي العام، والعنف يعمل على تحطيم هذا الرأي العام، لذا فنشاط العنف يضعف تدريجيًّا؛ لأنه يحطم ما لا بد له أن يؤيده.

-١١-

عندما يقول الناس إن على البشر جميعًا أن يعيشوا في سلام دون أن يتأذى أحد، بينما هم لا يعيشون في سلام، ويجبرون الآخرين بالعنف على أن يعيشوا طبقًا لإرادتهم، فهم يبدون كما لو أنهم يقولون: افعلوا ما نقوله لكم، لا ما نفعله. قد نخاف من أولئك البشر، لكن لا يمكننا أبدًا أن نصدقهم.

-١٢-

إن كل العنف الذي يقوم به الثوار هو نتيجة للعنف الذي تقوم به الحكومات. الثوار تلاميذ أذكياء. لم تكن لتخطر أبدًا على بال مَن يحيون حياة نقية تلك الفكرة الوحشية التي ترى أن بإمكان أحد الناس، وأن لديه الحق في أن يدبر شؤون الآخرين بالعنف إن لم يكن كل مَن في السلطة وكافة الحكومات قد

علَّموا البشر ذلك.

-١٣-

ما سبب كل الثورات وكل تلك الأفعال العنيفة؟ إنها تندلع لسبب واحد فقط وهو أن عنف مَن في السلطة قد نشر تلك الخرافة التي تقضي بإمكان تدبير شؤون الناس بالعنف.

-١٤-

طالما لم يعارض الناس بعدُ إغواءات الخوف والتخدير والربح والطموح والغرور التي تستعبد بعض البشر وتدمر البعض الآخر، فسيظل المجتمع منقسمًا بين مَن يرتكبون العنف والخداع، وبين مَن يتعرضون للعنف والخداع. حتى يزول كل ذلك على كل إنسان أن يبذل جهدًا أخلاقيًّا داخل نفسه. إن الناس يقرون بذلك داخل أرواحهم، لكنهم يريدون تحقيق شيء آخر غير ذلك الذي يمكن للجهد الشخصي أن يحققه. إن جهود الإنسان توضح علاقته بالعالم وتؤسس تلك العلاقة على أساس القانون الأبدي الذي يقضي بأن تعامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك، وهذا من شأنه أن يقمع داخل الإنسان تلك الشهوات الشريرة التي تخضعنا لسلطة الآخرين، ويحول دون قيام عبيد وسادة بلا زيف ولا كذب، ولا فعل يتم من أجل الخوف أو المنفعة، ودون تراجع عن تنفيذ القانون الأعلى للضمير... كل هذا يتطلب بذل الجهود. تخيل بنفسك أن تأسيس بعض القواعد والقوانين سوف يقود كافة البشر بطريقة غامضة بما فيهم أنت إلى العدالة والفضيلة، وأن ذلك لن يتطلب بذل الجهود ولا الأفكار! إن اعتقدت ذلك، فأنت تكرر ما تقوله مجموعة من الناس، وستضطرب وتتجادل وتكذب وتحاكي الآخرين وتتشاحن وتتشاجر... سوف يحدث كل ذلك من تلقاء نفسه، ولن يتطلب بذل الجهد!

هذا تعليم يقضي بتحسين الحياة الاجتماعية عن طريق تغيير بعض الإجراءات الخارجية. طبقًا له يُعتقد أن الناس يمكنهم أن يجنوا ثمار الجهود دون بذلها، كما هو الأمر تمامًا مع تعاليم الكنيسة عن الكمال والخلاص من الخطية بدم المسيح، وهو ما يتم بشكل سري، ودون أن يبذل البشر جهودًا يمكنهم أن يحققوا بها الحياة الصالحة. وصلت مثل هذه التعاليم بالناس -ولا تزال- إلى عواقب مفزعة، والأسوأ من ذلك أنها أدت إلى أن حالت بين الإنسان ووصوله إلى الكمال الحقيقي.

الحرب ضد الشر عن طريق العنف غير مباح؛ لأن البشر يحددون الشر بشكل مختلف:

-١-

يبدو أنه من الواضح بلا شك أن مقاومة الشر الذي يحدده البشر بشكل مختلف عن بعضهم البعض بالشر لا يمكنها إلا أن تزيده. إن اعتبر إيفان ما فعله بيتر شرًّا، فسيفترض أن لديه الحق في فعل الشر لبيتر، وهذا لن يؤدي إلا إلى زيادة الشر.

ولكن المدهش في الأمر أن البشر يفهمون العلاقات بين النجوم ولا يفهمون ذلك. تُرى ما السبب؟ السبب هو أن الناس يؤمنون بنفع الشر.

-٢-

إن كان بإمكاني أن أجبر إنسانًا بالعنف على ما أراه حسنًا، فهذا يعني أنه بإمكان إنسان آخر أن يجبرني على فعل ما يراه حسنًا، مع أن مفهوم كل منا عما هو حسن متناقض.

-٣-

الثوار يشبهون الحكومات؛ يعتقدون أنه من العادل والمفيد أن يُقتل بعض البشر(٨٤). إنهم يعتقدون أن بإمكانهم أن يعرفوا تحديدًا مَن هو الشخص الذي سيؤدي قتله إلى خير المجتمع.

أما هؤلاء الذين لا ينتمون لا إلى النظام ولا إلى الثوار، فلا يمكنهم سوى إبداء الدهشة من هذه الفكرة التي تجعل النظام متيقنًا للغاية أنه من المفيد جدًّا أن يقوم بالقتل، فإن لم يقتلوا كافة الثوار، فعلى الأقل كثيرًا منهم، وهي الفكرة التي تجعل الثوار متيقنين هم أيضًا أنه من المفيد أن يقتلوا أعضاء النظام، فإن لم يقتلوهم جميعًا فعلى الأقل الكثير منهم.

-٤-

المذهب القائل بأن الإنسان لا يمكنه أبدًا أن يرتكب العنف، يمكن تبريره بحقيقة أن مفهوم الخير والعدل ليس واحدًا عند كل الناس. فما يعتبره أحد الناس شرًّا يقينيًّا، قد يجده الآخر مشكوكًا فيه، بل وقد يعتبره البعض خيرًا كاملًا، لذا فالعنف الذي يرتكبه الإنسان من أجل تحطيم ما يطلق عليه «الشر» من اعتداء وضرب وحرمان وقتل وحرمان من الحريات هو شر محض.

-٥-

فيما يتعلق بكيفية تسوية الخلافات الدائمة بين الناس حول ما هو خير وما هو شر، أجابت تعاليم المسيح عن ذلك قائلة إنه بما أن الإنسان لا يمكنه أن

---

(٨٤) من اللازم الإشارة إلى الأجواء الثورية العنيفة التي كانت في روسيا وفي كثير من بلدان أوربا. عانى النظام في روسيا من محاولات اغتيال متعددة نجحت بعضها، ومن محاولات انقلابات عسكرية وما إلى ذلك، وفي أوربا كانت الثورات دموية للغاية، ويمكن الرجوع إلى الثورة الفرنسية كمثال بارز. ربما لم تظهر الثورات السلمية على الساحة بشكل واضح إلا مع ظهور غاندي الذي تاثر تأثرًا شديدًا بأفكار تولستوي، بل وأنشأ مزرعة للعمل الجماعي باسمه يعمل فيها المسلمون والهندوس سويًّا.

يحدد الشر بصورة قطعية، فعليه ألا يحاول أن يهزم ما يعتبره شرًّا بالعنف.

-٦-

إن الضرر الرئيس الناتج عن تلك الخرافة التي تعتقد في إمكانية تنظيم شؤون الآخرين عن طريق العنف يتلخص في أنه ما إن يسمح الإنسان لنفسه بارتكاب العنف ضد شخص آخر من أجل خير الكثيرين، حتى تتلاشى كافة الحدود لذلك الشر الذي يمكن ارتكابه بفضل هذه الفرضية. نفس هذه الافتراضات هي ما دعمت في الماضي محاكم التفتيش والعبودية، وهي ما تدعم في زماننا المحاكم والسجون والإعدامات والحروب التي تودي بحياة ملايين من البشر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بطلان العنف:

-١-

يشبه إجبار الناس بالعنف عن التوقف عن الشر إغلاق نهر، والفرح بأن منسوب النهر قد أصبح تحت مستوى السد لمدة من الوقت. وكما أنه عندما يحين الوقت سوف يغمر النهر السد ويتدفق، كذلك مَن يفعلون الشر، فهم لم يتوقفوا عنه، هم فقط ينتظرون سنوح الفرصة.

-٢-

(إجبار المرء بالقوة يحرمنا من حقوقنا، لذلك فنحن نكرهه. نحن نحب مَن يقنعنا بالشيء ونعتبره محسنًا إلينا. مَن يلجأ إلى العنف ليس حكيمًا؛ بل أحمق. كي يمكنك الاستفادة من العنف يلزمك كثير من المساعدين، ولكن كي تقنع أحدهم لا يلزمك أحدٌ. مَن يشعر أن لديه القوة الكافية كي يخاطب عقلًا، لن يلجأ إلى العنف. إن الدولة تلجأ إلى العنف؛ لأنها تفتقد إلى القدرة على إقناع الناس بضرورتها).

«سقراط».

-٣-

إن إجبار الناس بالقوة على فعل ما أراه صائبًا هو أفضل وسيلة لإصابة الناس بالاشمئزاز من هذا الفعل.

-٤-

يعرف كل إنسان كم هو صعب أن يغير حياته ويصبح ما يريده. أما عندما يتعلق الأمر بالآخرين فيظن المرء أن الأمر لن يحتاج سوى إلى بعض الترغيب والترهيب، وسيصبح الآخر وفق ما نريده أن يصبح عليه.

-٥-

(إن القوة هي سلاح في يدك تجبر به أتباعك ببربرية على فعل شيء ما، هم لا يشعرون بالانجذاب صوبه بطريقة طبيعية، وهذا يشبه تمامًا إجبار الماء على الارتفاع فوق منسوبه الطبيعي. وعندما تحين تلك اللحظة التي تبطل فيها قوة هذا السلاح سيبطل تأثيره. هناك وسيلتان فقط لتوجيه النشاط الإنساني: الأولى تعتمد على الميل والإقناع بالحجة، والأخرى تعتمد على إجبار الإنسان على التصرف ضد ما يميل إليه ويعتقد فيه. الأولى تؤيدها التجربة ودائمًا ما يكللها النجاح، والوسيلة الثانية تستخدم ببربرية وتنتهي بالفشل. عندما يصرخ الطفل حتى يعطوه لعبته، فإنه يرغب في الحصول عليها بالقوة. عندما يخشى الوالدان من أطفالهما يحاولون إجبارهم على السلوك بطريقة حسنة بالقوة. عندما يضرب الزوج السكير زوجته، فهو يعتقد أنه يصلح من سلوكها بالقوة، وعندما يُعاقب المجرم فهذا يحدث بدعوى إصلاح العالم بالقوة. وعندما يحاكم إنسان إنسانًا آخر، فهذا يحدث كي يصل إلى العدالة بالقوة. وعندما يتحدث الكاهن عن عذابات وأهوال الجحيم، فهو يفعل ذلك

كي يوجِّه مستمعيه صوب النعيم بالقوة. وعندما يحارب شعب شعبًا آخر، فهو يقوم بذلك كي يصل إلى وضع جيد بالقوة. المدهش في كل ذلك أنه حتى الآن لم يؤدي هذا الجهل بالناس سوى إلى خيبة الأمل).

«أميل كومب»[(٨٥)].

-٦-

يعلم كل إنسان أن أي عنف هو شر. وكي نبعد الناس عن هذا العنف لم ننجح في التوصل لشيء -نحن مَن نطلب أقصى احترام لأنفسنا- أكثر من السجون والإعدامات.

-٧-

(إن كان من الممكن إخضاع الناس إلى العدالة بالعنف، فهذا لا يعني على الإطلاق أنه من العادل إخضاع الناس بالعنف).

«باسكال».

-٨-

(لم يُخلق الإنسان كي يُكره على الطاعة والامتثال. يعاني البشر من الأمرين: من الغباء ومن الغطرسة، ولا تجد الكرامة الإنسانية مكانًا لها بينهما).

«كونسيديرانت»[(٨٦)].

الدولة تتأسس على العنف:

-١-

كم هي مدهشة تلك الضلالة التي يعتقد الناس بموجبها أنه يحق لأحد

---

(٨٥) ١٨٣٥- ١٩٢١ سياسي فرنسي.

(٨٦) فيكتور كونسيديرانت ١٨٠٨- ١٨٩٣: فيلسوف واشتراكي فرنسي.

الناس أن يجبر الآخرين على فعل ما يعتقد أنه حسن، لا ما يعتقدونه هم! وعلى هذه الضلالة المدهشة تتأسس كافة ترتيبات الحياة: الأسرية والمجتمعية والدولية والكنسية، فالبعض يجبر الآخرين على السلوك وفقًا لرغباتهم وما قد حددوه لهم، ويحذرون الجميع بالعنف من عدم السلوك بهذه الطريقة، وهم على ثقة كاملة أنهم يقومون بأمر مفيد، بل ويستحق الإعجاب من الجميع حتى من أولئك الذين يقمعونهم.

-٢-

من رحم الخرافة القائلة بأنه يحق لأحد البشر أن ينظم شؤون الناس بالعنف ولدت خرافة أسوأ منها، وهي تقول إن البشر لا يمكنهم أن يحيوا دون أن تنظم تلك السلطة شؤون حياتهم، وعليهم أن يمتثلوا لها.

-٣-

لقد ألف الناس العنف حتى إنهم يعتقدون أنهم يعيشون بسلام فقط بسبب المحاكم والشرطة والجيوش. الأمر لا يقتصر على أن ذلك غير حقيقي، بل إن الحقيقة تناقض ذلك، فالمحاكم والشرطة والجيوش هي أكثر ما يحول دون تحقيق السلام والوفاق في حياة الناس. إن البشر الذين علقوا كافة آمالهم على مثل هذه الترتيبات لا يهتمون بتحقيق السلام فيما بينهم بأيديهم.

-٤-

تحت أي ظرف من الظروف لا يمكن أن يكون القتل سوى أكثر الانتهاكات بربريةً ووضوحًا لقانون الله الذي كشف عنه كافة المعلمين الدينيين، وكذلك فعلت ضمائر الناس. ورغم ذلك تبيح الدول القتل تحت ستار الإعدام والحروب، وتعتبره أمرًا مشروعًا.

-٥-

يعترف الناس بالسلطة العنيفة ويخضعون لها؛ لأنهم يخشون من أن يقوم الأشرار بارتكاب الأفعال العنيفة للصالحين من الناس إن غابت تلك السلطة. حان الوقت كي يفهم الناس أنه ما من شيء ليخافوا منه؛ لأن ما يخشونه هو ما عليه الأمر الآن في ظل تلك السلطات، فالأشرار لا يتوقفون عن ارتكاب الأفعال العنيفة للصالحين، حتى إنه يصعب تخيل أنه مع غياب هذه السلطات سوف يسوء الأمر أكثر من ذلك.

-٦-

يقول الحكام للناس ويعلمونهم أن عنف السلطة يحمي الجميع من عنف وإساءة الأشرار، وأنه إن توقف عنف السلطة، فسرعان ما سيقوم الأشرار بارتكاب الأفعال العنيفة ضد الصالحين وتعذيبهم. قليل جدًّا من الناس مَن يفهم هذه الكذبة الفاحشة. لقد تعودت الجموع على عبادة العنف، وهي تبتهل إليه في صورة سيوف وسجون ومشانق. إنهم يمجدونه في صورة الكهنوت والجيوش والأساطيل والميليشيات الشعبية والحصون وترسانات الأسلحة والمحاكم والمؤسسات الإصلاحية... إلخ. أما الاقتراح الذي يناديهم بتنحية كل هذه الأفعال المخزية جانبًا وتصديق كلمة مَن يدعونه «الله»، فهم يجيبون عنه بتعجب كامل قائلين:

ابتعد عنا... لا تضللنا، فما تقوله يضرُّ بنا. أنت تريد بتعليمك هذا أن تطيح بكل الخيرات التي نعمت بها الإنسانية وكافة الأجيال السابقة بالدم. سوف يهلك الجميع إن دمرنا السلطة التي تقتل كل مَن تعتبره مجرمًا.

-٧-

ويكرر الحشد الحديث، وأسوأ ما في الأمر أنه يكرره بصدق:

ماذا سوف يحيق بالإنسانية إن تم حظر الحروب والإعدامات فجأةً؟

(على مذبح إله العنف قد هلك عدد هائل من الضحايا يكفي لشغل عشرين كوكبًا بحجم الأرض، فماذا إن وصلنا حتى لأقل قدر من هدفنا؟ الحقيقة الواضحة هي أن حال الإنسانية يزداد سوءًا أكثر فأكثر، ومع ذلك لا يزال العنف معبود الحشود. تُسكب دماء البشر على مذبحه كما لو أنها قد قررت الإذعان للأبد تحت أصوات الطبول إلى جلبة البنادق والعواء الدموي للبشر).

"أدين بالو"[٨٧].

-٨-

يقول أحد مناهضي عدم المقاومة:

حفظ الذات هو القانون الأول للطبيعة.

فأسأله:

وما الذي ينتج عنه؟

إن هذا القانون يُفضي إلى أن الطبيعة سوف تدافع عن نفسها ضد كل ما يهدد بتدميرها. وينتج عن ذلك أن الحرب وهلاك الأضعف هو قانون الطبيعة، وهذا القانون يبرر بلا شك الحرب والعنف والقصاص المحاكم، لذا فالنتيجة المباشرة لقانون حفظ الذات، هو قانون الدفاع عن الذات، وهكذا فقانون عدم استخدام العنف مناقض للطبيعة وغير ملائم للحياة على وجه الأرض.

(إني أوافق على أن حفظ الذات هو قانون الطبيعة الأول، وأنه يقود إلى الدفاع عن الذات. أوافق على أن الناس يحذون حذو أقل الكائنات الحية تطورًا، ويقاتلون بعضهم البعض ويجرحون ويقتلون بعضهم البعض بحجة

---

(٨٧) ١٨٠٣ - ١٨٩٠: معلم ديني مسيحي مناهض للعنف.

الدفاع عن الذات أو الانتقام. لكني أرى أن معظم الناس للأسف رغم قانون طبيعتهم البشرية السامي المكشوف لهم، يعيشون وفقًا لقانون الطبيعة الحيوانية وهو يحرمهم من أشد وسائل حفظ الذات فعالية، وهو: الرد على الشر بالخير، وهو القانون الذي يمكنهم استخدامه إن لم يتبعوا قانون العنف الحيواني، بل قانون الحب الإنساني).

"أدين بالو".

-٩-

من المفهوم كيف يصدم القتل والعنف الإنسان، وكيف أنه لا يشعر صوبهما في البداية سوى بالنفور. ومع أن العنف والقتل يشي بالحيوانية واللاعقلانية، لكنه في حد ذاته ليس متناقضًا. ولكن هذا لا يبرر ذلك النشاط. فور أن ترغب الحكومات أو يرغب الثوَّار في تبرير العنف والقتل على أسس عقلانية، يصبح من غير الضروري على الفور إدراك عبثية هذه المحاولات وركام الخرافات المعقدة الخبيثة.

الوسيلة الأساسية لتبرير ذلك هو إحالة الأمر إلى مجرم مُتخيَّل يقتل ويعذب الأبرياء أمام أعيننا. "لا يزال بإمكانك أن تضحي من أجل البرهنة على عدم شرعية العنف، ولكنك هنا تضحي بحياة إنسان آخر". هكذا يقول المدافعون عن العنف.

ولكن أولًا: وجود مثل هذا اللص هو حالة استثنائية، فكثير من الناس يمكنهم أن يعيشوا لمئات الأعوام دون أن يلتقوا أبدًا بمثل هذا الرجل ودون أن يروا قاتلًا أو سارقًا، فلماذا إذنْ أؤسس حياتي على تلك الخدعة؟ بالتفكير في الحياة الحقيقية، لا في المتخيلة، سوف نرى أمرًا مختلفًا تمامًا. سوف نرى الناس -بل وحتى أنفسنا- يرتكبون أكثر الأفعال قسوةً، ولا نفعل ذلك

بشكل فردي كما هو الأمر مع السارق، بل دائمًا بشكل مرتبط بالآخرين، ولا نقوم بذلك لأننا أشرار مثل هذا اللص، ولكن لأننا واقعون تحت تأثير تلك الخرافة التي تبرر العنف. الأمر الآخر هو أننا نرى أن أكثر الأفعال قسوة مثل المعارك والمشانق والمقصلة والسجون الانفرادية، وخاصة المحاكم... كل هذا لا ينتج عن مجرم مُتخيَّل، ولكن عن أناس يؤسسون قواعدهم في الحياة على افتراض وجود مجرم متخيل. لذا فالإنسان الذي يتأمل في الحياة لا يسعه إلا أن يرى أن سبب الشرور لا يمكن أن يكون بافتراض مجرم مُتخيَّل، ولكن في ضلالات الناس، والتي تعتبر من أكثرها قسوة تلك الضلالة التي تُرتكب حقًّا بذريعة شر مُتخيَّل. لذا فعندما يدرك الإنسان ذلك، سيوجه جهوده صوب سبب الشر الحقيقي، ويحاول أن يستأصل تلك الضلالات التي في داخله وفي داخل الآخرين، ويبذل كافة قواه كي يحقق ذلك عندما يرى أمامه هذا النشاط الهائل، دون أن يفهم لماذا يتوجب عليه اختلاق مجرم متخيَّل.

العواقب المدمرة لخرافة العنف:

-١-

إن الشر الذي يريد الناس أن يدافعوا عن أنفسهم ضده باستخدام العنف أقل وطأةً مما يفعله الناس باستخدام العنف للدفاع ضده.

-٢-

لم يكن المسيح وحده مَن علَّم أن الإنسان العاقل لا يجب عليه أن يقاوم الشر بالشر؛ بل بالخير، بل أيضًا كافة حكماء العالم: البراهمة والبوذيون والطاويون وحكماء اليونان. ولكن أولئك الناس مَن يحيون على العنف يقولون إن هذا مستحيل، وإن ذلك لن يجعل الحياة أفضل، بل سيجعلها تسوء. وهذا حقيقي بالنسبة لهم فعلًا، ولكن لن يكون كذلك بالنسبة لِـمَن

يُرتَكب العنف ضدهم. في كنف العلاقات الدنيوية ربما يكون هذا أسوأ بالنسبة لهم، لكنه سيكون أفضل للجميع.

-٣-

كافة تعاليم المسيح تتعلق بحب البشر. ويعني حب البشر أن تتعامل معهم بالطريقة التي تحب أن يعاملوك بها. بالطبع لا يود الإنسان أن يعامله الآخر بالعنف، لذا فعندما تتعامل مع الآخرين بالطريقة التي تود أن يعاملوك بها سيكون من المستحيل أن ترتكب العنف ضدهم. ولذلك فالقول بأننا نحن مَن نتبع وننفذ تعاليم المسيح نعتبر أنه من الممكن للمسيحي أن يرتكب العنف ضد الناس، يوازي أن يكون لدينا مفتاح، ونضعه في القفل لكن ليس إلى الدرجة التي تجعله بإمكانه أن يدور بداخله، ثم نقول إننا نستخدم المفتاح في الوظيفة المخصص لها. إن لم نعترف أنه لا يحل للإنسان أن يمارس العنف ضد الآخرين تحت أي ظرف من الظروف، فكافة تعاليم المسيح ستصبح مجرد هراء.

بهذا الفهم للعقيدة يمكن للإنسان أن يعذب ويسرق ويعدم الناس ويقتل الآلاف في الحروب، كما تفعل الشعوب التي تطلق على نفسها مسيحية الآن، لكن لا يمكن أن نعترف أبدًا بأنهم مسيحيون فعلًا.

-٤-

(أمن الصعب أن نتبع تعاليم اللا مقاومة، ومن السهل الانخراط في الحروب والانتقام؟

للإجابة عن هذا السؤال تعرف على تاريخ أي شعب واقرأ تفاصيل واحدة من مئات ألوف المعارك التي قادت الناس إلى قانون الصراع. في تلك المعارض قضى ملايين البشر نحبهم، وفي كلٍّ من هذه المعارك قُتِل عدد من البشر أكثر من الذين نجوا وأكثر من الذين هلكوا لقرون طويلة من أتباعهم

لقانون عدم مقاومة الشر).

«أدين بالو».

-٥-

استخدام العنف يثير قوى الشر الكامنة داخل الإنسان، وذاك مَن يستخدم العنف للدفاع عن نفسه غالبًا ما لا يمكنه أن يحمي نفسه؛ بل على النقيض من ذلك، فإنه يعرض نفسه لمزيد من المخاطر، لذلك فاستخدام العنف من أجل الحماية الذاتية هو نوع من تبلد العقل وقصر النظر.

-٦-

العنف لا يروض الإنسان، بل يثير سخطه، ولذلك فمن الواضح أن العنف لا يمكنه أن يُحسِّن حياة البشر.

-٧-

إن طرح أحدهم تساؤلًا عن كيف يمكن للإنسان أن يحرر نفسه من مسؤوليته الأخلاقية ويقوم بأكثر الأفعال شرًّا دون أن يشعر بأدنى ذنب، فمن المستحيل أن يختلق وسيلةً أكثر فعاليةً من الإيمان بخرافة أن العنف يمكنه أن يجلب الخير للناس.

-٨-

أكثر ما يضر في ضلالة أنه يحق لواحد من الناس أن ينظم شؤون الآخرين، هو أن الذين يصدقونها تتوقف قدرتهم على التمييز بين الخير والشر. إن كان يمكنك أن تنظم الناس في مؤسسات عسكرية وتأمرهم بقتل إخوانهم، فما من شيء شرير إذنْ لا يمكنك القيام به.

-٩-

إن العنف لا يجلب إلا شيئًا يشبه العدل، لكنه يحول دون أن يستطيع الناس

أن يحيوا بالعدل دون عنف.

-١٠-

لماذا تم تحريف المسيحية إلى هذه الدرجة؟ ولماذا سقطت الأخلاق؟ لسبب واحد: الإيمان بخيرية استخدام العنف في تنظيم شؤون الحياة.

-١١-

نحن لا نرى جريمة في ارتكاب العنف لسبب واحد، ألا وهو أننا نخضع له. إن العنف لا يقود صاحبه سوى إلى القتل. إن قال أحدهم للآخر: «افعل كذا، وإن لم تفعل كذا سوف أجبرك على فعله بالعنف»، فهذا لا يعنى سوى أنه إن لم تفعل كذا، فسينتهي الأمر بقتلك.

كل مرتكب عنف هو قاتل!

-١٢-

من الصعب أن نجد في زماننا إنسانًا يمكنه أن يقتل إنسانًا آخر مسالـمًا حتى ولو كان ذلك من أجل أكبر مكسب ممكن من المال، أو من أجل تجنب أكبر المصائب. ومع ذلك فأكثر الناس وداعة ورقة يعترفون بضرورة تنفيذ أحكام الإعدام، ويشاركون فيها بإصدار القوانين والمشاركة في المحاكم والانخراط في الخدمة العسكرية، فما السبب في ذلك؟ السبب هو أن الناس قد صدقوا خرافة أن أحد البشر يمكنه أن ينظم شؤون بقية البشر.

-١٣-

ما من شيء يحول بيننا وبين تحقيق ملكوت الله على الأرض مثل رغبة الناس في تحقيق أفعال الملكوت بما يناقضها؛ أي بالعنف.

وحدها عدم مقاومة الشر بالعنف تقود الإنسانية صوب استبدال قانون العنف بالحب:

-١-

معنى عبارة (سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ، وَسِنٌّ بِسِنٍّ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ، فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا) شديد الوضوح ولا يحتاج إلى أي تفسير أو تأويل. من المستحيل ألا نفهم أن هذه الكلمات تعني أن المسيح قد رفض قانون العنف القديم: «العين بالعين والسن بالسن»، ورفض كل نوع من أنواع تنظيم المجتمع يستند على هذا القانون، ووضع قانونًا جديدًا ألا وهو قانون حب البشر جميعًا دون تمييز، وقد أسس بهذا طريقة جديدة لتنظيم العالم لا تتأسس على العنف؛ بل على قانون حب البشر جميعًا دون تمييز. ثم ظهر أولئك الذين فهموا حقيقة كل هذه التعاليم وتنبؤوا بالعواقب التي ستنتج عنها في العالم والتي من شأنها أن تقضي على كافة الميزات والمكاسب التي كانوا يحصلون عليها، فصلبوا المسيح، ثم صلبوا أتباعه ولا يزالون يصلبونهم. وهناك آخرون فهموا حقيقة هذه التعاليم أيضًا ومضوا صوب الصلب -ولا يزالون-، ولكن الوقت يقترب أكثر فأكثر من تنظيم الحياة على أساس قانون الحب.

-٢-

قانون عدم مقاومة الشر بالعنف ليس جديدًا بأي حال من الأحوال، ولكن ليس هناك سوى إشارة على افتراض خاطئ من الناس بغياب قانون الحب، وإشارة على أن أي سماح بارتكاب العنف ضد القريب سواء باسم القصاص أو أي خلاص مزعوم للنفس أو للقريب من الشر لا يتفق مع الحب.

-٣-

لا شيء يحول بين البشر وتحسين حياتهم مثل رغبتهم في تحقيق ذلك بالعنف. إن عنف البشر ضد أقرانهم يبعدهم عن الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يُحسِّن حياتهم، وبشكل خاصة يعوق محاولاتهم كي يصبحوا بشرًا أفضل.

-٤-

وحدهم مَن يستفيدون من التسلط على حياة الآخرين، مَن يمكنهم أن يؤمنوا أن العنف من شأنه أن يحسن حياة البشر. أما مَن لم يسقطوا في فخ هذه الخرافة، فيمكنهم أن يروا بوضوح أن حياة البشر لا يمكنها أن تتغير صوب الأفضل إلا عن طريق تغييرات روحية داخلية، ولا يمكن لأي نوع من العنف أن يقوم بذلك.

-٥-

كلما قلَّ رضى الإنسان عن نفسه وعن حياته الداخلية، كلما ظهرت نفسه في الحياة الخارجية والاجتماعية. كلما تجنب الإنسان السقوط في هذا الخطأ، كلما كان عليه أن يفهم ويذكر أنه ليست لديه سلطة على حياة الآخرين وهو غير مدعو لذلك، كما أن الآخرين ليس لديهم الحق في التسلط على حياته وهم غير مدعوين لذلك، وأن كل إنسان مدعو فقط لتحقيق كماله الداخلي، وليست لديه سلطة سوى على ذلك فقط، وهذا وحده ما يمكنه أن يؤثر على حياة الآخرين بفاعلية.

-٦-

كثيرًا ما يعيش الناس حياة شريرة جدًا؛ لأنهم يهتمون جدًّا بكيفية تنظيم حياة الآخرين لا بحياتهم هم. يبدو لهم أن حياة كل منهم هي مجرد حياة واحدة، لذلك فتنظيمها والعناية بشؤونها ليس أمرًا هامًّا بقدر تنظيم حياة

عدد كبير من البشر، لكنهم ينسون أن لديهم السلطة على حياتهم فقط، وليس لديهم السلطة على تدبير حياة ليست لهم.

-٧-

إن أنفق الإنسان هذا الوقت وذلك المجهود الذي ينفقه في تنظيم حياة الآخرين، ومضى كل إنسان لمحاربة خطاياه، لوصل الناس إلى أفضل تنظيم ممكن للحياة بأقصى سرعة ممكنة.

-٨-

لم يُعْطَ للإنسان سلطة سوى على نفسه. يمكنه تدبير شؤون حياته بالطريقة التي يراها أنسب وأفضل، ولكن الجميع مشغولون بتدبير شؤون الآخرين، وهذا ما يجعلهم يخضعون لأناس آخرين يقومون بتدبير شؤون حياتهم الشخصية.

-٩-

إن تنظيم شؤون حياة الآخرين عن طريق القوانين التي تستند على العنف دون السعي صوب الكمال الداخلي يشبه الانتقال دون أدنى مجهود من بنايةٍ بُنيت بأحجار غليظة إلى بنايةٍ مبنية بأحجار جديدة جميلة كلها آيلة إلى السقوط. فبغض النظر عن كيفية وضع هذه الأحجار، سوف تنهار البناية سريعًا.

-١٠-

بقدر ما نحتاج إلى جهود كثيرة للحفاظ على نظام الدولة خارجيًا، بقدر ما لا نحتاج إلى الكثير من أجل تدمير عنف الدولة من الداخل بطريقة عقلانية. نحن في حاجة إلى شيء واحد فقط كي نقوم بذلك؛ ألا وهو الاعتراف بالخرافة كخرافة.

-١١-

عندما سألوا الحكيم سقراط عن مكان مولده أجابهم قائلًا: على الأرض. وعندما سألوه عن الدولة التي ولد فيها أجابهم قائلًا: الكون.

إنها كلمات عظيمة، فحتى لا يتمكن الإنسان من الشعور بالكراهية صوب البشر وأن يرتكب الشر ضدهم؛ لأنهم يعيشون فقط في جزء منفصل من الأرض عن المكان الذي نعيش فيه، والاعتراف بسلطة هؤلاء دون غيرهم من الناس، على كل إنسان أن يدرك أن الحدود المختلفة للأرض والسلطات المتنوعة هي من صنع البشر، وأننا جميعًا أمام الله سكان لأرض واحدة، وجميعنا يخضع لسلطة فائقة واحدة وقانون إلهي واحد.

-١٢-

عندما يأمر قانون إنساني بما يناقض قانونًا إلهيًا، فلا يجب ولا يمكن للإنسان أن يمتثل له.

-١٣-

لا يمكن الامتثال للقوانين الإنسانية كالقانون الإلهي؛ لأن الأخير هو واحد دائمًا وأبدًا في كل مكان وعند كافة البشر. أما القوانين الإنسانية فليست واحدة في كل مكان، وتختلف عن بعضها البعض تمامًا، وحتى في الدولة ذاتها ستجدها اليوم شيئًا وغدًا شيئًا آخر.

-١٤-

(لا يمكن لأي إنسان أن يصبح أداة أو غاية، وهذا سبب كرامته، فكما أنه ليس بإمكانه أن يضع سعرًا لنفسه -فهذا سيعارض كرامته- كذلك ليس لديه الحق في تنظيم حياة الآخرين، وهذا يعني أنه عليه أن يقر بالقيمة الإنسانية في

كل إنسان، لذا فعليه أن يعرب عن احترامه لكل إنسان).

«كانط».

-١٥-

لقد توطدت دعائم خرافة تنظيم المجتمع بالعنف في مجتمعنا إلى درجة أن أصبح المرء يسمع باستمرار الناس يقولون إنهم يريدون أن يخدموا الناس والشعب، ويريدون أن يسعدوه بعملهم، والقيام بسن التشريعات والتنوير يعني في النهاية تنظيم شؤون الناس. يقوم جميع هؤلاء الناس بشيء لم يطلبه منهم أحد. لا يمكن لجميع هؤلاء الناس سوى أن يطلبوا أمرًا واحدًا يعود بالخير عليهم وعلى الآخرين؛ ألا وهو الاهتمام بشؤونهم فقط وبأرواحهم وترك الشعب لحاله بدلًا من العمل من أجله بكل هذه الحمية!

-١٦-

لماذا مُنِح البشر العقل إن لم يكن بإمكان شيءٍ أن يؤثر عليهم سوى العنف؟

-١٧-

إن البشر مخلوقات عاقلة، لذلك يمكنهم أن يعيشوا مسترشدين بالعقل، ويتوجب عليهم لا محالة أن يستبدلوا العنف بالتوافق الطوعي. والعنف لا يفعل شيئًا سوى تأخير موعد حلول هذا الوقت.

-١٨-

(يا له من أمر غريب! يشعر الإنسان بالغضب من الشر القادم من الخارج... الشر الصادر عن الآخرين، ذاك الذي لا يمكنه إزالته، لكنه

لا يناضل ضد شره الداخلي، مع أن هذا داخل نطاق سلطته دائمًا وأبدًا).

«ماركوس أوريليوس».

-١٩-

يمكن تعليم الناس بكشف الحقيقة أمام أعينهم ومنحهم مثالًا حيًّا للفضيلة، ولكن لا يمكن تعليمهم بإجبارهم بالقوة على فعل ما نريده منهم.

-٢٠-

(عندما أراد الناس إنقاذ العالم بدلًا من إنقاذ أنفسهم، وعندما أرادوا تحرير الإنسانية بدلًا من تحرير أنفسهم، فكم فعلوا من أجل إنقاذ العالم وتحرير الإنسانية!).

«جرتسين»(٨٨).

-٢١-

عندما يحقق الإنسان هدفه الداخلي ويعيش من أجل روحه، فذلك يمنح المجتمع بطريقة تلقائية أكثر النماذج فعالية من أجل تحسين الحياة الاجتماعية.

-٢٢-

في أعوام الشباب يصدق البشر أن مهمة البشرية أن تسعى دائمًا صوب الكمال، وأنه من الممكن والأسهل أن نصحح مسار البشرية جميعًا وندمر كافة العيوب والبلايا. هذه الأحلام لا تدعو للسخرية، بل على العكس؛ إنها تحوي

(٨٨) ألكسندر جرتسين ١٨١٢- ١٨٧٠: كان كاتبا ومفكرا روسيًّا ذا توجه غربي، عرف بأبي الاشتراكية الروسية، وهو أحد أهم رواد الشعوبية الزراعية. عرف أنه المسؤول عن إنشاء مناخ سياسي ملائم لتحرر الأقنان في ١٨٦١.

حقيقة أكثر من تلك التي نجدها عند الشيوخ عالقة في إغواءات الناس... هؤلاء الشيوخ الذين يقضون أعمارهم كلها ليس كما يتوجب على الإنسان، بل ينصحون الناس بعدم الرغبة في شيء أو البحث عن شيء، والعيش كما الحيوان. الخطأ في أحلام الشباب يكمن في أمر واحد، ألا وهو أنهم ينقلون اهتمامهم بكمال أنفسهم وأرواحهم إلى الآخرين.

اسعَ إلى كمال روحك، وكن متيقنًا أنك بهذه الطريقة ستقدم أفضل مثال فاعل في تحسين الحياة الاجتماعية.

-٢٣-

إن كنت تعتقد أن المجتمع قد انتظم بشكل شرير، وتريد أن تصلح من هذا النظام، فاعلم أن هناك وسيلة واحدة للقيام بذلك: أن يصير الناس جميعًا في حال أفضل، وكي يحدث ذلك فليس من سلطتك إلا أمر واحد، وهو أن تصبح أنت أفضل.

-٢٤-

جرِّب أن تتصرف بالعقل في كل الحالات التي تستخدم فيها العنف، وستجد أنك نادرًا ما ستخسر بالمعنى الدنيوي، بل وستكسب الكثير بالمعنى الروحي.

-٢٥-

الأناركية لا تعني غياب المؤسسات، بل تعني غياب تلك المؤسسات التي تجبر الناس على الخضوع لها بالعنف، فبغير ذلك لا يبدو أنه يمكن أو يجب أن تنتظم المجتمعات التي تحوي مخلوقات قد حباها الله العقل.

-٢٦-

كانت حياتنا ستصبح رائعة إن كنا قد رأينا فقط ما يحول بيننا وبين خيرنا.

ما من شيء يحول دون خيرنا أكثر من تلك الخرافة التي تعتقد أن العنف يمكنه أن يمنحنا إياه.

-٢٧-

ما يمنح المجتمع أمنه وخيره هو أخلاقية أعضائه. هذه الأخلاقية تتأسس على الحب وتستبعد العنف.

-٢٨-

التغيير القادم في حياة سكان عالمنا المسيحي يتألف في الأساس من استبدال العنف بالحب، وفي الاعتراف بإمكانية وسهولة وسعادة الحياة التي تتأسس على الحب لا على العنف والخوف. لهذا لا يمكن لمثل هذا التغيير أن يحدث عن طريق عنف السلطة.

-٢٩-

(من الممكن العيش وفقًا لتعاليم المسيح أو لإبليس. العيش وفقًا لتعاليم المسيح يعني العيش بإنسانية وحب البشر وفعل الخير ورد الشر بالخير. أما العيش لإبليس فيعني العيش بوحشية وحب الذات فقط والرد على الشر بالشر. كلما نحاول أن نعيش وفقًا للمسيح كلما يزيد الحب والسعادة لدى الناس. كلما نعيش وفقًا لإبليس كلما تمتلئ الحياة بالكوارث.

إن وصية الحب تكشف أمامنا طريقين: طريق الحقيقة أي طريق المسيح، والفضيلة والحياة، وطريقًا آخر: طريق الخداع والنفاق... طريق الموت. وقد يشعر الإنسان بالهلع من التخلي عن كل وسائل الدفاع عن نفسه بالعنف، ولكن خلف هذا الهلع يكمن طريق الخلاص. إن رفض العنف لا يعني أنه يجب أن نتخلى عن حماية حياتنا ومصالحنا وكذلك حياة ومصالح الآخرين، لكنه يعني فقط أن هذه الحماية لا يجب أن تتم بشكل مناقض للعقل والحب.

إننا في حاجة إلى حماية حياتنا وأعمالنا وحياة ومصالح الآخرين، حتى نحاول أن نوقظ مشاعر الخير داخل الممتلئ شرًّا ذاك الذي يهاجمنا. وكي يتمكن الإنسان من فعل ذلك عليه أن يكون هو نفسه فاضلا وعاقلا. على سبيل المثال إن رأيت إنسانًا ينوي قتل إنسان آخر، فأفضل ما يمكنني فعله هو أن أضع نفسي من أجل ذلك الذي سيُقتل وأحميه بجسدي، وإن كان ممكنًا سأحاول إنقاذه وإخفاءه... يشبه الأمر تمامًا ما أفعله عندما أنقذه من الحريق أو من الانغماس في الملذات: فإما أن أموت بدلًا منه أو أنقذه. إن لم أكن قادرًا على فعل ذلك لأني أنا نفسي خاطئ ضال، فهذا لا يعني أنه عليَّ أن أكون وحشًا، وأبرر نفسي بينما أفعل الشر).

«بو كيه».

تحريف وصية المسيح عن عدم مقاومة الشر بالعنف عبر تعاليم الكنيسة:

-١-

تأسس النظام الاجتماعي لدى الوثنيين على العنف والانتقام. هذا ما كان مفترضًا أن يكون. أما أساس النظام الاجتماعي في المجتمع المسيحي فيبدو أنه يجب أن يكون لا محالة عبر الحب ونبذ العنف. ورغم ذلك فالعنف يسود في كل مكان، فما سبب ذلك؟ السبب أنه هذا التعليم ليس هو ما يتم التبشير به تحت اسم المسيح.

-٢-

من الأمور المدهشة أنه من المستحيل على الناس الذين لا يفهموا تعاليم المسيح أن يجدوا أي إشارة منه تبيح مقاومة الشر بالعنف. غياب هذه الإشارة أمر مزعج لهم بشكل خاص؛ لأن هذا يتطلب بشكل مباشر ما يخرق النظام القائم في الحياة تمامًا. ولأن الناس لا يرغبون في تغيير نظام حياتهم، فهذه

الإشارة عن إحدى شروط الحب الحتمية يطلقون عليها شرطًا خاصًا جدًّا، ولا يتعلق بقانون الحب ويُحرِّفون هذا التعليم بكل شكل ممكن أو يرفضونه ببساطة.

-٣-

هل يمكن فهم تعاليم المسيح عن حب مَن يكرهوننا وحب الأعداء وعدم السماح بارتكاب العنف كما قيل وتم التعبير عنه، وكما يتفق مع تعاليم الوداعة والاتضاع والحب أم بطريقة أخرى؟ إن كان يجب فهمها بطريقة أخرى، فعلينا أن نوضحها. وهذا ما لم يفعله أحد. إن معلمي الكنيسة يصمتون تمامًا عن الحديث عن ذلك، فماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أن كل هؤلاء الناس الذين يطلقون على أنفسهم مسيحيين يريدون أن يخفوا عن أنفسهم وعن الناس جوهر تعاليم المسيح؛ لأنه إن تم فهمه كما يجب، فمن شأنه أن يغير كل أوضاع الحياة، في حين أن أوضاع الحياة الحالية مربحة لهم.

-٤-

إن المعلمين الكنسيين لا يعترفون صراحة بوجوب تنفيذ وصية عدم المقاومة، ويعلمون الناس قائلين إنها ليست وصية ملزمة، وهناك بعض الظروف التي يجب أن نتخلى فيها عنها، دون أن يمكنهم أن يعترفوا ببساطة بأنهم لا يعترفون بهذه الوصية البسيطة الواضحة المرتبطة ارتباطًا جوهريًا بكافة تعاليم المسيح وتعاليم الوداعة والاتضاع والإذعان الطوعي للصليب وإنكار الذات ومحبة الأعداء... إنها تلك الوصية التي دونها يصبح التعليم المسيحي بأكمله مجرد هراء.

لهذا السبب تحديدًا، لا لأي سبب آخر نجد ظاهرة مدهشة، وهي أن هؤلاء المعلمين المسيحيين قد بشروا بالمسيحية لألف وتسعمائة عام، بينما العالم

يواصل حياته الوثنية كما هو.

-٥-

أي إنسان غير مسيحي يقرأ الإنجيل سيعرف في قرارة روحه أنه طبقًا لهذا التعليم لا يمكن لأي ذريعة أن تجعله يفعل الشر للقريب، لا بذريعة القصاص ولا بذريعة الدفاع ولا بذريعة إنقاذ إنسان آخر، والسبب في ذلك أنه إن أراد أن يلتزم بالمسيحية فليس أمامه إلا أمر من اثنين: إما أن يغير حياته المؤسسة على العنف، أي القائمة على فعل الشر للقريب، أو أن يخفي عن نفسه ما تتطلبه تعاليم المسيح منه حقًّا. وهنا يمكن للناس أن يقبلوا عقائد الكنيسة المزيفة بسهولة التي تستبدل جوهر تعاليم المسيح لعقائد أخرى مختلفة.

-٦-

أمر عجيب حقًّا! يُبدي مَن يعترفون بتعاليم المسيح امتعاضهم من قاعدة عدم السماح باستخدام العنف تحت أي ظرف من الظروف. إنسان قد اعترف بأن الهدف والمعنى في الحب، وفي الوقت ذاته يمتعض عندما يُشار إليه صوب الطريق الصحيح لهذا النشاط وإلى أكثر الأخطاء خطورة التي يمكنها أن تجعله ينحرف عن هذا الطريق! الأمر يشبه ملاحًا ساخطًا بسبب أنه قد تبين وجود طريق آمن لسفينته بين المياه الضحلة والأحجار، قائلا: «لماذا هذا الإكراه؟ لماذا لا أسير في المياه الضحلة؟». هكذا يبدو البشر عندما يستاؤون ويدركون أنه من المستحيل استخدام العنف تحت أي ظرف من الظروف، أو مقاومة الشر بالشر.

* * *

العقاب

يستثير الشر شرًّا مقابلًا له لدى المخلوق الحيواني، ولا تكون لديه أدنى فرصة أن يكبح جماح هذا الشر المستثار بداخله، ويحاول أن يرد على الشر بالشر، دون أن يدرك أن الشر يزيد الشر لا محالة. أما الإنسان العاقل فلا يمكنه ألا يدرك أن الشر لا يفعل شيئًا سوى زيادة الشر، لذلك عليه أن يكف عن مقاومة الشر بالشر، ولكن كثيرًا ما تسبق الطبيعة الحيوانية الطبيعة العقلانية داخل الإنسان، فنجد أن هذا الإنسان العاقل الذي لا بد له أن يكبح ذاته عن مقاومة الشر بالشر، يُبرِّر الشر الذي ارتكبه ويطلق عليه «القصاص» أو «العقاب».

لا يصل العقاب أبدًا إلى النتيجة المرجوة منه :

-١-

يقول الناس إنه من الممكن لهم أن يقاوموا الشر بالشر، حتى يصححوا من سلوكيات الناس. هذا غير صحيح. يخدع الناس أنفسهم. الناس يدفعون الشر بالشر لا من أجل تصحيح سلوكيات الناس، بل من أجل الانتقام. لا يمكنك أن تُقوِّم من سلوك أحد بارتكاب الشر.

-٢-

فعل «يعاقب» في الروسية يعني «يعظ»[٨٩]. والوعظ لا يمكنه أن يكون إلا بالكلمة الحسنة والمثال الحسن. عندما تدفع الشر بالشر، فأنت بذلك لا تعلم

(٨٩) Наказывать - Поучать

أحدًا، بل تفسده.

-٣-

ما يفعله الحيوان يشبه ما يفعله الطفل، وهو ما يفعله الأحمق، وأحيانًا الإنسان الراشد تحت تأثير الألم والغضب، أي أن يغضب المرء بشدة ويريد إلحاق الأذى بمَن أذاه، وهذا يتم الاعتراف به الآن كحق قانوني من قبل بشر يدعون أنفسهم «الحكام». لا يمكن للإنسان العاقل ألَّا يدرك أن كل فعل شرير يدمر الخير المقابل له، كما تفعل المياه بالنار، ليجد الإنسان نفسه يقوم فجأةً بما يناقض عقله، والقانون الذي من المفترض أن يكون نتاجًا لحكمة البشر يقول له إنه من اللازم له أن يقوم بذلك!

-٤-

أخطر ما في الخرافة القائلة بأن العقاب يمكنه أن يقضي على الشر، هو أنه بفعل هذا الشر لا يتصور الإنسان فقط أنه يفعل شيئًا مباحًا؛ بل مفيدًا.

-٥-

العقاب والتهديد به يمكنه أن يخيف الإنسان، ويمنعه عن فعل الشر لوهلة من الوقت، لكنه لا يمكنه أن يُقوِّم طريقه.

-٦-

دائمًا ما يكون العقاب قاسيًا ومعذبًا. إن لم يكن كذلك، لما قاموا به. أصبحت قسوة السجن الآن تشبه قسوة الجلد بالسوط منذ مائة عام مضت.

-٧-

يُبرِّر الضالون رغبتهم في الانتقام أو حماية أنفسهم من الخطر بنسبته لله؛ فالناس يؤمنون أن الله يعاقب المخطئين على أفعالهم الشريرة.مكتبة

-٨-

الجزء الأكبر من الكوارث التي تحيق بالبشرية تحدث بسبب أن الخاطئين يعتقدون أن لديهم الحق في العقاب، فيقول كل منهم: «لي الحق في الانتقام».

-٩-

الدليل الأكبر على أن كلمة «علم» تُذكر في أغلب المرات ليس فقط على توافه الأمور بل أيضًا على أكثر الأمور فسادًا، وهو وجود علم للعقاب، أي علم لارتكاب أكثر الأفعال بربرية التي لا تتناسب سوى مع حالة منحدرة جدًّا لدى الإنسان... تناسب الطفل أو الأحمق.

قوانين الحكومات التي يُطلق عليها «القوانين الجنائية» أكثر ما يعمل على صبغ الانتقام بالعقلانية:

-١-

كما توجد خرافات عن آلهة كاذبة ونبوءات كاذبة وشعائر وطقوس لإرضاء الله وإنقاذ الروح، هكذا أيضًا تنتشر خرافة لدى الناس؛ وهي أنه يمكن لواحد من الناس أن يستخدم العنف من أجل إجبار الآخرين على أن يعيشوا حياة فاضلة.

إن خرافة تعدد الآلهة والأنبياء الكذبة والطقوس السرية التي تنقذ الروح قد بدأت في التلاشي تمامًا، أما خرافة قيام الدولة بتنظيم شؤون البشر التي تعاقب الأشرار كي تسعد بقية المواطنين، فهي خرافة يقرها الجميع، وباسمها تُرتكب أكثر الأفعال شرًّا.

-٢-

وحدهم مَن ثملوا بالسلطة يمكنهم أن يصدقوا فعلًا أنه يمكنهم عن طريق

العقاب تحسين حياة البشر. نحتاج فقط إلى إنكار خرافة أن العقاب يمكنه أن يقوِّم حياة البشر، وكي نقوم بذلك علينا أن ندرك بوضوح أن التغييرات لا تتم في حياة البشر سوى من داخل أرواحهم، ولا يمكن للتغيير أن يحدث بأي حال من الأحوال نتاجًا لشر يقوم به أحد الناس صوب الآخرين.

-٣-

لا شيء يحول دون تحسين النظام الاجتماعي مثل ذلك الافتراض بأن مثل هذا التحسين لا يمكنه أن يتم سوى بالقوانين الحكومية التي تدعمها العقوبات. هذا النشاط الذي يتمثل في إصدار القوانين وعقاب مَن لا يلتزم به هو أكثر ما يبعد الناس عمَّا يمكنه أن يُحسن من حياتهم فعلًا، وعن الكمال الأخلاقي.

-٤-

إن سمحنا لما هو غير مسموح به، وهو أن الإنسان لديه الحق في العقاب، فمَن من الناس يكون لديه مثل هذا الحق؟ إنهم أولئك الناس الذين انحدروا جدًّا، حتى لم يعودوا يدركون أو يذكرون خطاياهم.

-٥-

(وَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زِنًا. وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي الْوَسْطِ. قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، هذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ، وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟»، قَالُوا هذَا لِيُجَرِّبُوهُ، لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى الأَرْضِ. وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا يَسْأَلُونَهُ، انْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!»، ثُمَّ انْحَنَى أَيْضًا إِلَى أَسْفَلُ

وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى الأَرْضِ. وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُبَكِّتُهُمْ، خَرَجُوا وَاحِدًا فَوَاحِدًا، مُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الآخِرِينَ. وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي الْوَسْطِ. فَلَمَّا انْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَدًا سِوَى الْمَرْأَةِ، قَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، أَيْنَ هُمْ أُولئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟»، فَقَالَتْ: «لاَ أَحَدَ، يَا سَيِّدُ!». فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا").

"يوحنا ٨: ٣- ١١".

-٦-

يختلق الناس مبررات مراوغة عن سبب قيامهم بالعقاب. والحقيقة أنهم لا يعاقبون سوى لسبب وحيد وهو أنهم يرون أن ذلك يصب في مصلحتهم.

-٧-

يُسيِّج الناس حول أنفسهم بسبب شروهم ورغبتهم في إخفاء جريمتهم بسياج من الأفكار الكاذبة، فيفعلون الشر، وكي يبررونه يؤكدون للناس ولأنفسهم أنهم يقومون بذلك فقط من أجل تقويم فاعل الشر.

-٨-

لا يزال بإمكاننا أن ندرك أن مَن في السلطة يمكنهم أن يصدقوا أن عقاب مَن يقفون عثرةً في طريق التنظيم الاجتماعي الذي يقومون به قد يكون مفيدًا. ولكن ما يثير التعجب هو أن أولئك الخاضعين للسلطة أنفسهم يؤمنون بذلك ويُروِّجون للعقاب ويعاقبون بعضهم البعض ويعتبرونه مفيدًا وخيرًا لهم.

-٩-

أكثر ما يدعم خرافة الانتقام ويسبغ عليها العقلانية هو القناعة بأن الخوف من العقاب يمنع الناس لبعض الوقت من أفعال محرمة، ولكن هذا الحظر لا

يقلل من رغباتهم الشريرة، بل يزيد منها، كما أن السد لا يقلل من ضغط مياه النهر، بل يقويه.

-١٠-

يسود مجتمعنا قدر بسيط من النظام، وهذا ليس بسبب المحاكم ووكلاء النيابة والمحققين والسجانين والجلادين والجنود والقضاة وعقاب الناس لبعضهم البعض، ولكن بسبب أنه بغض النظر عن الفساد الذي يرتكبه كل ممثلي الحكومة، فلا يزال الناس يحبون بعضهم البعض.

-١١-

من المستحيل أن يُقوِّم أحد الناس من حياة الآخرين. الصحيح أن الإنسان يمكنه أن يُقوِّم حياته هو.

-١٢-

العقاب أمر مضر ليس فقط لأنه يزيد مرارة الشخص الذي يتعرض للعقاب، لكنه أيضًا يفسد مَن يقوم بالعقاب.

الانتقام في العلاقات الشخصية:

-١-

أن تعاقب شخصًا على أفعاله الشريرة يشبه أن تزيد من اتقاد النار. كل إنسان يفعل الشر يُعاقب فعلًا بحرمان نفسه من الهدوء وتعذيب الضمير. إن لم يعانِ من كل ذلك، فكل العقوبات التي في العالم لن تُقوِّمه، بل ستزيده شرًّا.

-٢-

العقاب الحقيقي على كل فعل شرير، هو ما يحدث في روح هذا المجرم

ويحد من قدرته على الاستمتاع بخيرات الحياة.

-٣-

إنسان قام بفعل شرير. وها هو إنسان آخر أو مجموعة من الناس أرادوا أن يواجهوا هذا الشر، فلم يجدوا شيئًا أفضل من القيام بعمل شرير هم أيضًا أطلقوا عليه «العقاب»!

-٤-

عندما يضرب الطفل الأرض بقدميه لأنه اصطدم بها، فمن الواضح أن ذلك فعل غير لازم له، ولكن من الواضح أيضًا أن الإنسان يقفز من مكانه عندما يصاب بكدمة مؤلمة. من الواضح أيضًا أنه إن ضرب الناسُ إنسانًا ما، ففي الوهلة الأولى سيتأرجح أو سيضرب مَن يضربونه، ولكن فعل الشر بتعمد لإنسان ما لأنه قام بفعل شرير قبل ذلك، والتأكيد للذات أن هذا ضروري، أمر مناقض للعقل تمامًا.

-٥-

يقتلون الدب عن طريق تعليق بكرة ثقيلة فوق العسل. يدفع الدب البكرة كي يتمكن من تناول العسل. تدور البكرة وتضرب الدب. يغضب الدب ويدفع البكرة بقوة أكبر، فتضربه بمزيد من القوة، ويستمر الوضع على هذا حتى يُقتل الدب. هكذا يحدث مع البشر عندما يدفعون الشر بالشر. أيمكن ألا يكون البشر أعقل من الدب؟

-٦-

البشر أعقل المخلوقات، لذا فعليهم أن يدركوا أن الانتقام لا يمكنه أن يقضي على الشر، وعليهم أن يدركوا أن الخلاص من الشر يكمن في وسيلة واحدة فقط؛ ألا وهي دفع الشر بالحب، لا بالانتقام. ولكن البشر لا يدركون

ذلك، ولا يزالون يثقون في الانتقام.

-٧-

لو لم نكن قد تعودنا منذ الطفولة أن الشر يجب أن يُدفع بالشر، وأن من الممكن أن نجبر إنسانًا بالعنف أن يفعل ما نريده أن يفعل، لكُنَّا قد تعجبنا كيف يمكن لبشر أن يُعوِّدوا بشرًا آخرين على أن العقاب وكل أنواع العنف يمكنها أن تجدي نفعًا، وكأنهم يفسدونهم عن عمد. نحن نعاقب الطفل كي نجعله يكف عن فعل سيئ، لكننا نوحي للطفل بهذا العقاب أنه قد يؤتي نفعًا، وأنه أمر عادل.

ما من شيء من هذه الرغبات السيئة أكثر ضررًا وسوءًا بالنسبة للطفل من تنمية هذا الميل الشرير بداخله الذي نشي له به عن طريق العقاب. «طالما هم يعاقبونني، فلا بد أن العقاب أمر حسن». هكذا يقول الطفل لنفسه عند سنوح أول فرصة له ليمارس العقاب على غيره.

الانتقام في العلاقات الاجتماعية:

-١-

إن التعليم القائل بصلاح استخدام العقاب ليس فقط غير صالح في تربية أطفالنا، ولا صالح من أجل تنظيم المجتمع وبعث الروح الأخلاقية داخل الناس المؤمنين بالعقاب حتى الموت، لكنه أيضًا قد أدى -ولا يزال- إلى كوارث لا حصر لها: إنه يُقسِّي قلوب الأطفال، ويضعف العلاقات بين الناس في المجتمع ويفسد الناس بجعلهم يصدقون وجود الجحيم، ويحرم الفضيلة من قاعدتها الأساسية.

-٢-

الناس لا تؤمن أنه يجب دفع الشر بالخير لا بالشر؛ بسبب أنهم قد تعلموا منذ الطفولة أنه دون دفع الشر بالشر لا يمكن للحياة الإنسانية أن تنتظم.

-٣-

(إن كان الفاضلون من البشر يريدون حقًّا أن يوقفوا كل أعمال الشر: السرقات- غنى الأغنياء الفاحش- فقر الفقراء المدقع- كل أنواع القتل- الجرائم التي تفسد الحياة الإنسانية، عليهم أن يدركوا أن الوصول لذلك لا يمكن أن يكون أبدًا عبر الحرب والانتقام. كلٌّ ينجب ما يشبهه، وطالما أننا لا ندفع الإساءات وأعمال العنف الشريرة بأعمال مختلفة عنها تمامًا، فسنفعل كما يفعلون، وبهذه الطريقة سوف نوقظ ونحث ونشجع بداخلهم كل الشر الذي نحاول أن نستأصله. وبهذا لن يتغير الشر كما كنا نأمل، بل نحن الذين نتغير).

«أدين بالو».

-٤-

(الخوف من العقاب لم يَحُلْ أبدًا دون وقوع جريمة قتل واحدة. ذاك مَن يسمي ليقتل جاره بدافع الانتقام أو الحاجة لا يفكر كثيرًا في العواقب. القاتل على ثقة دائمًا من أنه سيفلت من عواقب جريمته. لو أعلنا أنه ما من عقوبات سوف تفرض على القتلة، فعدد الجرائم لن يزيد ولا جريمة واحدة. المؤكد هو النقيض من ذلك، فعدد الجرائم سيقل؛ لأننا لن نصنع مجرمين جددًا في السجون).

«كروبوتكين»[٩٠].

---

(٩٠) بيوتر كروبوتكين ١٨٤٢- ١٩٢١: جغرافي روسي، كان من أوائل المنظرين للحركة التحررية اللا سلطوية.

-٥-

سوف تمر عشرات وربما مئات الأعوام، ولكن سيأتي وقت حينما سيشعر فيه أحفادنا بالدهشة من المحاكم التي أنشأناها والسجون والإعدامات، كما نشعر نحن الآن بالدهشة تمامًا من حرق الناس في محاكم التفتيش «كيف لم يمكنهم أن يروا كل هذه العبثية وتلك القسوة وهذه الشرور التي ارتكبوها؟»، هكذا سيقول أحفادنا.

يجب أن يتراجع الانتقام في العلاقات الشخصية أمام الحب وعدم مقاومة الشر بالعنف:

-١-

مكتوب في الإنجيل: (مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ، فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا)[٩١].

-٢-

هذا هو قانون الله بالنسبة للمسيحي: مَن ارتكب العنف، بغض النظر عما حدث، فما من فارق: العنف شر. والشر هو الشر أيًا كان قتلًا أو زنًا... مهما فعلتَ، وأيًا كان السبب، وسواء قمت بذلك لشخص واحد أو لملايين من الناس، فهو نفس الشر. الشر هو الشر؛ لأننا جميعًا متساوون أمام الله. في بعض الأحيان يتوجب تنفيذ القوانين الإنسانية، وفي أحيان أخرى لا يتوجب ذلك، وقد يتوجب تنفيذ إحداها، والآخر لا يتم تنفيذه، أما وصايا الله فليست كذلك.. إنها واجبة التنفيذ دائمًا لكل البشر، لذا فوصية الحب يجب أن تُنفَّذ من قبل كافة المسيحيين. من الأفضل دائمًا أن نتحمل العنف على أن نرتكبه.

---

(٩١) لوقا ٦: ٢٩.

بالنسبة للمسيحي من الأفضل أن يُقتل على أن يكون قاتلًا. إن أساء الناس إليَّ، فيجب أن أفكر في الأمر كما فعل المسيح: أنا أيضًا قد أسأت إلى الناس، لذا فحسنًا أرسل الله لي تلك التجربة كي أفكر في خطاياي وأتطهر منها. وإن أساء إلى الناس بسلامة نية، فالأمر يكون أفضل بالنسبة لي؛ لأنه يحدث معي ما يحدث مع كافة القديسين، وإن تصرفت كما تصرف أولئك الناس فسأصبح شبيهًا بهم. من المستحيل أن ينقذ الإنسان روحه بالشر، ومن المستحيل أن يصل إلى الفضيلة عن طريق الشر، كما أنه من المستحيل أن يصل المرء إلى منزله بالابتعاد عنه! لا يمكن لشيطان أن يطرد شيطانًا آخر، لذا فالشر لا يمكن دفعه بالشر، بل إن ذلك لا يؤدي إلا إلى زيادة الشر ودعمه. لا يمكن دفع الشر سوى بالصلاح والفضيلة. من شأن الفضيلة والاحتمال والمعاناة وحدهم أن يمتصوا الشر.

-٣-

علينا أن ندرك ونذكر أن الرغبة في العقاب أي الرغبة في الانتقام، ليست من سمات المخلوق العاقل: الإنسان. هذه الرغبة هي من سمات الطبيعة الحيوانية فقط التي في الإنسان؛ لذا فعلى الإنسان أن يناضل كي يتحرر من هذا الشعور، ولا يبرره أبدًا.

-٤-

ما الذي يجب أن تفعله عندما يقوم أحد الناس بفعل شرير صوبك؟ يمكنك أن تفعل الكثير، ولكن هناك شيء واحد لا يجب أن تفعله: لا يجب أن تفعل الشر، أي لا تفعل مثلما فعل بك هذا الإنسان.

-٥-

(لا تكونوا إمعةً، تقولون: إن أحسن الناس أحسنًا، وإن ظلموا ظلمنا،

ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا).

«محمد».

-٦-

لا تكمن أهمية تعليم ممارسة الحب والامتناع عن العنف فقط في أن احتمال العنف ودفعه بالخير أمرٌ حسنٌ بالنسبة للإنسان وروحه، بل أيضًا بسبب أن من شأن فضيلة واحدة أن توقف الشر وتطفئه ولا تسمح له أن يسير قدمًا. إن التعليم الحقيقي عن الحب قوي حتى إنه يمكنه أن يُطفئ الشر ولا يترك له الفرصة كي يتقد.

-٧-

منذ أعوام طويلة مضت، بدأ الناس في إدراك عدم اتفاق العقاب مع الفضائل السامية لروح الإنسان، وبدأوا في التفكير في تعاليم مختلفة، يمكن عن طريقها تبرير هذه الدناءة والميل الحيواني.

البعض يقول إن العقاب لازم من أجل الردع، وآخرون يقولون إنه لازم من أجل تقويم الناس، والبعض يقول إنه لازم من أجل الحفاظ على العدالة، كما لو أن الله لا يمكنه أن يحقق العدالة في العالم دون محاكم. ولكن كل هذه التعاليم مجرد ترهات؛ لأن هناك مشاعر شريرة كامنة في جذورها: الانتقام- الخوف- حب الذات- الكراهية. لقد اختلقوا كثيرًا من التبريرات، لكنهم لم يتوصلوا إلى فعل الشيء الوحيد اللازم حقًّا؛ ألا وهو ألا يفعلوا شيئًا، وأن يتركوا مَن أخطأ لنفسه سواء تاب أو لا، سواء قوَّم طريقه أو لم يفعل ذلك، فإن ترك هؤلاء الناس الذين يلفقون كل هذه التعاليم الآخرين في هدوء، لعاشوا حياة صالحة بأنفسهم.

-٨-

ادفع الشر بالخير، وستحطم داخل الإنسان الذي يرتكب الشر كافة مشاعر الرضا التي يشعر بها عند قيامه بالشر.

-٩-

إن بدا لك أن أحدهم قد أذنب في حقك، فانس ذلك واصفح، وسوف تختبر سعادة الغفران. لا شيء من شأنه أن يسعد البشر مثل الصفح عن الشر ودفع الشر بالخير، وما من إنسان أسعد من ذاك الذي يفعل ذلك.

-١٠-

(الفضيلة تنتصر على كل شيء، ولا شيء ينتصر عليها. إنها تستطيع الصمود ضد كل شيء إلا نفسها!).

«روسو».

-١١-

ادفع الشر بالخير، واصفح عن كل شيء. سيختفي الشر من العالم فقط حينما يفعل الجميع ذلك. قد لا تقوى على ذلك، ولكن اعلم أن ما يجب أن تتمناه فقط هو الوصول إلى ذلك؛ لأن هذا وحده ما بإمكانه أن يخلصنا من الشر الذي نعاني منه جميعًا.

-١٢-

(لا يعفو عبدٌ عن مظلمة، إلا زاده بها الله عزًّا).

«محمد».

-١٣-

(حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ بُطْرُسُ وَقَالَ: «يَا رَبُّ، كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ

لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ؟»، قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لاَ أَقُولُ لَكَ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ، بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّاتٍ»)(٩٢).

أن تصفح يعني ألا تنتقم، بل تدفع الشر بالخير، أن تحب. إن آمن شخص بذلك، فالأمر لن يتعلق حينها بما فعله الشقيق، بل بما يجب أن أفعله أنا. إن أردت أن تقوِّم خطأ القريب، فقل له باختصار الأمر السيئ الذي فعله، وإن لم يستمع لك، لا توبخه، بل وبِّخ نفسك على أنك لم تستطع أن تقول له الأمر المناسب. يشبه السؤال عن كم مرة يجب أن أصفح فيها عن شقيقي أن تسأل إنسانًا يعرف أن شرب الخمر أمر سيئ، ويقرر ألا يشرب الخمر أبدًا، فتسأله كم مرة يجب أن ترفض فيها شرب الخمر عندما تُقدَّم إليك. إن قررت ألا أشرب الخمر، فلن أشربها مهما كان عدد المرات التي يقدمونها فيها إليَّ. هكذا هو الأمر مع الغفران.

-١٤-

لا يعني الغفران أن تقول: أنا أصفح عنك بتلك الطريقة التي تخرج من القلب لتعرب عن خيبة الأمل وعدم الرضى عن المسيء إليك. فكي تصفح فعلًا عليك أن تذكر خطاياك، وحينما تفعل ذلك لا بد وأنك ستجد أفعالًا قد قمت بها أسوأ من تلك التي غضبت بسببها.

-١٥-

تعليم عدم مقاومة الشر بالعنف ليس تعليمًا جديدًا على الإطلاق، بل يوجد فقط إشارة إلى افتراض غير صحيح لدى الناس عن غياب قانون الحب... هناك فقط إشارة إلى أن كل سماح للعنف ضد القريب باسم القصاص أو الخلاص المتوهم للنفس أو القريب من الشر لا يمكنه أن يتفق مع الحب أبدًا.

---

(٩٢) متى ١٨: ٢١- ٢٢.

-١٦-

من الواضح جدًّا مدى اتفاق التعليم القائل بأنه عندما تحب، فإنه لا يكون بمقدورك أن تنتقم مع بقية التعليم. فإن لم يكن قد ذُكر في التعليم المسيحي أنه على المسيحي أن يدفع الشر بالخير ويحب مَن يكرهونه ويحب أعداءه، فكل من فهم التعليم كان سيستنتج ذلك بنفسه.

-١٧-

كي نفهم أن تعليم المسيح يطلب من الإنسان أن يدفع الشر بالخير، علينا أن نفهم كافة تعليمه بشكل حقيقي، لا كما تفسره الكنائس بكل التحويرات الممكنة وغير الممكنة. إن كل تعليم المسيح يتلخص في أنه على الإنسان ألا يعيش من أجل جسده؛ بل من أجل روحه كي يتمكن من تنفيذ إرادة الله. وإرادة الله أن يحب الناس بعضهم بعضًا... أن يحب الإنسان الجميع. فكيف يمكن أن يحب الإنسان الجميع ويفعل الشر؟ المؤمن بتعاليم المسيح لا يمكنه أن يفعل ما يناقض هذا الحب، ولا يمكنه أن يرتكب الشر ضد الآخرين.

-١٨-

كل التعليم المسيحي دون تحريم مقاومة الشر بالشر مجرد ترهات.

-١٩-

(حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ بُطْرُسُ وَقَالَ: «يَا رَبُّ، كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ؟ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لاَ أَقُولُ لَكَ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ، بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّاتٍ. لِذلِكَ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا مَلِكًا أَرَادَ أَنْ يُحَاسِبَ عَبِيدَهُ. فَلَمَّا ابْتَدَأَ فِي الْمُحَاسَبَةِ قُدِّمَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مَدْيُونٌ بِعَشْرَةِ آلاَفِ وَزْنَةٍ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُوفِي أَمَرَ سَيِّدُهُ أَنْ يُبَاعَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَأَوْلاَدُهُ وَكُلُّ مَا

لَهُ، وَيُوفِي الدَّيْنُ. فَخَرَّ الْعَبْدُ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلًا: يَا سَيِّدُ، تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيكَ الْجَمِيعَ. فَتَحَنَّنَ سَيِّدُ ذلِكَ الْعَبْدِ وَأَطْلَقَهُ، وَتَرَكَ لَهُ الدَّيْنَ. وَلَمَّا خَرَجَ ذلِكَ الْعَبْدُ وَجَدَ وَاحِدًا مِنَ الْعَبِيدِ رُفَقَائِهِ، كَانَ مَدْيُونًا لَهُ بِمِئَةِ دِينَارٍ، فَأَمْسَكَهُ وَأَخَذَ بِعُنُقِهِ قَائِلاً: أَوْفِنِي مَا لِي عَلَيْكَ. فَخَرَّ الْعَبْدُ رَفِيقُهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ قَائِلًا: تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيكَ الْجَمِيعَ. فَلَمْ يُرِدْ بَلْ مَضَى وَأَلْقَاهُ فِي سِجْنٍ حَتَّى يُوفِيَ الدَّيْنَ. فَلَمَّا رَأَى الْعَبِيدُ رُفَقَاؤُهُ مَا كَانَ، حَزِنُوا جِدًّا. وَأَتَوْا وَقَصُّوا عَلَى سَيِّدِهِمْ كُلَّ مَا جَرَى. فَدَعَاهُ حِينَئِذٍ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشِّرِّيرُ، كُلُّ ذلِكَ الدَّيْنِ تَرَكْتُهُ لَكَ لأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ. أَفَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضًا تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟. وَغَضِبَ سَيِّدُهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حَتَّى يُوفِيَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ. فَهكَذَا أَبِي السَّمَاوِيُّ يَفْعَلُ بِكُمْ إِنْ لَمْ تَتْرُكُوا مِنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ لأَخِيهِ زَلاَتِهِ).

«متى ١٨: ٢١– ٣٥».

عدم مقاومة الشر بالعنف مهمٌ في تغيير الحياة الاجتماعية بقدر أهميته في تغيير الحياة الشخصية:

-١-

يرغب الناس في الإبقاء على شهواتهم كما كانوا، وفي الوقت ذاته يريدون أن تتغير الحياة صوب الأفضل!

-٢-

نحن لا نعرف، ولا يمكننا أن نعرف ما الذي سيعود بالخير على المجتمع كله، لكننا نعرف جيدًا أن الوصول إلى هذا الخير العام لا يمكن أن نصل له إلا عن طريق تنفيذ كل إنسان لا لتلك القوانين التي سنها البشر؛ بل لقانون الخير

الأبدي الذي أُعلِن لكل إنسان في قلبه، والذي كشف عنه حكماء البشر.

-٣-

كثيرٌ من البشر الذين لا يتفقون مع تعاليم المسيح لا يوافقون على دفع الشر بالخير، ويقولون إنه إن قبلنا هذا التعليم، فسيتحطم نظام الحياة بأكمله، لذا فمن المستحيل أن نقبل هذا التعليم. ومع ذلك فتعليم المسيح يمثل هذا المبدأ تحديدًا؛ ألا وهو ضرورة تدمير هذا النظام الشرير القائم في الحياة، ولذلك تم التبشير به في العالم؛ كي ندمر نظام حياتنا القديم الشرير، ونستبدله بنظام جديد صالح.

-٤-

يقولون إنه من المستحيل ألا نقاوم الشر بالشر؛ لأنه إن لم نفعل ذلك فسيقوم الأشرار بمزيد من الانتهاكات والظلم للصالحين. أعتقد أن الحقيقة على النقيض تمامًا من ذلك: إن الشر لا يستولي على الخير تمامًا إلا عندما يعتقد الناس أنه يجب دفع الشر بالشر، مثلما يحدث لدى كافة الأمم المسيحية. إن الأشرار يمكنهم الآن الإمساك بخناق الصالحين؛ لأن الجميع قد ظنوا أنه ليس فقط من المسموح لهم أن يدفعوا الشر بالشر، بل إنه أمر مفيد.

-٥-

يقولون: إن توقفت عن تهديد الأشرار بالعقاب، سيتداعى النظام القائم ويهلك الجميع. هذا القول يشبه القول: إن تدفق النهر سيهلك كل شيء. لا... عندما تسير المراكب تبدأ الحياة الحقيقية.

-٦-

حينما يتحدث العلماء عن التعليم المسيحي عادة ما يقولون إن السؤال عن المسيحية الحقيقية لم يعد مطروحًا، فقد حُسم منذ زمن بعيد بصورة نهائية:

«علينا ألا ننشغل بالأوهام، بل بالأعمال الحقيقية. علينا أن نغير العلاقة بين رأس المال والعمل وننظم العمل وملكية الأرض، ونفتتح الأسواق، ونقيم المستعمرات من أجل السكان ونحدد علاقة الكنيسة بالدولة، وعلينا أن نؤسس النقابات ونوفر أمان الدولة، ونبني السفن ونجمع القوات العسكرية وندربها ونعد وسائل الدفاع من أجل الحفاظ على كرامة الشعب... إلخ. علينا أن ننشغل فعلًا بقضايا جادة جديرة باهتمام وانتباه الناس، لا بأوهام عن تنظيم المجتمع يعرض فيه الناس خدهم الآخر عندما يضربهم أحد على الخد الأيمن، ويتنازلون فيه عن الرداء لـِمَن استولوا على الثوب.. أولئك الناس الذين يعيشون كطيور السماء... كل هذا كلام فارغ». هكذا يقولون دون أن يلاحظوا أن جذر كل هذه الأسئلة هو بالضبط ما يطلقون عليه «مجرد كلام فارغ». السبب في ذلك هو أن كل هذه الأسئلة، بداية من رأس المال والعمل، مرورًا بمسألة الكرامة الوطنية، وانتهاءً بالعلاقة بين الكنيسة والدولة لا بد وأن تتطلب في بعض المواقف أن يسيء الإنسان إلى قريبه، أو شيء من هذا القبيل، وهذا بالضبط ما لا يمكن لإنسان عاقل أن يقوم به.

وهكذا فإن ما يعتبرونه أسئلةً هامةً تقود جميعًا صوب سؤال واحد: هل من المعقول أم من غير المعقول، وبالتالي هل من اللازم أم من غير اللازم أن يدفع الإنسان الشر بالشر؟ كان هناك وقت لم يفهم فيه الناس مثل هذه الأسئلة ولم يكن بإمكانهم فهمها من الأساس، ولكن مجموعة من الأمور التي تجلب معاناة رهيبة بين مَن يعيشون الآن قادت الإنسانية إلى إدراك ضرورة حسم هذه الأسئلة. لقد تم حسم هذا السؤال منذ ١٩٠٠ عام حين أعلن المسيح عن تعليمه. لذا فمن المستحيل الآن أن نتظاهر أننا لا نعرف هذه الأسئلة ولا إجاباتها.

النظرة الحقيقية لعواقب التعليم الذي يقضي بضرورة الشر بدأت في اختراق وعي الإنسان المعاصر:

-١-

إن كان هناك وقت استطاع فيه الأبطال والحكماء التسامي على مستوى الجماهير الأخلاقي، لكان القسم الأكبر من الجماهير قد خضع لهم طوعًا، ولكانوا قد خضعوا بالطبع لكل مطالبهم، حتى التي تتعارض مع مصالح المرؤوسين والرؤساء الذين يتسيدون عليهم بالعنف على السواء. ولكن الوقت قد مرَّ فعلًا... من الصعب في زماننا أن تلتقي الآن بأناس لم يفهموا أن مَن يتسلطون عليهم ليسوا فقط غير أسمى منهم أخلاقيًّا، لكنهم أدنى دائمًا من غالبية الجموع. من الصعب أن تلتقي بأناس لم يتفحصوا تصرفات وأوامر هؤلاء السادة، والقطاع الأعظم من الشعب قد رفضها، لكنه لم يقرر أن يواجهها ولم يعتمد على قوة التوافق العام. إن العلاقة بين مَن في السلطة ومَن يخضعون لهم في زماننا هذا، سواء كانت سلطة استبدادية أو منتخبة من الشعب تسير فقط بقوة العادة، ولكن منذ زمن بعيد وقد تنامى الإحساس بأن أوان هذه العلاقة قد فات.

-٢-

تعيش البشرية في كنف مفهوم العقاب.

-٣-

(روح يسوع التي يحاول أقوياء هذا العالم إطفاءها، تتجلى في كل مكان. ألم تخترق روح الإنجيل الشعوب من قبل؟ ألم يبدأوا في رؤية النور؟ ألم

يعد الوعي بالحقوق والواجبات أوضح عن ذي قبل؟ ألم تُسمع من كافة الأطراف الدعوة إلى قوانين أكثر عدلًا، ومؤسسات تحمي الضعفاء تتأسس على المساواة العادلة بين الناس؟ ألم تُطفأ روح العداوة بين أولئك الذين كانوا يتصارعون من قبل؟ ألم يشعر البشر أنهم إخوة لبعضهم البعض؟ ها هو الظالم يرتجف كما لو أن صوتًا داخليًّا يريه نهايته الوشيكة. إنهم يشعرون بالضيق والهلع من رؤية تلك الأصفاد التي كبلوا بها الشعب، الذي جاء المسيح ليحرره... تلك الأصفاد التي ستتحطم سريعًا. أزيز يتناهى إليهم من تحت الأرض ويزعج أحلامهم. ثمَّ عمل يُجرى في أعماق المجتمع السرية، لا يمكنهم أن يوقفوه حتى وإن بذلوا كافة قواهم، ولا يمكنهم أن يوقفوا ذلك النجاح الدائم الذي يصيبهم بإزعاج لا يمكن التعبير عنه. هذا العمل هو بذرة جاهزة للنمو... إنه عمل الحب الذي ينزع الخطية عن العالم ويحيي الضعفاء ويعزي الحزانى، ويحل قيود المربوطين، ويفتح للشعب طريقًا جديدًا للحياة... إنه القانون الداخلي الذي يقضي بالحب بين الناس لا بالعنف).

«لامنيه».

مكتبة
t.me/soramnqraa

❊ ❊ ❊

الغرور

ما من شيء يحول دون سعادة البشر ويحرمهم قطعًا من خيرهم الحقيقي كالاعتياد على العيش بالطريقة التي يعيش بها مَن يطلقون على أنفسهم فاضلين ويعيش الإنسان بينهم، لا طبقًا لتعاليم حكماء العالم، وطبقًا لصوت الضمير.

فيمَ يكمن إغواء الغرور؟

-١-

إحدى العلامات الرئيسة لحياة الإنسان الشريرة هي أن يحيا لا لأجل جسده ولا لروحه، بل لأجل أن ينال قبول الناس.

-٢-

ما من إغواء يمكنه أن يأسر البشر طويلًا تحت سلطانه ويبعدهم عن فهم هدف الحياة الإنسانية ونعمتها الحقيقية كالاهتمام بالفخر وتصديق الناس على أفعال المرء واحترامهم ومديحهم.

لا يتحرر الإنسان من هذا الإغواء إلا بحرب ضروس مع نفسه، وبالاستدعاء المتواصل لوعيه الداخلي بوحدته مع الله، وبالتالي إدراك أنه لا يجب أن يحظى بقبول أحد سوى الله وحده.

-٣-

نحن نفتقر إلى حياة داخلية حقيقية، ونريد أن نعيش حياة أخرى متخيلة في أفكار الآخرين، ونجبر أنفسنا على الحياة بما لسنا عليه حقًّا. نحن لا نتوقف

عن السعي صوب تزيين هذا المخلوق المُتخيَّل، ولا نولي أي اهتمام بما نحن عليه حقًّا. نحن أرواح ميتة أرادت أن تحكي عن فضائلها وصدقت نفسها حتى لا تتوقف هذه الفضائل عن كونها مجرد فضائل لدينا، بل يتكون مخلوق وهمي تمامًا في خيال الآخرين.

-٤-

كي نقنع الناس أن لدينا فضائل حقيقية نحن على استعداد حتى للتخلي عنها. نحن على استعداد لنصبح جبناء إن ساعدنا ذلك على أن نبدو شجعانًا.

-٥-

أحد أخطر التعبيرات وأكثرها ضررًا: «الجميع هكذا».

-٦-

يقوم الناس بكثير من الشرور لإرضاء شهواتهم، والأكثر منها يقوم بها الناس من أجل الحصول على مديح الآخرين.

-٧-

عندما يكون من الصعب -بل وحتى من المستحيل- فهم الطريقة التي يتصرف بها إنسان ما، فكُن على ثقة أن السبب في تصرفه هذا هو الرغبة في المديح البشري.

-٨-

عندما يهدهدون الطفل، فلا يقومون بذلك من أجل تخليصه من سبب صراخه، بل حتى لا يعود بإمكانه أن يصرخ. هكذا نفعل مع ضمائرنا عندما نُسكِّن منه حتى نرضي الناس. نحن لا نرضي ضميرنا، لكننا نحاول أن نصل إلى مرادنا، وهو ألا نستمع إليه.

-٩-

(لا تُبال بكمٍّ المعجبين بك، بل بمحتوى إعجابهم. يبدو أنه ليس حسنًا أَلّا يعجب بنا الصالحون، ولكن عدم إعجاب غير الصالحين بنا أمر حسن).

«سينيكا».

-١٠-

(أكثر ما يكلفنا هو محاولتنا أن نصبح مثل الآخرين. نحن لا ننفق كل ذلك من أجل عقولنا أو قلوبنا).

«إمرسون».

-١١-

في كل الأفعال الصالحة هناك دائمًا جزء من الرغبة في نيل موافقة الآخرين. ولكن المصيبة أن يصبح مديح الناس هو السبب الوحيد لأفعالك.

-١٢-

سأل أحد الناس إنسانًا آخر عن السبب الذي يقوم من أجله بفعل ما يحب.

لأنه هكذا يفعل الجميع.

ولكن لنفترض أن الناس ليسوا جميعًا يفعلون ذلك، لأني أنا شخصيًّا لا أفعل ذلك، وهناك آخرون أيضًا لا يفعلون ذلك.

لا أقول الجميع، ولكن معظم الناس.

قل لي من فضلك مَن الأكثر عددًا: الأذكياء أم الأغبياء؟

الأغبياء قطعًا.

ألا يعني قولك أنك تقوم بما يقوم به غالبية الناس أنك بهذا تحاكي الأغبياء؟

-١٣-

يمكن للإنسان أن يألف بسهولة أكثر أنواع الحياة شرًّا، إن كان كل مَن حوله يحيون بهذه الطريقة.

اتفاق رأي عدد كبير من الناس على شيءٍ لا يعني صحته:

-١-

ما هو شرير لا يتوقف عن كونه شريرًا بسبب أن عددًا كبيرًا من الناس يقومون به، وحتى إن امتدحوه.

-٢-

كلما ازداد اتفاق الناس بشأن أمر ما، كلما وجب أن يزداد حذرك من هذه القناعة وتفحصها بمزيد من التمعن.

-٣-

(عندما يقولون: علينا أن نفعل كما يفعل الآخرون، فهذا دائمًا ما يعني أنه علينا أن نفعل أمرًا شريرًا).

«لابروبير»[٩٣].

-٤-

لقد ألفنا أن نقوم بما يطلبه منا الجميع دون أن ننظر إلى الخلف. هكذا نقوم بأفعال شريرة ونظنها صالحة.

-٥-

لو أدركنا فقط سبب مدح الناس لنا، وكذلك توبيخهم، لتوقفنا عن السعي

(٩٣) جان دي لابروبير، أديب وكاتب فرنسي، وُلد في باريس في ١٦ أغسطس عام ١٦٤٥.

لنيل مديحهم، والخوف من توبيخهم.

-٦-

للإنسان محكمته الخاصة: الضمير. عليه أن يخشى من حكمه.

-٧-

ابحث عن أفضل البشر بين أولئك الذين يدينهم العالم.

-٨-

(إن كرهت الجموع إنسانًا ما، فعلينا قبل أن نتوصل لحكم صحيح بشأنه أن نعرف سبب كراهيتهم له. وإن شعرت الجموع بالإعجاب بشخصٍ ما علينا قبل أن نصدر حكمًا صحيحًا أن نعرف سبب ذلك أيضًا).

«كونفوشيوس».

-٩-

لا يمكن لكل هؤلاء الأشرار أن يفسدوا حياتنا بقدر ما يمكن لهذا الجمع غير العاقل الذي يجرفنا معه في طريقه كالتيار.

العواقب القاتلة للغرور:

-١-

(يقول المجتمع للإنسان: «فكِّر كما نفكر، واعتقد فيما نعتقده. كُل واشرب ما نأكله ونشربه، وارتدِ كما نرتدي». ومَن لا يستسلم لهذه المتطلبات يعذبه المجتمع بالازدراء والتشهير والسباب. من الصعب عدم الخضوع للمجتمع، ولكنك عندما تخضع له يزداد حالك سوءًا؛ لأن خضوعك له يجعلك عبدًا لا حرًّا).

«لوسي مالوري»[٩٤].

(٩٤) ١٨٤٦- ١٩٢٠: صحفي أمريكي.

-٢-

(من الحسن أن ينشغلوا بالتعاليم الروحية الخاصة بأرواحهم؛ كي يزدادوا ذكاءً وفضيلةً. مثل هذا التعليم مفيد لأرواحهم. أما حينما يتعلم الناس من أجل نيل مديح الناس، حتى يبدوا في صورة العلماء، فمثل هذا العلم لا يفيدهم، لكنه يضرهم، ولا يجعلهم أكثر ذكاءً وفضيلة مما كانوا دون أن يتعلموه).

«حكمة صينية».

-٣-

لا يجب ألا تمدحوا أنفسكم فقط، بل لا تسمحوا للناس أن يمدحوكم. إن المديح يدمر روح الإنسان؛ لأنه يُحوِّل الاهتمام من روح الإنسان إلى مديح الناس.

-٤-

كثيرًا ما نرى إنسانًا صالحًا ذكيًا صادقًا، ومع أنه يدرك أن الحرب وتناول اللحوم وامتلاك الأراضي والمحاكم، وما إلى ذلك أمور شريرة، يواصل فعلها بهدوء. فما السبب؟ السبب هو أن كل إنسان يُثمِّن آراء الناس أكثر من صوت ضميره.

-٥-

الاهتمام بآراء الناس من شأنه وحده أن يفسر لنا أكثر تصرفات الناس ألفة وإثارة للعجب في الحين ذاته: الكذب. يعرف الإنسان شيئًا ما، لكنه يقول عكسه، فما السبب في ذلك؟ ما من تفسير سوى أنه يعتقد أنه إن قال الحقيقة لن يمتدحه الناس، وإن كذب سيمتدحونه.

-٦-

عدم احترام التقاليد لم يُؤَدِّ إلى جزءٍ من الألف من هذا الشر الذي ينشأ

بسبب احترام التقاليد والقوانين والمؤسسات القديمة. لم يَعُد الناس منذ زمن بعيد يصدقون هذه العادات والقوانين والمؤسسات القديمة، ورغم ذلك يخضعون لها؛ لأن كل واحد منهم يقول في نفسه إن غالبية الآخرين سوف يدينونه إن توقف عن الامتثال لها. وفي حين أن غالبية الناس لم يعودوا يصدقونها منذ زمن طويل، يخشى كل منهم أن يصبح أول مَن يرفض الامتثال لها.

الحرب ضد إغواء الغرور:

-١-

في الفترة الأولى من حياتنا؛ أي في الطفولة يعيش الإنسان من أجل جسده: يأكل- يشرب- يلعب- يمرح. هذه هي الدرجة الأولى، وكلما بدأ في النمو، كلما بدأ في التعلق أكثر فأكثر بآراء الناس الذين يعيش وسطهم، ويتناسى متطلبات جسده في سبيل ذلك: يتناسى الطعام والشراب واللعب واللهو. هذه هي الدرجة الثانية. الدرجة الثالثة والأخيرة هي أن يمتثل الإنسان كاملًا لمتطلبات روحه، وفي سبيلها يتناسى متطلبات جسده ومديح الناس على السواء.

-٢-

في البداية يكون الغرور أكثر الوسائل فظاظةً ضد الشهوات الحيوانية، ولكن الأمر يتطلب بعد ذلك أن يتم علاج المرء من الدواء ذاته، والعلاج واحد؛ ألا وهو الحياة من أجل الروح.

-٣-

يبدو من الصعب للمرء أن يتخلى عن عادات سائدة، ورغم ذلك تصطدم

كل خطوة يخطوها صوب الأفضل بعوائق العادات السائدة، وتحمل إدانة الناس. وعلى الشخص الذي يعتقد في إمكانية تحسين ذاته أن يكون مستعدًّا لذلك.

-٤-

ليس حسنًا أن نُضايق الناس بالتخلى عن العادات السائدة، ولكن الأسوأ أن نتخلى عن متطلبات الضمير والعقل بالانغماس في عادات الناس السائدة.

-٥-

قبل أن تسخر من ذلك الجالس في صمت، اسخر من ذاك الذي يتحدث كثيرًا، فما من أحد على الأرض لم يُدِنْ ذلك الذي يتحدث قليلًا. لم يحدث أبدًا ولن يحدث أن يكون هناك شخص مدان دائمًا من الجميع، مثلما لا يحدث أن يحصل شخص على مديح جميع الناس. لذلك فلا يجب أن يهتم المرء لا بمديح الناس ولا بإداناتهم.

-٦-

أهم شيءٍ بالنسبة للإنسان هو أن يفهم ذاته؛ لأن تبعًا لذلك إما سيكون سعيدًا أو إما تعيسًا، ولا يهم على الإطلاق كيف سيفهمك الآخرون، لذا لا تفكر في انتقادات الناس، بل فكر فقط كيف يمكنك أن تتجنب إضعاف حياتك الروحية، وتعمل على تقويتها.

-٧-

تخشى أن يحتقروك لتواضعك، ولكنَّ العادلين من الناس لا يمكنهم أن يحتقروك لأجل ذلك، أما الآخرون فلا يشغلهم أمرك، لذا فلا تشغل بالك بانتقاداتهم. لا تتحول من أجلهم إلى نجار ماهر، يشعر بالإحباط من أن إنسانًا

لا يفهم شيئًا في النجارة لا يستحسن عمله.

-٨-

(مَن يحتقرونك من أجل تواضعك، لا يفهمون على الإطلاق أهمية الفضيلة للإنسان، فما الذي يهمك إذنْ في أحكامهم؟).

«إبيكتيتوس».

-٩-

(حان الوقت كي يدرك الإنسان قيمة نفسه. فواقعيًّا ماذا يعني أن يكون الإنسان مولودًا غير شرعي مثلًا؟ حان الوقت كي يتوقف عن النظر حوله بخجل. «هل هذا يُرضي الناس أم لا؟» لا... ارفع رأسك بثبات وقوة على كتفيك. إن حياتي قد مُنِحت لي لا من أجل العرض، بل لأجل أن أحياها. إني أدرك أنه عليَّ أن أعيش لأجل روحي، لذا فلن أهتم من الآن وصاعدًا بآراء الناس، بل بحياتي، وبحقيقة هل أقوم بدوري ووظيفتي في الحياة أم لا... ذلك الدور الذي أرسلت لأجله إلى هذه الحياة).

«إمرسون».

-١٠-

كل إنسان قد ترك العنان لشهواته البهيمية منذ الشباب لا يتوقف عن الانغماس فيها بغض النظر عن أن ضميره يطلب منه شيئًا مغايرًا. إنه يسلك بهذه الطريقة؛ لأن الآخرين يتصرفون بتلك الطريقة أيضًا، وهم يفعلون ذلك للسبب نفسه أيضًا. ثمَّ مخرج وحيد من هذا المأزق: أن يحرر كل إنسان نفسه من الاهتمام بآراء الناس.

-١١-

ذات يوم شاهد رجل كهل رؤيةً. رأى ملاكًا يهبط من السماء يمسك

إكليلًا زاهيًا في يده، وينظر من حوله ويبحث عمن سوف يمنحه هذا الإكليل. ابتهج قلب الرجل الكهل، وقال للملاك: «ما سبب استحقاقي لهذا الإكليل الزاهي؟»، فأجيب الملاك: «انظر هنا». يلتفت فيجد الملاك يشير بإصبعه صوب الشمال. ينظر الكهل هناك فيرى سحابة سوداء عظيمة. كانت السحابة تغطي نصف السماء وتهبط صوب الأرض. ثم تتنحى السحابة جانبًا، فتلوح للبصر جماعة عظيمة من عشائر الأثيوبيين السود تقترب من الكهل. يقف من خلفهم جميعًا ذاك الأثيوبي الرهيب العظيم وقدماه الهائلتان تخطوان على الأرض، وهو ذو رأس أشعث وعينين رهيبتين وشفتين حمراوين في قلب السماء. «صارعهم وانتصر عليهم، وسأضع الإكليل على رأسك». ارتعب الكهل حينما سمع ذلك من الملاك، وقال: «يمكنني أن أقاتلهم وأنتصر عليهم جميعًا عدا ذلك الأثيوبي الرهيب الذي تستند قدماه على الأرض ورأسه معلقة في السماء... لا يمكن لإنسان أن يهزمه». قال الملاك: «أنت غير عاقل. كل هؤلاء الأثيوبيين الذين لا تود قتالهم بسبب خوفك من هذا الأثيوبي العظيم هم خطايا الناس الصغيرة، ومن الممكن التغلب عليها، أما هذا الأثيوبي العظيم فهو مديح الناس الذي يعيش الخطاة من أجله. لا ضرورة للقتال ضد هذا الأثيوبي الرهيب... هذا هراء. قاتل ذنوبك الصغيرة وستجده قد تلاشى من تلقاء نفسه».

فلتهتم بروحك لا كبريائك:

-١-

(أسرع الوسائل وأكثرها فاعلية لنشر الفضيلة بين الناس لا تكمن في أن تبدو كذلك أمامِ الناس، بل في أن تعمل على نفسك كي تصبح فاضلًا).

«من محاورات سقراط».

-٢-

(إجبار الناس على أن يعتبرونا صالحين أصعب بكثير جدًّا من أن نصبح كذلك فعلًا).

«ليشتنبرج».

-٣-

مَن لا يفكر بنفسه، لا بد وأن يخضع لأفكار إنسان آخر. والخضوع لفكر إنسان آخر هو نوع من العبودية الأكثر إذلالًا من الخضوع بالجسد لإنسان آخر. فكِّر بنفسك ولا تبالِ بما سيقوله الناس عنك.

-٤-

إن أبديت اهتمامًا برأي الناس وقبولهم، فلن تصل أبدًا إلى شيء؛ لأن كل إنسان ورأيه. عليك أن تحسم أمرك بنفسك. هذا هو المختصر المفيد.

-٥-

كي تظهر أمام الناس، فإما أن تمدحهم أو تسبهم. إن مدحتهم، فلن يثق الناس بك. وإن أدنتهم بقسوة، فسيعتقدون أنك أسوأ مما تقوله عنهم. لذا فأفضل شيء ألَّا تقول شيئًا، وأن تهتم فقط بما يمليه عليك ضميرك، وتهمل رأي الناس.

-٦-

(لا أحد يبدي هذا الاحترام وذلك الالتزام بالفضيلة مثل ذلك الذي يفقد عن عمدٍ سمعة وكرامة رجل صالح من أجل نقاء روحه فقط).

«سينيكا».

-٧-

عندما يتعود الإنسان على الحياة فقط من أجل مديح الناس، سيبدو له من الصعب جدًّا أَلَّا يفعل ما يفعله الناس جميعًا، وسيصبح إنسانًا فظًّا بربريًّا أو شريرًا تمامًا. لكن على الإنسان أن يقوم بكل ما هو صعب، وعليه أن يقوم بذلك من جانبين: الأول- أن يتعلم ازدراء أحكام الناس، والثاني- أن يتعلم أن يعيش ليفعل هذه الأفعال التي من الحسن أن يفعلها رغم إدانة الناس لها.

-٨-

(يجب أن أسلك كما أعتقد، لا كما يعتقد الآخرون. إنها قاعدة لازمة للحياة العقلية في كل يوم. إنها قاعدة صعبة؛ لأنك ستلتقي دائمًا بأناس يعتقدون أنهم يعرفون واجباتهم بصورة أفضل منك. من السهل أن تعيش متسقًا مع الرأي العام، وأن تفعل ما يحلو لك عندما تكون بمفردك، ولكن طوبى لهذا الإنسان الذي يعيش بين الناس كما قد قرَّر وهو وحيد كيف لا بد له أن يعيش).

«إمرسون».

-٩-

يعيش الجميع إما طبقًا لأفكارهم أو طبقًا لأفكار الآخرين، وفي هذا يكمن الفارق الرئيس بين الناس.

-١٠-

قد يبدون مدهشين أولئك مَن يعيشون لأجل خيرهم الشخصي لا لخير الناس، ومَن يعيشون من أجل أن يمتدحهم الناس. وكم هم قليلون أولئك الذين لا يُقدِّرون آراء ناس غريبة أكثر مما يرونه في صالحهم وصالح الآخرين أيضًا!

-١١-

لن يحدث أبدًا أن يمدح الجميع إنسانًا واحدًا. إن كان صالحًا سيجده الأشرار إنسانًا سيئًا، وسيسخرون منه. وإن كان شريرًا، فلن يشعر الصالحون نحوه بالإعجاب. كي يتمكن الإنسان من الحصول على ثناء الجميع عليه أن يتصنع الفضيلة أمام الفاضلين، ويتصرف بالشر أمام الأشرار. ولكن حينها سيبدو منافقًا وسيشعر البعض نحوه بالازدراء. ثمَّ مخرج واحد من هذه المشكلة: أن تصبح فاضلًا وألَّا تبالي بآراء الناس، ولا تبحث عن المكافآة عن سلوكك من الناس، بل ابحث عنها في نفسك.

-١٢-

)لَيْسَ أَحَدٌ يَجْعَلُ رُقْعَةً مِنْ قِطْعَةٍ جَدِيدَةٍ عَلَى ثَوْبٍ عَتِيقٍ؛ لأَنَّ الْمِلْءَ يَأْخُذُ مِنَ الثَّوْبِ، فَيَصِيرُ الْخَرْقُ أَرْدَأَ. وَلاَ يَجْعَلُونَ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاق عَتِيقَةٍ؛ لِئَلَّا تَنْشَقَّ الزِّقَاقُ، فَالْخَمْرُ تَنْصَبُّ وَالزِّقَاقُ تَتْلَفُ. بَلْ يَجْعَلُونَ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاق جَدِيدَةٍ فَتُحْفَظُ جَمِيعًا). «متى ٩: ١٦- ١٧».

هذا يعني أنه كي تبدأ في حياة أفضل، وتحسن حياتك أكثر فأكثر -ففي هذا معنى حياتك- من المستحيل أن تُبقي على عاداتك السالفة، فعليك أن تكتسب عادات جديدة. من المستحيل أن تقوم بما يعتبره الناس حسنًا، بل عليك أن تكتسب عادات جديدة وألَّا تهتم بما يعتبره الناس حسنًا أو سيئًا.

-١٣-

من الصعب تبين هل تخدم الناس، أو تخدم روحك أو الله، أو أنك تسعى خلف مديح الناس. ثمة علامة واحدة يمكنك بها التحقق من الأمر: إن كنت تقوم بعمل تعتقد أنه صالح، اسأل نفسك: هل كنت ستفعله إن علمت سلفًا أن أحدًا لن يعرف عنه. إن كانت الإجابة أنك كنت ستقوم به بغض النظر عن

أي شيء، فحينها يمكنك أن تثق تمامًا أن ما تفعله هو من أجل الروح... من أجل الله.

مَن يحيا حياة حقيقية لا يشعر بالحاجة إلى مديح الناس:

-١-

قال حكيم ذات يوم: «عِش وحيدًا». هذا يعني أن تقرر شؤون حياتك مع نفسك... مع الله الذي يعيش في داخلك، لا طبقًا لآراء وأحكام الناس.

-٢-

خدمة الله أفضل من خدمة الناس؛ لأنك تريد بشكل غريزي أن تبدو في أفضل صورة ممكنة أمام الناس، وتشعر بالإحباط عندما يعاملونك بالشر. أما أمام الله؛ فما من شيء من هذا القبيل. إنه يعرفك، ولا يمكن لأحد أن يمتدحك أو يذمك أمامه، لذا فأمامه أنت لست في حاجة لشيء سوى أن تكون صالحًا.

-٣-

إن أردت أن تنعم بالهدوء، فاحرص على أن تُرضي الله، لا الناس. الناس مختلفون؛ لذا فهم يريدون أشياءً مختلفة. اليوم يريدون شيئًا، وغدًا يريدون آخر، ولن يمكنك أبدًا أن ترضيهم، أما الله الذي يعيش في داخلك فيريد دائمًا شيئًا واحدًا، وأنت تعلم مراده.

-٤-

على الإنسان أن يخدم واحدًا من الاثنين: الروح أو الجسد. إن أراد أن يخدم الروح، فعليه أن يناضل ضد الخطية. وإن أراد خدمة الجسد، فهو ليس في حاجة للنضال ضد الخطية، بل هو في حاجة فقط لفعل ما هو مقبول من الجميع.

-٥-

(ثمة وسيلة واحدة تجعلك لا تؤمن تمامًا بالله: الاعتقاد دائمًا بصواب آراء الناس، وعدم الالتفات نهائيًّا إلى صوت الإنسان الداخلي).

«جون راسكن».

-٦-

(إن جلسنا داخل مركبة متحركة ونظرنا إلى أي شيء داخل المركبة، فلن نلاحظ أننا نسبح داخل البحر، ولكن إن نظرنا صوب جهة لا تتحرك معنا -إلى الشاطئ مثلًا-، فسنلاحظ أننا نتحرك. هكذا الأمر أيضًا في الحياة. عندما يعيش الناس جميعًا لا كما ينبغي، فلا نلاحظ ذلك، ولكن عندما يعيش إنسانٌ واحدٌ كما يحق لله، حينها يبدو من الواضح كيف يعيش الآخرون حياة شريرة.

لذا دائمًا ما يطردون الذي يعيش بطريقة مغايرة للحياة التي يعيشونها).

«باسكال».

-٧-

علينا أن نُعوِّد أنفسنا على عدم التفكير في آراء الناس وعلى عدم الرغبة في نيل حب الناس، بل نعيش فقط من أجل تنفيذ قانون حياتنا، أي قانون الله. في هذه الوحدة، وفي الحياة مع الله الواحد لا تظهر أي رغبة في فعل الأفعال الصالحة من أجل مديح الناس، فذاك الذي يعيش من أجل مديح الناس، لا يحصل أبدًا لروحه على هذه الحرية وذاك الهدوء، ولا على هذا الإدراك الدائم والصلب لصحة الطريق السالك فيه.

* * *

خرافة الدولة

ملامح كذب وخداع فكرة الدولة:

-١-

إن أكذوبة فكرة الدولة تتألف في الأساس من اعتراف المرء باتحاده بشعب واحد، ودولة واحدة، وأناس معينين منفصلين عن بقية الشعوب وبقية الدول. يعذب الناس بعضهم البعض ويقتلون ويسرقون بسبب هذه الكذبة السافرة. حينما يتحرر الإنسان منها، سيعترف بجوهر الحياة الروحية داخل نفسه. وعندما يعترف الإنسان بذلك، فهذه هي الخطوة الأولى لعدم الاعتراف بالمؤسسات الإنسانية التي تفصل الناس عن الله.

-٢-

(حب الفضيلة أمر عقلاني، وكذلك احترام المآثر والاعتراف بالخير، فلماذا إذنْ لم نحققها، بل ولماذا نُحرم من الشعور بالراحة بتحقيقها لِـمَن نحبهم ولِـمَن نعتقد أنهم يستحقون كل ذلك؟ يحدث ذلك على المنوال التالي: إن وجد سكان بلدٍ ما شخصًا ما بدا لهم أكثرهم حكمة كي يحميهم، وأكثرهم شجاعة كي يقوم بالدفاع عنهم، وأعظمهم حذرًا كي يقوم بإرشادهم. «وإن حدث أنهم قد تعودوا بسبب ذلك على أن يطيعوه بتحقيق بعض المصالح له فإني لا أعتقد أن الأمر غير عقلاني». يا إلهي! وماذا نطلق على هذا عندما نرى عددًا كبيرًا من الناس، لا يمتثلون فقط لإنسان، بل يخدمونه؟

لا يخضعون له فقط، بل يستعبدون أنفسهم لإنسان واحد أو لمجموعة من البشر كما لو أنهم ليس لديهم شيء آخر ملكهم: لا ملكيات ولا أطفال ولا أُسر، ثم يحتملون الرقة والقسوة، ليس بسبب العسكر، ولا من اللصوص، ولكن بسبب إنسان واحد... هذا الإنسان ليس هرقل ولا شمشون، لكنه واحد من أدنى البشر أخلاقيًا، فماذا نطلق على ذلك؟ أنقول أننا جبناء؟ إن كان هناك شخصان أو ثلاثة أو أربعة لم يدافعوا عن شخص واحد، لقلنا إن هذا أمر مريع، لكنه ممكن، وكان من الممكن أن نقول إن هذا بسبب نقص المروءة والشهامة، ولكن إن كان مائة ألف شخص... مائة ألف فلاح... مليون فلاح، لم يهجموا على هذه الزمرة قليلة العدد التي يعاني منها الجميع، وهم جميعًا عبيد لهم، أليست إذنْ ظاهرة مدهشة؟ ومع أن هذه الظاهرة تحدث في كل مكان ومع كافة البشر في كل يوم، وتتسلط زمرة قليلة العدد من الناس على مئات الألوف من الفلاحين ويحرمونهم من حرياتهم، إلَّا أنه مَن يمكن أن يصدق ذلك إن كان قد سمع فقط عن الأمر ولم يره؟ وإن كان من الممكن رؤية ذلك في أراضٍ ومناطق غريبة وبعيدة، فمَن كان سيصدق أن هذا الوضع الملفق عادل؟! من كان سيصدق أن هذه الزمرة المحدودة من الناس الذين يتسلطون على الجميع ليسوا في حاجة لمحاربة أحد أو الدفاع عن أنفسهم، وأنهم كانوا سيهزمون دائمًا إن لم يوافق الشعب فقط على عبوديته! لسنا في حاجة إلى الاستيلاء على شيء من أحد، بل كل ما نحن في حاجة إليه ألَّا نعطيهم شيئًا، وحينها سيتحرر الشعب. هكذا يمنح شعبنا نفسه ويرهنها تحت سلطة مَن يظلمونه ويجزُّون أعناقه. هذا الشعب الذي كان من الممكن أن يصبح حرًّا، يتخلى بنفسه عن حريته، ويضع رقبته أسفل النير. الأمر لا يقتصر على أنه يترك العنان لظالميه، بل إنه يبحث عنهم. إن كان قد كلف نفسه عناء فعل أي شيء للعودة إلى حريته -وهي أغلى الحقوق الطبيعية للإنسان، وهي

ما تميزه عن الحيوان-، لكنت قد فهمت أنه فضل أمنه والحياة الهادئة على الصراع من أجل حريته، ولكن إن كان لا يلزمه للحصول على حريته سوى الرغبة فيها، فمن المستحيل وجود شعب في العالم يعتبرها باهظة الثمن إن كانت لن تكلفه شيئًا سوى الرغبة!

لقد قمت بالاستيلاء على معظم حِقوق الشعوب التعيسة غير العاقلة الرازحة في شرورها والتي قد عمت أبصارها عن رؤية الخير، وحطمت إرادة أفرادها ومنازلهم. إنك تعيش كما لو أنك لم تفعل ذلك، سامحًا لنفسك أن تخمد صوت ضميرك، وقد وافقت على أن تصبح قاتلًا. وكل هذه المصائب والبلايا لا تحدث بسبب العدو الذي صنعتموه أنتم، فمن أين كان العدو سيحظى بسلطة عليكم إن لم تكونوا أنتم مَن منحتموه إياها؟ ماذا يمكن أن يصنع بكم إن لم تكونوا قد عملتهم كخدم ومعاونين له وهو مَن يسرقكم، وعاونتم القاتل الذي يقتلكم وخنتم أنفسكم؟ إنكم تحصدون ما زرعتموه.. إنه يدمر محاصيلكم، وأنتم تفتحون بيوتكم من أجل أن يسرقكم، وتنشئون أطفالكم بحيث يستخدمهم في حروبه، ويستغلهم من أجل إشباع شهواته وإرضاء الانتقام الذي بداخله. يمكنكم التحرر من هذه البلايا التي لا يستطيع حتى الحيوان أن يتحملها، وإن أردتم فلا تتحرروا، ولكن اشعروا على الأقل بالرغبة في الحرية. أنا لا أريدكم أن تهجموا على هذا العدو، ولكن توقفوا فقط عن دعمه، وسترون أنه سيتحطم كتمثال ضخم قد أزلنا قاعدته فتحطم عن بكرة أبيه).

«إتين دي لابويسيه»(٩٥).

---

(٩٥) أتين دي لابويسيه: كاتب وقاض فرنسي، وموجد النظرية الفوضوية، ومؤسس الفلسفة السياسية الحديثة في فرنسا، وهو أعظم صديق وثيق لكاتب المقالات البارز ميشيل دي مونتين، في واحدة من أبرز الصداقات في التاريخ، وهو صاحب الكتاب الشهير: رسالة في العبودية الطوعية.

-٣-

(عندما تنظر بانتباه إلى ما يشغل الناس حقًّا، فلا يمكن ألَّا تندهش كيف يمكن لهذا العدد الكبير من الناس أن يهدروا حيواتهم من أجل دوام مملكة الشر، وكيف يُدعَّم هذا الشر بحقيقة وجود دول وحكومات منفصلة. وستزداد دهشتك، وكذلك سيزداد حزنك عندما تفكر في أنه ليس من الضروري أن يقوم هؤلاء الطيبون بارتكاب هذا الشر ضد أنفسهم، بسبب حماقتهم فقط بسماحهم لزمرة قليلة من المنحرفين البارعين بالتسلط عليهم).

«باتريس لاروك».

-٤-

نحن نجني ثمار الثقافة والحضارة، لا ثمار الأخلاقية. يمكن أن نقول عن الظروف الحالية التي يعيش فيها البشر: إن رخاء الدولة ينمو باتساق مع تعاسة البشر. ولا يستطيع المرء ألَّا يطرح على نفسه سؤالًا: ألم نكن سعداء في الحالة البدائية عندما لم تكن لدينا هذه الثقافة ولا الحضارة أكثر من الآن؟

(من المستحيل أن تُسعد الناس، ما لم تجعلهم أخلاقيين).

«كانط».

-٥-

تقول الحكومات: «أشعر بالأسف الشديد على ضرورة أن أقوم بالاستيلاء على العمل وسجن الناس والنفي والأشغال الشاقة والإعدام والحرب التي تعني مجزرة جماعية، لكني مضطرة لذلك؛ لأن هذا أكثر ما يطلبه مني أولئك الذين منحوني السلطة». ويقول المحكومون: «إن استوليت على ملكيات الناس، وانتزعتهم من أسرهم وحبستهم ونفيتهم وأعدمتهم، وإن قتلت أفراد شعب غريب، وذبحتهم وأطلقت الرصاص في صدور النساء والأطفال، فإني

لا أفعل ذلك لأني أريده، بل لأني أنفذ أوامر السلطة التي تعهدت بالخضوع لها من أجل خير المجتمع».

في هذا تكمن ضلالة الدولة. مثل هذه الضلالة العميقة المجنونة لا يمكنها أن تبرر بأي حال من الأحوال سلطة مئات من الناس على الملايين، والتي تحرمهم من حرياتهم الحقيقية. لا يمكن لإنسان يعيش في كندا أو كانساس.. في بوهيميا أو روسيا الصغرى أو نورماندي أن يكون حرًّا طالما يعتبر نفسه -ويفتخر بذلك أيضًا- مواطنًا بريطانيًّا أو أمريكيًّا شماليًّا أو نمساويًّا أو روسيًّا أو فرنسيًّا. لا يمكن لحكومة مهمتها تتلخص في الحفاظ على هذه الاستقلالية العبثية غير الممكنة في صورة روسيا أو بريطانيا أو ألمانيا أو فرنسا، أن تمنح مواطنيها حرية حقيقية لا تشبهها، مثلما يحدث في كافة الدساتير الخبيثة والملكيات والجمهوريات أو حتى الديموقراطيات. السبب الرئيس -إن لم يكن الوحيد لغياب الحرية- هو ذلك التعليم الزائف عن ضرورة الدولة. صحيح أن الناس في غياب الدولة يمكن أن يُحرَموا أيضًا من حرياتهم، ولكن في وجود الدولة لا يمكنهم أبدًا أن يحصلوا على حرياتهم.

عهد المالك نفسه بالعمل إلى العامل، ثم فجأة يظهر إنسان غريب ويأمره بأن يترك عمل المالك تمامًا، ويقوم بعمل آخر مناقض له تمامًا، بل ويمكن أن يفسده. من غير الممكن إلَّا إن كان العامل مجنونًا فيعلم أنه تحت سلطان سيده تمامًا، وأن سيده يمكنه أن يستدعيه في أي لحظة، ويوافق على القيام بما يناقض إرادة سيده، ويقوم بما أمره به هذا السيد الغريب.

هذا ما يفعله كل مسيحي عندما ينفذ أمر أي مسؤول أو محافظ أو وزير أو قيصر، ويقوم بما يناقض تمامًا ضميره وقانون الله، فينتزع من الفقراء ما لديهم

ويحاكم ويعدم ويقاتل. لماذا يفعل كل ذلك؟ لأنه يثق في التعليم الزائف عن ضرورة الدولة.

-٧-

من الممكن أن نفهم لماذا يؤكد القياصرة والوزراء والأغنياء لأنفسهم وللآخرين أنه من المستحيل أن يعيش الناس من دون دولة. ولكن لماذا يساند الفقراء الدولة، وهي لا تمنحهم شيئًا، بل تقوم فقط بتعذيبهم؟ السبب الوحيد أنهم يصدقون التعليم الزائف عن ضرورة الدولة.

-٨-

مبعث الضرر في التعليم الزائف عن ضرورة الدولة يكمن في أنه يضلل الناس بمنحهم الكذب على أنه الحقيقة، ولكن أكثر ما يضر فيه أنه يُعوِّد الأخيار أن يقوموا بما يناقض ضمائرهم وقانون الله: أن يُجرِّدوا الفقراء مما لديهم ويحاكمون ويعدمون ويغزون ويظنون أن كل هذه الأعمال ليست شريرة.

-٩-

«الطغيان والإعدام يحيطان بكافة أوربا، وكذلك الأوضاع الظالمة للعمال، والحروب... جميعها بلايا، ومن يدينون أفعال الحكومات هم على حق. ولكن البشر يقولون: «وكيف نعيش دون حكومات؟ فماذا لدينا سوى معارفنا البسيطة المحدودة، وما الحق الذي لدينا كي ندمر هذا النظام القائم لمجرد أننا نعتقد أن هذا هو الأفضل، وهو النظام الذي مكَّن أسلافنا من الوصول إلى حضارة سامية مع التمتع بكل خيراتها؟ علينا أن نوفر بديلًا للدولة إن قضينا عليها. إن لم يكن هناك بديل فنحن نخاطر بوقوع بلايا مريعة ستظهر لا محالة إن دمرنا الدولة».

ويجيب التعليم المسيحي بمعناه الحقيقي على هذا التعليم الزائف.

يجيب التعليم المسيحي بطرح سؤال مختلف تمامًا، وأكثر أهمية لحياة كل فرد. لا يرى التعليم المسيحي وجوب تدمير أي نظام كان موجودًا سلفًا على الأرض، بل إنه يختلف عن أي تعليم اجتماعي آخر في أنه لا يتحدث عن نمط معين يجب أن ينتظم فيه المجتمع؛ بل يتحدث عن مكمن الشر ومكمن الخير الحقيقي لكل إنسان وللبشرية بأكملها. والطريق إلى ذلك الخير الحقيقي واضح إلى حد كبير، ومقنع وما من شكوك حوله، حتى إن الإنسان يدركه على الفور ويعرف مكمن الشر والخير، ولا يستطيع أن يقوم عن عمد بما يراه شرًّا، أو أن يمتنع عن فعل ما يراه خيرًا لحياته، تمامًا مثلما لا يمكن للمياه ألا تتدفق لأسفل ولا يمكن لنبات ألا يسعى صوب الضوء.

يتلخص التعليم المسيحي بأكمله في أن خير الإنسان في تنفيذ إرادة مَن أرسله إلى هذا العالم، والشر في خرق هذا القانون. وما تتطلبه إرادة الله من الإنسان أمور بسيطة وواضحة جدًّا من المستحيل ألَّا يفهمها إنسان أو يؤولها بشكل خاطئ. إنها تتطلب منه أن يعامل الآخرين كما يود أن يعاملوه. إن كنت لا تريد أن يجبرك أحد على العمل في المصنع أو منجم الفحم لعشر ساعات يوميًّا، وإن كنت لا تريد لأحد أن يرتكب العنف ضدك ويقتلك، فلا تشارك إذنْ في تلك الأعمال. الأمر بسيط جدًّا وواضح ولا شك فيه، حتى إنه لا يمكن لأصغر طفل ألا يفهمه، ولا يمكن لأمهر السفسطائيين أن يؤوله بطريقة أخرى. لذا فالمسيحي لا يتساءل عن نوع النظام الواجب توفره، وكذلك نوع نشاط البشر المفترض وجوده.

-١٠-

يرى الناس جميعًا شرورًا عظيمة تنتج عن الدولة بمحاكمها وإعداماتها، وكي نتحرر من هذا الشر علينا فقط ألَّا ندعم الدولة في أعمالها الشريرة، فلماذا إذنْ لا يحرر الناس أنفسهم من شر الدولة؟ هل السبب هو التعليم الزائف عن

ضرورة الدولة؟ إذنْ فما من فكاك من التعليم الزائف سوى بالحقيقة.

خرافة عدم المساواة تميِّز الحكَّام كأفراد مصطفين عن بقية جموع الشعب:

-١-

تعوَّد الناس في أيامنا هذه أنه ثمة أفعال معينة من بين كافة الأفعال التي يقومون بها محرمة عليهم، وأفعال أخرى عليهم أن يقوموا بها بالأمر المباشر، كما لو أن ذلك ليس صعبًا عليهم، وأنهم إن قاموا بما هو محرم عليهم، ولم يقوموا بما قد أُمِروا بفعله سوف يعاقبون، وهو أمر سيئ طبعًا بالنسبة إليهم. تعوَّد الناس على عدم التساؤل عن هوية مَن يمنعونهم عن أفعال معينة ويعاقبونهم بالعنف إن لم يمتثلوا صاغرين لكل ما يطلبونه منهم.

يبدو للناس أن مَن يأمرونهم ليسوا أناسًا عاديين، بل مخلوقات خاصة، يطلقون عليها الرؤساء والحكومات والدول. ولكن يلزم حقًّا أن يسأل المرء نفسه: مَن هذا الرئيس أو تلك الحكومة أو الدولة؟ حتى نفهم أن البسطاء من الناس يقومون بتنفيذ كافة أوامر مَن يقومون بأشد الأعمال عنفًا ضدهم هم أنفسهم.

-٢-

يقول مَن في السلطة: «إن لم تستمر سلطة الدولة، فسيتسلط عليكم من هو أكثر شرًّا مني». ولكن المسألة أن ما نخاف منه قد حدث فعلًا، فمَن يتسلط علينا الآن هم أكثر الناس شرًّا، وهذا قد حدث في الأساس بسبب سلطة الدولة. أما ماذا سيحدث إن اختفت سلطة الدولة، فهو أمر لا يمكن توقعه. في كل الأحوال إن توقف الناس الذين يرتكبون العنف ضدنا عن فعله، فلن يكون الأمر أسوأ أبدًا؛ بل أفضل.

-٣-

يلزم أن نمعن التفكير في حقيقة ما تستخدم الدولة سلطتها من أجله، وحينها سنفهم أن الحكام لا بد وأن يكونوا قاسيين مجردين من الأخلاق، وبالتالي فهم في مستوى أخلاقي أدنى من المستوى العادي للناس في زماننا. ليس فقط الأخلاقي هو مَن يمكنه أن يتربع على العرش أو يكون وزيرًا أو مشرعًا ويحدد قدر دولٍ بأكملها، بل الإنسان الذي ليس لديه أي حس أخلاقي تمامًا يمكنه أيضًا أن يصبح كذلك. الإنسان الأخلاقي الفاضل عندما يعمل لدى الدولة، فإنه يتعرض لمتناقضات داخلية عديدة، كأعمال النفاق والمداهنة أو شرب الخمور أو السرقة المُقنَّعة.

-٤-

هكذا علَّم ميكيافيللي الملوك عن واجباتهم:

(ليس على الحاكم أن يتمتع بأي صفات أخلاقية حميدة، بل عليه أن يتظاهر فقط بأنه يتمتع بها. سأفسر ما أقوله: في الحقيقة يمكن لهذه الصفات الأخلاقية الحميدة أن تضر الحاكم، بينما التظاهر بأنك لديك تلك الأخلاق الحميدة التي ليست لديك في الحقيقة هو على العكس من ذلك أمر مفيد جدًّا. من المفيد جدًّا للحاكم أن تكون لديه القدرة على التظاهر بأنه إنسان رحيم أمين في كلمته محب للإنسانية متدين وصريح، فإن كان كذلك فعلًا في حقيقة الأمر، فلن يضره ذلك فقط إن كان بإمكانه أن يكشف عن الوجه المناقض تمامًا لذلك الوجه إن تطلب منه الأمر ذلك.

يمكن للجميع أن يروا أن الحاكم -خاصة عندما يكون قد وصل لتوه إلى الحكم- يستحيل عليه تمامًا أن يتصرف وفقًا للمتطلبات الأخلاقية، فكثيرًا ما يحتاج الحكام كي يساندوا نظام الدولة إلى السلوك ضد قوانين الضمير

والرحمة والإنسانية، بل وحتى ضد قوانين الدين. على الحاكم أن يحوز على قدرة مرنة في تغيير قناعاته بحسب متطلبات ظروفه، وكما ذكرت بالأعلى إن كان من المستطاع فعليه ألَّا يتحول عن الطريق الشريف، ولكن عند الضرورة يمكنه أن يلجأ إلى وسائل غير شريفة.

من المهم جدًّا للحاكم أن يتظاهر بالورع، فغالبية الناس يحكمون من حيث الظاهر، أما مَن يحكمون حكمًا عميقًا فعددهم قليل، لذا فسيمكنه خداع الكثيرين. ليس على الحاكم أن يرتدي قناعًا، فالغالبية ستحكم بحسب ما يبدو لهم، وعدد قليل جدًّا من الناس من يمكنه أن يميز الحقيقة، وحتى إن فهم هذا العدد القليل من الناس حقيقة الحاكم، فلن يمكنهم أن يفصحوا عن رأيهم المعارض لرأي الغالبية، وهكذا سيخافون من الإساءة إلى السُّلطة العليا التي للحاكم المتسلط عليهم. ولأن أفعال الحكام لن تخضع للمناقشة، فكل ما سيخضع للمناقشة فقط هو عواقب بعض الإجراءات وليست كلها، لذا فإن استطاع الحاكم فقط أن يحفظ وجوده في السلطة، فكل الوسائل التي يمكنه أن يستخدمها من أجل ذلك الغرض ستعتبر شريفة وتستحق المديح أيضًا).

-٥-

يسلب اللصوص الأغنياء، وتسلب الحكومات الفقراء، ويساعدهم الأغنياء في جرائمهم. كي يقوم السراق بسلب الأغنياء فإنهم يخاطرون بحياتهم، أما الحكومة فلا تخاطر بشيءٍ تقريبًا. لا يضم اللصوص أحدًا بالعنف إلى عصاباتهم، أما الحكومات فتجمع جنودها في أغلب الأحيان بالعنف. يُقسِّم اللصوص الجزء الأكبر من غنيمتهم بينهم بالتساوي، أما الحكومة فلا تفعل كذلك، فمَن تزدد مشاركته في عملية الخداع المنظم، تزدد حصته. اللصوص لا يُفسدون الناس عن عمد، أما الحكومات فكي تتمكن من التوصل إلى هدفها يفسدون أجيالًا من الأطفال والبالغين عن عمد بالتعاليم

الدينية والوطنية المزيفة. الأمر الرئيس هو أنه حتى أكثر السراق قسوة، لا ستينكا رازين(٩٦) ولا كارتوش يمكن مقارنتهما بقسوة ووحشية ودرجة تطور رجال الدولة على التعذيب وشرورهم من أمثال إيفان الرهيب(٩٧) ولويس الحادي عشر(٩٨)، ولا حتى رجال الحكومات الدستوريون والليبراليون الحاليون بأمرائها وسجونها الانفرادية وكتائبها المستبدة وأحكام نفيها وقمعها الوحشي لأعمال الشغب والقتل في الحروب.

-٦-

(كم هو مدهش أن يؤمن الملوك بكل هذه السهولة أن لديهم كل شيء، وبنفس السهولة يؤمن الشعب أنه ليس لديه شيء!).

«مونتسيكو»(٩٩).

-٧-

مَن يركعون على ركبهم يعتقدون أن مَن يركعون لهم أقوياء وعظماء، ولكن إن نهضوا فقط على أقدامهم سيرون أن مَن بدوا لهم عظماء بشر مثلهم تمامًا.

---

(٩٦) أحد أشهر رجال العصابات، وهو قوزاقي الأصل، سلب كثيرًا من الأغنياء وقتلهم ونصب نفسه سيدًا على استراخان وزارتسين اللتين أصبحتا فيما بعد ستالنجراد، ونصب جمهوريته هدد مرة بالاستيلاء على موسكو. وانتهى أمره بأن أُسر وعُذّب حتى مات (١٦٧١)، ولكن الفقراء حفظوا له ذكرى عزيزة تعدهم بالانتقام من الملاك والحكومة.

(٩٧) إيفان الرابع، المعروف باسم إيفان الرهيب، أمير موسكو العظيم وقيصر عموم روسيا الأول، تُوِّج أميرًا لموسكو عام ١٥٣٣، وتُوِّج كأول قياصرة روسيا في العام ١٥٤٧ وهو في السادسة عشرة من عمره، مما يجعله حاكمًا من عام ١٥٣٣ وحتى وفاته. وكان معروفًا بالفظائع التي ارتكبها وشدة سفكه للدماء.

(٩٨) لويس الحادي عشر: وُلد في ٣ يوليو ١٤٢٣، وتُوفي في ٣٠ أغسطس ١٤٨٣، حكم من ١٤٦١ إلى ١٤٨٣، كان لويس يلقب بالملك العاقل أو الحكيم أو الداهية أو الملك العنكبوت. كرس حياته بعد اعتلائه العرش لإنشاء دولة قومية جديدة، تقوم على تركيز السلطة في يده.

(٩٩) شارل لوي دي سيكوندا، المعروف باسم مونتيسكيو، فيلسوف فرنسي، وهو صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حاليًا.

-٨-

لا يكمن الشر الأكبر الذي ترتكبه الدولة في القضاء على حياة الناس؛ بل في القضاء على الحب وإيقاظ الفرقة في قلوب الناس.

الدولة تتأسس على العنف:

-١-

إحدى السمات الأساسية لكل حكومة هي أنها تبحث عن القوة لدى المواطنين الذين يشكلون أساساتها. وبهذه الطريقة يقوم كل المواطنين في الدولة بقمع بعضهم البعض. إن الحكومات تطلب العنف من مواطنيها وتساند نموه.

-٢-

تُدعَّم كافة أنظمة الحكم من قبل مسلحين مستعدين لتنفيذ إرادتها بالقوة، وتعد الناس كي يطيعوا أوامرها بقتل مَن يأمر رؤساؤها بقتله. يشكل هؤلاء الناس قوات الشرطة والجيش، والأخيرة ليست إلا عصبة منظبطة من القتلة، وتعلم العسكرية يعني تعلم القتل، وانتصار قوة عسكرية لا يعني سوى القتل. كان الجيش دائمًا ما يشكل أساس السلطة، ولا يزال كذلك، فالسلطة دائمًا في يد مَن يتسيد على الجيش، ودائمًا ما كان أكثر ما يهتم به كل الحكَّام من أيام قياصرة الرومان، وحتى زمن أباطرة الروس والألمان هو الجيش. الجيش هو الذي يمنح النظام الحاكم سلطته الخارجية قبل أي شيء آخر. الجيش هو الذي يضمن للنظام الحاكم ألَّا يستولي أحدٌ على سلطته، وما من أسباب للحروب سوى النزاع بين أنظمة حكم مختلفة على الاستيلاء على مزيد من المحكومين. وفي ضوء هذا، فإن جيوش الدول

المختلفة لا بد وأن تُزيد أعدادها، وهذه الزيادة تحدث كالعدوى كما لاحظ مونتسيكو منذ مائة وخمسين عامًا. أما مَن يعتقدون أن النظام الحاكم يؤسس الجيش فقط من أجل الدفاع عن الوطن من أي غزو خارجي، فهم يتناسون أن الجيوش لازمة للنظام الحاكم من أجل الدفاع عنه قبل كل شيء ضد مَن يقمعهم ويستعبدهم.

-٣-

(إن سكان الأرض من البشر لا يزالون رازحين تحت وطأة هذا الوضع العبثي الأحمق غير المعقول، فيقرؤون في كل يوم في الصحف أفكار الحكومات حول الحكومات الأخرى التي يجب أن يساندوها من أجل غزو شعب آخر، في حين أن الشعوب نفسها تسمح لحكامها أن يقودونها كالماشية حتى المسلخ، كما لو أن حياة كل إنسان ليست ملكًا له شخصيًّا.

إن سكان كوكبنا قد نشأوا على الاقتناع بأنه لا بد أن تكون هناك شعوب وحدود وأعلام، وأن كل ذلك شديد الأهمية لوعي الإنسانية. ومع ذلك فإن اتفق البشر على عدم رغبتهم في الحرب، لأمكن لهذا الوضع أن يتغير، ولكن الأمر الرئيس أن في كل دولة ملايين من الطفيليين الذين يريدون الحرب، ولا يمكنهم أن يواصلوا حياتهم الطفيلية دون حرب. هؤلاء الطفيليون هم الذين يعوقون البشر العاقلين عن الاتفاق عن التوقف عن المشاركة في القتل المتبادل لبعضهم البعض).

«فلاماريون»[١٠٠].

---

(١٠٠) نيكولا كميل فلاماريون: مؤلف وكاتب وعالم فلك فرنسي، وكان متعمقًا في العديد من العلوم، وقد عمل في البحث النفسي والمواضيع ذات الصلة، كما نشر عدة مقالات وروايات الخيال العلمي في مجلة علم الفلك إل عام ١٨٨٢.

-٤-

(تراكمت الديون على دول أوربا حتى بلغت ١٣٠ مليارًا، منهم ١١٠ مليار تراكمت في المائة عام الأخيرة فقط، وقد تراكمت كل هذه الديون الكبيرة بسبب الإنفاق فقط على الجيوش. في أوقات السلم تُبقي هذه الدول على أربعة ملايين من البشر في الجيوش، ويصل العدد في أوقات الحرب إلى ١٩ مليونًا. تنفق هذه الدول ثلث دخلها على قوات جيوشها البرية والبحرية. هذا ما فعلته الدول... إن لم تكن هناك دول، لما حدث شيء من ذلك).

«موليناري».

-٥-

(لا يمكن أن يكون هناك مَن هو أكثر عماءً من ذلك الذي يعتقد أنه لديه الحق في أن يقتلني؛ لأني أعيش على الضفة الأخرى من النهر، ولأن دولته في نزاع مع دولتي، رغم أني لم أفكر أبدًا في النزاع معه).

«باسكال».

-٦-

كثيرًا ما ألتقي بأناس يدينون الحروب والسجون وكل أنواع العنف، ومنهم مَن يشارك في هذه الأعمال التي يدينونها. إن الإنسان في عصرنا هذا إن أراد ألَّا يسلك بشكل لا أخلاقي عليه أن يفكر جيدًا قبل أن يشارك في مثل هذه الأعمال الكريهة. فإن أراد إنسان مثلًا أن يأكل شطيرة لحم صغيرة، عليه أن يدرك جيدًا أن هذه القطعة الصغيرة هي من لحم حيوان مقتول، كذلك الإنسان الذي يتقاضى راتبه على صناعة السلاح أو العمل في مصنع للبارود أو العمل كضابط أو في تحصيل الضرائب، لا بد أن يعلم أنه يتقاضى راتبه من أجل الاستعداد للقتل أو في انتزاع ناتج عمل الفقراء من أيديهم. إن أكبر وأشد الجرائم التي ترتكب في عصرنا ليست هي تلك التي تُرتكب أحيانًا، بل تلك

التي ترتكب دائمًا ولا يتم الاعتراف بها كجرائم.

الدولة مجرد شكل من أشكال المجتمعات البشرية التي نشأت في الماضي:

-١-

قد تكون الدولة شكلًا لازمًا للمجتمعات البشرية في الماضي، وقد تكون لا تزال لازمةً لبعض البشر حتى الآن، ولكن لا يمكن للبشر ألَّا يدركوا أن هذا النظام الاجتماعي القائم على العنف يحول دون إقرار السلم في حياتهم. وإن رأى الناس ذلك وتنبؤوا به فلا يمكنهم ألَّا يحاولوا التوصل إلى نوع من النظام الاجتماعي لا يعود فيه العنف ضروريًا ولا ممكنًا. لا يمكن لهذا النظام أن يتحقق سوى بالكمال الداخلي الذي يقضي بعدم المشاركة في أعمال العنف.

-٢-

كما تمضي حياة إنسان واحد من مرحلة عمرية لأخرى، هكذا يحدث مع حياة الإنسانية. وكما تحل في حياة كل إنسان تلك الفترات التي يتحول فيها من طفل لبالغ، ولا يعود بإمكانه أن يعيش بنفس الطريقة السابقة، ثم يتحول البالغ إلى زوج راشد، ثم شيخ، هكذا تمر الإنسانية بمختلف الفترات العمرية. ما نراه الآن هو أن البشرية تعيش الآن فترة انتقالية من مرحلة إنسانية لمرحلة أخرى. لقد مضى عهد الطفولة والشباب، وعلينا الآن أن نحيا كما يجب للإنسان الناضج أن يعيش.

-٣-

(هذا التغيير الذي تمر به الإنسانية الآن هو تغيير من المرحلة الحيوانية إلى الإنسانية. ولا يمكن لهذا التغيير أن يتم إلا بغياب الدولة).

«باكونين»[١٠١].

---

(١٠١) ميخائيل ألكسندروفيتش باكونين: واحد من أهم أعلام الأناركية.

-٤-

(الدولة مؤسسة مؤقتة لا بد أن تزول. السيف والبندقية هما سلاح عصرنا، ولا بد أن الأمر سينتهي بهما إلى المتاحف، مثلما أصبحت أدوات التعذيب الآن من النوادر).

«كروسبي».

-٥-

بدأ الناس في عصرنا يدركون أن عهد الدولة قد ولَّى، وأن التمسك بها هو فقط نوع من التمسك بالتعليم المزيف لا يمكن التحرر منها من الداخل؛ لأن كل شيء فيها متشابك.

-٦-

إن كانت الدولة ضرورية في وقت ما، فقد مضى هذا الوقت، والدولة الحالية لا تؤدي إلى الإضرار بنا. إن الدولة الحالية بجيوشها تذكرنا بقوات الحرس التي -كما يقولون- واصلت الانتظار في مكانها، حيث كانت فيه أريكة في السابق اعتاد الإمبراطور في الماضي على الجلوس عليها بعد التنزه، لكنه مات منذ فترة طويلة، وهم لا يزالون يحرسونها!

القوانين لا تصلح أو تقوِّم الناس، بل تفسدهم وتزيد حالهم سوءًا:

-١-

(الدولة تصنع مجرمين أسرع كثيرًا مما تعاقبهم. إن سجوننا المكتظة بالمجرمين الذين أفسدتهم الدولة بقوانينها غير العادلة واحتكارها المطلق للسلطة، وبمؤسساتها. في البداية نقوم بصنع كثير من القوانين التي تنتج الجرائم، ثم نصنع بعد ذلك قوانين تعاقب على الجريمة).

«توكير»[١٠٢].

---

(١٠٢) اقتصادي إنجليزي ١٧١١- ١٧٩٩.

-٢-

(تصدر الدولة مجموعة من القوانين تنظم العلاقات بين الناس الذين من المفترض أن يبقوا منفصلين، وهكذا فلا بد أن يستمر التشريع إلى الأبد؛ لأنه هناك عدد لا نهائي من العلاقات بين الأفراد. وهكذا فلا بد أن تواصل الأحكام والمراسيم والأوامر انهمارها على هذا الشعب التعيس بلا توقف. وهذا ما يحدث فعلًا. في غضون ثلاثة أعوام وشهر واحد وأربعة أيام أصدرت فرنسا ١١٦٠٠ قانون ومرسوم. وكذلك أنتجت الجمعية التأسيسية والتشريعية، وكذلك الإمبراطوريات والحكومات عملت بنفس المستوى. يصل عدد القوانين الآن إلى أكثر من ٥٠٠٠٠ قانون، وإن قام مشرعونا بواجبهم لتضاعف هذا العدد بلا شك. هل يعتقد أحد أن الشعب أو الحكومة نفسها يمكنها أن تجد أي شيء عاقل وسط هذه الفوضى المفزعة؟).

«برودون»(١٠٣).

-٣-

يصر الناس على الاعتقاد أن شخصًا أو مجموعة قليلة من الناس يمكنها أن تحرك الجميع وتنظم شؤونهم، ثم يُمنح هذا الحبل الذي يربط الحشد بأكمله إلى شخص ما، ثم يندهشون بعد ذلك من أنه شخص شرير!

-٤-

علينا فقط ألا نقبل التعليم الزائف، وننظر إلى وضع الإنسان الذي يعيش في كنف الدولة، سواء كانت أكثر الدول استبدادًا أو ديمقراطيةً، وستصدمنا

(١٠٣) بيير جوزيف برودون: سياسي فرنسي وفيلسوف تبادلي واشتراكي ومؤسس لفلسفة التشاركية. كان أول شخص يطلق على نفسه صفة "لا سلطوي". يعتبر على نطاق واسع أحد أكثر منظري اللاسلطوية تأثيرًا. حتى إن برودون يعتبر أبا اللا سلطوية.

درجة العبودية التي يحيا فيها الناس، وهم متصورون أنهم أحرار.

-٥-

ثمة جماعة من الناس فوق رأس كل إنسان أينما يولد، يقومون بتشريع القوانين التي تنظم حياته، وهم ليسوا أفضل منه بأي حال من الأحوال، ويقررون ما يجب أن يفعله وما لا يجب أن يفعله، وكلما يزداد نظام الدولة اكتمالا، كلما تضيق هذه القوانين الخناق حوله. تُحدد هذه القوانين مَن يجب أن يقسم، وكيف، أي أنها تطلب التزامًا بتنفيذ هذه القوانين التي سوف تُسن ويتم إقرارها. تحدد تلك القوانين من يجب أن يتزوج وكيف يتم ذلك (يجب أن يتزوج الرجل امرأة واحدة فقط، ولكن من الممكن التساهل فيما يخص بيوت الدعارة). تحدد تلك القوانين بشكل دقيق كيف يمكن للزوج أن ينفصل عن زوجته، ومن يحتفظ بالأطفال، ومَن الأطفال الذي يمكن أن يتم اعتبارهم شرعيين، ومَن يتم اعتبارهم غير شرعيين، وكيف يتم الميراث وانتقال التركة. تحدد تلك القوانين كيف يتم عقاب مَن يخرقها ومَن يجب أن يقوم بذلك. تحدد مَن يجب أن يظهر في المحكمة كشاهد أو أحد المحلفين. تحدد القوانين عمر العمال والمساعدين الذين يمكن أن يعملوا لدى المالك، وعدد الساعات التي يجب أن يعملوها في اليوم الواحد، والغذاء الذي يجب أن يُقدَّم لهم. تحدد القوانين متى وكيف يلقح الناس أطفالهم ضد الأمراض، والإجراءات المحددة التي يجب أن يتخذها عندما يصاب هو أو أحد أفردا أسرته أو حيواناته بالمرض. تحدد القوانين المدارس التي يجب أن يرسل إليها أطفاله. تحدد أحجام وقوة البيوت التي يمكن له أن يشيدها. تحدد للإنسان إمكانية تربية الحيوانات: الجياد والكلاب، وكيف يمكن له أن يستفيد بالمياه، وإلى أين يمكنه أن يمضي دون طرق. تحدد القوانين العقوبات التي تفرض على خرق كل هذه القوانين، وكثير من القوانين الأخرى. من المستحيل أن

نورد كافة القوانين والقواعد التي يجب على الإنسان أن يخضع لها والتي لا يمكن حتى لمواطن في أكثر الدول ليبرالية أن يفسرها، رغم أنه من المستحيل أن يعرفها كلها من الأساس. وفي هذا الوقت يُجبَر هذا الإنسان على أن يتخلى عن جزء من نتاج عمله لأعمال غير معروفة بالنسبة له عند شرائه لأي مما يلزمه: ملح- جعة- قماش- حديد- كيروسين- شاي- سكر، وغيرها وأن يدفع ديونه بالفائدة، تلك الديون المستحقة عليه منذ زمن آبائه وأجداده. عليه أيضًا أن يتخلى عن جزء من عمله كلما انتقل من مكان لآخر، وعندما يحصل على أي ميراث، أو عندما يقوم بأي صفقة مع قريب له. عليه أيضًا أن يتخلى عن جزء آخر معتبر من نتاج عمله من أجل الأرض التي يسكن عليها أو الحقل الذي يزرعه. وهكذا فالجزء الأكبر من نتاج عمله -إن كان يعيش من ناتج عمله، وليس من عمل شخص غريب- الذي يجب أن يستخدمه من أجل تحسين وضعه ووضع أسرته يضيع في الضرائب والالتزامات والاحتكارات المختلفة. بالإضافة إلى ذلك، يقومون في معظم الدول بجعل الإنسان يلتحق بالجيش فور بلوغه عمرًا معينًا، ويقضي بضعة أعوام في الخدمة العسكرية، وهي أقسى عبودية ممكنة، ليذهب ويقاتل، في دول أخرى: في إنجلترا وأمريكا يتم توظيف الناس من أجل هذا العمل.

وهكذا فالأمر لا يقتصر على أن البشر الرازحين تحت عبء هذه الأوضاع لا يدركون فقط عبوديتهم، بل إنهم يفتخرون بها، ويعتبرون أنفسهم مواطنين أحرارًا في دول عظيمة تُدعى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا، ويفتخرون كما يفتخر الخدم المتزلفون بأهمية سيدهم الذي يعلمون لديه.

-٦-

(أعتقد أنه علينا أن نكون بشرًا قبل أن نكون مواطنين. ليس حسنًا أن نُنمِّي في أنفسنا حب أي قانون سوى قانون الفضيلة. لم تجعل القوانين البشر أبدًا

أكثر عدالةً؛ بل على العكس، أدى احترام القوانين لارتكاب الفاضلين من البشر لأفعال غير عادلةٍ).

«ثورو».

-٧-

من المفهوم أن يحرس البشر الأبقار والجياد والنعاج، فالبشر يعلمون أن الماشية في حاجة إلى ذلك، وكيف يرعونها بأفضل صورة ممكنة، ولكن لا يمكن للأبقار والجياد والنعاج أن يرعى أحدهم الآخر؛ لأنهم جميعًا من نفس الطبيعة، وهكذا الأمر أيضًا مع البشر... إنهم جميعًا من الطبيعة ذاتها. فلماذا يمكن لواحد من الناس أن يدبر شؤون الآخرين ويجبرهم على الحياة وفق طريقة معينة تبدو له هي الأفضل؟ البشر جميعًا مخلوقات عاقلة متساوية، ولا يمكن أن يقودهم سوى مَن هو أعلى منهم، ولا شيء أعلى منهم سوى تلك الروح التي تحيا في داخلهم جميعًا والتي نطلق عليها «الضمير». لذا ليس على الناس أن يطيعوا أحد سوى ضمائرهم... ليس عليهم أن يطيعوا بشرًا يطلقون على أنفسهم: قياصرة- أعضاء البلاط- أعضاء الهيئة التشريعية- مجلس الشيوخ- أعضاء المحاكم.

-٨-

(عاش الهنود الأمريكيون دون أي سلطات أو قوانين أو حكومات. أطاعوا فقط العرف وصوت الضمير، ومَن كان يخرق العرف أو صوت الضمير، كانوا يطردونه من مجتمعاتهم، وإن حدث شيءٌ جلل كجريمة قتل مثلًا، فمن تضرر من الجريمة وحده كان يعاقب القاتل، وكان عدد الجرائم بينهم أقل كثيرًا من تلك التي تحدث في دولنا بكافة سلطاتها وسجونها ومحاكمها. أيزداد

الشر إذنْ في تلك المناطق التي ليس فيها قوانين مثلما كان الحال مع الهنود الأمريكيين البدائيين، أم في تلك المناطق التي يزداد فيها عدد القوانين؟ أعتقد أنه يمكنني أن أؤكد على الإجابة الثانية.

من المؤكد أن النعاج ستزداد سعادةً إن تركناها تهتم بشؤونها، ولم نعهد بذلك إلى الذئاب).

«جيفرسون»[١٠٤].

-٩-

من الطبيعي جدًّا أن يرى المرء مجتمعًا من الناس يحكمه العقل وقواعد معترف بها من كافة أعضائه، من مجتمع آخر يعيش فيه أعضاؤه تحت سلطان قوانين دولة لا أحد يعرف مَن سنها بالضبط.

تبريرات ضرورة نظام الدولة:

-١-

لا تُرِحْ نفسك بفكرة أنه إن لم تر مَن تقوم بتعذيبهم وقتلهم، وأنه إن كان لديك كثير من الرفاق يقومون بالأمر ذاته، فأنت إذنْ لست جلادًا ولا قاتلًا... قد لا تكون كذلك حتى تعرف مصدر الأموال التي تحصل عليها، ولكن إن عرفت مصدر الأموال التي تتقاضاها فليس لديك عذر، لا أمام الناس (فأمام الناس دائمًا ما يمكن اختلاق الأعذار)، ولكن أمام ضميرك.

-٢-

يقال إن نظام الدولة عادل؛ لأنه قد تأسس بأغلبية الأصوات، ولكن مبدئيًّا

(١٠٤) أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، والكاتب الرئيس لإعلان الاستقلال، وثالث رئيس للولايات المتحدة. كان متحدثًا باسم الديموقراطية، نادى بمبادئ الجمهورية وحقوق الإنسان، وكان له تأثير عالمي.

هذا غير صحيح، فهو لم يتأسس بأصوات الأغلبية؛ بل بالعنف. وحتى إن كانت أغلب الأصوات تدعم الدولة، فهذا لا يجعل النظام عادلًا.

الأمر لا ينحصر فقط في أنه ما من إنسان لديه الحق في تنظيم شؤون الآخرين، بل إن الكثيرين ليس لديهم الحق هم أيضًا في تنظيم شؤون الفرد.

-٣-

عندما يتسلط إنسان من بين مئة فرد على التسعة والتسعين الباقين، فهذا غير عادل. هذا هو الاستبداد. وإن تسلط عشرة على تسعين، فهذا أيضًا غير عادل، وهو ما يطلق عليه حكم الأوليجاركيا، وإن تسلط ٥١ إنسان على ٤٩ إنسان (وهذا ما يتوهمه الناس لكن في الحقيقة يتسلط ١٠ أو ١١ فقط على ٥١) فهذا يدعونه أمرًا عادلًا تمامًا، ويقولون إن هذه هي الحرية!

لا يمكن أن يثير أمر ما السخرية أكثر من ذلك، وهذه الفكرة تشكل أساس كل تطويرات فكرة الدولة.

-٤-

(الهدف من نظام الدولة هو إقرار النظام بين الناس جميعًا إن كان العدل هو ما يقود الناس. ولكن إن كانت الدولة قد وصلت إلى هدفها، فلا فارق إذنْ بين العدالة الخارجية التي تقيمها الدولة، وتلك المواقف التي تقود الرغبة في العدالة فيها الناس. في المجتمع الذي تقوده الرغبة في تحقيق العدالة لا أحد يمكنه أن يرغب في أمر غير عادل، وفي أفضل نظام ممكن للدولة لا يمكن ألا يكون هناك شخص يرغب في احتمال انعدام العدالة، وهكذا فإننا نصل إلى الهدف ذاته بوسيلتين متعارضتين، وهكذا فإن الوحش المفترس عندما يكمم يصبح غير ضار تمامًا كآكل الأعشاب. علاوة على ذلك لا يمكن للدولة أن

تتجاوز هذا الحد: لا يمكن للدولة حتى أن تشرح لنا كيف يمكن للحياة أن تكون إن قام الناس بالتعامل بلطف وود مع بعضهم البعض في المجتمع).

«شوبنهاور».

-٥-

يُقال إن الدولة كانت موجودة دائمًا وستظل؛ لأنه من المستحيل للإنسان أن يعيش خارج إطار الدولة. مبدئيًّا لم تكن الدولة موجودة دائمًا، وإن كانت موجودة الآن، فهذا لا يعني أنها ستظل موجودة إلى الأبد.

لا يجب على المسيحي أن يشارك في أعمال الدولة:

-١-

الحكومات مثل الكنائس... لا يمكن أن يشعر بها المرء بشعور مختلف عن الهلع والاشمئزاز. وحتى يحين الوقت الذي يمكن فيه للمرء أن يدرك أن جوهر الحكومة مثله مثل جوهر الكنيسة، فلا يمكن أن يشعر صوبهما سوى بالهلع. وطالما هو ينقاد لهما، فهو في حاجة إلى التفكير -من أجل احترامه لذاته- أن لا شيء أصيلًا أو عظيمًا أو مقدسًا على الإطلاق فيما يسترشد به، بل هو خداع من الأشرار الذين يستغلون الناس تحت قناع الإرشاد والتوجيه من أجل مصالحهم الخاصة، ولن يمكنه حينها سوى الشعور بالاشمئزاز منهم.

-٢-

عندما يجد أي مسيحي حقيقي نفسه مطالبًا بتنفيذ أوامر للدولة مناقضة لوعيه، يمكن ويجب أن يقول: لا يمكنني أن أتأكد من ضرورة أو ضرر الدولة، لكن ما أعرفه فقط هو الآتي: أولًا- إني لست في حاجة إلى الدولة. ثانيًا- لا يمكنني أن أقوم بأي عمل لازم لتحقيق نظام الدولة.

-٣-

إني أعيش.. أعيش الآن، وقد لا أكون موجودًا غدًا، وقد أكون قد ذهبت بالفعل من حيث أتيت. وطالما أنا على قيد الحياة فإني أعرف أنها طالما أني أحب الناس، فإني أشعر أني على ما يرام... أشعر بالهدوء والسعادة، وطالما أني على قيد الحياة، فإني أريد أن أحب وأن أكون محبوبًا. وفجأةً يأتي البعض ويقولون: «تعال معنا لنسلب ونعدم ونقتل ونغزو، وسوف تكون في حال أفضل إن قمت بذلك، وإن لم يكن هذا لصالحك الشخصي، فهو سيجدي نفعًا للدولة». ما هذا؟ ما عسى أن تكون الدولة؟ ماذا تقولون؟

هكذا يجيب الإنسان العاقل ويقول: «دعوني لحالي. لا تتحدثوا معي مجددًا عن مثل هذه الحماقات والبذاءات».

-٤-

عندما يتوجب على الإنسان أن يختار بين ما يأمر به الله وما تأمر به السلطة، ويطيع الأخيرة، فإنه يسلك كإنسان لم يطع سيده، بل أطاع أول شخص غريب التقاه في طريقه.

-٥-

يقولون لي: «أعط المال لكيانٍ يُدعى الحكومة». ونفس الشخص يأمرني بالذهاب إلى الجندية، ويطلب مني أن أقتل مَن يأمرني بقتله. وأنا أتساءل: «مَن هذا الذي يأمرني بذلك؟»، فيقولون لي: «الحكومة». وما عسى أن تكون هذه الحكومة؟ إنهم بشر... وما المميز في هؤلاء البشر؟ لا شيء... إنهم مثلنا جميعًا. لماذا إذنْ أقوم بما يأمرونني به؟ قد يكون ما أخبروني به جيدًا، ولكن قد يكون شريرًا أيضًا. لا أريد ذلك. دعني لحالي.

هكذا يجب أن يجيب كافة البشر إن لم ينخدعوا بهذا التعليم الزائف عن الدولة.

-٦-

كانت تعاليم المسيح دائمًا مُناقضة مع تعاليم العالم. طبقًا لتعاليم العالم، فالحكَّام يتسلطون على الشعوب كي يرشدوهم، ويجبرون البعض على القتل والإعدام وعقاب الآخرين، ويجبرونهم على القسم بأنهم سوف ينفذون كافة أوامر الرؤساء، ويجبرونهم على قتال الشعوب الأخرى.

أما طبقًا لتعاليم المسيح، فالأمر لا يقتصر على أنه لا يمكن لأي إنسان أن يقتل فقط، بل لا يمكن حتى أن يستخدم العنف حتى وإن كان للمقاومة، ليس مع القريب فقط، بل حتى مع الأعداء.

تعاليم المسيح وتعاليم العالم كانتا وستظلا متناقضتين، وقد أدرك المسيح ذلك وتنبأ لتلاميذه أنهم بسبب اتباعهم لتعاليمه سوف يعذبون ويُقتلون، وأن العالم سوف يبغضهم كما أبغضه؛ لأنهم ليسوا عبيد العالم بل عبيد الله.

وهذا ما حدث ولا يزال يحدث كما تنبأ المسيح، لكل مَن ينفذ تعاليمه.

-٧-

(إن بدأ جنودي في التفكير، فلن يبقى فرد واحد منهم في الجيش).

«فريدريش الثاني»(١٠٥).

-٨-

الأناركيون على حق في كل الآتي: في إنكار النظام القائم، وفي التأكيد على أنه في ظل النظام الأخلاقي القائم ما من شيء أسوأ من السلطة القائمة

(١٠٥) فريدريش الثاني: ملك بروسيا (١٧١٢- ١٧٨٦) من سلالة آل هوهنتسولرن. اشتهر بدهائه في الحملات العسكرية وفي تظيم الجيوش البروسية. صار يعرف بفريدرش العظيم، وكان يُلقب فريتس العجوز.

على العنف. لكنهم مخطئون بشدة عندما يعتقدون أن الأناركية من الممكن أن تتحقق عن طريق الثورة.

لا يمكن للأناركية أن تتحقق إلا بتخلي الناس تدريجيًّا عن الدفاع عن سلطة الحكومة، وبشعور الناس تدريجيًّا بالخزي من الرغبة في الاستيلاء على مثل هذه السلطة.

-٩-

الأناركية لا تعني غياب المؤسسات، بل فقط تلك التي تجبر الناس على الخضوع بالعنف، تلك التي يبدو لها أنه ما من طريقة غير ذلك لتنظيم مجتمع من المخلوقات العاقلة.

-١٠-

(من المستحيل الاعتراف بأن مسيحيًّا حقيقيًّا يمكنه أن يكون عضوًا في مجتمع يضم جيشًا ومؤسسة عسكرية. هل يمكنه بأي طريقة أن يوافق على أن يأمر رئيس الحكومة الذي يعترف بها إخوانه في الجيش والأسطول بقتل أخوة آخرين من شعب آخر؟

لا يمكن للمسيحي أن يعترف بصاحب المقام الرفيع هذا، وأن يشارك في تنفيذ أوامره، ولا يمكنه أن يقسم باسم الله على أن يقوم بأعمال عنف وقتل.

كم هو أمر قبيح وعبثي أن يحتاج الإنسان إلى إبداء اعتراضه عن المشاركة في مثل هذه الأعمال، وكم يبدو جنونيًّا أن يحاول أن يثبت أن هذه الأفكار تبدو من الوهلة الأولى مناقضة للحس السليم!

من المخوَّل للهيئة التشريعية إعلان الحرب، ومن المُخوَّل لممثليَّ أن يقوموا بهذا الشر وذلك الاستبداد باسم السلطة المخولة لهم مني ومن الآخرين. لديهم الحق في تحويل شعب بأكمله إلى قتلة لا يخافون الله،

ولديهم السلطة في إعلان أحقية وعدالة كل هذه الفظائع، ولديهم الحق في ارتكاب كافة أنواع الجرائم، وكل هذا باسم التفويض الذي حصلوا عليه باسمي وأسماء الآخرين.

في مثل هذه الظروف لا يمكن للمسيحي أن يشارك بأي درجة في ذلك، ولا يمكنه أن يرغب أبدًا في أن ينتخب أحدًا أو يُنتخب من أحد، ولا يمكنه أبدًا أن ينتمي لا إلى الكنيسة ولا إلى الدولة طالما هم يؤيدون مثل هذه الأفكار، وطالما لا يتوقفان عن تعذيب المسيح).

«أدين بالو».

-١١-

(وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ يُبْغِضُ النُّورَ، وَلاَ يَأْتِي إِلَى النُّورِ لِئَلاَّ تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ. وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبِلُ إِلَى النُّورِ، لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللهِ مَعْمُولَةٌ).

«يوحنا ٣: ١٩- ٢١».

* * *

الإيمان المزيف

المعتقدات الإيمانية المزيفة هي تلك التي يعتنقها الناس لا لأنها لازمة إلى أرواحهم؛ ولكن لأنهم يصدقون فقط مَن يعلمهم إياها.

أين مكمن الخداع في المعتقدات الإيمانية المزيفة؟

-١-

كثيرًا ما يعتقد الناس أنهم يؤمنون بشريعة الله، وهم يؤمنون فقط بما يؤمن به الجميع. لا يؤمن الجميع بشريعة الله، بل بما يدعونه شريعة الله، وهي تلك الشريعة التي تتفق مع نمط حياتهم ولا تعوقهم عن الاستمرار فيها.

-٢-

منذ تلك اللحظة التي قال فيها أعضاء المجامع: «رأى الروح القدس ونحن...»[١٠٦]، وهي العبارة التي تعني أن تلك البراهين التي يقدمها المجتمعون أهم من صوت العقل والضمير لدى الإنسان، بدأ الخداع الذي أدى إهلاك ملايين من البشر، ولا يزال يواصل فظائعه إلى يومنا هذا.

-٣-

(يحاول رجال الدين إبقاء الشعب في بربريته، ودون هذا سيدرك الجميع

---

(١٠٦) المقصود بالمجامع هي تلك الاجتماعات التي كانت تعقد بين رؤساء الكنائس للنظر في القضايا الملحّة، وأول المجامع هو مجمع أورشليم الذي عقده الرسل الأوائل، وأول مجمع مسكوني عالمي هو مجمع نيقية عام ٣٢٥، وفيه تم وضع قانون الإيمان المسيحي، وهذه الديباجة: "رأى الروح القدس ونحن" كانت الاستهلال الذي يُكتب عند تدوين قرارات المجمع، وقد ذُكر في سفر أعمال الرسل الذي روى أحداث مجمع أورشليم في إصحاح ١٥.

أن الإنجيل شديد البساطة جدًّا، حتى إنهم سيقولون لكل رجال الكنيسة: «نحن نفهمه جيدًا ولسنا في حاجة إليكم لفهمه»).

«مونتسيكو».

-٤-

الإيمان الحقيقي ليس في حاجة إلى كنائس.

-٥-

الإيمان الكنسي يعني العبودية.

-٦-

(«فليأت ملكوتك»[١٠٧]، هذا ما يأمله كافة البشر. وقد قرَّب المسيح إلينا هذا الملكوت، ولكن الناس أقاموا مملكة الإكليروس بدلًا من ملكوت الله، وهكذا لم يقترب ملكوت الله).

«كانط».

-٧-

إن عاش الناس في كنف الخطايا والإغواءات، فلا يمكنهم أن ينالوا الهدوء. الضمير يفضحهم أمام أنفسم، لذا فهم في حاجة لأمر من الاثنين: إما الاعتراف بالذنب أمام الناس وأمام الله، والتوقف عن الخطية، أو مواصلة الحياة في الخطية، مع تسمية الخطايا التي يقومون بها: أعمال فاضلة. من أجل هؤلاء البشر لُفِّقت التعاليم الإيمانية المزيفة التي يمكن أن تعيش في كنفها حياة شريرة وتظل مبررًا.

-٨-

الكذب على الناس فعل شرير، ولكن الأسوأ منه الكذب على النفس.

---

(١٠٧) عبارة من الصلاة الربانية التي علمها المسيح لتلاميذه، والتي يصليها كافة المسيحيين في العالم.

عندما تكذب على الناس يمكنك أن تتهم نفسك بالكذب، ولكن عندما تكذب على نفسك لا أحد يمكنه أن يدين فعلتك. لذا فلتخافوا من الكذب على أنفسكم، خاصةً عندما يتعلق الأمر بالإيمان.

-٩-

(«آمن وإلا يُحكم عليك». يكمن أصل الشر في هذه العبارة. إن آمن الإنسان بشيء دون تفحص عقلي، سيفصل نفسه تدريجيًا عن العقل، ويضع نفسه والآخرين تحت سلطان الخطية. إن خلاص الناس في أن يفكر كل منهم بعقله هو).

«إمرسون».

-١٠-

من المستحيل ألَّا نفكر مليًا ونتعرف على الضرر الذي يلحق بنا من الإيمان المزيف. إن الإيمان يؤسس العلاقة بين الإنسان والله، وتحدد هذه العلاقة دور الإنسان بشكل دقيق في هذا العالم. بما الذي يمكن أن تصير إليه الحياة إن كانت هذه العلاقة وما ينتج عنها من تحديد دور الإنسان في الحياة مزيفة؟

-١١-

(هناك ثلاثة أنواع من الإيمان المزيف. الأول: الإيمان بإمكانية المعرفة عن طريق تجربة لا يمكن لقوانين الخبرة الإنسانية تفحصها، وهذه هو الإيمان بالمعجزات. الثاني: هو الاعتقاد في نوع من الكمال الأخلاقي لا يمكن لعقولنا أن تعقل فيه شيئًا على الإطلاق، وهذا هو الإيمان بالأسرار[١٠٨]. الثالث: هو الإيمان بأن استدعاء هذا الفعل الخارق (الأسرار) يمكن لله أن

(١٠٨) يشير كانط هنا إلى الأسرار الكنسية، وهي مجموعة من الطقوس تؤمن الكنيسة بحدوث عمل سري فائق للطبيعة أثناء عملها، مثل المعمودية والزواج والكهنوت وتناول القربان والخمر (جسد المسيح ودمه في اعتقاد كثير من الطوائف المسيحية)، وهناك أسرار أخرى مقابلة في كثير من الديانات الأخرى، لذا فالمقصود هو أي عمل طقسي غير عقلي يؤمن الناس بحدوث شيء فائق للطبيعة أثناء عمله.

يؤثر عن طريقه على سلوكنا الأخلاقي، وهذا هو الإيمان بالنعمة).

«كانط».

المعتقدات الإيمانية الكاذبة لا تلبي متطلبات الروح الإنسانية السامية؛ بل الدنيئة:

-١-

إن الديانة الوحيدة الحقيقية لا تضم بين طياتها شيئًا سوى تلك القوانين الأخلاقية اللازمة لنا جدًّا، والتي من الممكن أن نصل إليها بأنفسنا ونتفحصها بعقولنا. الكنائس وحدها لها أهداف مختلفة، لذا يمكن أن تظهر من كنفها هذه القوانين العديدة المختلفة التي لسنا في حاجة إليها من أجل أن نحيا حياة أخلاقية. والاعتراف بهذه المعتقدات الإيمانية التي نجدها عن شعب بعينه، لا في الديانة العالمية الشاملة هو منشأ الضلالات الدينية. واتباع مثل هذه التعاليم لا يخدم الله، بل يدمر إمكانية خدمته الحقيقية.

-٢-

(لا يمكن للإنسان أن يرضي الله سوى بالحياة الصالحة، لذا فكل ما يعتقد الإنسان أنه يمكنه أن يرضي الله به سوى الحياة الصالحة الطاهرة هو محض خداع أحمق وضار).

«كانط».

مكتبة
t.me/soramnqraa

-٣-

(توبة إنسان يعذب نفسه جسديًّا كي يرضي ضميره، بدلًا من التحول السريع صوب نمط حياة أفضل هي مجرد عمل بلا جدوى، وبالإضافة إلى ذلك فهذا العمل يؤدي إلى عواقب سيئة، وهي أن الإنسان يعتبر أن التوبة بهذه الطريقة هي فقط ما يلزمه، ولا يهتم بالكمال الذي هو في حاجة إليه فعلًا).

«كانط».

-٤-

(أمر مؤسف ألَّا يعرف الناس الله، ولكن الأكثر سوءًا أن يعترفوا بأنه غير موجود).

«لاكتانتيوس»[(١٠٩)].

-٥-

(يقولون إن الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله، ولكن يجب أن يلحقوا بهذه العبارة فورًا عبارة أخرى مفادها أن الإنسان قد خلق الله هو الآخر على صورته).

«ليشتنبرج».

-٦-

(عندما يتحدثون عن السماء بوصفها مكان النعيم، فهم يتخيلونها موجودة فوق السماوات الشاسعة، ولكنهم يتناسون أن أرضنا عندما ينظر إليها من تلك الارتفاعات الهائلة، ستبدو فقط واحدة من تلك النجوم السمائية، وأن سكان تلك العوالم يمكنهم أن ينظروا صوبها ويقولون: «انظروا إلى هذا النجم... إنه مكان النعيم الأبدي.. إنه الوطن السمائي الذي قد أُعِد لنا، والذي سوف نذهب إليه يومًا ما».

الحقيقة أننا نخطئ خطأً غريبًا فنعتقد بمقتضاه أن رحلة إيماننا تتعلق دائمًا بالارتفاع، ولا نفكر أبدًا، أنه بغض النظر عن الارتفاع الذي نصل إليه، يجب أن نهبط أيضًا حتى نثبت أقدامنا بصلابة في عالم آخر).

«كانط».

-٧-

في أول الأمر لم يتمكن الرسل والمسيحيون الأوائل من فهم تعاليم

(١٠٩) فيلسوف مسيحي وأحد رجال الكنيسة بشمال إفريقيا. ٢٤٠- ٢٣٠ م.

المسيح إلى درجة ما، فكان أول ما يعلمونه لمعتنقي المسيحية الجدد هو الإيمان بقيامة المسيح من بين الأموات، وأحداث العماد المعجزية(١١٠)، وحلول الروح القدس، وما إلى ذلك، لكنهم لم يتحدثوا تقريبًا سوى بالقليل جدًّا عن التعليم الأخلاقي للمسيح، كما هو واضح في أغلب أحاديثهم المدونة في سفر أعمال الرسل.

إن الإيمان بالمعجزات كان يدعم في رأيهم حقيقة الإيمان، وهو الأساس، أما الإيمان بتعاليم المسيح نفسها فكان يحتل المرتبة الثانية، وكثيرًا ما يُنسى، أو لا يُذكر على الإطلاق، كما يتضح في سفر أعمال الرسل من قصة إعدام حنانيا باسم المسيح معلم الحب والمغفرة(١١١).

---

(١١٠) (حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه. ولكن يوحنا منعه قائلًا: «أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليَّ!" فقال يسوع له: «اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر». حينئذ سمح له. فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من السماء وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلًا مثل حمامة وآتيًا عليه وصوت من السماوات قائلًا: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت»). «متى ٣: ١٣- ١٧».

(١١١) يشير تولستوي إلى قصة حنانيا وسفير في أعمال الرسل، حينما كان المؤمنون الأوائل يبيعون أملاكهم ويبعثون بها إلى الرسل كي يقسموها فيما بينهم ويعيشون حياة مشتركة:
(وَرَجُلٌ اسْمُهُ حَنَانِيَّا، وَامْرَأَتُهُ سَفِّيرَةُ، بَاعَ مُلْكًا وَاخْتَلَسَ مِنَ الثَّمَنِ، وَامْرَأَتُهُ لَهَا خَبَرُ ذلِكَ، وَأَتَى بِجُزْءٍ وَوَضَعَهُ عِنْدَ أَرْجُلِ الرُّسُلِ. فَقَالَ بُطْرُسُ: «يَا حَنَانِيَّا، لِمَاذَا مَلأَ الشَّيْطَانُ قَلْبَكَ لِتَكْذِبَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ وَتَخْتَلِسَ مِنْ ثَمَنِ الْحَقْلِ؟ أَلَيْسَ وَهُوَ بَاق كَانَ يَبْقَى لَكَ؟ وَلَمَّا بِيعَ، أَلَمْ يَكُنْ فِي سُلْطَانِكَ؟ فَمَا بَالُكَ وَضَعْتَ فِي قَلْبِكَ هذَا الأَمْرَ؟ أَنْتَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّاسِ بَلْ عَلَى اللهِ». فَلَمَّا سَمِعَ حَنَانِيَّا هذَا الْكَلاَمَ وَقَعَ وَمَاتَ. وَصَارَ خَوْفٌ عَظِيمٌ عَلَى جَمِيعِ الَّذِينَ سَمِعُوا بِذلِكَ. فَنَهَضَ الأَحْدَاثُ وَلَفُّوهُ وَحَمَلُوهُ خَارِجًا وَدَفَنُوهُ. ثُمَّ حَدَثَ بَعْدَ مُدَّةِ نَحْوِ ثَلاَثِ سَاعَاتٍ، أَنَّ امْرَأَتَهُ دَخَلَتْ، وَلَيْسَ لَهَا خَبَرُ مَا جَرَى. فَأَجَابَهَا بُطْرُسُ: «قُولِي لِي: أَبِهذَا الْمِقْدَارِ بِعْتُمَا الْحَقْلَ؟»، فَقَالَتْ: «نَعَمْ، بِهذَا الْمِقْدَارِ». فَقَالَ لَهَا بُطْرُسُ: «مَا بَالُكُمَا اتَّفَقْتُمَا عَلَى تَجْرِبَةِ رُوحِ الرَّبِّ؟ هُوَ ذَا أَرْجُلُ الَّذِينَ دَفَنُوا رَجُلَكِ عَلَى الْبَابِ، وَسَيَحْمِلُونَكِ خَارِجًا». فَوَقَعَتْ فِي الْحَالِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ وَمَاتَتْ. فَدَخَلَ الشَّبَابُ وَوَجَدُوهَا مَيْتَةً، فَحَمَلُوهَا خَارِجًا وَدَفَنُوهَا بِجَانِبِ رَجُلِهَا. فَصَارَ خَوْفٌ عَظِيمٌ عَلَى جَمِيعِ الْكَنِيسَةِ وَعَلَى جَمِيعِ الَّذِينَ سَمِعُوا بِذلِكَ).

-٨-

(لدى الناس ميل طبيعي إلى تصديق المعجزات، وهو ميل ناشئ عن خيلائنا الذي يجبرنا على أن نعتقد أننا مخلوقات مميزة، حتى إن الإله الأعظم يضطر إلى خرق القوانين التي صنعها من أجلنا).

«ميشيل دي مونتين».

-٩-

إن الإيمان الكنسي لا يعلم فقط بأن توبة الخاطئ[١١٢] يمكنها أن تطهره، بل يؤمن أيضًا بأن صلوات الآخرين يمكنها أن تسدي إليه خيرًا في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى.

ذهب أحد الصبية لينام وطلب من مربيته أن تواصل اللعب بلعبته بدلًا منه طالما هو سينام. إن علاقة أتباع الكنيسة بالله تشبه هذه العلاقة. يعيش الناس حياة شريرة، ثم يذهبون للنوم، ويصلي أحد بدلًا منهم، بينما هم يواصلون النوم!

-١٠-

الدين الذي ليس لديه ما يقوله، يتحدث كثيرًا عن الحياة بعد الموت.

-١١-

من المستحيل أن نطلب من الله عطايا مادية مثل المطر أو الشفاء من مرض أو التخلص من الأعداء، وما إلى ذلك؛ لأنه من الممكن أن يطلب الناس في

(١١٢) كلمة توبة قد تشير إلى عدة مفاهيم، ففي كثير من الأدبيات الأرثوذكسية يشير الآباء بكلمة توبة إلى تغيير مسار الحياة، وهو ما يدعو إليه تولستوي، لكنه هنا يستخدمها بالمعنى الطقسي؛ أي أن الخاطئ تُقبل توبته فقط بالحضور إلى الكنيسة وإجراء سر الاعتراف وتناول الأسرار المقدسة، وما إلى ذلك من طقوس، وهذا ما يسخر منه تولستوي.

الوقت ذاته عطايا متناقضة، والسبب الرئيس لعدم إمكانية ذلك هو أن الله قد أعطانا كل ما نحتاج إليه في العالم. ولكن يمكن أن نطلب من الله في الصلاة أن يساعدنا على أن نحيا حياة روحية حقيقية، تلك الحياة التي يؤدي كل ما يحدث فيها إلى الخير، أما التوسل إلى الله في الصلاة من أجل عطايا مادية فهي مجرد مداهنة.

-١٢-

إن الصلاة الحقيقية هي تلك التي نطلب فيها أن نهجر كل ما هو دنيوي، وكل ما هو من شأنه أن يشتت حواسنا. يقوم المسلمون بعمل رائع في هذا الشأن حينما يستعدون لدخول الجامع أو يستعدون للصلاة يغلقون بأصابعهم أعينهم وآذانهم... الصلاة الحقيقية هي تلك التي نطلب فيها استدعاء الروح الإلهية بداخلنا. أفضل شيء في هذا الشأن هو ما علمنا إياه المسيح: (وَأَمَّا أَنْتَ، فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ)(١١٣). وهذا يعني أن تكون بمفردك تمامًا وأنت تصلي، سواء كنت في مخدعك أو في الغابة أو الحقل.

الصلاة الحقيقية هي تلك التي نطلب فيها البعد عن كل ما هو دنيوي... كل ما هو مادي، ونفحص فيها أرواحنا وتصرفاتنا ورغباتنا ومطالبنا، ليست تلك التي تتعلق بظروف العالم، بل بمصدر الحياة الإلهي بداخلنا الذي ندركه داخل أرواحنا.

مثل تلك الصلاة لا تبدو عملًا كسولًا وسخطًا يُنتج صلوات شعبية

---

(١١٣) متى ٦: ٦.

بأغانيها وصورها وشموعها ومواعظها... بل إنها تلك الصلاة التي تطلب دعم وتحصين ورفعة الروح... إنها اعتراف وفحص ما حدث بالماضي، وإشارة إلى طريق المستقبل.

الطقوس والشعائر التي تحافظ الكنيسة عليها:

-١-

كلما ازدادت درجة لا معقوليتها وأذاها، كلما أحاطت نفسها بمزيد من مظاهر العظمة الخارجية، والتي لا يمكنها بغيرها أن تجذب أحدًا إليها. إنها الكنيسة!

-٢-

يشكل الإجلال ومظاهر الألق الخارجي في الشعائر الكنسية جوهر عبثيتها وضررها.

-٣-

(فلنقارن بين صلاة شامانات تونجوسكا[(١١٤)] ورؤساء الكنائس الأوروبية: بين الأساقفة (أو فلنأخذ مثالًا من بين بسطاء الناس) وشعب الفجول[(١١٥)] الذي يرتدي في الصباح فوق رأسه غطاء من جلد الدب. فحوى صلاتهم جميعًا: «لا تقتلني». إن نظرنا إلى البيوريتانيين الراقيين بولاية كونيكتيكت، ومع أن هناك بعض الاختلافات، إلَّا أننا لن نجد فارقًا في أساسات إيمانهم،

---

(١١٤) الشامانية هي ظاهرة دينية تتضمن مجالات وممارسات الشامان. بالرغم من أن الشامانية موجودة بعدة أشكال حول العالم، قد يكون موطن الشامانية بشكلها النقي سايبيريا وآسيا الوسطى، بالإضافة إلى السكان الأصليين للأمريكيتين والذين يبدون من أصول وسط آسيوية. أما تونجوسكا فهي منطقة بسيبيريا.

(١١٥) الفجول أو المانسي هو أحد الشعوب الأصلية التي تقطن شمال روسيا، ولهم لغتهم الخاصة، ويجيد نحو ٦٠ ٪ منهم اللغة الروسية.

فهم جميعًا ينتمون إلى نوعية واحدة من الناس الذين يؤمنون أن خدمتهم وعبادتهم لله لا تتلخص في أن يصبحوا أفضل، ولكن في الإيمان بوجوب تنفيذ طقوس جزافية معينة.

أما أولئك الذين يؤمنون أن خدمتهم لله تنحصر في السعي صوب حياة أفضل وحدهم مَن يتميزون عن كل أولئك البشر السالف ذكرهم، فقد تعرفوا على أساس آخر، وقاعدة أسمى بدرجة لا يمكن قياسها تُوحِّد كافة الأخيار في كنيسة واحدة لا مرئية يمكنها وحدها أن تصبح كنيسة عالمية).

«كانط».

-٤-

(الإنسان الذي يقوم بأفعال لا تتضمن أي شيء أخلاقي في حد ذاتها، بهدف أن ينال رضى وخيرات الله، ويمكنه عن طريقها تنفيذ كافة رغباته، يُضل نفسه عندما يعتقد أنه يمكنه عبر وسائل طبيعية أن يحصل على ما هو فوق طبيعي. هذه الممارسات يُطلق عليها «العرافة» أو «السحر»، ولكن لأنها لها علاقة بالروح الشريرة، وإن حتى افترضنا أنها تتم بنية حسنة، فنحن نطلق عليها «تعويذة». لا يمكن أن يعتقد أحد أن بإمكان الإنسان أن يؤثر على الله بهذه الوسائل فوق الطبيعية، إلا إن فكَّر بشكل غير عقلاني؛ لأنه من غير المعروف ما إن كانت هذه الأفعال ترضي الله أو لا. إن حاول إنسان أن يتقرب إلى الله ويجعل نفسه مستحقًا لبركته بوسيلة أخرى بالإضافة إلى حسن سلوكه، تتألف من بعض الطقوس الشكلية المعينة، واستدعاء مساعدة فوق طبيعية من أجل هذا الهدف عبر شعائر معينة ليست لها قيمة في حد ذاتها، واعتقد أنه بهذا سيجعل نفسه أكثر عرضةً للحصول على الرضى والوصول

إلى مسعى محاولاته الفاضلة، فهذا يعني أنه يعتمد على شيء خارق للطبيعة كي يصحح من ضعفه الطبيعي.

ذلك الإنسان الذي يظن أن بعض التصرفات التي لا تعبر عن أي شيء أخلاقي في حد ذاتها يمكنها أن تُرضي الله، ويمكنها أن تجعله يحقق رغباته فورًا، تلك الرغبات التي يبغيها من الله، يُضل نفسه عندما يعتقد أنه بالرغم من أنه ليس لديه أي ميل فيزيقي أو أخلاقي، يمكنه بطريقة طبيعية لا علاقة لها بالأخلاق تمامًا -يمكن لأي شخص شرير أن يقوم بها- أن يسحر نفسه بهذا العون الإلهي الخارق للطبيعة عن طريق إيمانه وتنفيذ بعض الطقوس الكنسية المختلفة).

«كانط».

-٥-

عندما نريد أن نتحدث بالروح مع أحد عن موضوع هام جدًّا نحاول أن نلتقي به بمفردنا حتى لا يشتت أحد انتباهنا أو يعوقنا. فكيف نصلي جماعة عندما نريد أن نتحدث مع الله؟ من الصعب جدًّا الجيش، هو ما يمنح النظام الحاكم سلطته الخارجية أن نتخلص من التفكير في الطريقة التي يفكر بها الناس عنا، والتفكير في كل هراء ممكن وكل أنواع التشتيت. يحدث ذلك خاصة في الأعياد، وقد قيل عن ذلك في الإنجيل:

(وَمَتَى صَلَّيْتَ فَلاَ تَكُنْ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ، لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ،

وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً)(١١٦).

«متى ٦: ٥- ٦».

-٦-

(احْذَرُوا مِنَ الْكَتَبَةِ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ الْمَشْيَ بِالطَّيَالِسَةِ، وَيُحِبُّونَ التَّحِيَّاتِ فِي الأَسْوَاقِ، وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِي الْمَجَامِعِ، وَالْمُتَّكَآتِ الأُولَى فِي الْوَلاَئِمِ. اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ، وَلِعِلَّةٍ يُطِيلُونَ الصَّلَوَاتِ).

«لوقا ٢٠: ٤٦- ٤٧».

حيث يوجد الإيمان المزيف ستجد دائمًا هؤلاء الكتبة، وسيتصرفون دائمًا كما وصفتهم الأناجيل.

مؤمنون كنسيون كثيرون، والديانة الحقيقية واحدة:

-١-

ما إن تظهر مجموعة من البشر وتتحدث عن نفسها بوصفها «الكنيسة» وأنها معصومة من الخطأ، حتى تظهر مجموعات أخرى من الناس يقولون عن أنفسهم الأمر ذاته. وما إن تظهر مجموعتان من الناس تقول كل منهما عن الأخرى إنها مخدوعة، حتى نتأكد تمامًا أن كليهما ليس على حق.

-٢-

يقولون إن الكنيسة هي التي تضم المؤمنين الحقيقيين. أهؤلاء هم المؤمنون الحقيقيون أم أولئك؟ لا يمكننا أن نعرف. كل منا يتمنى لو كان هو

(١١٦) في الترجمة الروسية التي أوردها تولستوي لهذه الآيات، وفي عدة ترجمات أخرى لا وجود لكلمة "علانية"، وفي كثير من الترجمات العربية الحديثة انتهت الآية بـ"يكافئك"، ولم يأتِ ذكر لكلمة علانية.

المؤمن الحقيقي، وكل منا يحاول أن يصبح كذلك، ولكن لا أحد يمكنه أن يقول عن نفسه أو عن الآخرين الذين لديهم نفس إيمانه إنهم هم المؤمنون الحقيقيون؛ لأنه إن قال أحد عن نفسه كذلك، فالآخر يمكنه أن يقول كذلك عن نفسه.

-٣-

يبدو للإنسان الذي لا يفحص إيمانه أن هناك إيمانًا واحدًا صحيحًا، وهو الذي وُلد عليه. ولكن اسأله: ما الذي كان من الممكن أن يحدث إن ولدت تحت ظل معتقد إيماني آخر: ولدت مسلمًا بدلًا من مسيحي- مسيحيًا بدلًا من بوذي- براهميًا بدلًا من مسيحي؟ هل يعقل أننا وحدنا من على حق، والبقية كلهم على ضلال؟ لن يصبح الإيمان صحيحًا لمجرد أنك تؤكد لنفسك وللآخرين أن إيمانك هو الوحيد الصحيح.

-٤-

يقول كتاب التعليم الكاثوليكي: «الكنيسة هي اجتماع المؤمنين التي أسسها سيدنا يسوع المسيح، وهي منتشرة في كل الأرض وخاضعة لسلطة رعاتها القانونيين وقداسة أبينا البابا». هذا يعني ضمنًا أنها تحت سلطة القساوسة، وهي مؤسسة إنسانية يترأسها البابا تتألف من شخصيات معروفة.

في كتاب التعليم الشفاهي الأرثوذكسي: «الكنيسة هي تلك الجماعة التي أسسها يسوع المسيح على الأرض، متحدين مع بعضهم البعض في هدف واحد وتعليم إلهي واحد، وبالأسرار، تحت رعاية وقيادة الكهنوت الذي أسسه الله». وهذا يعني ضمنًا أنها تحت قيادة هيئة كهنوت... تحديدًا تحت سلطة كهنوت الكنيسة اليونانية، التي تتألف من شخصيات بارزة من هذا وذاك من الأماكن.

في كتاب التعليم اللوثري: «الكنيسة هي المسيحية المقدسة أو اجتماع كافة المؤمنين تحت اسم المسيح، حيث يقدم الروح القدس الخلاص الإلهي إليهم عبر الإنجيل وبعض الأسرار». وهذا يعني ضمنًا أن الكنيسة الكاثوليكية على ضلال، وأنها قد انفصلت عن الإيمان الحقيقي المتضمن في اللوثرية.

يعتقد الكاثوليك أن الكنيسة الحقيقية هي الكنيسة الرومانية بكهنوتها تحت قيادة البابا. بالنسبة للأرثوذكس فالكنيسة الحقيقية هي ما يتفق مع الكنيسة الشرقية والروسية. بالنسبة للوثريين الكنيسة الحقيقية هي التي تعترف بالإنجيل وتعاليم لوثر. أما بالنسبة لِـمَـن لديه القدرة على التفكير فكل هذه الكنائس هي مؤسسات إنسانية كاذبة.

ألم يتضح بعد أن لا هذه ولا تلك ولا الثالثة هي الحقيقية؟

-٥-

إن فكرة الكنيسة الواحدة التي أسسها المسيح يمكنها أن تقنع فقط إنسانًا لا يعرف كيف عاش الأسلاف، ولم يلتقِ أبدًا بأناس يعتنقون معتقدات إيمانية أخرى، وهو نفسه سينهار فور أن يعرف أن هناك مؤسسات كنسية أخرى تعارض قناعاته. لذا فلا وجود لمثل هذه الكنيسة الوحيدة الصحيحة التي أسسها المسيح، ولن توجد أبدًا.

تقدم كل كنيسة الدلائل على صحة نسبها، بل وحتى المعجزات التي تؤيد حقيقتها، وهكذا تفعل جميع الكنائس. لذا فالتعريف الصحيح والدقيق للكنيسة ليست أنها شيء رائع على الإطلاق كما نود أن نصدق، ولكنه في الحقيقة تعريف واحد: الكنيسة هي اجتماع مجموعة من البشر يعتقدون أنهم يحوزون بمفردهم الحقيقة كاملًا».

التأكيد على أن الكنيسة واحدة أمر غير صحيح. الأمر ليس فقط أنه لم

يحدث أبدًا أن كانت هناك كنيسة واحدة فقط، بل ولا يمكن أن يحدث ذلك أبدًا. الكنيسة تظهر عندما تنقسم مجموعة المؤمنين. أما التعليم الزائف بأن الكنيسة واحدة إلى الأبد، فلا يؤيده سوى أن كل كنيسة تطلق على الأخرى مجموعة من المهرطقين، وأنها الوحيدة الحقيقية المعصومة.

عواقب اعتناق إيمان مزيف:

-١-

لقد أصبحت حياتنا شريرة، بل حتى أكثر شرًّا من حياة الوثنيين، والسبب في ذلك أننا اعتنقنا بدلًا من الإيمان الحقيقي إيمانًا مزيفًا مخادعًا.

-٢-

في الفترة الأخيرة يحاول رعاة الكنائس جميعًا أن يبدوا مناصرين لتطوير المسيحية. يقدمون بعض التنازلات ويحاولون تصحيح الانتهاكات التي لحقت بالمسيحية، ويقولون إنه من المستحيل أن ننكر مبدأ الكنيسة نفسها بسبب الانتهاكات التي تحدث منها، فهي وحدها مَن يمكنها أن توحد المؤمنين وتكون وسيطًا بينهم وبين الله. ولكن من الواضح أن كل ذلك غير حقيقي. الأمر ليس فقط أن الكنيسة لم تُوحِّد الناس أبدًا، لكنها كانت دائمًا من الأسباب الرئيسة لانقسام الناس، وكراهيتهم لبعضهم البعض، واندلاع الحروب والمعارك العظيمة ومحاكم التفتيش ومذابح برثلماوس(١١٧)...

---

(١١٧) القديس برثلماوس: أحد رسل المسيح الاثني عشر، أما المذبحة فحدثت في فرنسا عام ١٥٧٢ والتي ذبح خلالها ما يزيد عن ٣٠ ألف بروتستانتي فرنسي على يد السلطات الكاثوليكية "والمتعصبين من الكاثوليك» بأبشع وسائل القتل حيث كان الهدف منها القضاء على البروتستانت تمامًا، وذلك بأوامر من الملك شارل التاسع ووالدته خوفًا من سطوة وانتشار البروتستانتية. لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية متواطئة ومشاركة في المجزرة، ففي يوم ٢٤ أغسطس دقت أجراس الكنائس إشارة للجنود والمتطوعين من الأهالي المتحمسين الذين باتوا ليلتهم ينتظرون تلك الإشارة أمرًا صريحًا بالبدء في الفتك بالبروتستانت، إلا أنها دقت بوقت أبكر من الوقت المعلوم=

إلخ، ولم تتوسط الكنيسة أبدًا بين الله والناس، وهو الأمر الذي لا يحتاج إليه البشر، وقد حرَّمه المسيح بشكل مباشر. يُوجِّه المسيح تعاليمه مباشرة للجميع، أما الكنائس فتضع أوثانًا ميتةً بدلًا من الله، ولا تكتفي بعدم كشف التعاليم للشعب، بل إنها تخبئها عنهم. لذا فالكنائس التي نشأت عن فهم خاطئ مدعم بثبات ورسوخ، لا يمكنها سوى أن تطارد وتحارب كل فهم حقيقي للمسيحية. إنها تحاول إخفاءه، ولكن هذا غير ممكن؛ لأن كل تقدم في طريق المسيح يدمر وجودها.

-٣-

(في عام ١٦٨٢ حاكموا د. لايتون بإنجلترا، وهو إنسان محترم كان قد كتب كتابًا ضد جماعة الأساقفة، واقتادوه لتنفيذ العقوبة المقررة عليه. شقوا لحمه بوحشية، ثم قطعوا إحدى أذنيه، وجدعوا أحد جوانب أنفه، ثم حفروا على خده بقضيب حديد مشتعل SS (أي مثير الشغب)[١١٨].

بعد سبعة أيام شقوا لحمه ثانية، بغض النظر عن أن أثر الجرح في ظهره لا يزال حيًّا، وحطموا جانب الأنف الثاني، وقطعوا الأذن الأخرى، وحفروا الشعار على الخد الآخر. كل هذا فعلوه باسم المسيحية).

«جون موريسون دافيدسون»[١١٩].

-٤-

في عام ١٤١٥ حكموا على يوحنا جوس بالهرطقة؛ لأنه كشف الإيمان

= للصلاة، فشعر البروتستانت بالخطر، وهرب بعضهم خارج المدينة، أو لجأوا لدى أقاربهم من الكاثوليك، إلا أن هؤلاء أيضًا خضعوا للهجوم، ومَن لم يستطيعوا الهرب دوهموا في بيوتهم، وقتلوا بكافة أعمارهم. الأرقام متضاربة حول الضحايا؛ منهم مَن يقول أنها تصل إلى ستين ألفًا.

(١١٨) الحرفان الأولان من كلمة مثير الشغب بالروسية.

(١١٩) ١٨٤٣ - ١٩١٦: كاتب إنجليزي مؤلف كتاب إنجيل الفقراء.

الزائف للكاثوليكية والأفعال الشريرة للبابوات وحاكموه وحُكم عليه بالموت دون سفك دم، أي بالمحرقة. أعدموه خارج بوابات المدينة بين الحدائق. عندما اقتادوه صوب مكان الإعدام ركع على ركبتيه وبدأ يصلي. وعندما اقتاده الجلاد صوب المحرقة نهض جوس وقال بصوت عال: «من أجل يسوع المسيح! أذهب إلى الموت من أجل كلماته. سوف أحتمل كل شيء بطاعة».

عرَّى الجلادون جوس من ثيابه وأوثقوا يديه بالعمود. أوقفوه فوق مقعد خشبي، ووضعوا حوله الخشب والتبن. وصل خشب الحريق حتى مستوى ذقنه تقريبًا. وحينها اقترب الموظف الإمبراطوري منه وأخبره أنه إن أنكر كل ما قاله سوف يصفحون عنه. فأجاب جوس:

لا. أنا لا أعترف بذنبي.

وحينها أوقد الجلادون النار. شرع جوس في الصلاة: «أيها المسيح.. يا ابن الله الحي... اصفح عني».

اشتعلت النار عاليًا، وسريعًا ما انطفأت النيران بعد أن أكلت كل شيء.

هكذا يعلنون عن إيمانهم أولئك الذين يطلقون على أنفسهم مسيحيين.

ألم يتضح بعد أن كل هذا لا يشكل إيمانًا، بل إنه أفظع الخرافات؟

-٥-

أقسى طريقة ينشرون بها الإيمان المزيف، هي الإيحاء به للأطفال. يحدث الأمر على النحو الآتي: يسأل الطفل كبار السن الذين لديهم إمكانية فهم حكمة الأسلاف عن ماهية هذا العالم، وعن حياته والعلاقة التي تربطه بالآخرين، وهم لا يجيبونه بما يفكرون فيه أو بما يعتقدونه، ولكن يجيبونه بما كان يعتقده أسلافهم الذين عاشوا قبلهم بآلاف السنين، وبما لم يعد أحد منهم يصدقه على الإطلاق ولا يمكنه حتى أن يصدقه. فبدلًا من أن يمنحوا الطفل

الطعام الروحي الذي هو في حاجة إليه، يعطوه سمًّا لروحه لا يمكنه أن يتعافى منه فيما بعد إلا بأصعب وأقسى أنواع الجهود والمعاناة.

-٦-

(لم يحدث أبدًا أن ارتكب الناس أسوأ الشرور بضمير راضٍ وثقة كاملة في صحتها، مثلما يفعلونها بدافع من الإيمان المزيف).

«باسكال».

-٧-

يُعلمون عن رمز الإيمان ويقرؤونه كالصلوات في الكنائس ويتلون المراسيم الكنسية مرة في العام، وكأنها تعاليم إنجيلية، ثم في أيام الأسبوع. لا يمكن أن يكون الأمر بصورة أخرى: فلا يمكن أبدًا لِـمَن يؤمنون بإله شرير طائش قد لعن الجنس البشري وحكم على ابنه الوحيد أن يموت كفارة عنهم، وتوعد الناس بالجحيم الأبدي، أن يؤمنوا بإله الحب.

الإنسان الذي يؤمن بالمسيح ربًّا توعد الناس في الآخرة بالإدانة والإعدام للأحياء والأموات، لا يمكنهم أن يؤمنوا بالمسيح الذي علَّم بتوجيه الخد الآخر لِـمَن أساء إلينا، ذاك الذي لا يدين ويصفح ويحب الأعداء. الإنسان الذي يؤمن بأن العهد القديم موحى به، وبقداسة داود الذي أمر وهو على فراش الموت بقتل شيخ قد أساء له، ولم يستطع أن يقتله بنفسه؛ لأنه كان قد قطع يمينًا على نفسه بذلك (ملوك الأول ٢: ٨)[١٢٠]، وما إلى ذلك من الأعمال البغيضة التي يمتلئ بها العهد القديم، لا يمكنه أن يؤمن بالقانون

(١٢٠) يستشهد تولستوي بما ورد في ملوك الأول حينما كان داود يعطي الوصايا الأخيرة له على فراش الموت: (وَهُوَ ذَا مَعَكَ شِمْعِي بْنُ جِيرَا الْبَنْيَامِينِيُّ مِنْ بَحُورِيمَ، وَهُوَ لَعَنَنِي لَعْنَةً شَدِيدَةً يَوْمَ انْطَلَقْتُ إِلَى مَحَنَايِمَ، وَقَدْ نَزَلَ لِلِقَائِي إِلَى الأُرْدُنِّ، فَحَلَفْتُ لَهُ بِالرَّبِّ قَائِلاً: إِنِّي لاَ أُمِيتُكَ بِالسَّيْفِ).

الأخلاقي للمسيح. الإنسان الذي يؤمن بتعاليم ومواعظ الكنيسة عن إمكانية قبول الإعدام والحروب، لا يمكنه أن يؤمن بتعليم المسيح عن أخوة البشر أجمعين.

الأهم من ذلك أن الإنسان الذي يؤمن في إمكانية خلاص الناس عن طريق إيمانهم بالفداء أو بالأسرار، لا يمكنه أن يبذل كل ما لديه من قوة لتنفيذ التعليم الأخلاقي للمسيح في حياته.

الإنسان الذي علمته الكنيسة أنه لا يمكن أن يُخلِّص نفسه بقواه الخاصة، وأن هناك وسيلة أخرى، سوف يهرع حتمًا إلى تلك الوسيلة الأخرى ولن يبذل كافة جهوده، آملًا في الخلاص مع بقاء خطيته. إن التعليم الكنسي بأسراره وفدائه يُبعد تعاليم المسيح عن معناها الحقيقي.

-٨-

(نسير في الحياة عبر طريق ضيق، وندلف عبر باب ضيق... إنه طريق الحياة الصالحة. أما الباب والطريق الواسعين الذين يسير عبرهما كثيرون فهما الكنيسة.

هذا لا يعني أن الكنيسة نفسها هي ما يدمر الناس، بل ما يدمرهم هو أن يعتبروا الانضمام إليها وتنفيذ شعائرها وطقوسها يحررهم من واجباتهم الأخلاقية الأساسية).

«كانط».

ما جوهر الديانة الحقيقية:

-١-

(وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تُدْعَوْا سَيِّدِي، لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ، وَأَنْتُمْ جَمِيعًا

إِخْوَةٌ. وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَلاَ تُدْعَوْا مُعَلِّمِينَ، لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ). «متى ٢٢: ٨- ١٠».

هكذا علم المسيح، وقد علَّم هكذا؛ لأنه عرف أنه كما في وقته كان هناك أناس قد علَّموا الناس قانونًا مزيفًا على أنه قانون الله، كذلك سيظهر مثل هؤلاء الناس في زماننا هذا. لقد أدرك هذا، وعلَّمنا أنه يجب علينا ألَّا نسمع للناس الذين يطلقون على أنفسهم «معلمين»؛ لأن تعاليمهم مشوشة، والتعليم الحقيقي بسيط وواضح وقد كُشف لكافة البشر، وهو موجود في قلب كل إنسان.

يتلخص هذا التعليم في أن نحب الله على أنه الخير الأعلى والحقيقة القصوى، ونحب القريب كأنفسنا، ونعامل الآخرين كما نحب أن يعاملونا.

-٢-

ليس الإيمان أن نعرف ما حدث، أو ما سيحدث، ولا حتى ما يحدث، بل الإيمان هو شيء واحد فقط، وهو أن نعرف ماذا على كل إنسان أن يفعل.

-٣-

(فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ، وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لأَخِيكَ شَيْئًا عَلَيْكَ، اتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ، وَاذْهَبْ أَوَّلاً اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ، وَحِينَئِذٍ تَعَالَ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ). «متى ٥: ٢٣- ٢٤».

هذا هو الإيمان الحقيقي.... إنه ليس في الطقوس والأضحيات والشعائر، بل في الاتحاد بالناس.

-٤-

إن التعليم المسيحي واضح جدًّا، حتى إن الأطفال يمكنهم أن يفهموه بمعناه الحقيقي. ولكن مَن لا يريدون الحياة وفقًا للتعليم المسيحي هم

وحدهم مَن لا يفهمونه.

كي نتمكن من فهم المسيحية الحقيقية، علينا أولًا قبل كل شيء أن نرفض المزيفة.

-٥-

(إن ديانة الله الحقيقية خالية من الخرافة، فعندما تمتزج بالخرافة، تفسد. وقد علمنا المسيح عن الديانة الحقيقية، ووضح لنا أن من بين كل ما نفعله في الحياة هناك شيءٌ واحدٌ فيه نور وسعادة الناس... إنه حبنا لبعضنا البعض. لقد علمنا أنه لا يمكننا أن نصل إلى السعادة إلا عندما نخدم الناس لا أنفسنا).

«باسكال».

-٦-

(إن طالبنا قانون الله بشيء غير الحب، فهذا يعني أنه ليس قانون الله بل قانونًا قد اختلقناه نحن).

«سكوفورودا».

-٧-

لن تعرف الله أبدًا، إن وثقت فيما يقولونه لك عنه.

-٨-

من المستحيل أن نعرف الله بما يقولونه لنا عنه. لا يمكننا أن نعرفه إلا عندما ننفذ قانونه؛ هذا القانون الذي يعرفه قلب كل إنسان.

-٩-

يتلخص جوهر تعاليم المسيح في أنه كشف للناس عن الكمال الإلهي الذي يجب أن تسعى حياة البشر صوبه. أحيانًا ما يفهمه الناس الذين لا يريدون أن يتبعوا تعاليم المسيح عن عمد وأحيانًا عن غير عمد ليس كما كشف لنا

كسعي حثيث لا يتوقف صوب الكمال، بل كقاعدة يأمرنا الله بموجبها أن نصل إلى الكمال الإلهي. هذا الفهم الخاطئ لتعاليم المسيح يجعل من الناس الذين لا يريدون اتباع هذه التعاليم يفعلون أمرًا من اثنين: إما أن يعترفوا بعدم إمكانيتهم للوصول إلى الكمال (وهو أمر صحيح تمامًا) ويلقوا بالتعليم كله بعيدًا وكأنه حلم مستحيل (وهذا ما يفعله العلمانيون)، أو أن يقوموا بالأمر الأكثر ضررًا وانتشارًا بين الناس الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين، وهو أنهم مع الاعتراف بعدم إمكانية الوصول إلى الكمال يُحرِّفون التعليم، وبدلًا من التعليم المسيحي الحقيقي الذي يتلخص في السعي الحثيث الدائم صوب الكمال الإلهي يتبعون قواعد أخرى تناقض المسيحية بشكل مباشر. هذا ما أظهرته ولا تزال تظهره أغلب أنشطة الكنائس، بداية من تحريف نصوص الإنجيل كإدراج كلمة «باطلًا» في الحديث عن الغضب وأمور أخرى كثيرة[١٢١]، ووصولا إلى كل أنواع الأسرار والطقوس والشعائر غير المبررة، والأهم من ذلك: العقائد مثل: التثليث- الفداء- عصمة الكنيسة... إلخ.

-١٠-

ستظل الكنيسة الحقيقية، والتي تعني اتحاد الناس حقًّا، أمرًا داخليًّا. فملكوت لله بداخلكم[١٢٢]. البشر لا يعرفون بعضهم البعض، ومنفصلون عن بعضهم البعض في المكان والزمان، لكنهم متحدون اتحادًا سرمديًّا بالحقيقة التي توحدهم. أما الكنيسة الخارجية التي تُوحِّد الناس في الزمان والمكان فهي تخرق الوحدة الحقيقية الداخلية، وتضع بدلًا منها وحدة ظاهرية

---

(١٢١) يقصد تولستوي تلك الآية: (كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلًا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ) «متى ٥: ٢٢»، وهو يقصد أن الآية لم تكن تحوي كلمة (باطلًا).

(١٢٢) (وَلَا يَقُولُونَ: هُوَ ذَا ههُنَا، أَوْ: هُوَ ذَا هُنَاكَ! لأَنْ هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ) «لوقا: ١٧- ٢١».

فقط. إن الكنيسة المنظورة هي مجرد شبيه كاذب للوحدة الحقيقية.

إن كانت هناك كنيسة، فهي تتألف من الناس الذين عاشوا في القرون السالفة، والذين يعيشون الآن متناثرين في الهند واستراليا وجرينلاند، وعلى كل وجه الأرض، من بشر لا يعرفون بعضهم البعض.

إن مفهوم الكنيسة على أنها جماعة المختارين، وأنهم بشر أفضل من غيرهم ليس مفهومًا مسيحيًّا على الإطلاق، بل هو مفهوم متكبر مزيف. مَن الأفضل ومَن الأسوأ؟ كان بطرس الأفضل قبل أن يصيح الديك، واللص الأسوأ حتى وقت الصليب(١٢٣). ألا يدرك كل منا في نفسه ملاكًا وشيطانًا يتبادلون الأوضاع طوال الوقت، وأن ما من إنسان يطرد الملاك الذي بداخله تمامًا، ولا أحد لا يظهر فيه الشيطان أبدًا بسبب الملاك الذي بداخله؟ كيف يمكننا نحن المخلوقات التي لها أكثر من وجه أن نعتبر أنفسنا مختارين وصالحين؟

هناك نور الحقيقة، وهناك بشر يحاولون الاقتراب منه من كل ناحية، وبقدر عدد أنصاف الأقطار الموجودة في الدائرة بقدر عدد الطرق اللانهائية. سوف نسعى إلى نور الحقيقة بكل ما لدينا من قوة؛ لأنه النور الذي يوحدنا، وبقدر ما نقترب منه بقدر ما لا ندين أنفسنا.

الإيمان الواحد الحقيقي يزيد من اتحاد الناس ببعضها البعض أكثر فأكثر تدريجيًّا:

-١-

إن المسيحية الكنسية المحرفة تبعدنا عن تحقيق ملكوت الله، ولكن المسيحية الحقيقية، هي كما النار في الموقد، فهي تبدو خامدةً تحت الحطب

(١٢٣) الإشارة إلى أن بطرس كان يبدو أفضل التلاميذ المسيح حتى اضطر إلى أن ينكر معرفته بالمسيح حين تم القبض على الأخير. والإشارة إلى اللص الذي صُلب بجانب المسيح وقدم توبة في اللحظة الأخيرة قبل موته.

الندي، وقد جففت جذوره، وغطته، وبدأت في التصاعد ثانيةً. إن المعنى الحقيقي للمسيحية أصبح واضحًا الآن للجميع، وتأثيره أقوى من الخداع الذي يحاول أن يحجبه عن البشر.

-٢-

(الاستماع إلى هذا السخط العميق على هذه الصياغة الموجودة الآن من المسيحية والتي تنتشر في المجتمع يتم التعبير عنه في صورة همهمة، وأحيانًا في صورة غضب وسخط. الجميع في حالة ظمأ لتحقيق ملكوت الله، وهو يقترب فعلًا من التحقق.

إنها مسيحية أكثر نقاءً، ومع أنها تقترب ببطء، لكنها رويدًا رويدًا تحل مكان هذه المسيحية الاسمية).

«شانينج».

-٣-

(من موسى وحتى المسيح حدث تطور عقلي وديني عظيم بين أفراد وشعوب مختلفة. يمكن ملاحظة هذا التطور الكبير الذي حدث منذ عهد المسيح وحتى يومنا هذا الآن جيدًا. تراجعت الضلالات القديمة، وبدأت أفكار جديدة حقيقية تدخل إلى وعي الإنسانية.

لم يعد إنسان واحد له عظمة الإنسانية جمعاء. إن كان رجل ما عظيمًا جدًّا حتى إن أقرانه لا يفهمونه، فسيأتي الوقت حينما يلحقوا به، ثم يتجاوزونه ويمضون بعيدًا، حتى لا يعودوا هم بدورهم مفهومين لأولئك الذين يقفون في مكانه. كل عبقري ديني عظيم يوضح الحقائق الدينية أكثر فأكثر، وهذا بدوره يوحد الناس أكثر فأكثر).

«باركر».

(الإنسان بمفرده، مثله مثل البشرية جميعًا، عليه أن يتغير، وينتقل من حالة متدنية إلى حالة سامية، ولا يتباطأ في النمو حتى يصل إلى الحد الأخير له، وهو الله نفسه. وكل حالة تعتبر نتيجة للحالة التي تسبقها. يحدث النمو بلا توقف ودون أن يلحظه أحد، وهو يشبه نمو الجنين، دون أن يعوق شيء هذه السلسلة المتعاقبة من درجات النمو. ولكن إن كان الجنس البشري بأكمله قد خُلِق مفطورًا على هذه التحولات، إلا أنها لا يمكن أن تحدث إلا عبر العمل والمعاناة. قبل أن تصل إلى العظمة، وقبل أن تخرج إلى النور، عليك أن تتحمل الاضطهاد، وتهب جسدك كي تنقذ روحك. عليك أن تموت كي تولد من جديد في الحياة أكثر قوة واكتمالًا. وبعد مرور ١٨٠٠ عام، وإتمام إحدى حلقات التطور، تناضل الإنسانية مجددًا من أجل مرحلة تحول جديدة. الأفكارِ والمجتمعات القديمة، وكل ما كان يُشكِّل العالم القديم قد تداعى بالفعل، وتعيش الشعوب الآن بين الحطام في معاناة وهلع. لذلك ليس علينا أن نشعر بالقنوط عند رؤيتنا لهذا الحطام، وهذا الموت الذي حل بنا ولا يزال يحل؛ بل علينا أن نكون شجعانًا، فزمان وحدة الناس لم يعد بعيدًا).

«لامنيه».

* * *

العِلم الكاذب

إن خرافة العِلم تتأسس على الإيمان بأن الشيء الوحيد الحقيقي والضروري لحياة كافة البشر يتألف من معارف منتقاة عرضًا من بين مجالات المعرفة غير المحدودة؛ معارف قد استطاعت أن تُلفت أنظار كثيرين من الناس في زماننا الحالي، وهم أناس قد استطاعوا أن يُحرروا أنفسهم من العمل الضروري للحياة، ولذلك فهم يعيشون حياة لا أخلاقية وغير عقلانية.

ممَّ تتألف خرافة العِلم؟

-١-

عندما يتقبل الناس دون فحص عقلي حقيقة ما قد أورثه لهم أسلافهم، فإنهم يسقطون أسرى الخرافة. وفي زماننا هذا لدينا خرافة العِلم، وهي تتأسس على الاعتراف بحقائق لا يمكن الشك فيها يتوارثها أولئك الأساتذة والأكاديميون والناس الذين يطلقون على أنفسهم بشكل عام «العلماء».

-٢-

كما أن هناك تعليمًا مزيفًا عن الإيمان، فكذلك هناك تعليم مزيف عن العلم. يتأسس الأخير على الاعتراف بعلم واحد حقيقي، وقد اعتُبِر كذلك من قبَل أناس قرروا أن يأخذوا على عاتقهم مهمة تحديد العلم الحقيقي. وما إن تحول العلم من شيء ضروري لكافة البشر إلى شيء يحدده فقط مَن أخذوا على عاتقهم في الوقت الحالي حق تحديد ما هو العلم تحديدًا، حتى لم يعد يمكن للعلم إلَّا أن يكون مزيفًا. هذا ما حدث في عالمنا.

-٣-

يشغل العلم في عالمنا الآن بامتياز نفس المكانة التي كانت الكنيسة تشغلها منذ مائتين إلى ثلاثمائة عام مضت. أصبح الأساتذة كهنة مُسلَّم بصحتهم، وتحولت الكاتدرائيات إلى أكاديميات وجامعات ومؤتمرات.

-٤-

كما يمكنك أن تجد الثقة المطلقة، وغياب النقد لدى المؤمنين، وأيضًا الخلافات الدائمة، دون أن يعوقهم ذلك عن الاستمرار على نفس الحال، فستجد الكلمات الغامضة غير المفهومة، بدلًا من الأفكار الواضحة، وستجد الثقة المتكبرة في الذات أيضًا:

ما يقوله ينكره الوحي والكنيسة.

ما يقوله ينكره العلم.

-٥-

كان المصري ينظر إلى كل ما يقوم الكهنة به على أنه حقيقة، لكننا لم نعد ننظر الآن إلى تلك الأمور بنفس الطريقة. ينُظر السذج من الناس -الذين لا يعرفون العلم- إلى العلم على أنه شيء يشبه الإيمان، وأنه أعلى كشف معرفي قد توصل إليه الإنسان، ويصدقون دون أدنى شك كل ما يقدمه إليهم كهنة العلم.

-٦-

أكثر ما يضر المعرفة الحقيقية هو استخدام كلمات ومفاهيم ليست واضحة. وهذا ما يفعله العلماء المُتخيَّلون باختلاق كلمات ومصطلحات غير واضحة وغير موجودة من أجل شرح مفاهيمهم غير الواضحة.

-٧-

يعبر كل من العلم والدين المزيفين عن عقائدهما دائمًا بلغة طنانة تبدو في غموضها وكأنها مهمة وسرية.

كثيرًا ما تبدو مجادلات العلماء صعبة الفهم، ليست فقط بالنسبة للآخرين، بل ولأنفسهم، كحديث معلمي الإيمان المحترفين. يستخدم العالم المتحذلق كثيرًا من العبارات اللاتينية ومصطلحات يختلقها، فيحول أبسط شيء ممكن إلى فكرة غير مفهومة، تمامًا مثلما يستخدم الكهنة صلوات لاتينية مع شعب أميٍّ.

الغموض ليس سمة الحكمة. كلما تزداد حكمة فعلا، كلما تزداد بساطة اللغة التي تستخدمها للتعبير عن أفكارك.

العلم الكاذب يعمل على تبرير النظام الاجتماعي القائم:

-١-

يبدو أنه كي نتمكن من الاعتراف بأهمية تلك المعارف التي تُدعى «العلم»، علينا أن نثبت فائدتها. عادةً ما يؤكد العاملون بالعلم أنه بما أنهم يتعاملون مع مواضيع معروفة، فلا بد وأن تظهر فائدة ذات يوم لهذه المعارف.

-٢-

الهدف المعلن من العلم هو معرفة الحقائق التي تؤدي إلى خير البشر. الهدف المزيف منه هو تبرير الخداع الذي يؤدي إلى الشر السائد في حياة الإنسانية. هكذا هو الأمر مع علم التشريع، والاقتصاد السياسي، وخاصة الفلسفة واللاهوت.

-٣-

يمكننا أن نجد في العلم نفس الخداع الذي نجده في الإيمان وهو ينطلق

من محاولة تبرير عيوبه، وهكذا فإن خداع العلم مضر تمامًا كخداع الدين. يضل الناس ويعيشون حياة شريرة. يتوجب على معاصرينا الآن الذين قد أدركوا أنهم يعيشون حياة شريرة أن يحاولوا أن يغيروا من هذه الحياة، ويعيشوا حياة أفضل. هذا مع يحدث مع العلوم المختلفة: الدولية والمالية والكنسية والجنائية والشُّرطية، وعلم الاقتصاد السياسي والتاريخ، وأكثر العلوم حداثة: علم الاجتماع، فبدلًا من أن يفحص القوانين التي يعيش الناس بمقتضاها، وما القوانين التي يجب أن يعيشوا وفقًا لها، يحاول إثبات أن السبب في حياة الناس الشريرة ليست تلك القوانين وأن البشر لا يتوجب عليهم أن يتوقفوا عن تلك الحياة الشريرة وأن يُغيروا حياتهم من السيئ إلى الأفضل، ولكن يتوجب عليهم فقط أن يعيشوا كما السابق، يعيشوا حياة مليئة بالعيوب، وليس عليهم أن يعتقدوا أن الفقر يحدث بسببهم هم أنفسهم، بل يحدث بسبب قوانين معينة، تمكن العلماء من اكتشافها والإعلان عنها. هذا الخداع غير عقلاني ويناقض الضمير، حتى إنه لم يكن من الممكن أبدًا للناس أن يقبلوه إن لم يكن قد جعلهم ينغمسون في تلك الحياة الشريرة.

-٤-

لقد نظمنا شؤون حياتنا بشكل غير أخلاقي تمامًا يتوافق مع الطبيعة الجسدية للإنسان، ونحن على ثقة كاملة أن هذه هي الحياة الحقيقية، لسبب وحيد وهو أن الجميع يظنون هذا. نشعر على نحو غير واضح أن كل ما نطلق عليه «تنظيم الدولة الاجتماعي- ديانتنا- ثقافتنا- علومنا- فنوننا» ليس حقيقيًا، ولا يخلصنا من مصائبنا، بل يزيد منها فقط. لكننا لم نقرر أن نعرض كل هذا إلى الفحص العقلي؛ لأننا نعتقد أن الإنسانية دائمًا ما اعترفت على مر تاريخها بضرورة الدولة والدين والعلم، ولا يمكنها أن تعيش من دونهم.

إن كان الكتكوت داخل البيضة قد وُهِب عقلًا إنسانيًّا، واستخدمه بالطريقة التي يستخدمه بها معاصرونا لما كسر البيضة أبدًا ولما عرف الحياة.

-٥-

أصبح العلم الآن بمثابة مبصقة، يبصقون فيها الشهادات العلمية على حساب عمل الآخرين.

-٦-

(كثيرًا ما لا تكون الثرثرة المنهجية للمؤسسات العلمية العليا سوى اتفاق عام على الابتعاد عن محاولة حل القضايا الصعبة، مما يمنح الكلمات معنى مغاير؛ لأن كلمة «لا أعرف» -وهي عبارة مريحة ومنطقية في كثير من الأحيان- لا يود الأكاديميون أن يسمعوها).

«كانط».

-٧-

ما من أمرين يتناقضان مثلما تتناقض المعرفة والمصلحة، العلم والمال. إن كنت في حاجة إلى مزيد من المال كي تصبح أكثر علمًا، وإن كان العلم يمكن شراؤه وبيعه بالمال، فالبائع والشاري مخطئان.

طرد المسيح الباعة من الهيكل، وهكذا يجب أن نطرد الباعة من حقل العلم.

-٨-

لا تنظر إلى المعرفة كتاج تود أن تتباهى به، ولا كبقرة تود أن تحصل منها على طعامك.

-٩-

الدليل الأكبر على أن كلمة علم تتكرر أغلب الوقت بالإشارة إلى أكثر

الأشياء تفاهة، بل وفسادًا، هو وجود علم خاص بالعقوبات، أي علم يختص بالقيام بأكثر الأفعال بربرية، لا يناسب أدنى مراحل الإنسان في تطوره: مرحلة الطفولة- مرحلة البدائية.

العواقب السيئة لخرافة العلم:

-١-

ما من بشر لديهم أفكار معقدة ومشوشة عن الدين والأخلاق والحياة مثل رجال العلم، والأكثر مدعاة للدهشة هو أن العلم في زماننا -وقد حقق بالفعل نجاحًا كبيرًا في مجال الدراسات المادية لعالمنا- يبدو كثيرًا غير لازم لحياة كثير من الناس الآن، بل ويبدو أنه يجلب لها الضرر أيضًا.

-٢-

انتشار تلك الفكرة بين الناس أمر مضر جدًّا؛ ألا وهي أن حياتنا ما هي إلا نتاج لقوى مادية، وأنها -أي الحياة- تعتمد عليها كاملًا. ولكن عندما يُطلق على هذه الأفكار المزيفة «علوم» نتجت عن حكمة الإنسانية المقدسة، فإن خطر هذه العلوم يكون رهيبًا.

-٣-

(إن تقدم العلوم لا يعمل على تطور الأخلاق. إن نظرنا إلى حياة كل الشعوب التي نعرفها فسنجد أن تطور العلم قد توازى مع فساد الأخلاق. أما أننا نعتقد العكس؛ فذلك بسبب أننا نخلط بين معارفنا التافهة المخادعة وبين معارفنا الحقيقية السامية. العلم في جوهره لا يمكن إلا أن يبعث على الاحترام، ولكن العلم الحالي الذي يطلق عليه المجانين علمًا، فلا يستحق إلا السخرية والازدراء).

«روسو».

-٤-

التفسير الوحيد الذي تمنحه هذه الحياة الجنونية لمعاصرينا، تلك الحياة التي تناقض معارف أفضل الناس على مر العصور، ويقضي فيها الشباب أعوامًا طويلة في حل أكثر المسائل صعوبة، يختص بأمور من قبيل: حالة الأجرام السماوية- حالة الأرض منذ ملايين الأعوام- أصل الأنواع... إلخ لا ترشد الناس إلى الشيء الوحيد الذي هم في حاجة إليه دائمًا؛ ألا وهو هدف الحياة الإنسانية، وكيف يتوجب على البشر أن يسلكوا فيها، وكيف فكَّر حكماء الإنسانية من جميع العصور في تلك المسألة.

لا يقتصر الأمر على أن هذه الحياة لا ترشد الشباب، بل إنها تقودهم تحت اسم «قانون الله» إلى أكثر الأفكار عبثًا والتي لا يمكن حتى لقائليها أن يصدقوها، فبدلًا من وضع حجر صلب يستند عليه بناء حياتنا، نضع فقاعة هواء، فماذا يمكن أن يحدث لهذا البناء إلَّا أن ينهار؟

-٥-

ذاك ما يطلقون عليه علمًا، هو ما اختلقه الأغنياء، واللازم لهم من أجل شغل وقت حياتهم الخاملة البطَّالة.

-٦-

(نحن نعيش في عصر الفلسفة والعلم والعقل. ويبدو أن كافة العلوم قد اتحدت كي تنير لنا الطريق في متاهة حياتنا الإنسانية. لقد أُتِيحت مكتبات ضخمة للجميع، ومدارس ثانوية في كل مكان، ومدارس ابتدائية وجامعات، تمنحنا منذ طفولتنا فرصة أن نستفيد من حكمة الأسلاف التي استغرقت آلاف الأعوام. ويبدو كما لو أن كل شيء قد أُعِد من أجل تهذيب عقولنا. حسنًا... هل أصبحنا في حال أفضل أو أكثر حكمة من كل ذلك؟ هل أصبحنا على

وعي أفضل بالطريق والهدف من دعوتنا؟ هل أصبحنا على وعي أفضل بواجبنا والخير الحقيقي لحياتنا؟ ما الذي حصلنا عليه من كل تلك المعارف العقيمة سوى العدوان والكراهية والغموض والشكوك؟ إن كل تعليم أو طائفة دينيين يحاول أن يثبت أنه وحده الصحيح. وكل كاتب يعرف أين يكمن خير الإنسانية الحقيقي. واحد يثبت أن الخير ليس في الجسد، والآخر أنه ليس في الروح، وثالث يقول إنه ما من رابطة بين الروح والجسد، ورابع يقول إن الإنسان حيوان، وخامس يدَّعى أن الله مجرد مرآة لذواتنا).

«روسو».

-٧-

الشر الأعظم للعلم المعاصر، هو أنه رغم عدم قدرته على دراسة كل شيء، ورغم أنه لا يستطيع دون مساعدة الدين أن يعرف ما الذي يجب عليه دراسته بالتحديد، يقوم بدراسة ما يروق فقط لأكثر من يعيش حياة فاضلة من بين رجاله.

أكثر ما يروق لرجال العلم المعاصرين هو النظام القائم والذي يحقق مصالحهم، ويرضي فضول مَن يحيا حياة بطَّالة ولا يطلب منهم بذل مزيد من الجهود.

عدد لا محدود من مواضيع الدراسة في مقابل قدرات إنسانية محدودة:

-١-

قال حكيم فارسي: (عندما كنت شابًا، كنتُ أقول لنفسي: «أريد أن أعرف العلم كله»، وقد حصَّلت تقريبًا ما قد حصَّله الناس جميعًا، وعندما أصبحتُ شيخًا نظرتُ إلى كل ما عرفته، وأدركت أن الحياة قد مرَّت دون أن أعرف شيئًا).

-٢-

(ملاحظات وحسابات علماء الفلك تعلمنا كثيرًا من الأشياء التي تستحق الإعجاب، ولكن أكثر النتائج أهمية لأبحاثهم هي اكتشافهم لمدى جهلنا المروع، فمن دون تلك الأبحاث لم يكن في إمكان العقل الإنساني أبدًا أن يدرك حجم جهله الشديد، والتفكير في هذا الأمر من شأنه أن يحدث تغييرات حقيقية في أهداف نشاطاتنا العقلية).

«كانط».

-٣-

(«هناك عشب على الأرض، بإمكاننا رؤيته، لكنه لا يظهر في ضوء القمر. هناك خيوط على هذا العشب، وفي قلب هذه الخيوط حيوانات صغيرة، وما من شيء أكثر من ذلك!». يا له من غرور!

«الأجسام المعقدة تتكون من عناصر، والعناصر أبدية». يا له من غرور!).

«باسكال».

-٤-

(ليس لدينا حتى معارف تكفي لفهم حياة الجسد الإنساني فقط. تنظروا إلى ما نحتاج إلى معرفته: الجسد في حاجة إلى مساحة ووقت وحركة ودفء وضوء وطعام وشراب وهواء وأشياء كثيرة أخرى. كذلك تترابط الأمور في الطبيعة ببعضها البعض ارتباطًا وثيقًا، بحيث لا يمكن للمرء أن يعرف شيئًا فيها دون أن يدرس الآخر. لا يمكن معرفة الجزء دون معرفة الكل. يمكننا فهم حياة الجسد فقط عندما ندرس ما هو في حاجة إليه، وكي نقوم بذلك علينا أن ندرس الكون بأكمله. ولكن الكون غير محدود، ولا يمكن الإحاطة به كاملًا. نستنتج من ذلك أنه لا يمكننا أن نفهم حياة جسدنا كاملًا).

«باسكال».

-٥-

(عندما تعمل العلوم التجريبية من تلقاء نفسها دون إرشاد من أفكار فلسفية معينة، تشبه شخصًا أعمى. إنها تمثل واحدة من المعارف المناسبة لذوي القدرات المتوسطة، ومع ذلك فهم محرومون من أسمى المواهب التي لن تشكل سوى عائق أمام هذه الأبحاث المضنية.

يُكثِّف أصحاب هذه القدرات المتوسطة كافة جهودهم في حقل علمي واحد محدود بحيث يمكنهم بالتالي تحقيق أكبر قدر من المعرفة في هذا المجال، وتحقيق جهل كامل في بقية المجالات، وهم في هذا يشبهون العمال في مصانع الساعات، بعضهم لا يمكنه سوى أن يصنع العجلات، والبعض لا يمكنه إلا أن يصنع الزنبرك، وآخرون يصنعون السلاسل).

«شوبنهاور».

-٦-

(ليس ما يهم هو عدد المعارف بل مضمونها. من الممكن أن نعرف الكثير جدًّا، دون أن نعرف أكثر ما نحتاج إليه. تحولت دراسة التاريخ الطبيعي في ألمانيا في نهاية الأمر إلى محض جنون. وبالرغم من أن الإنسان والحشرة لهما نفس القيمة عند الله، إلا أنهما ليس كذلك في عقلنا. كم من الأمور يلزم الإنسان دراستها قبل أن يدرس الطيور والحشرات! إنه في حاجة لدراسة روحه، وتعويد عقله على الحذر في إطلاق الأحكام، وتعويد القلب على السلام. تعلَّم أن تدرك الآخر، وأن تتسلح بالشجاعة، وتقول الحق من أجل خير أقربائك في البشرية. عليك أن تشحذ قدرات عقلك الرياضية، وإن لم تجد وسيلة أخرى لتحقيق ذلك، فتجنب تصنيف الحشرات وأي معرفة سطحية لا تنتهي وغير مفيدة لك بالمرة.

لكنك تقول لي: «ولكن الله غير المحدود في الحشرات كما هو في الشمس». وإني أعترف بذلك عن طيب خاطر. إنه لا محدود كرمل البحر، وهائل جدًّا بحيث لا يمكن لأحد أن يحيط به. إن كنت لا تشعر بنداء خاص بداخلك لاصطياد اللآلئ في تلك البلاد حيث تلك الرمال، فلا تفارق مكانك وازرع حقلك. إنه يطلب من الجميع بحسب جهد كل واحد، ولا تنسَ أن إمكانات عقلك محدودة. وحيث تجد بعضًا من تاريخ الفراشة يمكنك أن تجد مكانًا لأفكار الحكماء الذين يمكنهم أن يلهموك).

ليشتنبرج

-٧-

(لم تكن لدى سقراط هذه النقيصة المنتشرة في أيامه ومحاولة تفسير كل شيء في محاوراته عن كل الموجودات وإبراز مصدرها، وهو ما يطلق عليه السفسطائيون «طبيعته»، والوصول إلى الأسباب الأولى التي صدرت منها الأجرام السماوية. لقد قال إنه من المستحيل أن يدرك البشر كل شيء يهمهم إن انشغلوا بكل ما لا يهمهم كثيرًا.

أبدى سقراط دهشته بشكل خاص من عمى أولئك العلماء المزيفين الذين لا يدركون أن العقل الإنساني لا يمكنه اختراق مثل هذه الأسرار، لذلك فكل هؤلاء البشر -كما يقول- الذين يتخيلون أنهم لديهم القدرة على اختراق كنه هذه الأسرار بعيدون عن التلاقي في وجهات نظرهم الأساسية، وعندما تستمع إليهم في كل مكان تشعر وكأنك تستمع إلى مجانين. فما العلامات الدالة على البائسين من الناس الذين استحوذ عليهم الجنون؟ إنهم يخافون من أشياء لا تبعث على الخوف، ولا يخافون ممَّا يبعث فعلًا على الخوف).

«كسينوفون»[(١٢٤)].

(١٢٤) فيلسوف يوناني قديم ومؤرخ وجندي ومرتزق، وكان أحد طلاب سقراط.

-٨-

(الحكمة أمر عظيم ومتسع. إنها تطلب كل الوقت المتاح من أجلها. وأيًّا كان عدد القضايا التي استطاعت حلها، فإنك تشعر بضرورة فحص قضايا أخرى كثيرة تحتاج إلى الدراسة واتخاذ القرار بشأنها.

إنها قضايا كثيرة وواسعة حتى إنها تتطلب من الوعي أن يطرح كل ما ليس له أهمية بعيدًا عنه، حتى يتسع المجال كاملًا لعمل العقل. فهل تبدد حياتك بأكملها في بضعة مصطلحات؟ كثيرًا ما يبدو أن العلماء يفكرون في المصطلحات لا في الحياة. لاحظ الشر الذي يمكن أن تجلبه الحكمة المفرطة، وكم يمكن أن تبدو خطرة على الحقيقة).

«سينيكا».

-٩-

العلم غذاء العقل، ويمكن أن يكون هذا الغذاء مضرًّا، فكما أن الغذاء الجسدي يمكنه أن يضر الجسد إن كان غير نظيفًا ولم تنظفه جيدًا، هكذا هو الأمر مع الغذاء العقلي، فيمكنك أن تمرض من تناوله بنهم. كي تتجنب هذا عليك أن تتناوله فقط عندما تكون جائعًا -كما هو الأمر في الغذاء الجسدي- أي عندما تشعر بضرورة المعرفة، وحينها فقط تكون المعرفة واجبة للروح.

موضوعات المعرفة غير محدودة، والعلم الحقيقي هو ما يختار منها الأهم والأكثر ضرورةً:

-١-

عدم المعرفة ليس أمرًا يدعو إلى الخزي، ولا هو مضر، فما من إنسان يمكنه أن يعرف كل شيء، ولكن ما يدعو إلى الخزي حقًّا، بل ويضر المرء هو التظاهر بأنه يعرف ما لا يعرفه.

-٢-

قدرة العقل البشري على استيعاب المعارف محدودة. لذا من المستحيل أن نعتقد أنه كلما عرفنا أكثر كلما كان ذلك أفضل. إن معرفة عدد ضخم من المواضيع التافهة تشكل عقبة لا يمكن تجاوزها أمام معرفة ما يحتاج إليه المرء فعلًا.

-٣-

(يزداد العقل قوةً بدراسة ما يحتاج إليه الإنسان ويهمه، ويضعف بدراسة توافه الأمور التي لا يحتاج إليها، كما يحدث مع الجسد بالضبط حينما يزداد قوةً أو ضعفًا بحسب ما إن كان ما يتناوله غذاء طازجًا أو متعفنًا).

«جون راسكن».

-٤-

(ظهر في أيامنا عدد كبير من المعارف تستحق الدراسة. سوف تضعف قدراتنا سريعًا، والحياة قصيرة جدًّا، حتى إنه يتوجب علينا أن نختار جزءًا بسيطًا نافعًا لنا من بين هذه المعارف كي ندرسه. لدينا ثروة كبرى في خدمتنا، ولكن كي نحصل عليها علينا أن نطرح كثيرًا من النفايات بعيدًا، فمن الأفضل لنا ألا نحمل عبئها).

«كانط».

-٥-

ما من نهاية للمعرفة، لذا فمن عرف كثيرًا لا يمكنه أن يقول أنه عرف أكثر من ذلك الذي عرف قليلًا.

-٦-

من أكثر الظواهر المألوفة التي نراها في زماننا أن نرى أولئك الذين يعتبرون

أنفسهم علماء ومثقفين ومتنورين، يعرفون عددًا هائلًا من الموضوعات غير الهامة، ويظلون في كامل بربريتهم وجهلهم، ولا يقتصر الأمر على أنهم لا يدركون هدف حياتهم، بل إنهم يفتخرون بهذا الجهل. وعلى النقيض من ذلك، ليست ظاهرة أقل شيوعًا أن تلتقي من بين أنصاف المتعلمين والجهلة ومَن لا يفقهون شيئًا في جدول العناصر الكيميائية والتحولات وخواص الإشعاع، وتجدهم متنورين حقًّا ويدركون هدف حياتهم، ولا يفتخرون بذلك.

-٧-

(لا يمكن للناس أن يدركوا كل ما يحدث على البسيطة، لذلك فأحكامهم حول كثير من الأمور غير صحيحة. يبدو جهل الإنسان مضاعفًا، فالنوع الأول من الجهل يبدو طبيعيًّا صافيًا، وهو النوع الذي يولد فيه الناس، ولكن النوع الثاني هو ما يطلقون عليه -إن جاز التعبير- جهل الحكمة الحقيقية. فعندما يدرس الإنسان كافة العلوم ويعرف كل ما يعرفه الناس، ويدرك أن هذه المعارف تافهة، حتى إنه لا يمكنه عبر دراستها أن يتعرف على العالم الإلهي، ويصبح على قناعة بأن العلماء -في حقيقة الأمر- لا يعرفون شيئًا كالبسطاء غير المتعلمين. ولكن هناك نوع من الناس إن عرف شيئًا ما اختال به. لقد فارقوا الجهل الطبيعي، لكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى الحكمة الحقيقية لهؤلاء العلماء الذين أدركوا عدم كمال وتفاهة كافة المعارف الإنسانية. إنهم بشر يعتبرون أنفسهم أذكياء ويسربلون العالم كله بالعار. إنهم يحكمون على كل شيء بغرور وتسرع، وبالطبع هم مخطئون دائمًا. إنهم يستطيعون ذرَّ الرماد في الأعين، وكثيرًا ما يعاملهم الآخرون بتبجيل، ولكن الشعب البسيط يزدريهم، مدركًا تفاهتهم، وهم بدورهم يزدرون الشعب ويعتبرونه همجيًّا).

«باسكال».

-٨-

كثيرًا ما يعتقد الناس أنه كلما تزداد معرفة كلما يكون ذلك أفضل. هذا غير حقيقي. الأمر ليس أن تعرف أكثر، بل أن تعرف من وسط كل ما يمكنك أن تعرفه ما أنت في حاجة إليه فعلًا.

-٩-

لا تخشَ من عدم المعرفة، بل خَفْ من المعرفة الزائدة غير الضرورية، خاصة إن كانت من أجل ربح لك أو من أجل المديح.

أن تعرف أقل مما تحتاج، أفضل من أن تعرف أكثر مما تحتاج. المعرفة الزائدة تجعل الناس راضين عن أنفسهم ويشعرون بالغرور، وذلك يجعلهم أشد جهلًا من حالتهم عندما لا يعرفون شيئًا.

-١٠-

(لا يبدو الأذكياء علماء، ولا يبدو العلماء أذكياء).

«لاو تسو».

-١١-

يستطيع البوم أن يرى في الظلام، لكنه يعمى في ضوء الشمس. هكذا الأمر مع العلماء؛ إنهم يعرفون كثيرًا جدًّا من الهراء العلمي الذي لسنا في حاجة إليه، لكنهم لا يعرفون شيئًا ولا يستطيعون أن يعرفوا عن أهم ما يلزمنا في الحياة: كيف يمكن للإنسان أن يعيش في النور؟

-١٢-

قال الحكيم سقراط إن الحماقة ليست في نقص المعرفة، بل في ألا تعرف نفسك وتعتقد أنك تعرف ما لا تعرفه حقًّا. وقد أطلق على ذلك الحماقة والجهل.

-١٣-

إن فهم إنسان كافة العلوم وتحدث بكل اللغات، لكنه لم يعرف مَن هو، وما الذي يجب أن يفعله، فهو أقل استنارة بدرجة كبيرة جدًّا من تلك العجوز الأمية التي تؤمن بالأب المخلص -أي الله- وتعتبر نفسها حية بقوته، وتعرف أنه يطلب منها أن تحيا حياة مستقيمة. إنها أكثر استنارة من العالم؛ لأن لديها إجابة على السؤال الرئيس: ما طبيعة حياتها؟ وكيف لا بد لها أن تعيش؟ ذاك العالم الذي لديه أكثر الإجابات مراوغة على أعقد الأسئلة، والأمور غير المهمة بالحياة، لكنه ليس لديه إجابة على السؤال الرئيس لكل إنسان عاقل: لماذا أعيش؟ وماذا عليَّ أن أفعل؟

-١٤-

الذين يعتقدون أن المعرفة هي أهم ما في الحياة يشبهون الفراشات التي تطير صوب الشموع. إنها تهلك وتطفئ النور في الآن ذاته.

ما طبيعة العلم الحقيقي ووظيفته؟

-١-

يُطلق الناس كلمة علم إما على أهم علم في الحياة، والذي يمكن للإنسان عن طريقه أن يعرف كيف يجب أن يعيش في هذا العالم، وإما على كل ما يشعر الإنسان بالتملق حينما يعرفه والذي قد يفيده، وفي أحيان أخرى قد لا يمكنه ذلك. المعرفة الأولى: أمر يبعث على سرور عظيم، والثانية: في أغلبها مجرد هراء.

-٢-

هناك علامتان لا شك فيهما على حقيقة العلم: الأولى داخلية، وهي أن

يكون صاحب هذا العلم لا يهدف إلى مصلحة ذاتية، بل ينفذ دوره بإنكار ذات. الثانية خارجية: أن ما يفعله مفهوم لكل الناس.

-٣-

إن حياة كافة البشر في عالمنا الآن على النمط التالي: ٩٩٩ من الألف من الشعوب مشغولون دائمًا بالعمل البدني، وليس لديهم الوقت ولا الفرصة لممارسة العلوم والفنون. الجزء الصغير المتبقي يحيا في العالم وقد حرَّر نفسه من ربقة العمل البدني، وانشغل بالعلوم والفنون التي توافق احتياجاته. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: تُرى ما جودة مثل هذا النوع من العلوم والفنون التي يمكن أن تظهر في ظروف كهذه؟

-٤-

الهدف من حياة كل إنسان أن يصبح أفضل فأفضل، لذا فالعلوم التي تساعد الإنسان على ذلك هي وحدها النافعة.

-٥-

العالم هو الذي يعرف كثيرًا جدًّا من مختلف الكتب. المثقف هو الذي يعرف كل ما له سياق الآن بين الناس. المتنور هو الذي يعرف لماذا يعيش وما الذي يجب عليه أن يفعله. لا تحاول أن تصبح عالـمًا ولا مثقفًا، بل حاول أن تكون متنورًا.

-٦-

(إن كان الوهم في الحياة الحقيقية يزيف الحقيقة لبرهة من الوقت، فالضلال في الأمور المجردة يمكن أن يسود لآلاف من الأعوام ويضع نيره الحديدي فوق أعناق الأمم، ويقتل أكثر اندفاعات الإنسانية شهامةً ونبلًا، وبمساعدة عبيده الذين أضلهم يقيد أولئك الذين لم يتمكن من خداعهم بالأغلال. إنه العدو

الذي انخرطت أكثر عقول البشرية حكمةً في كافة الأزمان في صراع مرير غير متكافئ معه، وما انتصروا به عليه فقط هو ما تبقى من تراث الإنسانية. إن قالوا إنه يجب البحث عن الحقائق حتى إن لم نستفد منها بشيء؛ لأن الفائدة يمكن أن نجدها في الموضع الذي لا ننتظرها فيه، فعلينا أن نضيف أنه يجب أن نبحث بهذه الحمية عن أي نوع من أنواع الضلال، حتى ذلك الذي لا نتوقع منه أي ضرر يُذكر؛ لأن ضرر الضلال قد يظهر لنا في المكان الذي لا نتوقعه فيه، وكل ضلالة تخفي بداخلها سمًّا. ما من ضلالة لا تضر، حتى أكثرها كرامة وقداسة. وكعزاء للذين يكرسون حياتهم وقواهم من أجل نضال صعب ونبيل ضد الضلالات من أي نوع، يمكننا أن نقول إنه على الرغم من ظهور حقيقة الضلالات، فإنها ستظل تقوم بعملها كالبوم والخفافيش الحائم في الليل، ولكن كلما نسرع في تهديد البوم والخفافيش بالشمس، كلما انصرفت سريعًا إلى حال سبيلها، وكلما طردت الحقائق الواضحة المعروفة الضلالات وحلتِ محلها. هذه هيَ قوة الحقيقة: يمكنها أن تنتصر بصعوبة شديدة. ولكن ما إن تتقدم، حتى لا يعود بإمكانها أن تتراجع ثانية).

«شوبنهاور».

-٧-

منذ أن ظهر البشر على سطح البسيطة، ودائمًا ما ظهر بينهم حكماء علموا الناس أهم ما يجب أن يعرفه الإنسان: ما الغرض من الحياة، وما خير الإنسان الحقيقي، وخير البشر أجمعين. وحده مَن يعرف ذلك العلم يمكنه أن يحكم على أهمية كل شيء آخر.

إن مواضيع العلم ذات عدد غير محدود، ودون أن نعرف أين يمكننا أن نجد خير كل الناس، لا يمكننا أن نختار من بين هذا العدد الهائل من المواضيع، لذا فدون هذه المعرفة، فكل معرفة أخرى هي مجرد لهو ضار.

-٨-

إن تحول الناس في عصرنا إلى العلم، من أجل إرضاء فضول تافه، أو من أجل لعب دور في حقل العلم، أو الكتابة والنقاش والتعليم، أو الارتزاق من العلم، لا من أجل طرح أسئلة مباشرة بسيطة حياتية، فسيجيبهم العلم على آلاف الأسئلة المختلفة المعقدة والخادعة، لكنه لن يجيب على سؤال وحيد يبحث كل إنسان عاقل عن إجابة له؛ ألا وهو: مَن أنا؟ وكيف يجب أن أعيش؟

-٩-

إن دراسة علوم غير نافعة للحياة الروحية كالفلك والرياضيات والفيزياء، وما إلى ذلك، بالإضافة إلى الاستمتاع بكل أنواع اللهو والألعاب مثل التزحلق على الجليد والنزه المختلفة، أمر ممكن إن كانت لا تعوقنا عن أداء واجباتنا، ولكن ليس حسنًا أن ننشغل بعلوم تافهة وبأنواع من المتع إن كانت تعوقنا عن عمل حياتنا الحقيقي.

-١٠-

(أشار سقراط لتلاميذه إلى أنه في الوضع الصحيح يجب أن تصل دراسة كل نوع من أنواع العلوم إلى حد معين لا يجب تخطيه. قال مثلًا إنه بالنسبة لعلم الهندسة يجب أن نعرف فقط ما يكفينا كي نتمكن من قياس قطعة أرض نبيعها أو نشتريها، أو كي نستطيع أن نقسم تركة أو نوزع العمل على العمال. وقد قال إن هذا أمر سهل، وإنه بقليل من التعب لن يعوق الإنسان شيء حتى إن اضطر إلى أن يقيس الأرض كلها. لكنه لم يوافق على إضافة مزيد من الصعوبات إلى هذا العلم، ومع أنه هو شخصيًا كان يعرف المزيد، إلا أنه قال إن ذلك يمكنه أن يشغل كل حياة الإنسان ويلهيه عن العلوم الأخرى المهمة، في حين أنها لا تحتاج إلى شيء. بالنسبة لعلم الفلك رأى أنه من الحسن أن

نعرف ساعات الليل والأيام والشهور ومدة العام، وأن نعرف ما يمكننا من ألَّا نضل الطريق ونحافظ على اتجاهنا في البحر ونبدل النوبات. وقد قال عن ذلك إنه أمر سهل يمكن للجميع القيام به، حتى الصياد والملَّاح... كل شخص يريد أن يتعلمه.

ولكن دراسة المدارات المختلفة ووصف الأجرام السماوية وحساب حجم الكواكب والنجوم وبعدها عن الأرض وحركاتها وتغيراتها... كل هذا أدانه؛ لأنه لم يرَ أي فائدة لدراسة ذلك. لم يكن عدم تقديره لهذه المسائل نابعًا من الجهل؛ لأنه هو نفسه كان قد درس هذه العلوم، ولكن كان السبب في ذلك عدم رغبته في تبديد وقت الإنسان وقواه في قضايا لا تفيده، في الوقت الذي يمكن استغلال هذا الوقت وهذه القوى في أكثر ما يحتاج إليه الإنسان؛ ألا وهو كماله الأخلاقي).

«كسينوفون».

مكتبة
t.me/soramnqraa

عن قراءة الكتب:

-١-

(حاذر من أن تجعلك قراءة كل أنواع الكتب لعدد كبير من الكتاب، تشعر بعدم وضوح الرؤية ويراود الشك عقلك. عليك أن تغذي عقلك فقط بتلك الكتابات التي لا يرقى إليك الشك في جودتها. أما القراءة المفرطة فتلهي العقل، وتمنعه عن أداء عمله الحر. لذا فاقرأ فقط الكتب القديمة التي تكون متيقنًا تمامًا من جودتها. وإذا شعرت في وقت ما بالرغبة في قراءة نوع آخر من الكتابات، فلا تنسَ أبدًا أن تعود إلى النوع الأول بعد ذلك).

«سينيكا».

-٢-

(قبل كل شيء عليك أن تقرأ أفضل الكتب، وإلَّا لن يتسنى لك الوقت فيما

بعد لقراءتها أبدًا).

«ثورو».

-٣-

الأفضل ألا تقرأ ولا حتى كتابًا واحدًا من أن تقرأ عددًا كبيرًا من الكتب وتصدق كل ما هو مكتوب. من الممكن أن تصبح ذكيًّا دون أن تقرأ كتابًا واحدًا، فتصديق كل ما هو مكتوب في الكتب لا يمكن أن يكون شيئًا آخر سوى حماقة.

-٤-

يتكرر في الكتابة ما في الحياة، فغالبية البشر ليسوا أذكياء، ويرزحون تحت عبء الضلالات، وهذا ما يتسبب في توفر عدد كبير من الكتب السيئة، والكثير من الكتب يشبه القمامة بين الحبوب الجيدة. مثل هذه الكتب لا تقوم بشيء سوى الاستيلاء على وقت قارئها، وكذلك انتباهه وماله.

إن الكتب السيئة ليست فقط بلا فائدة، لكنها ضارة أيضًا. وتسعة أعشار الكتب على هذا الحال، والسبب في طباعتها هو انتزاع المال من جيوب الناس.

لذا فالأفضل ألَّا نقرأ مثل هذه الكتب التي يتحدث ويكتب عنها الكثيرون. علينا قبل كل شيء أن نقرأ ونتعرف على أفضل الكتاب في كافة الأزمنة عند كافة الشعوب. وهذه الكتب هي التي يجب أن تُقرأ قبل أي شيء آخر. ولن يكون لديك وقت لقراءتها كلها، ولكن مثل هؤلاء الكتاب يعلموننا ويشكلون شخصياتنا. الكتب السيئة التي نقرؤها دائمًا ما تكون أكثر من الجيدة. إن الكتب السيئة بمثابة سُم أخلاقي يُخدِّر الناس.

-٥-

إن الخرافات والضلالات تعذب الناس، وما من خلاص منها سوى بشيء واحد؛ ألا وهي الحقيقة. ونحن ندرك الحقيقة بأنفسنا، وبمساعدة الحكماء والأتقياء الذين يعيشون بيننا. لذلك فكي نتمكن من أن نعيش حياة فاضلة علينا أن نبحث عن الحقيقة، ونستفيد من تلك الإشارات التي وصلتنا إليها من أسلافنا من الحكماء ومن القديسين.

واحدة من أقوى الوسائل لمعرفة الحقيقة والتحرر من الخرافة هي التعرف على كل ما أنتجته الإنسانية في الماضي من أجل إدراك الحقيقة الأبدية والعامة لكل البشر والتعبير عنها.

عن التفكير الحر:

-١-

يمكن لكل إنسان، بل ويتوجب عليه أن يستفيد مما حققه مجمل العقل البشري، ولكن عليه بالتوازي مع ذلك أن يفحص تلك المعطيات في ضوء العقل.

-٢-

المعرفة تكون حقيقية عندما يتم الحصول عليها بالجهود التي يبذلها المرء، لا من نتاج ذاكرة واحدة.

-٣-

(عندما ننسى كل ما تعلمناه، حينها فقط سنبدأ في التعلم فعلًا. لن أقترب قيد أنملة من معرفة أي موضوع طالما ظللت أنظر إليه كما علموني أن أنظر

إليه. كي أدرك أمرًا ما، عليَّ أن أتعامل معه كما لو أني لا أعرف شيئًا عنه على الإطلاق).

«ثورو».

-٤-

(ننتظر من المعلِّم ما سيصنعه بتلاميذه، فأولًا عليه أن يجعلهم عاقلين، ثم منطقيين، وفي النهاية علماء. هذه الطريقة تجدي نفعًا، فإن لم يصل الطالب أبدًا إلى المرحلة الأخيرة، وهذا ما يحدث في الواقع في أغلب الوقت، فسيستفيد على أي حال من هذا التعليم، ويصبح أكثر خبرةً وذكاءً، إن لم يكن ذلك من أجل المدرسة فعلى الأقل في الحياة العملية.

إن استخدمنا هذه الطريقة بالعكس، فسيفهم الطلاب ماهية العقل قبل أن يطوروا قدراتهم المنطقية، وبالتالي سيؤدي تعليمهم إلى علم زائف، يبدو كشيء قد لصق بهم لكنه لم يندمج معهم، وستظل قدراتهم الروحية عقيمة كما كانت من قبل، لكنها قد أُفسِدت كثيرًا في الوقت نفسه بمعرفة مُتخيَّلة. وهذا يوضح لنا سبب لماذا نلتقي كثيرًا بعلماء -بل هم معلمون إن تحرينا الدقة- يفصحون عن منطق ضعيف جدًّا، ولماذا نلتقي من بين الأكاديميين بشخصيات أكثر سخفًا من أي طبقة اجتماعية أخرى).

«كانط».

-٥-

(ما نتعلمه في المدارس ليس علمًا؛ بل بلادة عتيقة متحجرة. يمكننا أن نجد العلم في الكتب، وفي العمل الحر الشخصي على اكتساب المعارف من الكتب ومن الحياة، وليس من المدارس، حيث لم يبقَ فيها شيء من العلم منذ اختراع الطباعة سوى العفن.

إن طبيعة التدريس المدرسي جافة بليدة متحذلقة. وهذا أمر حتمي وجوهري في التعليم المدرسي. من منا يمكنه ألا يشعر بالملل من شرح الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا لعشرة أو عشرين عامًا؟ إن المعلمين والأساتذة بالجامعات جميعًا جميعًا يمارسون علمهم بشعور قوي من الاشمئزاز، وكي يسهلوا على أنفسهم الأمر قليلًا، يستبدلون العلم بالشكليات البسيطة. بالإضافة إلى ذلك عادة ما يصبح غبيًّا أكثر فأكثر مع شعوره بالملل من حرفته). «تشيرنيشيفسكي»(١٢٥).

-٦-

(في كل مكان ألتقي بأناس ذوي ملكات عقلية رفيعة، مع أن كثيرًا منهم لم يحظَ بالتعليم. يمكن للعقل الطبيعي أن يستعيض عن كافة درجات التعليم، ولكن ما من درجة من درجات التعليم يمكنها أن تعوض الإنسان عن عقله الطبيعي، حتى وإن كان لدى ذلك الإنسان ثروة غنية من معرفة الحقائق (كما في علم التاريخ)، وتحديد المسببات (كما في العلوم الطبيعية)... كل هذا يمكن تعلمه، لكن مَن يحوز ذلك لا يكتسب نظرة أكثر صحةً وعمقًا لجوهر كل هذه الأحداث والحقائق والأسباب. يمكن للإنسان غير العالم -إن تمتع بالفطنة وسرعة الملاحظة- أن يتدبر كل ذلك دون أن يحوز هذه الثروات. إن خبرة واحدة من خبراته العديدة تعلمه أكثر ممَّا يتعلم العالم من آلاف الحقائق التي يعرفها، لكنه لا يفهمها جيدًا؛ لأن تلك المعرفة القليلة التي يحوزها ذلك الفطن غير العالم، هي معرفة حية. على النقيض من ذلك، فكثير من معارف العلماء ميتة، فإن لم تكن تتألف كاملًا من مجرد هراء، فهي مجرد مفاهيم

---

(١٢٥) نيكولاي جافريلوفيتش تشيرنيشيفسكي: فيلسوف مادي وناقد واشتراكي وثوري روسي. كان زعيم الحركة الديموقراطية الثورية في ستينيات القرن التاسع عشر، وكان له تأثير على فلاديمير لينين، وإيما غولدمان، والكاتب السياسي الاشتراكي الصربي سفيتوزار ماركوفيتش.

تجريدية غامضة لا تحوز أي معنى على الإطلاق إلا عبر منطقية وسمو السؤال المطروح والمسوغ لها.

إن كان هذا المفهوم ضعيفًا جدًّا، فهكذا تكون الاستنتاجات التي نخرج بها منه، مثل البنك الذي تكون مخصصاته المالية أعلى بعشرات المرات من رأسماله، فينتهي به الأمر في النهاية إلى الإفلاس).

«شوبنهاور»

-٧-

(إني أحب الفلاحين. إنهم ليسوا علماء بما فيه الكفاية كي يتوصلوا إلى استنتاجات خاطئة!).

«مونتسيكو».

-٨-

(كم يمكن لقراءات لا ضرورة لها أن تبعدنا عن التفكير المستقل! أليست القراءة والمعرفة شيئًا واحدًا؟ ليس عبثًا أن يؤكد البعض أنه إن كانت الطباعة قد ساهمت في نشر المعرفة أكثر، فقد كان هذا على حساب المحتوى والجودة. كثيرون يقرؤون ما يضر الفكر. إن أعظم المفكرين الذين قرأت لهم كانوا من أقل الكتاب مقروئيةً. إن تعلم الناس كيف يجب أن يفكروا، لا ما يجب أن يفكروا فيه، سيزول سوء الفهم).

«ليشتنبرج».

* * *

الجهود

إن الخطايا والإغواءات والخرافات تحجب عن الإنسان روحه. وكي يتمكن من الوصول لروحه ثانية عليه أن يبذل جهودًا من أجل تحقيق الوعي، لذا فهذه الجهود هي العمل الرئيس في حياة الإنسان.

الخلاص بالجهود من الخطايا والإغواءات والخرافات:

-١-

يحرر إنكار الذات الناس من الخطايا، والتواضع يحررهم من الإغواءات، وتُحرِّرهم الحقيقة من الخرافات. ولكن كي يتمكن الإنسان من جحود شهوات الجسد، وهزيمة إغواء الفخر والكبرياء، وفحص الخرافات المعقدة في ضوء العقل، عليه أن يبذل جهودًا. وعبر جهود الوعي وحدها يمكنه أن يتخلص من الخطايا والإغواءات والخرافات التي تحول بينه وبين نعمته.

-٢-

(كَانَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ إِلَى يُوحَنَّا. وَمِنْ ذلِكَ الْوَقْتِ يُبَشَّرُ بِمَلَكُوتِ اللهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ يَغْتَصِبُ نَفْسَهُ إِلَيْهِ)- (وَلَا يَقُولُونَ: هُوَ ذَا ها هُنَا، أَوْ: هُوَ ذَا هُنَاكَ! لأَنْ هَا مَلَكُوتُ اللهِ دَاخِلَكُمْ)[١٢٦].

هذان المقطعان من الإنجيل يشيران إلى أنه عبر الجهود التي يبذلها

---

(١٢٦) لوقا ١٦ : ١٦- لوقا ١٧ : ٢١، وفي موضع آخر بإنجيل متى صياغة أوضح: (وَمِنْ أَيَّامِ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ إِلَى الآنَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ، وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ).

الإنسان من أجل الوعي يمكنه فقط أن يقهر الخطايا والإغواءات والخرافات التي تحول بينه وبين الوصول إلى ملكوت الله.

-٣-

(ما من راحة على هذه الأرض، ولن تكون أبدًا؛ لأن هذه الحياة هي محض اقتراب من الهدف الذي لن يمكنه الوصول إليه أبدًا. إن الراحة فعل غير أخلاقي. لا يمكنني الإفصاح عن الهدف تحديدًا، ولكن أيًا كان، فهو موجود، ونحن نعرف أننا نقترب منه، ودون هذا الاقتراب لكانت الحياة جنونًا وخداعًا. ونحن لا نقترب سوى ببذل الجهود).

«جوزيبي مادزيني»(١٢٧).

-٤-

أن تصبح أفضل فأفضل.... في هذا تتلخص فكرة الحياة بأكملها، ولا يمكن أن تصبح أفضل سوى ببذل الجهود.

يعرف الجميع أنه لا يمكن الوصول لشيء في نطاق العمل المادي دون بذل الجهود. علينا أن نفهم كذلك أنه في نطاق العمل الرئيس في الحياة «الروح» لا يمكن الوصول إلى شيء أيضًا دون بذل الجهود.

-٥-

ليست القوة في قدرة الإنسان على ربط العقد الحديدية، ولا في قدرته على حوز ملايين وبلايين الروبلات، ولا في قدرته على غزو بلد بأكمله عن طريق جنوده، ولكن القوة الأكبر من كل ذلك بأضعاف المرات هي قدرة الإنسان على أن يصفح عن المسيء إليه، والامتناع عن الرغبة، والامتناع عن

---

(١٢٧) كاتب وسياسي ومفكر إيطالي ١٨٠٥- ١٨٧٢.

الخطية -إن استطاع- بأن يتذكر في كل لحظة أن روح الله تعيش بداخله.

-٦-

لا تقل أبدًا عن عمل صالح: «لن يمكنني فعله. إنه صعب جدًّا حتى إنه غير ممكن»، ولا تقل: «هذا أمر سهل جدًّا حتى إن أي شخص يمكنه أن يقوم به». لا تفكر ولا تقل ذلك، فأي جهد يُبذل حتى إن لم يحقق الهدف المنشود، وحتى إن كان الهدف غير مهم، فإن الجهد يُقوِّي الروح.

-٧-

كثيرًا ما يعتقد الناس أنك حتى تكون مسيحيًّا حقيقيًّا عليك أن تقوم بأفعال غير عادية. هذا غير حقيقي. لا يتطلب الأمر جهودًا خاصة غير عادية حتى تصبح مسيحيًّا حقيقيًّا، بل يتطلب منك الأمر فقط الجهود المنظمة التي تبذلها من أجل الوعي، والتي تحررك من الخطايا والإغواءات والخرافات.

-٨-

من السهل القيام بأفعال شريرة، تلك التي تجلب لنا التعاسة. أما ما يعود علينا بالخير، فلا يمكن أن نحققه سوى ببذل الجهود.

-٩-

إِنْ وضع الإنسان لنفسه قاعدة، أن يفعل ما يريد، فلن يرغب طويلًا في فعل ما يفعله. الفعل الحقيقي دائمًا ما يكون هو الفعل الذي نبذل جهودًا من أجل أن نقوم به.

-١٠-

(لم يحدث أبدًا أن كان الطريق صوب المعرفة الفاضلة على سطح من الحرير مزينًا بالزهور، فدائمًا ما يتوجب على المرء أن يتسلق الصخور).

«جون راسكن».

-١١-

(إن عملية البحث عن الحقيقة لا تتم أبدًا في أجواء من السرور، بل في اضطراب وقلق، وعلينا أن نبحث عنها؛ لأنه إن لم نجدها ونحبها فسنهلك. ولكنك تقول: إن أرادت الحقيقةُ مني أن أجدها وأحبها، فلتكشف عن نفسها لي. لقد كشفت عن نفسها لك فعلًا، لكنك لا تلتفت إليها. ابحث عن الحقيقة فهي تريد ذلك منك).

«باسكال».

كي تعيش من أجل روحك عليك ببذل الجهد:

-١-

أنا أداة صنعها الله. وخيري الحقيقي أن أقوم بالعمل الذي خلقني لأجله. ولا يمكنني أن أقوم بذلك سوى ببذل الجهود من أجل حيازة الوعي اللازم لحفظ الطهارة ووحدة الذهن والاستقامة لأداة الله التي ائتمنني عليها؛ إنها روحي.

-٢-

أغلى ما لدى الإنسان هو أن يعيش حرًّا، دون أن يخضع لإرادة أجنبية. وكي يعيش الإنسان من أجل روحه عليه أن يقمع شهوات جسده.

-٣-

الحياة الإنسانية الحقيقية بأكملها ليست في شيء سوى الانتقال التدريجي من الطبيعة الحيوانية المتدنية إلى الوعي أكثر فأكثر بحياة الروح.

-٤-

نحن نبذل الجهود كي نستيقظ، ويكون الاستيقاظ صعبًا فعلًا عندما نكون

مستغرقين في النوم ونحلم حلمًا مريعًا لا يمكن تحمله إلا بقوة كبيرة. هكذا يجب أن نفعل في الحياة عندما تصبح غير محتملةٍ. في هذه اللحظات يجب أن نبذل جهود الوعي التي توقظ الحياة الروحية الجديدة السامية بداخلنا.

-٥-

إن الجهود المبذولة ضد الخطايا والخرافات والإغواءات ضرورية جدًّا؛ لأنها إن توقفت للحظة، سيستولي جسدُك عليك.

-٦-

يبدو لنا أن العمل الحقيقي هو الذي يكون مرئيًّا، مثل بناء منزل أو حرث حقل أو إطعام الماشية، أما العمل على روح المرء فهو غير مرئي، لذا فهو غير مهم. هذا العمل الذي يوضح لنا ما الذي يجب أن نفعله، وما الذي لا يجب أن نفعله، ولكن رغم ذلك فأي عمل سوى العمل على روح المرء حتى تصبح أكثر روحية يومًا فالآخر هو محض هراء. إن هذا وحده هو العلم الحقيقي، وكافة الأعمال الأخرى لن تكون مفيدةً إلا عندما نقوم بهذا العمل الرئيس في الحياة.

-٧-

مَن يدرك أن حياته ليست صالحةً ويريد أن يحيا حياةً صالحةً، ليس عليه أن يعتقد أنه لا يمكنه أن يحيا حياة صالحة إلا عندما يُبدِّل ظروف الحياة. يمكن إصلاح الحياة -وهو أمر ضروري- ولكن ليس عبر تغييرات خارجية، بل عبر تغيير داخلي. وهذا دائمًا ما يمكن تحقيقه، وفي أي مكان. وهذا يكفي كل إنسان، فعندما تتغير روحك فعلًا ولا تواصل الحياة كما الماضي، حينها فقط تتغير حياتك، ولا يحدث هذا عندما تعتقد أنه من الأسهل أن تغير حياتك كي تصلح نفسك.

-٨-

هناك عمل واحد مهم في الحياة لكافة البشر، ألا وهو تنقية الروح. إنه عمل واجب على كافة البشر. أما بقية الأعمال مقارنة بذلك فهي محض هراء. يمكننا أن ندرك ذلك من حقيقة أن في هذا الأمر لا يشعر الإنسان بأي تضارب، وأن في هذا العمل وحده يجد الإنسان سعادته.

-٩-

(تعلم من دودة القز: إنها تعمل حتى لا يعود بإمكانها أن تطير. وأنت عالق في الأرض. اعمل على روحك وستنمو لك أجنحة).

«أنجيلوس سيليسيوس».

لا نصل إلى الكمال الذاتي إلا بالجهود التي تُبذل في مجال الوعي:

-١-

(فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ)[١٢٨]، هكذا قيل في الإنجيل. هذا لا يعني أن المسيح يطلب من الإنسان أن يكون كاملًا كما الله؛ بل يعني أن على كل إنسان أن يبذل الجهود الرامية إلى اكتساب الوعي كي يقترب من الكمال. الكمال النهائي هو الله وحده، أما الإنسان فعليه أن يقترب منه، وفي هذا الاقتراب معنى حياته.

-٢-

(لا ينمو المخلوق فجأةً بل شيئًا فشيئًا. من المستحيل أن تتعلم فجأةً علمًا كاملًا، وكذلك من المستحيل أن تهزم خطيةً فجأةً. أمامك وسيلة واحدة كي تصبح أفضل: المنطق الحكيم، وبذل الجهد الدائم بصبر).

«شانينج».

---

(١٢٨) متى ٥: ٤٨.

-٣-

قال ليسينج: إن الحقيقة في حد ذاتها ليست هي ما تمنح الإنسان فرحته، بل الجهود التي يبذلها كي يتوصل إليها. هكذا يمكن أن نقول أيضًا عن الفضيلة: الفرحة التي نحصل عليها من الفضيلة تكمن في الجهود التي نبذلها كي نصل إلى الفضيلة.

-٤-

(في حمام الملك شينج شانج وجدوا هذه الكلمات: «جدِّد ذاتك تمامًا في كل يوم. قُم بهذا من البداية، ثم من البداية مجددًا»).

«حكمة صينية».

-٥-

(إن لم يقم الناس بالأبحاث، أو إن قاموا بها ولم ينجحوا فيها، فلا يجب أن ييأسوا ويتوقفوا. وإن لم يسأل المتنورون من الناس عن مواضيع تدعو للشك لا يعرفون حقيقتها، وإن لم يجعلهم السؤال أكثر تنويرًا، فلا يجب أن ييأسوا. وإن لم يستطع الناس تمييز الخير عن الشر، وإن استطاعوا التمييز لكنهم لم يحظوا بأفكار واضحة عن الفارق بينهما فلا يجب أن ييأسوا. وإن لم يفعل الناس الخير، أو إن فعلوه، لكنهم لم يبذلوا كافة جهودهم من أجله، فلا يجب أن ييأسوا، فما قام به الآخرون مرة واحدة، يمكنهم أن يقوموا به عشر مرات، وما قام به الآخرون مائة مرة، يمكنهم أن يقوموا به ألف مرة.

مَن سيتبع فعلًا هذه القاعدة ويبذل الجهود باستمرار، فمهما كانت هذه الجهود بليدة، فلا بد أنه سيصل إلى التنوير، وإن كان ضعيفًا فلا بد أنه سيصيب القوة، وإن كان شريرًا فلا بد أنه سيصبح فاضلًا).

«حكمة صينية».

-٦-

عندما يقوم الإنسان بعمل الخير لأنه تعود فقط على ذلك، فهذه ليست الحياة الفاضلة. تبدأ الحياة الفاضلة عندما يبذل الإنسان الجهود كي يصبح فاضلًا.

-٧-

تُقول إن الأمر لا يستحق منا بذل الجهود. فمهما تفعل فلن تصل إلى الكمال أبدًا. حسنًا... ليس المطلوب أن تصل إلى الكمال، بل أن تقترب منه فقط أكثر فأكثر مع الوقت.

-٨-

(كان هناك رجل لا يفكر بخفة عن الشر، ويقول في نفسه: «هكذا فإني بعيد عن الشر، حتى إنه لا يلمسني». إن قطرات قليلة يمكنها أن تملأ دلوًا من الماء. وهكذا يمتلي غير العاقل بالشر، ويرتكب الشرور تدريجيًّا.

كان هناك رجل لا يفكر باستخفاف في الفضيلة ويقول في نفسه: «ليست لديَّ القوة كي أصبح فاضلًا». كما يمتلئ الإناء قطرة قطرة، هكذا تملأ الفضيلة الإنسان الذي يكافح صوب الخير تدريجيًّا).

«حكمة بوذية».

-٩-

حتى لا تمتلئ الحياة بالأحزان؛ بل بالفرحة الدائمة عليك أن تكون دائمًا فاضلًا مع الجميع: البشر والحيوانات. وكي تكون فاضلًا دائمًا عليك أن تُعوِّد نفسك على ذلك. وكي تُعوِّد نفسك على ذلك، عليك ألَّا تفوت فعلًا شريرًا واحدًا ارتكبته دون أن تُوبِّخ نفسك عليه. افعل ذلك وستعود سريعًا على أن تكون فاضلًا مع جميع البشر والحيوانات. وعندما تتعود على الفضيلة

سيمتلئ قلبك دائمًا بالسرور.

-١٠-

(يمكننا أن نتعرف على الإنسان الفاضل لا من مآثره، بل من جهوده اليومية).

«باسكال».

كي يقترب الإنسان من الكمال عليه أن يعتمد على قواه الشخصية وحدها:

-١-

يا له من خطأ أن تطلب من الله أو من الناس أن يخرجوك من وضعك السيئ! ليس الإنسان في حاجة إلى مساعدة من أحد، وليس في حاجة إلى أن يخرج من الوضع الذي هو فيه؛ بل هو في حاجة إلى شيء واحد فقط: أن يبذل الجهود من أجل حيازة الوعي الذي يحرره من الخطايا والإغواءات والخرافات. وبقدر ما يبذل هذه الجهود بقدر ما يمكن أن تتحسن أوضاعه.

-٢-

لا شيء من شأنه أن يضعف من قوى الإنسان كالأمل في الوصول للخلاص والخير بشيء غير قواه.

-٣-

(نحن في حاجة إلى التحرر من فكرة أن السماء بإمكانها أن تصحح أخطاءنا. إن قمت بطهو طعام قذر، فأنت لا تتوقع أن العناية الإلهية ستجعله لذيذًا، وهكذا أيضًا إن عشت حياة شريرة لأعوام متهورة، فلا يجب أن تنتظر أن تدخُّلًا إلهيًا من شأنه أن يوجه وينظم كل شيء صوب الأفضل).

«جون راسكن».

-٤-

(أنت تحمل بداخلك معنى الكمال الأسمى. وبداخلك عوائق تحول دون وصولك إليه. وعليك أن تعمل على نفسك كي تقترب من الكمال).

«كارليل».

-٥-

(أنت مَن تخطئ، وأنت مَن تخطط للشر، وأنت مَن تفر من الخطيئة، وأنت مَن تطهر فكرك، وأنت مَن تجعل نفسك شريرًا أو طاهرًا.... لا أحد يمكنه أن ينقذك).

«من الأدب البوذي (دخامبادا[١٢٩])».

-٦-

القول بأنك لا تستطيع أن تُمسك نفسك عن فعل الشر يشبه القول بأنك لست إنسانًا؛ بل حيوان. كثيرًا ما يقول الناس ذلك، لكن من النادر أن يقولوا إنهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنهم طالما لا يزالون على قيد الحياة فبإمكانهم أن يتوقفوا عن فعل الشر وأن يبدأوا في عمل الخير.

-٧-

(لا وجود لقانون أخلاقي، إن لم أكن قادرًا على تنفيذه. يقول الناس: لقد نشأنا على حب الذات والبخل والشبق، ولا يمكننا إلَّا أن نكون كذلك.

لا... بل يمكننا. علينا أولًا أن ندرك بقلوبنا ماهية أنفسنا وماذا علينا أن نكون، وثانيًا أن نبذل الجهود كي نقترب مما يجب أن نكونه).

«سالتر»[١٣٠].

---

(١٢٩) واحد من أهم كتب الأدب البوذي.

(١٣٠) جون ويليام سلتر (١٨٢٠ - ١٨٦٩): عالم نبات إنجليزي.

-٨-

(على الإنسان أن يُطوِّر أفكاره عن الفضيلة. إن العناية الإلهية لا تضع الفضيلة داخل الإنسان جاهزة تمامًا، وهذه إحدى تطورات أفكارنا عن الفضيلة. أن تجعل نفسك أفضل وتصلح منها... هذا هو عمل الإنسان الرئيس في الحياة).

«كانط».

نحن في حاجة إلى شيء واحد من أجل تحسين الحياة الاجتماعية؛ ألا وهو أن يبذل كل امرئ جهده كي يصل إلى الفضيلة والحياة الأخلاقية:

-١-

الناس يقتربون من ملكوت الله، أي من الفضيلة والحياة السعيدة، بجهد كل فرد يحيا حياة فاضلة.

-٢-

إن كنت ترى أن المجتمع قد انتظم على نحو شرير، وتريد أن تصلح النظام الاجتماعي، فاعلم أن هناك وسيلة واحدة للقيام بذلك: أن يُحسِّن كل إنسان من نفسه، فليس في نطاق سلطتك سوى أمر واحد فقط؛ ألا وهو أن تُحسِّن أنت من ذاتك.

-٣-

كثيرًا ما نسمع مجادلات عن أن كل الجهود الرامية إلى تحسين الحياة واستئصال الشر وتأسيس حياة عادلة بلا جدوى، فكل سيصبح ما هو عليه.

جدَّف الناس في المياه، ووصلوا إلى الشاطئ، وفارق المجدفون المركب وهبطوا إلى الشاطئ، أما بقية الركاب فقد ظلوا في القارب، وقد اعتقدوا أنه

سيتحرك ثانيةً كما تحرك أولًا.

-٤-

«نعم.. سيكون الأمر كذلك إن أدرك الجميع بالعقل أن كل هذا محض شر». هكذا يقول الناس عن حياة الناس الشريرة. «فلنفرض أن أحدهم قد فارق الشر ورفض المشاركة فيه، فما الخير الذي يمكن أن يسديه ذلك إلى حياة الناس؟ إن تغيير حياة البشر يتطلب أن يحدث التغيير في المجتمع بأكمله، لا لفرد واحد».

صحيح أن طائر سنونو واحد لا يصنع ربيعًا، ولكن هل يمكن أن يمتنع ذلك السنونو عن الطيران بينما يشعر بالربيع بسبب أنه لا يمكنه أن يصنع ربيعًا بمفرده؟ إن انتظر كل برعم في الأرض بهذه الطريقة فلن يأتي الربيع أبدًا. هكذا الأمر معنا، فإن أردنا تحقيق ملكوت الله لا يجب على المرء أن يفكر هل عليه أن يزهر أولًا أم تزهر آلاف البراعم قبله؟ ولكن ما إن يشعر الإنسان باقتراب ملكوت الله، حتى يكون عليه أن يفعل ما يتوجب عليه فعله كي يحققه.

(اسْأَلُوا، تُعْطَوْا. اطْلُبُوا، تَجِدُوا. اقْرَعُوا، يُفْتَحْ لَكُمْ). «متى ٧: ٧- ٨».

-٥-

(جِئْتُ لأُلْقِيَ نَارًا عَلَى الأَرْضِ، فَمَاذَا أُرِيدُ لَوِ اضْطَرَمَتْ؟).

«لوقا ١٢: ٤٩».

ولكن لماذا تتقد النار ببطء؟ إن كان قد مضى على المسيحية قرون طويلة، ولم تستطع أن تغير النظام الاجتماعي، فبأي حق يمكننا أن نعتقد أنها يمكنها أن تغيره الآن؟ معظم الناس مكرهون على الاعتراف بحقيقة المسيحية، ولا يزالون لا يأسسون نشاطهم على قاعدة هذه الحقيقة. فما سبب ذلك؟ السبب في ذلك أنهم ينتظرون التغيير من عوامل خارجية، ولا يريدون أن يدركوا أنه يمكنهم الوصول إلى هذا التغيير عن طريق الجهود التي يبذلها كل فرد بمفرده

داخل روحه فقط.

-٦-

حياتنا شريرة، فما سبب ذلك؟ السبب أننا نحيا حياة شريرة! والناس يحيون حياة شريرة؛ لأنهم هم أنفسهم أشرار. وكي تتوقف الحياة الشريرة يجب أن يصبح الناس أخيارًا. كيف يمكن أن نحقق ذلك؟ لا يمكننا أن نصلح الجميع، ولكن يمكن لكل فرد أن يصلح من نفسه. سيبدو في البداية أن هذا لا يجدي، فما جدوى إنسان ضد الجميع؟ ولكن الأمر أن الجميع يتذمرون من الحياة الشريرة، وهكذا فإن أدرك الناس أن الحياة الشريرة منبعها الناس الأشرار، فسيدركون أن كل فرد بإمكانه أن يصلح نفسه هو لا الآخرين، وهذا يعني أن يتحول من إنسان شرير إلى إنسان فاضل، وعندما يصلح كل إنسان من نفسه، حينها تصبح الحياة بأكملها في وضع أفضل.

نحن المسؤولون عن الحياة الشريرة، ونحن المسؤولون عن جعلها أفضل.

الجهود التي يبذلها الإنسان من أجل الوصول إلى الكمال هي ما تمنحه نعمته الحقيقية:

-١-

الجهد الأخلاقي والفرح بالوعي الذي يكتسبه الإنسان في الحياة يتعاقبان على الإنسان كما هي العلاقة بين العمل الجسدي والراحة. دون عمل جسدي ما من سرور بالراحة، ودون جهد أخلاقي ما من سرور بالوعي في الحياة.

-٢-

(المكافأة التي يحصل عليها الإنسان من الفضيلة موجودة في الجهد الذي يبذله من أجل فعلها).

«شيشرون»[١٣١].

---

(١٣١) الكاتب الروماني وخطيب روما المميز.

-٣-

يبكي إنسان من فرط الألم الذي يشعر به وهو لا يعمل الآن، ولم يلحظ الألم أثناء العمل. هكذا هو الأمر مع الإنسان الذي لا يقوم بعمل روحي في عالمه الداخلي... إنه يختبر ألمًا مميتًا من ذاك العمل الصعب الذي مرَّ به ولم يلحظه في وقته، لذا فالعمل الرئيس في الحياة هو في تحرير المرء لنفسه من الخطايا والإغواءات والخرافات، أي في الكمال الأخلاقي.

-٤-

لا تتوقع نجاحًا سريعًا من جهودك الرامية صوب الفضيلة، بل لا تتوقع نجاحًا ملحوظًا على الإطلاق. أنت لا ترى ثمرة جهودك؛ لأنه بقدر ما تتحرك بقدر ما يتحرك الكمال الذي تسعى إليه. إن الجهود الرامية إلى حيازة الوعي ليست وسيلة للوصول إلى النعمة، لكنها في حد ذاتها تمنحك النعمة.

-٥-

(لقد منح الله الحيوانات كل ما يلزمها، لكنه لم يفعل هكذا مع الإنسان، فعليه أن يحصل بنفسه على كل ما يلزمه. لم يولد الإنسان بصحبة الحكمة السامية، فعليه أن يكدح حتى ينالها. فكلما عمل، كلما حصل على مكافأته).

«من التعاليم البهائية».

-٦-

(ملكوت الله يُغصب)[١٣٢]. هذا يعني أنه كي نتخلص من الشر ونصبح أتقياء، علينا ببذل الجهد. إننا في حاجة إلى الجهد كي نمسك أنفسنا عن فعل الشر. إن أمسكنا أنفسنا عن فعل الشر، سوف نفعل الخير؛ لأن الروح الإنسانية

(١٣٢) (وَمِنْ أَيَّامِ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ إِلَى الآنَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ، وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ). «متى١١: ١٢».

تحب الخير وتقوم به إن تحررت فقط من الشر.

-٧-

(أنتم مخلوقات حرة، وهذا ما تشعرون به في قرارة أنفسكم. أما كل الاستنتاجات الكاذبة الممكنة عن أن قوانين الطبيعة هي التي تتسلط عليكم، فلن يمكنها أبدًا أن تُسكت شاهدين نزيهين عن الشهادة للحرية الإنسانية: توبيخ الضمير، والاستشهاد العظيم. منذ سقراط وحتى المسيح، ومن وقت المسيح وحتى أيامنا هذه وهناك مَن يموتون من أجل الحقيقة، وكل شهداء الإيمان يثبتون كذب تعليم العبيد هذا، ويصيحون بصوت عال: «لقد أحببنا نحن أيضًا الحياة وكل البشر وتوسلنا من أجل إيقاف هذا الصراع وإراقة الدماء، وكل دقة في قلوبنا تصيح بصوت عال: عيشوا! ولكننا قد فضَّلنا الموت كي ننفذ قانون الحياة».

وبداية من قايين وحتى أشد البشر نذالة في أيامنا، فكل الذين اختاروا طريق الشر سمعوا في أعماق أرواحهم صوتًا يدين حياتهم ويوبخهم، ولا يمنحهم الراحة، ويكرر طوال الوقت بداخلهم: «لماذا حِدتم عن الطريق الحقيقي؟ كان بإمكانكم أن تبذلوا الجهد. أنتم مخلوقات حرة، وبإمكانكم أن تتحرروا من مستنقع الخطايا الذي بداخلكم»).

«مازيني».

* * *

الحياة في الحاضر

يبدو للناس أن حياتهم تمر داخل إطار الوقت... تمر في الماضي وفي المستقبل. ولكن هذا فقط ما يبدو لهم، أما الحياة الإنسانية الحقيقية لا تمر في الزمن، بل هي تمضي دائمًا خارج الزمن... في تلك النقطة التي يلتقي فيها الماضي بالمستقبل، والتي نطلق عليها بشكل خاطئ «الوقت الحاضر». في هذه النقطة غير الزمنية فقط يكون الإنسان حرًّا، لذلك فالحياة الإنسانية الحقيقية في الحاضر... في الحاضر فقط.

الحياة الحقيقية خارج إطار الزمن:

-١-

الماضي قد انصرم، والمستقبل لم يأت بعد، فماذا لدينا؟ لدينا فقط الآن، حيث يلتقي الماضي بالمستقبل. قد يبدو أن «الآن» ليس شيئًا، ورغم ذلك ففيه الحياة بأكملها.

-٢-

(يبدو لنا فقط أنه ثمَّ زمن، ولكن ما من زمن. الزمن مجرد نوع من التسوية يمكننا بواسطتها أن نرى ما هو كائن حقًّا، وكل ما نراه دائمًا هو شيء واحد. العين لا ترى الكرة الأرضية بأكملها، ومع ذلك فالأخيرة موجودة حقًّا. كي تتمكن العين من رؤيتها، يتوجب على الكرة الأرضية أن تدور أمام عين تنظر إليها. هكذا يتكشف العالم، أو يمكنه أن يتكشف كما لو أنه أمام أعين البشر

داخل نطاق الزمن. بالنسبة للعقل الأسمى ما من وقت، فما سيكون هو كائن. الزمن والمكان هما وسيلتان يصبح بهما اللامتناهي متناهيًا للكائنات المتناهية).

«أميل».

-٣-

(ما من «قبل» وما من «بعد»، فما سيحدث غدًا هو حادث فعلًا في الأبدية).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٤-

ما من وجود للزمان والمكان، فهما لازمان لنا فقط كي نتمكن من إدراك الأشياء. لذلك فمن الخطأ جدًّا أن نعتقد أن براهيننا عن النجوم التي لم يصل ضوؤها بعد إلينا، وعن تشكل الشمس منذ ملايين الأعوام، وما إلى ذلك، تستحق.التقدير والاعتبار. الأمر لا يقتصر على أن هذه البراهين لا تضم بين طياتها شيئًا مهمًّا، لكنها لا تضم حتى أي شيء يمكن أن نأخذه على محمل الجد. كل هذه البراهين والاستنتاجات هي مجرد تسلية عقلية لا أكثر.

-٥-

ما من زمان.... لدينا فقط تلك اللحظة، وفيها توجد الحياة بأكملها. لذا فعلينا أن نبذل كافة قوانا فيها.

-٦-

إن كانت الحياة خارج الزمن، فلماذا تتكشف لنا داخل إطار الزمان والمكان؟ السبب أن الحركة لا يمكن أن تحدث إلَّا داخل إطار الزمان والمكان، والحركة هي الكفاح صوب الاتساع والتنوير والكمال. إن لم يكن هناك زمان ومكان، لما كانت هناك حركة، ولما كانت الحياة.

الحياة الروحية للإنسان خارج إطار الزمان والمكان:

-١-

الوقت لازم فقط للحياة الجسدية، أما الوجود الروحي للإنسان فهو خارج الزمن تمامًا، والسبب في ذلك أن نشاط الوجود الروحي للإنسان داخل نطاق جهود الوعي فقط، والأخيرة دائمًا ما تكون خارج إطار الزمن؛ لأنها دائمًا في الحاضر، والحاضر غير موجود داخل نطاق الزمن.

-٢-

لا يمكننا أن نتخيل كيف ستكون الحياة بعد الموت، ولا يمكننا تذكر الحياة في لحظة الولادة، وفي الوقت نفسه يمكننا أن نعرف حياتنا في الحاضر أفضل من أي وقت آخر.

-٣-

(روحنا قد حلت داخل جسد حيث وجدت التاريخ والزمان والحجم. وقد تعقلت ذلك، وأطلقت عليه الطبيعة والضرورة، وليس في إمكانها إلا أن تفكر كذلك).

«باسكال».

-٤-

نقول إن الوقت يمضي. هذا غير صحيح. نحن الذين نمضي؛ لا الوقت. عندما نسبح في نهر يبدو لنا أن الشاطئ يقترب منا؛ لا المركب الذي نستقله هو الذي يقترب منه... هكذا هو الأمر مع الزمن.

-٥-

حسنًا أن نتذكر دائمًا أن حياتنا الحقيقية ليست هي تلك الحياة الظاهرية

الجسدية التي نحياها الآن على الأرض على مرأى البصر، ولكن بدلًا منها هناك حياة أخرى بداخلنا داخلية روحية لا بداية لها ولا نهاية.

الحياة الحقيقية في الحاضر:

-١-

لقد وُهِبنا إمكانية تذكر الماضي، وتخيل المستقبل لسبب وحيد؛ حتى نسترشد باعتبارات معينة حول هذا وذاك من الأمور، ونتمكن إلى حد ما من تحديد التصرفات التي سنقوم بها في الحاضر، لكنها لم توهب لنا أبدًا كي نتحسر على الماضي، أو نستعد للمستقبل.

-٢-

(يعيش الإنسان في اللحظة الآنية فقط. كل ما تبقى إما أنه قد انصرم، أو أنه مستقبل مجهول).

«ماركوس أوريليوس».

-٣-

السبب في أننا نتعذب من الماضي وندمر المستقبل هو أننا لا نهتم بالحاضر إلَّا قليلًا. الماضي قد انصرم، والمستقبل لم يأتِ بعدُ، وكل ما لدينا هي اللحظة الآنية.

-٤-

حالتنا في المستقبل تبدو لنا دائمًا كأنها حلم يراودنا في حالتنا الآنية.

-٥-

(ليس طول الحياة هو ما يهم، ولكن عمقها، فالأمر ليس في دوام الحياة، ولكن في أن تحياها خارج إطار الزمن. ولن نعيش خارج إطار الزمن إلا عندما

نحيا ببذل الجهود من أجل الفضيلة، وحينها لن نطرح على أنفسنا سؤال الزمن).

«إمرسون».

-٦-

(عِش حتى المساء، وحتى انصرام القرن)، هذه الحكمة تعني أن تعيش وكأن كل دقيقة تمر بك ستكون الأخيرة، فتقوم بما هو مهم حقًّا فقط، وفي الوقت ذاته تعيش كأن العمل الذي تقوم به سوف يستمر إلى الأبد.

-٧-

الوقت من خلفنا... الوقت أمامنا، لكنه ليس لدينا. وما أن تمعن التفكير فيما حدث وفيما سيحدث، حتى تفقد أهم شيء: الحياة الحقيقية في الحاضر.

-٨-

اللحظة هي مجرد لحظة، قد تبدو اللحظة أمرًا غير مهم بالنسبة للإنسان، فيفوِّتها، مع أن حياته بأكملها في لحظة آنية يمكنه أن يبذل فيها الجهد حتى تحل ملكوت الله بداخلنا وبخارجنا على السواء.

-٩-

(هزيمة العادات الشريرة ممكنة اليوم فقط، وليس غدًا).

«كونفوشيوس».

-١٠-

لا شيء يهم سوى ما نفعله في اللحظة الآنية.

-١١-

حسنٌ ألَّا نفكر في الغد، ولكن هناك وسيلة واحدة تمكننا من فعل ذلك

ألا وهي التفكير فيما سأفعله في اليوم الحاضر... في الساعة الحالية... في الدقيقة الآنية.

-١٢-

من الصعب عند تعاملنا مع الناس -ونحن مفتونون بأفكار الماضي أو المستقبل- أن نذكر أن حياتنا هي في اللحظة الآنية فقط. ولكن كم هي الأهمية العظيمة لذلك! حاول أن تُعوِّد نفسك على ذلك. يمكن للإنسان أن يتجنب كثيرًا من الشرور إن تعوَّد على أن يذكر دائمًا أن ما يهم في الحياة هو الحاضر فقط، وأنه هو وحده الموجود، أما الباقي فمجرد حلم.

-١٣-

ما إن تفارق الحاضر وتنغمس في الماضي والمستقبل، حتى تشعر بالوحدة وغياب الحرية.

-١٤-

(كم نعاني من عذابات أخلاقية كثيرة، وكل هذا من أجل الموت بعد عدة دقائق! لذلك فلا شيء يستحق العناية حقًّا.

لا.. ليس هذا حقيقي فهناك حياتك الآنية. ما من زمان، واللحظة الآنية تقدَّر بمئات الأعوام إن عشت فيه مع الله).

«أميل».

-١٥-

يقولون إن الإنسان ليس حرًّا لأن كل ما يفعله ويملكه له علة سابقة في الزمن. ولكن الإنسان يتصرف فقط في الحاضر، والحاضر خارج الزمن دائمًا. إنه مجرد نقطة اتصال بين الماضي والمستقبل، لذلك في اللحظة الآنية دائمًا ما يكون الإنسان حرًّا.

-١٦-

في الحاضر وحده يمكن أن نجد قوة الحياة الإلهية الحرة، لذا فعمل الحاضر لا بد وأن يتسم بسمات إلهية، أي أنه لا بد وأن يكون عاقلًا وفاضلًا.

-١٧-

سألوا أحد الحكماء: ما أكثر الأعمال أهميةً؟ مَن أكثر البشر أهميةً؟ وما أكثر الأوقات أهميةً؟

أجاب الحكيم: «أهم عمل هو الحب لكل البشر؛ لأن في هذا العمل حياة كل إنسان. أما أكثر الناس أهميةً؛ فهو الذي تتعامل معه في اللحظة الآنية؛ لأنه لن يمكنك أبدًا في المستقبل أن تعرف ما إن كنت ستتعامل مع إنسان آخر أو لا. والوقت الأكثر أهميةً؛ هي اللحظة الآنية؛ لأن فيها وحدها يكون لديك سلطان على نفسك».

يتكشف الحب في الحاضر فقط:

-١-

الحب هو العمل الرئيس في الحياة. ولا يمكن أن تحب في الماضي ولا في المستقبل؛ بل فقط في الحاضر... في اللحظة الآنية.

-٢-

عندما لا تجعل الماضي والمستقبل يرشدان أفعالك؛ بل تسترشد فقط بمتطلبات روحك في اللحظة الآنية، حينها فقط ستتمكن من التصرف بحب كامل.

-٣-

الحب بمثابة كشف عن الجوهر الإلهي، وما من زمان بالنسبة له، لذلك

فالحب يكشف عن نفسه في الحاضر فقط؛ في كل دقيقة منه.

-٤-

ليس علينا أن نفكر في المستقبل، بل نحاول فقط أن نجعل الحياة باعثةً على السرور لنا وللآخرين في الحاضر. (لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ)[١٣٣]، هذه حقيقة عظيمة. إنها حياة عظيمة تلك التي لا تعرف فيها ما تحتاج إليه في المستقبل. أنت في حاجة لأمر واحد في كل لحظة آنية: ألا وهو أن تحب الناس.

-٥-

أن تحب يعني بشكل عام أنك تقوم بعمل فاضل. هكذا نفهم كل شيء، ولا يمكننا أن نفهم الحب بطريقة أخرى. الحب ليس مجرد كلمة، لكنه فعل نقوم به من أجل خير الآخرين. إن قرَّر الإنسان أن من الخير له أن يمتنع عن أقل درجة ممكنة من الحب لصالح المستقبل، فهو يخدع نفسه، أو يخدع الآخرين، وهو لا يحب أحدًا سوى نفسه.

ما من حب في المستقبل، فالحب في الحاضر فقط، وإن لم يفعل الإنسان أفعال محبة في الحاضر، فما من محبة بداخله.

-٦-

أنت تريد الخير، ولا يمكن أن يكون الخير إلا في الآن. ما من خير في المستقبل؛ لأنه ما من مستقبل. الحاضر وحده الموجود.

-٧-

لا تهمل أبدًا فعلًا صالحًا يمكنك أن تقوم به الآن، فالموت لا يعرف ما

(١٣٣) (فَلَا تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ؛ لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ) «متى ٦: ٣٤».

إن كنت قد قمتَ به أم لم تقم به بعد. الموت لا ينتظر أحدًا أو شيئًا، لذا فأهم شيء للإنسان هو ما يفعله الآن.

-٨-

إن تذكرنا فقط دائمًا أن الوقت الضائع لن يعود أبدًا، وأن الشر الذي فعلناه لن يمكننا أن نعالجه أبدًا، لكنا قد قمنا بمزيد من الخير وقليل من الشر.

-٩-

(لا تتوانَ أبدًا عن أن تكون عادلًا رحيمًا. لا تنتظر معاناة الآخرين. الحياة قصيرة، لذا علينا أن نسرع في بعث السرور داخل قلوب أشقائنا في هذه الحياة القصيرة. فلنسرع في تحركنا صوب الفضيلة).

«أميل».

-١٠-

تذكر أنه إن كان بإمكانك أن تفعل خيرًا وتسدي حبًّا لشخص ما، فقم بهذا الآن؛ لأن الفرصة قد تمر ولن يمكنك استعادتها.

-١١-

(ينسى الفاضلون الأعمال الحسنة التي قاموا بها، فهم مشغولون بما يحدث الآن، ولا يفكرون كثيرًا فيما فعلوه).

«مثل صيني».

-١٢-

الحياة في الحاضر الآني هي تلك الحالة التي يعيش فيها الله بداخلنا. ولذلك فاللحظة الآنية أغلى من كل شيء آخر. وكل قوى الروح هي من أجل ألا تضيع تلك اللحظة الآنية عبثًا، وحتى لا يحتجب الله عنها، وهو الذي يمكنه أن يتجلى فيها.

إغواء الانهماك في الإعداد للحياة بدلًا من الحياة نفسها:

كذب هذه الفكرة يتلخص في أن ينسحب الإنسان من الحياة في الحاضر، وهي الحياة الوحيدة الحقيقية، ويستبدلها بالمستقبل رغم أن المستقبل ليس في يده.

كي نتمكن من التغلب على هذا الإغواء، فعلى الإنسان أن يفهم ويذكر أنه ما من وقت للاستعداد والإعداد، وأن عليه أن يعيش في أفضل صورة ممكنة الآن... الآن هو ما لديه، فالكمال الذي هو في حاجة إليه موجود في كمال الحب، ولا يمكننا أن نكتمل في هذا الكمال إلا في الحاضر. لذا فليس على الإنسان أن يهمل أي دقيقة، بل أن يعيشها بكل قوته كي يقوم بما قد أعد للقيام به، وبسبب إرساله إلى هذا العالم، وهو وحده من يمكنه أن يمنحه خيره الحقيقي. على الإنسان أن يعيش عالمًا في كل لحظة أنه يمكن أن يُحرم من إمكانية تحقيق ذلك.

-١-

«هذا ما سأفعله حينما أكبر». «سأفعل كذا وكذا حينما أنهي الدراسة.... حينما أتزوج». «سوف أقوم بكذا حينما أرزق بأطفال... عندما أزوج ابني... أو حينما أصبح ثريًا، أو حينما أنتقل إلى مكان آخر، أو حينما أشيخ».

هكذا يقول الأطفال والبالغون والشيوخ، ولا أحد يعرف ما إن كان سيعيش حتى المساء أو لا. لا يمكننا أن نعرف شيئًا عن مثل هذه الأمور، وما إن كانت الفرصة ستتاح لنا كي نقوم بأمر ما، أو أن الموت سيسبق ذلك.

-٢-

كثير ما نفكر ونقول: «لا يمكنني أن أقوم بكل شيء في هذا الظرف الذي أنا فيه».

يا لخطأ هذا التفكير! إن العمل الداخلي الذي يتمحور حوله معنى الحياة، ممكن دائمًا. سواء كنت في السجن أو مريضًا أو محرومًا من إمكانية القيام بأي نشاط خارجي، أم كانوا يسيئون إليك، أو يعذبونك، فأنت دائمًا لديك السلطة على حياتك الداخلية. يمكنك بالفكر أن تلوم وتدين وتحسد وتكره الناس، ويمكنك أن تقمع هذه المشاعر بداخلك، وتستبدلها بمشاعر آخرى صالحة. وهكذا فإن كل لحظة من حياتك هي لك، ولا يمكن لأحد أن ينتزعها منك.

-٣-

يقول إنسان لنفسه: «يلزمني حالًا أن أتراجع عمَّا يجب أن أقوم به، وما يُلزمني به ضميري؛ لأني لست مستعدًّا. لكني سأعد نفسي، وعندما يحين الوقت سأعيش بما يتوافق تمامًا مع متطلبات ضميري».

-٤-

عندما أقول: «لا أستطيع أن أفعل ذلك»، فأنا أستخدم تعبيرًا خاطئًا. عليَّ أن أقول: «لم أتمكن من فعل ذلك سابقًا. وفي كل لحظة من اللحظات الآنية يمكنني أن أقوم بنفسي بما أريد، وهذا أمر أنا متيقن منه تمامًا، وما من شك فيه». من الحسن للإنسان أن يفكر هكذا.

-٥-

الوعي بالمرض والاهتمام بعلاجه، والأهم من ذلك: فكرة أنني الآن لست على ما يرام، ولا يمكنني الآن أن أقوم بكذا، وأنني عندما أسترد صحتي سأقوم بكذا... كل هذا محض إغواء عظيم. هذا يعني القول: «لا أريد ما قد وُهِب لي وما لم يوهب لي». يمكن للإنسان دائمًا أن يشعر بالسرور من اللحظة الآنية، ويقوم بكل ما هو ممكن بتلك القوى الموجودة فعلًا.

-٦-

(كل ساعة حقيقية هي ساعة حاسمة. اكتبْ على قلبك أن كل يوم هو أفضل أيام السنة، وكل ساعة هي أفضل ساعة، وكل لحظة هي أفضل لحظة، وهي الأفضل لأنها لك وحدك).

«أمرسون».

-٧-

كي تعيش حياتك على أفضل ما يكون، عليك أن تتذكر دائمًا أن حياتك في الحاضر فقط، وحاول أن تتصرف بأفضل طريقة ممكنة في كل دقيقة تمر.

-٨-

لست في حالة جيدة، ويبدو لك أن السبب هو أنك لا تستطيع أن تعيش بالطريقة التي تريدها، وسيكون من الأسهل لك أن تفعل ما يتوجب عليك إن كنت تعيش في ظروف أخرى، ولكن هذا غير حقيقي. لديك كل ما ترغب فيه. في كل دقيقة تمر عليك يمكنك أن تقوم بأفضل ما يمكنك القيام به فقط.

-٩-

في الحياة الحقيقية لا يمكن أن يكون هناك أفضل مما هو موجود فعلًا. أما الرغبة في شيء آخر غير ما هو موجود فهو نوع من التجديف.

-١٠-

الأعمال الكبيرة المهمة والعظيمة التي لا يمكن أن تتم إلا في المستقبل ليست أعمالًا حقيقية، ولا يقومون بها من أجل الله. إن كنت تؤمن بالله، فستؤمن بالحياة في الحاضر، وستقوم بهذه الأعمال التي تنتهي منها في الحاضر.

-١١-

أقرب وسيلة نقترب بها من الله هي أكثر طريقة تجعلنا نتمركز في الحاضر، وعلى النقيض: فكلما ننشغل بالماضي أو المستقبل، كلما نبتعد عن الله.

-١٢-

Memento mori[١٣٤].... (تذكر موتك). إنها حكمة عظيمة. إنْ تذكرنا دومًا أننا سنموت لا محالة، لتغيرت حياتنا بأكملها تمامًا. إن عرف الإنسان أنه سيموت مثلًا خلال نصف ساعة، فيقينًا لن ينشغل بأمور تافهة غبية، لكن بالتأكيد سينشغل بأمور أخرى مهمة. ألا يشبه نصف قرنٍ يفصلك عن الموت نصف ساعة؟

عواقب أفعالنا ليست من شأننا، بل من شأن الله:

إن كافة عواقب أفعالنا ليست في متناول يدنا؛ لأنها بلا نهاية في عالم لا نهاية له وزمان غير محدود.

-١-

إن كان بإمكانك أن تدرك كافة عواقب نشاطك، فاعلم أن هذا النشاط تافه.

-٢-

يقول الناس: «من المستحيل أن نعيش إن لم نعرف ما الذي ينتظرنا. علينا أن نستعد لما سيلاقينا». وهذا غير حقيقي. الحياة الحقيقية الصالحة لا تظهر إلا عندما لا أفكر فيما سيحدث لجسدي، بل أفكر فقط فيما تحتاج إليه روحي الآن. والروح ليست في حاجة سوى لشيء واحد: أن أقوم بما يجعلها تتحد مع كافة البشر، ومع الله.

---

(١٣٤) كتبها تولستوي هكذا في الأصل باللاتينية.

-٣-

أفعالنا الآن، في هذه اللحظة تنتمي إلينا. أمَّا ما ينتج عنها، فهذا من شأن الله.

-٤-

أن تعيش حياة روحية يعني أن تكون إنسانًا في معية الله، ومع أنه لا يمكنك أن تعرف عواقب أفعالك إلا أنك توقن من أنها ستكون للخير.

-٥-

التصرفات التي تقوم بها دون أي تصور لعواقبها، من أجل أن تنفذ إرادة الله فقط، هي أفضل شيء يمكن للإنسان أن يقوم به.

-٦-

ما إن تفكر في عواقب أفعالك، حتى تشعر بضعفك وتفاهتك. وما إن تفكر في أن واجبك هو أن تنفذ فقط إرادة من أرسلك إلى هذا العالم، حتى تشعر بالحرية والسرور والقوة.

-٧-

إن فكَّر الإنسان فيما سيلاقيه من فعله، فما سيفعله هو يقينًا من أجل نفسه.

-٨-

إن المكافأة التي يحصل عليها الإنسان على حياته الفاضلة ليست في المستقبل، بل هي الآن، في اللحظة الآنية. قم بالخير الآن، وستشعر بأنك على ما يرام، وإن قمت بالخير لا يمكن ألَّا أن تكون العواقب خيِّرة أيضًا.

أولئك الذين يدركون معنى الحياة في الحاضر لا يمكنهم أن يتساءلوا عن الحياة بعد الموت:

نحن نشوش أفكارنا بالتفكير في الحياة المستقبلية، ونسأل أنفسنا ماذا سوف يحدث بعد الموت؟ ولكن من المستحيل أن نتساءل عن أمر كهذا؛ لأن تعبير «الحياة في المستقبل» يحمل تناقضًا في داخله، فالحياة هي التي في الحاضر فقط. يبدو لنا أن هناك ما كان، وما سيكون، ولكن الحياة هي ما يكون الآن فقط. لسنا في حاجة للتساؤل عن المستقبل، بل نحن في حاجة إلى أن نتساءل كيف نعيش في الحاضر الآني.

-١-

نحن في جهل دائم بالحياة الجسدية؛ لأنها تحت إطار الزمن كاملًا، بينما لا يمكننا أن نعرف المستقبل. أما في مجال الحياة الروحية فما من مجهول لدينا؛ لأنه ما من مستقبل في الحياة الروحية، لذا فكلما تنتقل حياتنا من إطار الجسد إلى إطار الروح يقل الإبهام ويزول الغموض، بنفس الدرجة التي نعيش فيها في الحاضر أيضًا.

-٢-

(علينا أن نقوم بالعمل المكلفين به بصدق ونزاهة، سواء أمِلنا في أن نصبح في نهاية الأمر ملائكةً، أو أننا كنا نؤمن أننا كنا ذات يوم رخويات).

«جون راسكن».

-٣-

القضية الرئيسة في حياتنا تتلخص فيما إن كنا نقوم في هذه الحياة القصيرة التي وهبت لنا بما يريده منا مَن أرسلنا إلى هنا، أم أننا نقوم بما نريده نحن؟

-٤-

على امتداد الحياة -خاصة الحياة الفاضلة- يزداد وهنًا مع الوقت معنى الوقت والسؤال عن المستقبل. كلما نكبر كلما يمر الوقت بصورة أسرع، وكلما يقل تدريجيًّا معنى كلمة «سوف»، ويزداد أكثر فأكثر معنى كلمة «موجود».

-٥-

(إن كان بإمكانك أن تُحلِّق بالروح فوق الزمان والمكان، فأنت تختبر الأبدية في كل لحظة).

«أنجيلوس سيليسيوس».

❊ ❊ ❊

عدم الفعل

الناس يفسدون حياتهم، ليس فقط بعدم فعل ما يجب أن يفعلوه، بل أيضًا بفعل ما لا يجب أن يفعلوه. لذا فالأمر الرئيس الذي يستحق بذل جهود الإنسان من أجله كي يحيا حياة فاضلة، هو ألَّا يفعل ما لا يجب أن يفعله.

ضبط النفس هو أهم ما يحتاج إليه الإنسان؛ كي يحيا حياة فاضلة:

-١-

ثمَّ أمر واحد مهم لكافة البشر، هو أن يعيشوا حياة حسنة. والحياة الحسنة لا تعني فقط أن نقوم بما نستطيع فعله من أفعال صالحة، بقدر ما تعني ألَّا نقوم بفعل الشر الذي يمكننا ألَّا نقوم به. أهم ما في الأمر هو ألَّا نفعل الشر.

-٢-

يعرف جميع معاصرينا أن الحياة التي نحياها الآن شريرة، وهم لا يدينون نظام حياتنا؛ بل إنهم أيضًا يقومون بما يعتقدون أنه من شأنه أن يُحسِّن نظام الحياة. لكن الحياة لم تتحسن جراء ما يقومون به، بل ويصبح الأمر أسوأ فأسوأ. فما السبب في ذلك؟ السبب أن الناس يقومون بأكثر الأعمال تعقيدًا وصعوبةً من أجل تحسين الحياة، ولا يقومون بأكثر الأعمال بساطةً وسهولةً. إنهم لا يمنعون أنفسهم عن المشاركة في تلك الأفعال التي تجعل حياتنا شريرة.

-٣-

يمكن للإنسان أن يدرك أنه عليه أن يقوم بفعلٍ ما عندما يدرك بوضوح

الفعل الذي يتوجب عليه ألا يقوم به. وعندما لا يقوم بهذا الفعل الذي لا يتوجب عليه أن يقوم به، فهو لا محالة سيقوم بما يتوجب عليه أن يقوم به، على الرغم من أنه لن يعرف لماذا يقوم بما يقوم به الآن من أفعال.

-٤-

سؤال: ما أفضل ما يمكنك أن تقوم به عندما تكون على عجلة من أمرك؟

الإجابة: لا شيء.

-٥-

في أوقات انحدار الروح عليك أن تتعامل معها كما تتعامل مع المريض، فأهم ما يجب عليك أن تقوم به، ألَّا تقوم بشيء مطلقًا.

-٦-

إن كنت لا تعرف ما إن كان يجب أن تقوم بهذا الفعل أو لا، فالأفضل ألَّا تقوم به. إن لم يكن في مقدورك التراجع عن الأمر، وكنت على يقين أنه أمر حسن، لما سألت نفسك ما إن كان يتوجب عليك أن تقوم به أو لا، فإن سألت نفسك فهذا يعني شيئين: أولا أنك تعرف أنك يمكنك ألا تقوم بهذا الفعل، وثانيًا: أنت تعرف لا محالة أن هذا الفعل ليس خيِّرًا تمامًا.

إن كان الفعل خيِّرًا تمامًا، لما سألت نفسك هذا السؤال.

-٧-

إن أردتَ شيئًا بقوة وبدا لك أنك لا يمكنك أن تمسك نفسك عنه، فاعلم أنك تخدع نفسك. ليس حقيقيًّا أنه لا يمكن للإنسان أن يمتنع عن فعل ما. إنه لا يمكنه ذلك فقط في حالة واحدة، وهي أن يظل يؤكد لنفسه أنه لا يستطيع ذلك.

-٨-

كلٌّ يتذكر حياته، حتى الشاب يفعل ذلك. وإن ندمتَ مرةً على أنك لم تقم ذاتَ مرَّةٍ بما كان يتوجب عليك أن تقوم به، فستندم مئة مرة على أنك فعلت ما لم يكن عليه أن تفعله.

عواقب عدم ضبط النفس:

-١-

لا يأتينا الضرر من عدم قيامنا بفعل يجب أن نقوم به، بقدر ما يُصيبنا من عدم إمساكنا عن فعل ما لا يجب أن نفعله.

-٢-

عدم ضبط النفس في فعل ما يُضعف قوة ضبط النفس صوب بقية الأفعال. التعود على عدم ضبط النفس يشبه تيار ماء يسري أسفل المنزل خفيةً. مثل هذا المنزل لن يظل صامدًا.

-٣-

أمر سيئ ألَّا تنهي شيئًا ما، ولكن الأسوأ أن تنهيه على عجلة وتضطر لإصلاحه. أن تتأخر أمر سيئ، ولكن الأسوأ أن تسرع. إن تبكيت الضمير على ما فعلته أكثر إيلامًا دائمًا من تبكيته على ما لم تفعله.

-٤-

كلما بدا الأمر أكثر صعوبةً، كلما وجب أن تقل تصرفاتنا. عادةً ما نفسد بأفعالنا ما كان قد بدأ فعلًا في التعافي(١٣٥).

(١٣٥) يمكننا بوضوح أن نرى اتفاق تولستوي في رؤيته حول عدم الفعل بقدر الإمكان مع فلسفة لاو تسو.

-٥-

أغلب مَن ندعوهم أشرارًا أصبحوا كذلك بسبب أنهم قد استبدلوا مزاجهم الفطري بآخر شرير، وناصروه ولم يبذلوا جهودًا كي يضبطوا أنفسهم عن فعل ذلك.

-٦-

إن كنت تشعر أنه ليس في مقدورك أن تضبط نفسك عن رغبة جسدية، فالسبب حتمًا أنه عدم ضبط نفسك عندما كنت تستطيع أن تقوم بذلك، حتى تحولت الرغبة بداخلك إلى عادة.

ليس كل نشاط يستوجب الاحترام:

-١-

ليس صوابًا على الإطلاق أن نعتقد أن أي نشاط هو في حد ذاته -دون اعتبار لماهيته- عمل جيد يستحق الاحترام. إن السؤال يجب أن يكون عن طبيعة النشاط، وعن الظروف التي لا يجب فيها للإنسان أن يقوم بأي نشاط. مثلًا أحدهم مشغول طوال الوقت بأعمال القضاء، وسن العقوبات على الناس، والآخر جندي مشغول دائمًا بالتدرب على الرماية، وثالث مشغول بالربا، ومن خلال هذه الأعمال يستفيد الشخص بإشباع احتياجاته من ناتج عمل الآخرين.

-٢-

كثيرًا ما يرفض الناس بإباء أن يستمتعوا بمتع بسيطة طاهرة قائلين إنه ما من وقت لديهم، ورغم ذلك فهم لا يقولون إن لعبة لطيفة مرحة ربما تكون أكثر أهميةً وضرورةً لهم بكثير من كثير من الأعمال التي ينشغلون فيها. الحالة

الوحيدة التي يتخلى فيها الناس عن المتعة يكون غالبًا عند قيامهم بعمل لا يجب أن يقوموا به أبدًا.

-٣-

النشاط الخارجي المهتاج ليس فقط غير ضروري من أجل حركة حقيقية للحياة، بل هو ضار أيضًا بها. البطالة من دون تسلية تتغذى على ناتج عمل الآخرين، ولكن هناك ما هو أصعب من ذلك، وهي تلك الحالة غير الممتلئة بعمل داخلي، لذا فإن عاش الإنسان في حالة ترف مستغلًا نتاج عمل الآخرين، فلن يكون كسولًا أبدًا. الضرر الرئيس الذي يصيب الإنسان ليس من البطالة، بل من فعل أمر لا يتوجب عليه فعله أمر ضار.

يمكن للإنسان أن يضبط نفسه عن الأفعال الشريرة عندما يتعرف على نفسه فقط كوجود روحي، لا جسدي:

-١-

كي نتعلم ضبط النفس علينا أن نتعلم التمييز بين الجانب الجسدي والروحي في الإنسان، وأن نجبر الجسدي ألَّا يقوم بما يريده، بل بما يريده الجانب الروحي.

-٢-

عندما تنام الروح وتستريح يخضع الجسد لا محالة لإبداء المشاعر التي تولدها تصرفات الناس بداخله. يتثاءب الناس، فيتثاءب هو أيضًا، وإن غلى الناس غضبًا يغلي هو أيضًا من الغضب، وإن رق الناس وبكوا، تنهمر الدموع من عينيه.

هذا الخضوع اللا إرادي للبواعث الخارجية هو ما يسبب الأفعال الشريرة التي لا تتفق مع متطلبات الضمير الإنساني. فكن على حذر من هذه البواعث

الخارجية، ولا تخضع لها.

-٣-

عندما تُعوِّد الإنسان الجسدي الذي بداخلك منذ أعوام الشباب على طاعة الإنسان الروحي الذي بداخلك، حينها فقط يصبح من الأسهل أن تضبط نفسك في تنفيذ رغباتك. ومَن يستطع أن يضبط نفسه هكذا، سيعيش في يسر وسرور في هذا العالم.

كلما ازداد كفاحك من أجل ضبط النفس، كلما سهلت الحرب:

-١-

(هناك حرب مميتة بين العقل والعواطف. ربما كان الإنسان ليشعر بالسلام إن كان لديه عقل بلا عواطف، أو عواطف دون عقل. لكن الأمر مختلف، فهو لا يمكنه أن يتجنب تلك الحرب الضروس، ولا يمكن أن يكون في سلام مع أحدهما دون أن يكون في حرب مع الآخر. إنه يقاتل طوال الوقت بداخله، وهي حرب ضرورية، ففيها معنى الحياة بأكمله).

«باسكال».

-٢-

كي تحترم الآخرين مثلما تحترم نفسك، فعاملهم بالطريقة التي نحب أن يعاملنا بها الآخرون، وهذا هو الأمر الرئيس في الحياة: أن تكون لديك السيطرة على نفسك. وكي تسيطر على نفسك، عليك أن تتعود على ذلك.

-٣-

في كل مرة تشعر أنك تريد فعل شيء ما بقوة، توقف وفكِّر هل من الحسن أن تقوم بهذا الفعل أم لا؟

-٤-

كي لا تقوم بأفعال شريرة -على الأقل الأفعال الأكثر شرًّا- عليك أن تتعلم أن تمسك نفسك عن المحادثات الشريرة، والأهم من ذلك أن تمسك نفسك عن الأفكار الشريرة. ما إن تدرك أن هذا الحديث غير صالح وأنك تسخر وتدين وتسب شخصًا آخر، توقف تمامًا واصمت وصُم أذنيك. عليك أن تقوم بالأمر ذاته عندما تراودك أفكار شريرة، أو تفكر بشكل شرير في قريبك، سواء كان هو كذلك أو لا، توقف وحاول أن تفكر في أمر آخر. إن تعلمنا فقط ضبط النفس عن الكلمات والأفكار الشريرة، فسيكون بإمكاننا أن نمسك أنفسنا عن القيام بأي فعل شرير.

-٥-

بغض النظر عن عدد المرات التي سقطتَ فيها وعدم انتصارك على شهواتك، فلا تبتئس أبدًا. فكل جهد تبذله في الحرب، يحدُّ من قوة الشهوات، ويُسهِّل من انتصارك عليها.

-٦-

لا يترك السائق الزمام أبدًا؛ لأن الخيول لا يمكنها أن تقف فجأةً، لكنه يواصل الجذب، وفي النهاية تتوقف الخيول. هكذا هو الأمر مع الشهوات: لن تمسك نفسك مرةً واحدةً، بل واصل النضال، وفي النهاية ستنتصر أنت لا شهواتك.

-٧-

كل شهوة في قلب الإنسان تبدأ في البداية بتضرعٍ والتماسٍ، ثم تبدو بعد ذلك كالضيف، وفي النهاية تصبح مالكة المكان. حاول أن ترفض هذا السائل، ولا تفتح له من البداية باب قلبك.

أهمية ضبط النفس للفرد وللبشرية بأكملها:

-١-

إن أردت أن تكون حرًّا، فعوِّد نفسك على الإمساك عن تنفيذ رغباتها.

-٢-

(مَن الحكيم؟ مَن يستطيع أن يتعلم أي شيء.

مَن الغني؟ مَن يرضى بنصيبه.

مَن القوي؟ مَن يكبح شكيمة نفسه).

«التلمود».

-٣-

يُقال إن تعاليم المسيحية تحض على الضعف، لأنها في الأساس لا تطالبنا بأفعال بقدر ما تطالبنا بالإمساك عنها. تعاليم المسيحية تحض على الضعف؟! حسنة هي تلك التعاليم التي تحض على الضعف التي يُعدم صاحبها على الصليب ثابتًا على موقفه، ومن بعده آلاف الشهداء والأفراد المستقلون يتمكنون من الوقوف بشجاعة ضد الشر، وبينما يعلم اليهود -من قتلة المسيح- وموظفو الدولة طبيعة هذا التعليم الذي يحض على الضعف، يخافون منه أكثر من أي شيء آخر! إنهم يشعرون أن هذا التعليم له جذر واحد، ويمكنه يقينًا أن يدمر كل هذا النظام الذي يتمسكون به. ضبط النفس عن الشر يتطلب قوة أكبر بكثير من فعل أصعب الأمور التي نعتبرها خيرًا.

-٤-

كافة الاختلافات بين أوضاعنا في العالم لا تُقارن بسلطة الإنسان على نفسه. إن سقط إنسان في مياه البحر، فسيان المكان الذي سقط منه والبحر الذي سقط فيه، سواء كان البحر الأسود أو المتوسط أو سقط في المحيط، فما يهمُّ فقط هل يمكن لهذا الإنسان أن يسبح أو لا. إن القوة لا تكمن في الظروف

الخارجية، بل في القدرة على السيطرة على النفس.

-٥-

لا تتمثل القوة الحقيقية في مَن يستطيع الانتصار على الآخرين؛ بل في مَن يستطيع الانتصار على نفسه، ولا يسمح للطبيعة الحيوانية بداخله أن تتسيد على روحه.

-٦-

(مَن يلبي شهواته المشبوبة، مَن يبحث عن اللذة، تزداد لديه قوة الشهوة أكثر فأكثر، ويُقيِّد نفسه بالأصفاد.

مَن يستطيع التغلب على شهوته، هو الذي يحطم أصفاده).

«حكمة بوذية».

-٧-

(أيها الشاب! أمسك عن إرضاء شهواتك في اللهو والعيش بترف، فإن لم يكن بسبب رغبتك في رفض كل هذا تمامًا، فليكن بسبب رغبتك إذنْ في أن تكون لديك إمكانيةٌ لا يمكن أن تتوقف للحصول على المتعة. فهذا التقتير الذي تقوم به صوب مشاعرك الحياتية يجعلك في غنى حقيقي بسبب إرجاء المتعة.

فوعيك بأن المتعة في قوتك أكثر اتساعًا ووفرةً -مثل كل شيء مثالي- من الشعور بالرضا من هذه المتعة؛ لأنه مع هذا الشعور بالرضى يتم تدمير الشعور بالمتعة في حد ذاته).

«كانط».

-٨-

من الضروري ألا نحاول فعل الخير بقدر ما نحاول أن نكون أخيارًا، فليس من الضروري أن نحاول إبراز الضوء بقدر ما نحاول أن تكون أطهارًا. تعيش

روح الإنسان كما لو أنها داخل وعاء زجاجي، وهذا الوعاء عرضة للتلوث، وبإمكانه أيضًا أن يظل نظيفًا. وبقدر ما يظل نظيفًا بقدر ما يتمكن من عكس ضوء الحقيقة، فيضيء الإنسان لنفسه وللآخرين على السواء. والأمر الأهم للإنسان داخلي بطبيعته، فهو يتمثل إذنْ في الحفاظ على نقاء وعاء قلبه. لا تلوثْ نفسك فقط، وستصبح مضيئًا وستضيء للناس.

-٩-

لا تفعل فقط ما لا يتوجب عليك فعله، وستجد نفسك قد قمتَ بكل ما يتوجَّبُ عليك القيام به.

-١٠-

كثيرًا ما لا نحتاج شيئًا سوى التوقف عمَّا نقوم به؛ لكي نحقق ما نرغب فيه!

-١١-

تأمل فقط في الحياة، وعبودية الناس في عالمنا... انظر إلى شيكاغو- باريس- لندن، وكافة المدن وكافة المصانع والسكك الحديدية والسيارات والقوات العسكرية والمدافع والحصون والمعابد وعبادة الملوك والمتاحف والبنايات المكونة من ثلاثين طابقًا، وما إلى ذلك، واطرح سؤالًا على نفسك: ما أول شيءٍ يجب فعله حتى يمكن للناس أن يعيشوا حياةً حسنةً؟ ولا يمكن أن تكون الإجابة شيئًا آخر إلا الآتي: عليهم قبل كل شيء آخر أن يتوقفوا عن فعل كل ما هو غير ضروري ممَّا يقومون به الآن. وما هو غير ضروري في عالمنا الأوربي يشكل ٩٩٪ من مجمل نشاط الناس.

-١٢-

مهما أصبح الكذب الناجم عن التناقضات في حياتنا وفي وعينا واضحًا تمامًا، فإنه يُضعف ويُجهد نفسه، إلَّا أنه لا يتوقف. ومع ضعفه وإجهاده، فإنه

يُقيِّد النظام القائم بالأصفاد ويحول دون ظهور نظام جديد. لا يؤمن أغلب الناس في عالمنا المسيحي بالقواعد الوثنية التي تقود حياتهم، بل يؤمنون بقواعد مسيحية يعترفون بها داخل وعيهم، ولكن حياتهم تظل في طريقها كما كانت في الماضي دون تغيير. كي تزول كل هذه البلايا والمتناقضات التي تعذب الناس ماديًّا وأخلاقيًّا، وكي يحل ملكوت الله الذي تم التنبؤ به منذ ١٩٠٠ عام(١٣٦)، يلزم معاصرينا أمر واحد فقط: الجهد الأخلاقي. وكما أن التأكد من وصول السائل إلى نقطة التجمد يكون عبر إدراك شكله الذي يشبه بلورات، كذلك نحن في حاجة إلى دفعة كي تنتقل الإنسانية إلى هذا الطور الجديد من الحياة، والذي يتطلب بدوره بذل مجهود أخلاقي... إنه هذا المجهود الذي يعمل على حلول ملكوت الله. هذا المجهود لا يتمثل في الحركة، بل في فتح آفاق جديدة من الوعي، ومن الأفكار الجديدة، وفي القيام بأفعال جديدة بعينها. إنه ذلك الجهد اللازم من أجل الدخول إلى ملكوت الله أو في شكل جديد من الحياة. هناك مجهود سلبي: مجهود عدم الفعل أمام الطوفان الشديد... مجهود عدم القيام بأفعال لا تتوافق مع الوعي الداخلي.

وبسبب ضرورة هذا الجهود، فالناس مضطرون إلى الإعراب عن قسوة الحياة وإلى الوضوح وانتشار التعاليم المسيحية.

-١٣-

(إن أقل درجة من الحركة لها أهمية خاصة بالنسبة للأشياء في الطبيعة بأكملها. البحر بأكمله يتغير بفعل صخرة واحدة. وهكذا هو الأمر في الحياة الروحية، فأقل حركة تؤدي إلى عواقب لا نهائية، فكل حركة مهمة جدًّا).

«باسكال».

---

(١٣٦) يقصد منذ بشارة المسيح.

الكلمة

الكلمة هي التعبير عن الأفكار، وبإمكانها أن تُوحِّد الناس أو تفرقهم، لذا فعلينا التعامل معها بحذر كامل.

الكلمة أمر عظيم:

-١-

بكلمة يمكنك أن توحد الناس، وبكلمة يمكنك أن تفرقهم. بكلمة يمكنك أن تخدم الحب، وبكلمة يمكنك أن تخدم العداء والكراهية. احذر من هذه الكلمات التي تفرق الناس أو تؤجج العداء والكراهية بداخلهم.

-٢-

إن الكلمة تعبير عن الفكرة، والفكرة تجلٍّ لقوة الله، لذا فعلى الكلمة أن تتسق مع مَن تعبر عنه. من الممكن أن تكون محايدة؛ لا جيدة ولا سيئة، ولكن لا يجب أبدًا أن تُعبِّر عن الشر.

-٣-

الإنسان حامل لله بداخله. وعندما يعي إلهيته، سيمكنه أن يعبر عن ذلك بالكلمة. فكيف لا نكون في تمام الحذر عند التعامل مع الكلمة؟

-٤-

الوقت يمر، ولكن الكلمة التي قيلت تظل آثارها فعَّالة.

-٥-

إن كان لديك وقت، ففكِّر قبل أن تقول أي شيء: هل يجب أن أقوله أم لا؟ وهل من الممكن أن يتسبب هذا القول في الإضرار بأحد أم لا؟ وستجد أنك في أغلب الأوقات إن فكرت قبل أن تتكلم، فلن تتكلم.

-٦-

(فكِّر أولًا، ثم تكلم. إن الإنسان يسمو على الحيوان بقدرته على الحديث، لكنه أدنى منه إن أخذ يثرثر).

«سعدي الشيرازي».

-٧-

بعد حوار طويل حاول أن تتذكر كل ما قيل، وستتعجب من كمِّ الكلام الفارغ غير الضروري -بل والشرير- الذي قيل!

-٨-

(اسمع، وانتبه، ولا تتحدث كثيرًا. لا تتحدث أبدًا إن لم يسألك أحد، وأجب باختصارٍ قدر المستطاع، ولا تخجل إن توجب عليك الاعتراف بأنك لا تعرف إجابة السؤال الذي يسألونك عنه).

«حكمة صوفية».

-٩-

(إن أردت أن تكون ذكيًا، فتعلم أن تسأل بتعقل وتستمع بعناية وتجيب بهدوء، وأن تتوقف عن الحديث عندما لا يكون هناك مزيد من الكلام ليُقال).

«لافاتر»(١٣٧).

---

(١٣٧) جون كاسبر لافاتر (١٧٤١-١٨٠١): كاتب سويسري.

-١٠-

لا تمدح نفسك، ولا تُدِن الآخرين، ولا تجادل.

-١١-

استمع إلى كلام العالم بانتباه شديد، حتى وإن كانت أعماله لا تتفق مع أقواله. على الإنسان أن يتعلم من كل شيء، حتى لو كان الكلام مكتوبًا على الحائط.

-١٢-

(ثلاث كلمات قصيرة جميلة: أنا لا أعرف: تَعوَّد عليها كي تقولها كثيرًا).

«حكمة شرقية».

-١٣-

هناك قول لاتيني قديم «*de mortuis aut bene, aut nihil*»، ويعني قل خيرًا عن الموتى، أو لا تتكلم. كم هذا غير عادل! على النقيض من ذلك... علينا أن نقول: «قل خيرًا عن الأحياء، أو لا تتكلم». فكم يمكن لهذا أن يخلص الناس من كثير من المعاناة، وكم هو أمر سهل! لمَ لا نتكلم بالسوء عن الموتى؟

الأمر على النقيض من ذلك، ففي عالمنا أقاموا عرفًا سجلًا للوفيات واحتفالات بمرور أعوام معينة على موت بعض الشخصيات، وفي هذه الاحتفالات يمدحون الموتى بالأكاذيب. وهذا المديح الكاذب له أشد الضرر، فهو يُزيل من أفهام الناس الفارق بين الخير والشر.

-١٤-

(بمَ يمكن أن يُقارن ما يجري على لسان الإنسان؟ بمفتاح الخزينة، فعندما

يُغلق الباب لا أحد يستطيع أن يعرف ما وراء الباب: هل هو كنز أم مجرد قمامة؟).

«سعدي الشيرازي».

-١٥-

(مع أن الصمت مفيد طبقًا لتعاليم الحكماء، إلا أننا في حاجة أيضًا إلى الحديث الحر، لكننا نحتاجه فقط في الوقت المناسب. نحن نخطئ بالكلمات، ونخطئ عندما نصمت ويكون الحديث واجبًا، ونخطئ عندما نتكلم ويكون الصمت واجبًا).

«سعدي الشيرازي».

عندما تغضب، اصمت:

-١-

إن كنت تعرف كيف يجب أن يعيش الناس وتريد لهم الخير، فسوف توضح لهم ذلك. وفي محاولتك هذه سوف تحاول أن تجعلهم يثقون في كلماتك. وكي يثقوا فيك ويفهموك عليك أن تحاول أن تعبر عن أفكارك بعيدًا عن الغضب والسخط، بل بالهدوء والخير.

-٢-

(عندما تريد أن توضح حقيقةً ما لقرينك أثناء الحوار، فأهم ما يجب عليك أن تفعله هو ألَّا تغضب وألَّا تقول كلمة إساءة شريرة واحدة).

«إبيكتيتوس».

-٣-

الصمت من ذهب.

-٤-

لا تفكر فيما ستقول، إلا عندما تشعر بالهدوء والخير والمحبة. ولكن إن كنت غاضبًا وغير هادئ، فاحذر من الكلام.

-٥-

إن كنت لا تستطيع أن تُهدِّئ من حدة غضبك الآن، فأمسك عن الكلام. اصمتْ، وسوف تهدأ سريعًا.

-٦-

(حاول أن تجعل كلماتك هادئةً وحججك صلبةً أثناء المناقشة. حاول ألَّا تزعج رفيقك وأن تقنعه).

«ويلكينس»[١٣٨].

-٧-

(ما إن نشعر بالغضب أثناء الجدال، فلن نجادل من أجل الحقيقة، بل من أجل أنفسنا).

«كارليل».

لا تنازع:

-١-

يشبه بداية النزاع بداية التدفق الذي يمر عبر السد، فما إن يخترقه، حتى لا يعود بإمكانك إيقافه. وكل نزاع وشجار تدعمه الكلمات وتزيد من حدته.

-٢-

(إن النزاع لا يقنع أحدًا؛ بل يُفرِّق الناس، ويزيدهم مرارةً وغيظًا. كما

---

(١٣٨) جون ويلكينس: فيلسوف وكاتب إنجليزي.

المطرقة بالنسبة للمسمار، هكذا هو النزاع لآراء الناس. الآراء متزعزعة ومتقلقلة، حتى بعد حل النزاع بالقوة داخل الرأس، مثل المسامير العالقة في القبعة).

«جوفينال»[١٣٩].

-٣-

تتلاشى الحقائق وسط النزاعات، والأكثر ذكاءً هو مَن يوقف النزاع.

-٤-

(استمع إلى النزاعات، لكن لا تتدخل فيها. فليحفظك الله من العنف والمزاج الحار، حتى إن كان في أقل تعبير ممكن. الغضب غير مناسب في أي مكان، وخاصة عندما يكون على حق؛ لأنه يحجب الحقيقة ويخفيها).

«جوجول»[١٤٠].

-٥-

أفضل ردٍّ على مجنون هو أن تصمتَ. فكل كلمة ستقولها للمجنون سترتد إليك. رد الإساءة بالإساءة يشبه إلقاء الخشب في الحريق.

لا تُدِنْ:

-١-

(لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا، لأَنَّكُمْ بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ، وَبِالْكَيْلِ

---

(١٣٩) ديسيموس يونيوس يوفيناليوس هو شاعر روماني قديم عاش في القرن الأول والثاني الميلادي، المعلومات عنه غير واضحة حيث أنه يرجح غالباً أنه عاش في أواخر القرن الأول وبدايات القرن الثاني الميلادي في أكينو.

(١٤٠) كاتب روسي يُعد من آباء الأدب الروسي. وُلد في في ١ أبريل ١٨٠٩ وتوفي في ٤ مارس ١٨٥٢. من أعماله الأكثر شهرة رواية الأنفس الميتة وروايته القصيرة المعطف.

الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ. وَلِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلاَ تَفْطَنُ لَهَا؟ أَمْ كَيْفَ تَقُولُ لأَخِيكَ: دَعْنِي أُخْرِجِ الْقَذَى مِنْ عَيْنِكَ، وَهَا الْخَشَبَةُ فِي عَيْنِكَ؟ يَا مُرَاءِ، أَخْرِجْ أَوَّلًا الْخَشَبَةَ مِنْ عَيْنِكَ، وَحِينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّدًا أَنْ تُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَيْنِ أَخِيكَ!).

«متى ٧: ١- ٥».

-٢-

عند النظر إلى أنفسنا، سنجد دائمًا تقريبًا نفس الخطية التي ندين الآخرين بسببها. إن كنا لا نعرف في أنفسنا سوى تلك الخطية، فعلينا أن نتمعن النظر فقط، وسنجد ما هو أسوأ من ذلك.

-٣-

عندما تبدأ في إدانة شخص ما، تذكر أنه لا يجب عليك أن تقول عنه كلمة شريرة إنْ كنت متيقنًا منها، والأكثر من ذلك إن كنت غير متيقن منها وتُكرِّر فقط ما يقوله الآخرون.

-٤-

إن إدانة الآخرين غير صحيحة دائمًا؛ لأنه لا أحد بإمكانه أن يعرف قط ما حدث تحديدًا، وما يحدث داخل روح مَن تدينه.

-٥-

من الحسن أن تتفق مع صديقك أن يوقف كل منكما الآخر ما إن يبدأ أحدكما في إدانة القريب. وإن لم يكن لديك مثل هذا الصديق، فاتفق مع نفسك على ذلك.

-٦-

إدانة الناس وجهًا لوجه ليست حسنة؛ لأنها تُسيء إليهم، وإن فعلت ذلك

خفية عنهم، فهذا غير حسن؛ لأنه سلوك غير شريف؛ لأنك بذلك تخدعهم. أفضل شيء ألَّا تبحث عن الشر في الناس، وإن رأيته تناساه، وابحث عن الشر بداخلك وتذكره دائمًا.

-٧-

الإدانة البارعة تشبه اللحم الذي تغمره صلصة. فأنت لن تلاحظ كيف وُضِعت كل أنواع السموم أسفل الصلصة.

-٨-

كلما قلَّت معرفة الناس بشرور بعضهم البعض، كلما أصبحوا أكثر صرامةً مع أنفسهم.

-٩-

لا تستمع أبدًا لأولئك الذين يتحدثون بالشر عن الآخرين وبالخير عنك.

-١٠-

(مَن يسبني من خلف ظهري فهو يخافني، ومَن يمدحني وجهًا لوجهٍ معي فهو يزدريني).

«مثل صيني».

-١١-

يروق التشهير لأولئك الناس الذين يجدون أنه من الصعب عليهم أن يمسكوا أنفسهم عن فعل الشر لرفاقهم: لا تُدِن الغائبين. ولكن إن كنت متأكدًا من قدرتك على علاج الناس، فعالجهم بشيء آخر غير الإدانة؛ لأنها تضر بك وتضر بأولئك الذين يعالِجون والذين يُعالَجون.

-١٢-

استرْ على خطية غريب، وسيصفح الله عن ضعف ما سترت عنه.

خطورة عدم إمساك النفس عن الكلام:

-١-

نحن نعرف أنه علينا أن نتعامل بحذر مع الأسلحة المعبأة بالذخيرة، لكننا لا نريد أن ندرك أننا علينا أن نتعامل بالحذر ذاته مع الكلمات. ليس في إمكان الكلمة أن تقتل فقط؛ بل أن تقوم بشر أسوأ من الموت.

-٢-

نحن نستاء من الجرائم الجسدية، مثل: الإفراط في الطعام والزنا والقتل، لكننا نتعامل بأريحية مع جرائم الكلمة: الإدانة والإساءة، فنطلق ونطبع ونكتب كلمات شريرة مدمرة، مع أن العواقب التي تنشأ عن جرائم الكلمة أكثر تأثيرًا بكثير من جرائم الجسد. الفارق بينهما فقط يكمن في أن شر الجرائم الجسدية يمكن ملاحظته بشكل واضح، أما شر جرائم الكلمة فلا نلاحظه؛ لأنه يحدث على مبعدة منا في المكان والزمان.

-٣-

اجتمع عدد كبير من الناس يفوق الألف في مسرح كبير. وفي أثناء العرض فكَّر أحد الأغبياء في القيام بمزحة وصرخ بكلمة واحدة: «حريق!». هرع الحضور صوب الأبواب. تزاحموا جميعًا، وضغطوا على بعضهم البعض، وعندما انتهى الأمر اكتشفوا مصرع أكثر من عشرين شخصًا، وإصابة حوالي خمسين آخرين.

كل هذا الشر العظيم حدث بكلمة واحدة شريرة.

رأينا في المسرح كيف حدث شر عظيم بسبب كلمة واحدة غبية، ولكن كثيرًا ما لا نلاحظ تأثير كلمة غبية على الفور كما هو الأمر في حادثة المسرح، رغم أنه يؤدي إلى مزيد ومزيد من الشر، ولكن بشكل غير ملحوظ.

-٤-

لا شيء يشجع على الحياة البطَّالة كالكلام الفارغ. إن صمت الناس ولم يتكلموا بكل هذا الهراء الذي يبعدون به عن أنفسهم ملل الحياة البطالة، لما استطاعوا تحملها، ولانخرطوا في عمل ما.

-٥-

(التحدث بالسوء عن الناس يؤذي ثلاثة: ذاك الذي نتحدث عنه بالسوء، والشخص الذي نتحدث أمامه بالسوء عن الآخرين، ولكن الأكثر ضررًا منهما هو نفسه الذي يتحدث بالسوء).

«باسيليوس الكبير».

-٦-

تقريع شخص غائب أمر شرير بشكل خاص، فأنت عندما تُوبخ شخصًا على مسمع منه، فقد تكون إدانتك له مفيدة، ولكن عندما تخفي عنه ما هو في حاجة إليه وتتحدث بهذا التوبيخ أمام الآخرين فهذا يثير مشاعر شريرة في قلوب الآخرين ضد مَن تدينه.

-٧-

نادرًا ما يندم المرء على شيء لم يقله، ولكن كم عدد المرات التي يندم فيها على شيء قاله إن كان قد عرف عواقبه قبل أن يقوله!

-٨-

كلما ازدادت رغبتك في التحدث، كلما ازدادت خطورة أن تتفوه بالشر.

-٩-

(يا لها من قوة كبيرة تلك التي لدى شخص يستطيع أن يصمت مع أنه على حق!).

«كاتو»[(١٤١)].

فائدة الصمت:

-١-

دعنا نريح الألسنة أكثر مما نريح الأيدي.

-٢-

الإكثار من الصمت أفضل من تقديم الإجابات.

-٣-

أمسك لسانك سبع مرات قبل أن تتحدث.

-٤-

إما أنْ نصمت أو نقول تلك الأشياء التي هي أفضل من الصمت.

-٥-

مَن يتحدث كثيرًا، يفعل قليلًا. يخشى الحكيم دائمًا أن يتعهد في كلماته بأكثر مما يمكنه القيام به، لذلك يصمت كثيرًا، ولا يتحدث إلا عندما يكون ذلك لازمًا، ليس له بل للآخرين.

-٦-

(لقد أمضيت عمري كله بين الحكماء، ولم أجد ما هو أفضل للإنسان من الصمت).

«التلمود».

---

(١٤١) ماركوس بورسيوس: كاتو، أو كاتو الأكبر، أو كاتو الحكيم، أو كاتو الرقيب: سياسي عاش في روما القديمة، اشتهر بسياسته المحافظة ومعارضته الشديدة للهيللينيَّة.

-٧-

إذا ندمت مائة مرة على أنك لم تقل ما هو ضروري، فربما ستندم ٩٩ مرة من بين مائة مرة على أنك قلت ما لا يجب أن تقوله.

-٨-

لدى أحدهم نوايا حسنة، لكن ليست لديه القوة لينفذها فعلًا، ولكن كيف يمكن للإنسان أن يُمسك عن انفجارات الشباب. يمكنه ذلك إن قام فقط بعد مدة طويلة بتذكرها والإشفاق عليها كزهرة لم يستطع أن يقاوم إغراء تمزيقها، لذا فقد كانت ذات يوم مزدهرةً، بينما هي الآن ذابلة تدوسها الأقدام.

-٩-

الكلمة هي مفتاح القلب. إن لم يكن الحوار يؤدي إلى شيء، فلا داعي للتفوه بكلمة واحدة.

-١٠-

(عندما تكون بمفردك، فكِّر في خطاياك. وعندما تكون وسط الجمع، انسَ خطاياهم).

«مثل صيني».

-١١-

إن أردت أن تتحدث بشدة، فاسأل نفسك: ما سبب تلك الرغبة الشديدة؟ أهي من أجلك؟ من أجل فائدتك؟ أم هي من أجل الآخرين؟ إن كانت من أجلك، فحاول أن تصمت.

-١٢-

(أفضل شيء للأحمق أن يصمت. لكنه لو كان يعلم ذلك لما كان أحمق).

«سعدي الشيرازي»

-١٣-

يتعلم الناس كيف يتكلمون، ولكن أهم ما يجب أن يتعلموه كيف يصمتون.

-١٤-

(عندما تتحدث، لا بد وأن تكون كلماتك أفضل من الصمت).

«مثل عربي».

-١٥-

(لا يمكن للمكثر من الحديث أن يتجنب الخطية. إن كانت الكلمة من فضة، فالصمت من ذهب. إن كان الصمت لازمًا للأذكياء، فهو لازم جدًّا للأغبياء).

«التلمود».

فائدة إمساك النفس عن التحدث:

-١-

كلما قلَّ حديثك، كلما ازداد عملك.

-٢-

افطم نفسك عن الإدانة، وستشعر بزيادة القدرة على الحب داخل قلبك، وزيادة الحياة والبركة.

-٣-

ذات مرة التقى محمد وعلي بإنسان يرى أن عليًّا قد أساء إليه، فأخذ يسبه. احتمل عليٌّ ذلك بصبر وصمت طويلًا، لكنه لم يستطع أن يمسك نفسه أكثر من ذلك، وأخذ يرد على السباب بسباب مثله. حينها فارقهما محمد، وعندما

التقاه عليٌّ ثانية، قال له: لمَ تركتني وحدي أتحمل سباب هذا الإنسان السفيه؟. قال محمد: عندما بدأ هذا الرجل في أن يسبك بينما أنت صامت، رأيتُ من حولك عشرة ملائكة، وقد أجابوا عن سباب هذا الرجل، ولكن حينما بدأت أنت في السباب، تركتك الملائكة، ففارقتك أنا أيضًا).

«قصة من التراث الإسلامي».

-٤-

أفضل طريقة يمكنك بها أن تجلب لنفسك حب الآخرين أن تخفي عيوب الآخرين وتقول لهم إن الخير الذي بداخلهم علامة على الحب.

-٥-

الخير في حياة الناس هو حبهم لبعضهم البعض، لذا فالكلمة الشريرة يمكنها أن تضر بهذا الحب.

* * *

الفكر

كما أنه يمكن للإنسان أن يمسك عن القيام بفعل ما يعتبره شريرًا، كذلك يمكن أن يمسك عن التفكير في أفكار سيئة تجذبه إن اعتبرها شريرة. قوة الإنسان الرئيسة تتضح في قدرته على الإمساك عن التفكير في هذه الأفكار؛ لأن كل الأفعال تصدر عن أفكار.

وظيفة الفكر:

-١-

من المستحيل أن نتخلص من الخطايا والإغواءات والخرافات بالجهود الجسدية. لا يمكن أن نفعل ذلك سوى بجهود الفكر. يمكن بالأفكار أن نُعوِّد أنفسنا على إنكار الذات والتواضع والاستقامة. عندما يكافح الإنسان داخل فكره صوب إنكار الذات والتواضع والاستقامة، حينها فقط سيكون بإمكانه أن يناضل ضد الخطايا والإغواءات والخرافات.

-٢-

على الرغم من أنه ما من فكر قد كشف لنا أننا يجب أن نحب -فالفكرة لا يمكنها أن تكشف لنا عن ذلك- ولكن تكمن أهمية الفكر في أنه يشير لنا إلى ما يعوق الحب، لذا فجهود الفكر التي نبذلها ضد كل ما يعوق الحب هي أهم وأكثر الأشياء ضرورةً لنا.

-٣-

إن كان هناك إنسان ليس بمقدوره أن يفكر، فلن يفهم لماذا يعيش. وإن لم يفهم ذلك، فلن يعرف ما الخير وما الشر. لذلك فأغلى ما لدى الإنسان هو

قدرته على التفكير بشكل صائب.

-٤-

يتحدث الناس عن التعاليم الدينية والأخلاقية عن الضمير وكأنهما مصدران متناقضان للإرشاد. في الحقيقة هناك مرشدٌ واحدٌ لنا؛ إنه الضمير، وهو الوعي بصوت الله الذي يحيا بداخلنا. هذا الصوت يقرر لا محالة لكل إنسان ما يجب عليه فعله، وما لا يجب عليه فعله. ويمكن أن يستحث الإنسان بداخله هذا الصوت عن طريق جهود الفكر.

-٥-

(لو لم يعلم الإنسان أنه يمكنه أن يرى بالعينين ولم يفتحهما أبدًا، لكان بائسًا جدًّا. كان الإنسان ليصير أكثر بؤسًا إن لم يدرك أنه قد وُهِب قوة الفكر كي يتحمل بهدوء كافة البلايا؛ أولًا- لأن العقل يخبره أن كافة البلايا تمر، بل وكثيرًا ما تتحول إلى خير له. وثانيًا- لأن الإنسان العاقل يحول كل بلية إلى فائدة له. وبدلًا من أن يواجه الناس المصائب مباشرة يحاولون مراوغتها.

لا شيء يبعث على السرور أفضل من أن الله قد وهبنا سلطة ألَّا نحزن مما يحدث لنا خارج نطاق إرادتنا، وأن نشكره على أنه قد أخضع أرواحنا لما هو داخل نطاق سلطتنا؛ ألا وهي عقولنا. إنه لم يخضع أرواحنا لا لوالدينا ولا لأشقائنا ولا للثروة ولا للجسد ولا للموت. من فرط إحسانه أنه أخضعها لما يتعلق بنا؛ ألا وهي أفكارنا.

لذا فعلينا أن نبذل كافة جهودنا؛ كي نحافظ على نقاوة هذه الأفكار).

«أبيكتيتوس».

-٦-

عندما نتعرف إلى فكرة جديدة ونعتقد أنها صحيحة، يبدو لنا أننا كنا

نعرفها منذ زمن طويل، وقد تذكرناها للتو. إن كل حقيقة موجودة فعلًا في روح كل إنسان، لا تُغرقها فقط بالكذب، وآجلًا أو عاجلًا ستجدها قد أعلنت عن نفسها لك.

-٧-

كثيرًا ما يحدث أن تراودنا فكرة تبدو صحيحة، وفي الوقت ذاته مرعبة، ونخشى أن نؤمن بها. ولكن إن فكرت بعد ذلك في الأمر جيدًا سترى أن هذه الفكرة التي بدت لك مرعبة هي أبسط الحقائق، والتي إن أدركناها لمرة واحدة لأصبح من المستحيل أن نتوقف لثانية عن الإيمان بها.

-٨-

كي تتمكن كل حقيقة عظيمة من الولوج إلى وعي الإنسانية، لا بد لها وأن تمر بعدة مراحل. المرحلة الأولى: «إنها فكرة سخيفة جدًا، حتى إنها لا تستحق النقاش». المرحلة الثانية: «إنها فكرة لا أخلاقية ومناقضة للدين». المرحلة الثالثة: «آه... من المعروف للجميع أنه ليس من الضروري الحديث عن هذا الأمر».

-٩-

عندما تعيش مع الناس، لا تنسَ ما أدركته أثناء وحدتك. وعندما تكون بمفردك، فكِّر فيما تعلمته من اجتماعك بالناس.

-١٠-

(يمكننا أن نصل إلى الحكمة بثلاث طرق: الخبرة -وهي الطريقة الأكثر صعوبة-، والمحاكاة -وهي الطريقة الأكثر سهولة-، والتفكير -وهي الطريقة الأكثر نبلًا).

«كونفوشيوس».

أفكار الإنسان تحدد شكل حياته :

-١-

إن مستقبل الإنسان يتحدد بطريقة أو بأخرى طبقًا للطريقة التي يفهم بها حياته.

-٢-

كافة التغييرات العظيمة في حياة إنسان واحد، وفي حياة الإنسانية بأكملها تبدأ وتتم داخل الفكر. كي نتمكن من إحداث تغييرات في مشاعرنا وتصرفاتنا علينا أن نقوم قبل كل شيء بتغيير على مستوى الفكر.مكتبة

-٣-

كي نتمكن من التحول من حياة شريرة إلى أخرى صالحة، علينا قبل كل شيء أن نحاول أن نفهم لماذا أصبحت الحياة شريرة، وما الذي علينا فعله كي نجعلها صالحة. لذا فكي تتحول الحياة الشريرة إلى صالحة علينا أن نفكر أولًا ثم نفعل ثانيًا.

-٤-

كان الأمر ليبدو حسنًا لو كان بالإمكان أن تتدفق الحكمة من الإنسان الذي يحوز كثيرًا منها، إلى إنسان يحوز القليل منها، كما تتدفق المياه من وعاء لآخر حتى يتعادل الاثنان. ولكن كي يتمكن الإنسان من قبول حكمة غريبة، عليه قبل كل شيء أن يفكر.

-٥-

كل شيء حقيقي يحتاجه البشر لا يمكنهم أن يصلوا إليه فجأة، ولكن دائمًا بالعمل المتواصل الذي يستغرق مدة طويلة. هكذا يصل الإنسان إلى المهارة الشديدة في أي شيء. وكذلك الأمر مع معرفة كيف يمكن للإنسان أن يحيا

حياة صالحة؛ وهي أهم شيء في العالم. كي تتمكن من تعلم كيف يمكنك أن تعيش حياة صالحة، يلزمك قبل كل شيء أن تفكر في شكل صالح.

-٦-

(إن تحويل حياتنا من حالة للأخرى لا يتحدد بقيامنا بإرادتنا بأفعال تبدو لنا شديدة الأهمية كالزواج وتغيير مكان الإقامة أو تغيير النشاط وما إلى ذلك؛ بل بالأفكار التي تراودنا أثناء نزهة ما أو في قلب الليل أو أثناء تناول الغداء، خاصةً تلك الأفكار التي تقول لنا رغم تضمنها لكل ماضينا: «لقد تصرفت هكذا، ولكن الأفضل أن تتصرف كذلك»، وجميع الأفكار الأخرى تخدم كالعبيد هذه الأفكار وتعمل على تحقيقها).

«ثورو».

-٧-

(تعمل أفكارنا المعتادة على صبغ كل شيء في أذهاننا نتعامل معه، وبهذه الطريقة تقوم الأفكار الكاذبة بتحويل أكثر الأفكار نبلًا إلى شبيه لها. تمنحنا أفكارنا المعتادة التي تراودنا شيئًا أكثر صلابةً من المنزل الذي نعيش فيه، فنحن نحملها معنا في كل مكان كقوقعة يعيش بداخلها الحلزون).

«لوسي مالوري»[١٤٢].

-٨-

(لن تصبح رغباتنا فاضلة طالما لم نصلح من عادات العقل. تحدد عادات العقل طبيعة رغباتنا، وتتشكل عادات العقل من خلال التفاعل مع منتج أفضل الحكماء في عالمنا هذا).

«سينيكا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١٤٢) (١٨٤٦- ١٩٢٠): صحفي أمريكي.

-٩-

(ما هو هادئ، يمكنه أن ينعم بالراحة. ما لم يظهر بعد، يمكن منعه بسهولة. الشيء الذي لا يزال ضعيفًا، يمكن كسره بسهولة. ما لا يزال قليلًا، يمكن تبديده بسهولة.

كان الباب السميك ذات يوم فرع شجرة رفيعًا. بدأ البرج المكون من تسعة طوابق بعدة ألواح طوبية. بخطوة واحدة بدأت رحلة الألف فرست[١٤٣].

كن حذرًا من أفكارك، فهي تشكل بداية أفعالك).

(لاو تسو».

-١٠-

(إن الفكرة التي تراودنا -سواء كانت طيبة أو شريرة- ترسلنا إلى الجنة أو الجحيم، ليس في السماء، بل على هذه الأرض، في هذه الحياة).

«لوسي مالوري».

-١١-

يقولون إن العقل لا يمكنه أن يُوجِّه الحياة ويرشدها، ولكن مَن يقولون ذلك هم وحدهم مَن لديهم عقل مُشوَّه بهذه الطريقة إلى درجة أنهم لا يثقون في العقل.

-١٢-

كما أن حياة ومصير كل إنسان يتحددان بما لا نوليه سوى اهتمام بسيط؛ بتصرفاتنا وأفكارنا، هكذا هي حياة المجتمع: الناس والشعوب، فهي تعتمد لا على الأحداث التي تتم في حياة هذه المجتمعات والشعوب، بل على طبيعة

(١٤٣) مقياس روسي للطول يساوي تقريبًا ١,١ كم.

الأفكار التي تُوحِّد معظم الناس في هذه المجتمعات والشعوب.

-١٣-

لا تفكر في أن الحكماء هم مجموعة خاصة من الناس. الحكمة لازمة للبشر أجمعين، ولذلك فجميع الناس يمكنهم أن يصبحوا حكماء. الحكمة تتلخص في أن تدرك عملك في الحياة وتقوم بتنفيذه. وكي تدركه يلزمك شيء واحد: أن تتذكر دائمًا أن الفكرة هي شيء عظيم، لذا فعليك أن تفكر.

-١٤-

«راودتني فكرة، ثم نسيتها. ولكن لا يهم... إنها مجرد فكرة. إن كانت نقودًا، لكنت قد بحثتَ عنها حتى وجدتها، ولكن هذه مجرد فكرة!». ولكن الأشجار الضخمة كانت بذورًا صغيرةً، لذا فمن هذه الفكرة أو تلك يتحدد نشاط إنسان ما وملايين من البشر، بينما نظن أن الفكرة أمرًا غير مهم.

إن سبب معظم بلايا البشر ليس في أفعالهم، بل في أفكارهم:

-١-

عندما يحدث لك أمر غير طيب، فاعلم أنه لم يحدث بسبب ما فعلته، بل بسبب ما فكرت فيه.

-٢-

إن لم نكن قادرين على إمساك أنفسنا عن الشيء الذي نعرف أنه شرير، فهذا بسبب أننا قد سمحنا لأنفسنا قبل أن نفكر في هذا الأمر الشرير ألَّا نمسك أنفسنا عن التفكير فيه.

-٣-

(حاول ألا تفكر فيما تعرف أنه أمر شرير).

«أبيكتيتوس».

-٤-

الأفكار الشريرة أكثر ضررًا من الأفعال الشريرة، فالأولى هي التي تنتج الثانية. الفعل الشرير يمكن ألَّا يتكرر ويمكن أن نندم عليه، ولكن الأفكار الشريرة تُنجب أفعالًا شريرةً. العمل الشرير لا يدفع إلى طريق الأفعال الشريرة، ولكن الفكرة الشريرة تدفع إلى طريق الأفعال الشريرة.

-٥-

كانت الثمرة في البداية مجرد بذرة، فالأفكار تنجب أفعالًا. وكما أن البذرة الشريرة تنجب ثمرةً سيئةً، هكذا تنجب الأفكار الشريرة أفعالًا شريرةً. وكما يفصل المزارع البذور الجيدة عن بذور الأعشاب الضارة، ويختار أفضل البذور ويعتني بها، هكذا يفعل الإنسان العاقل مع أفكاره، فيزيل منها السيئة والشريرة، ويحتفظ بالجيدة ويعتني بها.

إن لم تطرد من ذهنك تلك الأفكار الشريرة ولم تعتنِ بتلك الأفكار الجيدة، فلن يمكنك التوقف عن الأفعال السيئة. وحدها الأفكار الصالحة هي التي تنتج أفعالًا صالحةً. عليك أن تعتز بالأفكار الطيبة... ابحث عنها في كتب الحكماء، وفي الأحاديث العاقلة، والأهم من ذلك أن تبحث عنها داخل نفسك.

-٦-

(كي يعطي المصباح ضوءًا هادئًا، لا بد من وضعه في مكان بعيد عن الريح. إن وضعناه في مهب الريح، فسيهتز الضوء، وستنبعث منه ظلال غريبة قاتمة، وهذه الظلال سوف تخيم على روح الإنسان بأفكار غير صحيحة مدمرة مختلفة).

«حكمة براهمية».

الإنسان متسلط على أفكاره:

-١-

تكون حياتنا طيبة أو شريرة حسب طبيعة أفكارنا، ويمكننا أن نتحكم في أفكارنا. لذلك فكي تعيش حياة صالحة على الإنسان أن يبذل جهدًا فيما يخص أفكاره ولا يستسلم للأفكار الشريرة.

-٢-

(عليك أن تعمل على تطهير أفكارك. إن لم تعد لديك أفكار شريرة لن تصدر عنك أفعال شريرة).

«كونفوشيوس».

-٣-

(لاحظ أفكارك جيدًا، ولاحظ كلماتك، واحمِ نفسك من كل شرور أفعالك. حافظ على نقاء هذه الطرق الثلاثة، وستصل إلى الطريق الذي وصفه الحكماء).

"حكمة بوذية".

-٤-

(كل شيء داخل نطاق سلطة السماء إلا اختيارنا في أن نخدم أنفسنا أو نخدم الله. لا يمكننا أن نمنع الطيور عن الطيران حول رؤوسنا، لكننا مسؤولون عن ألَّا نتركها تبني أوكارها داخل رؤوسنا. هكذا هو الأمر، فنحن لا يمكننا أن نبعد الأفكار الشريرة عن مراودة أذهاننا، ولكن بإمكاننا ألا نسمح لها ببناء أوكار داخل رؤوسنا تطلق منها الأفعال الشريرة).

"مارتن لوثر".

-٥-

من المستحيل أن نطرد عن أذهاننا فكرة شريرة تراودها، ولكن يمكننا أن

ندرك أنها فكرة شريرة، وإن أدركنا إنها فكرة شريرة يمكننا ألَّا نرضخ لها. تراودنا مثلًا فكرة عن أن هذا الإنسان أو ذاك ليس صالحًا. لا يمكنني أن أمتنع عن التفكير في ذلك، ولكن إن أدركتُ أن هذه الفكرة شريرة، يمكنني حينها أن أتذكر أن إدانة الناس أمر شرير، وأني أنا أيضًا إنسان غير صالح، وما إن أتذكر ذلك، حتى أتمكن من الإمساك عن الإدانة حتى داخل فكري.

كي تتمكن من التحكم في أفكارك، عليك أن تعيش حياة روحية:

-١-

كثيرًا ما نظن أن القوة الرئيسة في العالم هي قوة خارجية. ونحن نظن ذلك لأن جسدنا -سواء أردنا أو لم نرد- يشعر دائمًا بتلك القوة. القوة الروحية... قوة الأفكار تبدو لنا أمرًا ثانويًا تافهًا، ونحن لا ندرك قوتها. ورغم ذلك فهي القوة الوحيدة الحقيقية التي بإمكانها أن تغير حياتنا وحياة الآخرين.

-٢-

ما هو روحي يرشد ما هو جسدي، وليس العكس. لذلك فإن أراد الإنسان أن يغير من أوضاعه، فعليه أن يعمل على روحه وأفكاره.

-٣-

تصبح حياتنا أفضل أو أسوأ بحسب ما ندرك أنفسنا كوجود روحي أو وجود جسدي. فلو أدركنا أنفسنا على أنها وجود جسدي، فنحن نضعف من حياتنا الحقيقية، وندعم الشهوات ونؤجج شهوات الشراهة والعدوان والكراهية والخوف من الموت. ولو أدركنا نفوسنا على أنها وجود روحي، فنحن نثير بداخلنا الحياة ونهذبها، ونحررها من الشهوات ومن العدوان ومن الكراهية... بهذا نحن نحرر الحب. ولا يمكننا أن نقوم بهذا التحول من الوجود الجسدي إلى الروحي إلا بجهود الفكر.

-٤-

هكذا كتب سينيكا ذات مرة لصديقه: (حسنًا تفعل أيها العزيز لوتسيني أن تحاول بكل قوتك أن تحفظ روحك بداخلك حسنة طيبة. يستطيع كل إنسان أن يُصلح من نفسه، ولا نحتاج من أجل ذلك أن نرفع أيدينا نحو السماء وأن نطلب من رجل الدين بالمعبد أن يُقرِّبنا من الله. الله دائمًا قريب منا... إنه بداخلنا. الروح القدس يحيا بداخلنا يشهد لنا بكل ما هو حسن وبكل ما هو سيئ. إنه يتعامل معنا بقدر ما نتعامل معه، فإن اعتنينا به اعتنى بنا).

-٥-

إن أردت أن تؤتي أفكارك خيرًا لك، فحاول أن تفكر بمعزل تمامًا عن مشاعرك وأوضاعك، وهذا يعني ألَّا تُحرِّف أفكارك كي تبرر هذا الشعور الذي تختبره، أو هذا الفعل الذي قمت به أو تقوم به.

-٦-

عندما لا تدرك وسط تأملك ما هو صالح وما هو شرير، فعليك أن تفارق العالم؛ فالاستغراق في أمور العالم وحده يعيق التمييز بين ما هو صالح وما هو شرير. اخرج من العالم، أي أدخل إلى نفسك، وامح كل شك.

-٧-

(تسهل الحرب مع الإغواءات عندما لا تكون قد سقطت فريسة لها. ما من وقت في قلب زوبعة وقوة الإغراءات للبحث عن وسائل لمواجهة رغباتنا. حدِّد أهدافك عندما تغيب الإغواءات وتستطيع أن تتمالك نفسك).

«بنتام»(١٤٤).

---

(١٤٤) جريمي بنتام: عالم قانون وفيلسوف إنكليزي، ومصلح قانوني واجتماعي، وكان المُنظِّر الرائد في فلسفة القانون الأنجلو- أمريكي. ويشتهر بدعواته إلى النفعية وحقوق الحيوان، وفكرة سجن بانوبتيكون.

إمكانية الاتحاد فكريًّا بالبشر -الأحياء منهم والأموات- هي واحدة من أفضل النعم البشرية:

-١-

كثيرًا ما يقول الشباب: «لا أريد أن أعيش وفق عقل إنسان آخر. أريد أن أحيا كما يتراءى لي».

وهذا أمر صحيح تمامًا، ففكرك أغلى من كافة الأفكار الغريبة عنك. ولكن لماذا يجب عليك التمعن في التفكير؟ خذ فكرة جاهزة وسِر بها بعيدًا. فقوة الإنسانية تكمن في إمكانية أن يستفيد الإنسان من أفكار أخرى ويطورها ويمضي بها بعيدًا.

-٢-

إن الجهود التي تُحرِّر الإنسان من الخطايا والإغواءات والخرافات تحدث في مجال الفكر قبل أي مجال آخر. المساعدة الرئيسة التي يحصل عليها الإنسان في تلك الحرب هي إمكانيته أن يتحد فكريًّا بنشاط كافة الحكماء والقديسين منذ القدم وحتى وقته هذا. ويعتبر هذا التعامل مع فكر الحكماء والقديسين القدامى بمثابة صلاة، أي أنه تكرار لكافة تلك الكلمات التي عبَّر بها أولئك الناس عن علاقاتهم بأرواحهم وبالآخرين وبالعالم وخالقه.

-٣-

منذ العصور القديمة وقد سلَّم الناس بضرورة الصلاة للإنسان. والصلاة لأسلافنا كانت -ولا تزال بالنسبة لأغلب الناس حتى يومنا هذا- خطابًا من نوع معين في ظروف محددة وأماكن معينة، وتجرى بشكل معين وبكلمات محددة إلى الله أو الآلهة من أجل إرضائهم.

أما التعليم المسيحي؛ فلا يعترف بهذه الصلوات. إنه يعلمنا أن الصلاة

ليست لازمة من أجل تجنب المصائب الدنيوية، والحصول على خيرات العالم، بل هي وسيلة تدعم الأفكار الصالحة داخل الإنسان.

-٤-

الصلاة الحقيقية لازمة ومهمة لروح الإنسان بقدر ما يكون الإنسان بمفرده مع الله ويصل بالفكر إلى هذه الدرجة السامية التي يمكن للفكر أن يصل إليها.

-٥-

قال المسيح: (وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ، وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ)[١٤٥]. حينها فقط سيسمع الله لك. الله موجود بداخلك وكي يستمع إليك عليك فقط أن تزيل كل ما يحجبه عنك.

-٦-

الاكتئاب هو تلك الحالة الروحية التي تظهر عندما لا يجد الإنسان هدفًا أو معنى لا في حياته ولا في حياة العالم بأكمله. وهناك وسيلة واحدة يمكن بها التخلص منه: أن تستدعي في نفسك أفضل أفكارك وأفكار الآخرين التي تعرفها والتي توضح لك معنى حياتك. ويحدث هذا الاستدعاء بتكرار تلك الحقائق السامية التي تعرفها والتي تستطيع أن تقولها لنفسك في الصلاة.

-٧-

صلوا في كل حين. أكثر صلاة نحن في حاجة إليها، وأصعب صلاة هي أن نتذكر واجباتنا في خضم الحياة تجاه الله وقانونه. سواء خفت أو غضبت أو أخفت أو استغللت.. فابذل جهدًا، وتذكر مَن أنت، وما الذي يجب عليك أن تفعله. هذه هي الصلاة. في البداية يكون هذا صعبًا، لكنك ستألفه مع الاعتياد.

---

(١٤٥) متى ٦: ٦.

-٨-

حسنٌ أن تغير صلاتك، أي التعبير عن علاقتك بالله. الإنسان ينمو تدريجيًّا، ويتغير، لذا فعلاقته مع الله لا بد وأن تتغير وتزداد وضوحًا. وهذا يعني أن صلاته يجب أن تتغير.

لا حياة صالحة دون بذل الجهود في مجال الفكر:

-١-

عليك أن تُثمِّن الأفكار الصالحة التي لك والتي للآخرين عندما تدركها. لا شيء قادر على مساعدتك في تنفيذ الأفعال الحقيقية في حياتك مثل هذه الأفكار الصالحة.

-٢-

(سيطر على أفكارك، إن كنت تريد الوصول إلى هدفك. وجِّه نظرك إلى روحك... إلى هذا الضوء الوحيد الظاهر المتحرر من الشهوات).

«حكمة براهمية».

-٣-

(إن التأمل هو الطريق إلى الخلود، بينما الطيش هو الطريق إلى الموت. إن الساهرين على التأمل لا يموتون أبدًا، بينما الطائشون وغير المؤمنين يموتون.

أيقظ نفسك بنفسك، واحمها، وتأمل فيها، وستظل خالدًا).

«حكمة بوذية».

-٤-

القوة الحقيقية في الإنسان ليست في انفجاراته المفاجئة، بل في كفاحه

الهادئ صوب الفضيلة غير القابل للكبح، والذي يتأسس داخل أفكاره، ويتم التعبير عنه بالكلمات، ويتحقق في الأفعال.

-٥-

إن حدث بعد أن نظرتَ إلى حياتك الماضية أن لاحظت أن حياتك أصبحت أفضل وأكثر خيرًا وتحررًا من الخطايا والإغواءات والخرافات، فاعلم أن هذا النجاح يعود فقط إلى عملك على فكرك.

-٦-

إن النشاط الفكري ثمين، ليس فقط لأنه يُقوِّم من حياتنا، بل لأنه أيضًا يساعد الآخرين في حياتهم. في هذا تكمن الأهمية الكبيرة لجهود الفكر.

-٧-

هذا ما قاله الحكيم الصيني كونفوشيوس عن معنى الفكر ودوره:

(يعلم التعليم الحقيقي الناس الفضيلة السامية، ويجدد من قدرتهم على الوصول إليها. للوصول إلى أعلى درجة من الخير يجب أن يحدث تَحسُّن في حياة الشعب بأكمله. وكي يحدث هذا، لا بد أن يحدث تحسن واضح في الأسرة. وكي يحدث ذلك، لا بد وأن يكون هناك تحسن في الفرد نفسه. وكي يحدث ذلك، لا بد وأن يحدث إصلاح في قلبه، وكي يحدث ذلك، لا بد من وجود أفكار حقيقية وواضحة).

القدرة على التفكير هي ما يميز الإنسان عن الحيوان:

-١-

(لا يتميز الإنسان عن الحيوان إلا بقدرته على التفكير. وهناك من الناس مَن يضرمون من لهيب تلك القدرة بداخلهم، بينما آخرون لا يهتمون بها. ما

تقوم به المجموعة الثانية هو بالضبط رفض ما يميزهم عن الماشية).

«حكمة شرقية».

-٢-

الجواد والبقرة وكل نوع من أنواع الماشية، حتى وإن شعر بالجوع فلا يمكنه أن يخرج من باب الحظيرة حتى وإن كانت مفتوحة من الداخل. يمكن أن تموت البهيمة جوعًا إن كانت البوابات صلبة، ولم يفتحها أحد، لكنها لا تفكر في أن تخرج بنفسها من البوابة وأن تدفعها بنفسها. الإنسان وحده هو مَن يفهم أنه عليه أن يعاني ويكدح في عمله، ولا يقوم بما يريده في اللحظة الآنية حتى يحقق ما يأمل فيه. من الممكن للإنسان أن يُمسك نفسه عن تناول الطعام و الشراب والنوم، لسبب واحد، وهو أنه يعرف ما الذي يتوجب عليه فعله وما الذي لا يتوجب عليه فعله. وقد تعلم الإنسان ذلك من قدرته على التفكير.

وهذه القدرة هي أغلى ما لديه، وعليه أن يحافظ عليها بكل ما لديه من قوة، وأن يعمل على تنميتها داخل نفسه.

-٣-

(عندما نقارن الإنسان بالعالم من حوله، فسنجد أنه ضعيف كالخيزرانة... صحيح أنه خيزرانة، لكنها خيزرانة قد وُهِبت منحة التفكير.

أضعف شيء يمكنه أن يقتل الإنسان، ومع ذلك فالإنسان هو أسمى المخلوقات... أسمى من أي مخلوق أرضي؛ لأنه برغم أنه يتعرض للموت إلا أنه يدرك أنه سيموت.

يمكن للإنسان أن يدرك تفاهة جسده أمام الطبيعة، أما الأخيرة فلا تدرك شيئًا.

كل أوجه أفضليتنا وتميزنا يمكن أن تتلخص في قدرتنا على التفكير. إن

فكرنا يسمو بنا فوق بقية العالم، لذا فإن قدَّرنا ودعمنا قوتنا على التفكير، فسنجد أنها ستضيء لنا حياتنا بأكملها، وتشير لنا إلى مكمن الخير ومكمن الشر).

«باسكال».

-٤-

(من الممكن للإنسان أن يتعلم القراءة والكتابة، لكن هذا لا يعلمه ما إن كان عليه أن يقدم شكوى في صديقه الذي أساء إليه أو لا.

يمكن للإنسان أن يتعلم الموسيقى، ولكن الموسيقى لا يمكنها أن تعلمه متى يمكن له أن يغني أو يعزف على آلة موسيقية، ومتى لا يجب أن يفعل ذلك. هكذا هو الأمر في كافة مجالات الحياة. العقل وحده هو الذي يشير لنا ماذا ومتى علينا أن نفعل شيئًا ما، وماذا ومتى علينا ألَّا نفعل شيئًا ما.

بعد أن منحنا الله العقل أعطانا وصيته عن أكثر ما نحتاج إليه؛ منحنا العقل، كما لو أنه قال لنا: «كي تتمكنوا من تجنب الشر والتمتع بنعمة الحياة، منحتكم جزءًا إلهيًا مني... منحتكم العقل. إن قمتم باستخدامه في كل ما يحدث معكم، فلن تقف أمامكم أي عقبات في الطريق الذي أشرت إليكم للسلوك فيه، ولن تقلقوا أبدًا على مصيركم، ولا على الآخرين، ولن تدينوهم، ولن تحاكوهم. وبهذا فلن تلومونني على أني لم أمنحكم شيئًا أهم من العقل، فهل من المستحيل لكم أن تعيشوا حياتكم بتعقل وهدوء وسرور؟»).

«أبيكتيتوس».

-٥-

(تقول الحكمة: «يدخل الله إلينا دون أن يقرع الباب». وهذا يعني أنه ما

من حاجز بيننا وبين اللا نهائية، ولا فاصل بين الإنسان والله. أما الحواجز القديمة، فقد مضت أمام تأثير السمات الإلهية. وحده التفكير ما يُبقى الطريق بيننا وبين الله مفتوحًا).

«إمرسون».

-٦-

(خُلِق الإنسان كي يتعقل، وفي هذا مكمن كل جدارته وأهليته. لذا فواجب الإنسان هو أن يفكر بطريقة صحيحة. وتتلخص قواعد التفكير في أن تبدأ التفكير بنفسك لتمضي إلى جابلك ومنتهاك. ورغم ذلك، تُرى فيما يفكر الناس في عالمنا هذا؟ لا أحد يفكر في ذلك، بل كل يفكر في الطريقة التي يتمتع بها ويصل إلى الثراء والشهرة، وكيف يصبح أميرًا، ولا أحد يفكر ماذا يعني أن يكون الإنسان أميرًا، وماذا يعني أن يكون إنسانًا).

«باسكال».

* * *

إنكار الذات

نعمة حياة الإنسان هي أن يتحد بالحب بالله والقريب. الخطايا هي ما يحول بين الإنسان والوصول إلى ذلك، وأصل الخطايا هو إيمان الإنسان بأن نعمته في إرضاء شهوات الجسد، لا في حبه لله والقريب، لذا فنعمة الإنسان في التخلص من الخطايا، وكي يتخلص من الخطايا عليه أن يبذل جهودًا من أجل إنكار حياة الجسد.

قانون الحياة هو إنكار الجسد:

-١-

كافة الخطايا الجسدية من فسق وترف وحياة بطَّالة على حساب الآخرين وشراهة وكراهية تأتي من الانتصار للأنا الجسدية، وإخضاع الروح للجسد. وللتخلص من الخطايا يلزم الإنسان شيء واحد، وهو إثبات الأنا الروحية، وإخضاع الجسد للروح.

-٢-

هذا ما قاله يسوع لتلاميذه: (إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه، ويحمل صليبه، ويتبعني. فإن مَن أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومَن يهلك نفسه من أجلي، يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا سيعطي الإنسان فداء عن نفسه؟).

«متى ١٦: ٢٤- ٢٦».

-٣-

(لهذا يحبني الآب؛ لأني أضع نفسي لأخذها أيضًا. ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أن أخذها أيضًا. هذه الوصية قبلتها من أبي).

«يوحنا ١٠: ١٧- ١٨».

-٤-

ما ينكره الإنسان على حياته الجسدية، يشير إليه بوضوح إلى أنه لديه ما يمكن أن ينكر من أجله ما أنكره.

-٥-

لا حياة دون تضحية. الحياة بأكملها -شئت أم أبيت- هي تضحية بما هو جسدي من أجل ما هو روحي.

-٦-

كلما كرَّست نفسك لما هو جسدي، كلما فقدتَ ما هو روحي. وكلما تخليتَ عمَّا هو جسدي، كلما حصلتَ على المزيد مما هو روحي. فانظر ما يلزمكَ أكثر من الاثنين.

-٧-

إن إنكار الذات لا يعني إنكارًا للذات بقدر ما هو تحويل للأنا من كائن حيواني إلى آخر روحاني. أن تنكر ذاتك لا يعني أن تنكر الحياة، بل على النقيض من ذلك، فإنكار حياة الجسد يعني تدعيم الحياة الروحية الحقيقية.

-٨-

يكشف العقل للإنسان أن المتعة التي يتطلبها جسده لا يمكنها أن تكون

خيرًا له، والعقل لا يتوقف عن جذب الإنسان صوب خيره الحقيقي الذي لا يمكنه أن يتواءم مع الحياة الجسدية.

عادة ما يعتقدون ويقولون إن إنكار الحياة الجسدية عمل بطولي صعب، وهذا غير حقيقي، فهو ليس كذلك، ولكنه شرط حتمي لحياة الإنسان. الهدف الأسمى للحيوان هو خير حياته الجسدية، فذلك هو ما يساعد على استمرار حياة الجنس، أما بالنسبة للإنسان فالحياة الجسدية واستمرار الجنس البشري هي مجرد مرحلة من وجوده، يتكشف له من بعدها خيره الحقيقي، وهو ما لا يتواءم مع خير حياته الجسدية. الحياة الجسدية بالنسبة للإنسان ليست هي الحياة بأكملها، لكنها شرط ضروري لحياته الحقيقية التي تتألف من الاتحاد أكثر فأكثر مع المصدر الروحي للعالم.

حتمية الموت أمر ضروري؛ كي يدرك الإنسان حياته الروحية وخضوعه للموت:

-١-

عندما يولد الطفل يبدو له أنه هو وحده في هذا العالم. إنه لا يتنازل عن شيء، ولا يريد أن يعرف شيئًا، ولا يريد شيئًا سوى أن يقدموا له ما يحتاج إليه. إنه حتى لا يعرف أمه... كل ما يعرفه هو صدرها فقط. ولكن الأيام تمر، والشهور والسنون، ويبدأ الطفل في إدراك أن هناك آخرين غيره في هذا العالم، كما هو موجود، وأن ما يريده لنفسه، هو ما يريده الآخرون من أجل أنفسهم هم أيضًا. وكلما عاش أطول، كلما زاد فهمه تدريجيًا أنه ليس وحده في هذا العالم، وأنه إن كان بمقدوره، فعليه أن يقاتل الآخرين من أجل أن ينال ما يريده، وأنه إن لم تكن لديه القوة فعليه أن يخضع لهم. بالإضافة إلى ذلك فكلما يعيش أطول كلما يتضح له أن حياته بأكملها عبارة عن بعض الوقت،

وأنه عرضة للموت في كل ساعة منها. إنه يرى الغد -كما لو أنه يراه الآن- يأتي بالموت لهذا وذاك، ويدرك أن الأمر ذاته يمكن أن يحدث معه في أي دقيقة، وأنه سيحدث آجلًا أو عاجلًا. ولا يمكن للإنسان وقتها ألَّا يدرك أن الحياة الحقيقية ليست في جسده، وأن كل ما فعله في حياته من أجل جسده ليس له.

وعندما يدرك الإنسان ذلك بوضوح، فإنه يدرك الروح التي تحيا بداخله، ليس بداخله وحده، ولكن بداخل كل البشر في كافة أنحاء العالم، وأن هذه الروح هي روح الله. ولكنه بعد أن يدرك الإنسان ذلك، عليه أن يتوقف عن إلحاق المعنى بحياته الجسدية، وأن يرى هدفه في الاتحاد بروح الله... في الاتحاد بما هو أبدي.

-٢-

الموت... الموت... الموت ينتظرك في كل لحظة. حياتك لا يكتمل معناها إلا في ظل الموت. إن كدحت من أجل حياتك الجسدية في المستقبل، فاعلم أنك لن تجد في المستقبل سوى شيء واحد؛ الموت، وسيزيل الموت كل ما كدحت من أجله. تقول إنك تكدح من أجل خير الأجيال القادمة، لكنهم سيتلاشون من على وجه الأرض، ولن يبقى شيء. لذا فالحياة من أجل أهداف مادية لا يمكن أن يكون لها أي معنى بأي حال من الأحوال، فالموت يدمر مثل هذه الحياة. كي يكون للحياة مغزى، علينا أن نعيش بحيث لا يمكن للموت أن يدمر أعمالنا، ومثل هذه الحياة قد كشفها المسيح للناس. لقد كشف للناس أنه بجانب الحياة الجسدية التي تُعد مجرد ظل للحياة الحقيقية، هناك حياة أخرى حقيقية تمنح الإنسان خيره الحقيقي، وأن كل إنسان يعرف في قرارة قلبه هذه الحياة جيدًا.

إن تعليم المسيح يكشف لنا عن سراب الحياة الشخصية، وضرورة إنكارها، وتحويل معنى ومغزى الحياة في ضوء الحياة الإلهية، وحياة الإنسانية بأكملها، وحياة ابن الإنسان.

-٣-

كي نتمكن من فهم تعليم المسيح عن خلاص الحياة، علينا أن نفهم بوضوح ما قاله كافة الأنبياء، وما قاله سليمان، وما قاله بوذا، وما قاله كافة حكماء العالم عن الحياة الشخصية للإنسان. من الممكن ألَّا نفكر فيها -بحسب تعبير باسكال- كحجاب يحجب عنا النظر إلى الموت الذي نقترب منه جميعًا، ولكن يلزم أن نفكر أن هذه الحياة الجسدية المنفصلة للإنسان إن كانت هي الحياة بأكملها فقط، فما من معنى للحياة إذنْ؟ بل هي مجرد مزحة سخيفة لقلب وعقل الإنسان وكل ما هو صالح فيه. لذا فإن أردنا أن نفهم حقيقة تعليم المسيح، فعلينا قبل كل شيء أن نستجمع شتات أنفسنا ونمعن الفكر حتى يمكن أن يحدث فينا ما وعظ به المسيح في تعاليمه، وتحدث عنه أسلافه مثل يوحنا. لقد قال: «قبل أن تفكروا في أي شيء آخر، تأملوا جيدًا في أن كل شيء فانٍ»، وقد بدأ يسوع تعليمه قائلًا: «تأملوا... كل شيء فانٍ!» . لقد حكوا للمسيح عن هلاك الجليليين الذين قتلهم بيلاطس، وقال لهم: «أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليين لأنهم كابدوا مثل هذا؟ كلا! أقول لكم: بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون»[١٤٦].

الموت الحتمي في انتظارنا جميعًا، ونحن نحاول عبثًا أن ننساه، ولكن هذا لا يمكنه أن ينجينا منه؛ بل على العكس؛ فعندما يأتينا فجأة على غير انتظار يكون أكثر إثارة للهلع. ما من خلاص من ذلك سوى بطريقة واحدة:

---

(١٤٦) لوقا ١٣: ١-٣.

أن نرفض تلك الحياة التي تنتهي بالموت، ونحيا تلك الحياة التي لا يمكن أن تنتهي بالموت.

-٤-

يلزمنا أن نهجر حياتنا المألوفة، وننظر إليها من عدة جوانب؛ كي نرى أن كل ما نفعله من أجل هذا الأمان المتوهم لحياتنا هو ما لا يجب علينا أن نفعله من أجل هذا الهدف، وأن ما نفعله هو مجرد تأمين متوهم لحياتنا، وأننا ننسى أن حياتنا لن يمكن أن نؤمنها في أي وقت بأي طريقة.

إننا نخدع أنفسنا، وندمر حياتنا الحقيقية من أجل الأخرى المتوهمة، وفي هذا السعي صوب تأمين الحياة نقوم بتدمير ما نريد تأمينه.

يُؤمِّن الغني حياته بما لديه من أموال، ونفس الأموال تجذب انتباه السارق الذي يقوم بقتله من أجل الحصول عليها. المريض يؤمن حياته بالعلاج، وهذا العلاج نفسه يقتله ببطء، وإن لم يقتله فيقينًا سيحرمه من الحياة الحقيقية. هكذا أيضًا هو الأمر مع الشعوب التي تتسلح كي تؤمن حياتها وحريتها، وفي الوقت نفسه يؤدي هذا التأمين إلى حروب تهلك مئات الألوف من البشر، وتقضي على حرياتهم.

إن تعليم المسيح الذي يكشف لنا أنه من المستحيل أن نؤمن تلك الحياة، وأننا يجب أن نكون مستعدين دائمًا للموت في كل دقيقة، خيرًا لنا من تعليم العالم الذي يقول لنا إننا يجب أن نُؤمِّن حياتنا. إنه يمنحنا خيرًا أكثر لسبب واحد؛ ألا وهو أن حتمية الموت وعدم إمكانية تأمين الحياة يظلان ماكثين سواء مع تعليم المسيح أو مع تعليم العالم، ولكن الحياة نفسها -طبقًا لتعليم المسيح- لا يجب أن يتم ابتلاعها كاملةً من قبل حياة بطَّالة والتأمين المتوهم لها؛ بل أن تصبح حرةً، وتُمنح كاملةً من أجل هدف واحد محدد:

وصول الروح إلى الكمال، وزيادة الحب للناس.

-٥-

(الذي لا يرى نفسه في هذا الجسد الميت، فإنه يعرف حقيقة الحياة).

«حكمة بوذية».

-٦-

(لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟ انْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لَا تَزْرَعُ وَلَا تَحْصُدُ وَلَا تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟ وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟ لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لَا تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلَا لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟ انْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لَا تَزْرَعُ وَلَا تَحْصُدُ وَلَا تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟ وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟ لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلًا مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ. فَلَا تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ).

«متى ٦: ٢٥- ٢٦- ٢٧- ٣١- ٣٣- ٣٤».

إنكار الأنا الحيوانية تكشف عن الله الكامن في روح الإنسان:

-١-

كلما ازداد إنكار الإنسان لأناه الحيوانية، كلما تجلَّى الله الذي بداخله.

يحجب الجسد الله عن الإنسان.

-٢-

(إن أردت الوصول إلى إدراك الأنا الكلية، فعليك قبل كل شيء أن تدرك أناك. وكي تدرك أناك فعليك أن تضحي بأناك من أجل الأنا الكلية).

«حكمة براهمية».

-٣-

الإنسان الذي ينكر نفسه قادر وقوي؛ لأن الشخصية تحجب عنه الله الكامن بداخله، لذا فما إن يفارق الشخصية سريعًا، حتى لا يعود هو، بل الله.

-٤-

(إن شعرت بالازدراء صوب العالم، فهذا ليس إنجازًا يُذكر، فمَن عاش في الله، لن تشكل له نفسه ولا العالم شيئًا يُذكر).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٥-

إنكار الحياة الجسدية أمر مهم وضروري وباعث على الفرحة في حالة واحدة: عندما يكون دينيًا؛ أي عندما ينكر الإنسان نفسه وجسده من أجلِ تنفيذ إرادة الله الذي يعيش بداخله. أما عندما ينكر الإنسان الحياة الجسدية ليس من أجل تنفيذ إرادة الله؛ بل من أجل تنفيذ إرادته الشخصية أو إرادة بشر آخرين مثله، فلا يجب أن نُقدِّر مثل هذا النوع من إنكار الذات، وهو ليس ضروريًا ولا يبعث على الفرحة؛ بل هو ضار للنفس وللآخرين.

-٦-

إن حاولت إجبار الناس على أن يكونوا شاكرين لك، فلن تؤدي محاولتك إلا إلى النقيض. إن فعلت الخير للناس دون أن تفكر فيهم، بل فكرت في أنك

تفعله من أجل الله، فحسنًا تفعل، وسيكون الناس شاكرين لك.

مَن ينسَ، نفسه يذكره الله. ومن يذكر نفسه، ينسَهُ الله.

-٧-

عندما نميت أجسادنا، حينها فقط تكون قيامتنا في الله.

-٨-

إن لم تنتظر شيئًا، ولم ترد أن تحصل على شيء من الآخرين، فلن تشعر أبدًا بالخوف من الناس، مثلما لا تخيف النحلة نحلة أخرى. ولكن إن كانت سعادتك تحت سلطان الناس، فستخاف من الناس لا محالة.

-٩-

(علينا أن نبدأ بذلك: علينا أن ننكر كل ما ليس لنا... ننكر كل ما هو لازم للجسد... ننكر حب الثراء وحب المجد وحب المراكز والمجد... ننكر أبناءنا وزوجاتنا وأشقاءنا. على كل إنسان أن يقول لنفسه: كل هذا ليس لك.

ولكن كيف يمكننا الوصول إلى ذلك؟ بإخضاع إرادتنا لإرادة الله. إنه يريد أن تصيبني الحمى... حسنًا، وهكذا أنا أريد. إنه يريد أن أفعل كذا، وهكذا أنا أريد. إنه يريد أن يحدث معي ما لم أكن أنتظره، وهكذا أنا أريد).

«أبيكتيتوس».

-١٠-

(لن ترضى إرادتك أبدًا، حتى وإن قمت بتنفيذ كافة متطلباتها. ولكن يلزم فقط أن تنكر هذه المتطلبات وتنكر إرادتك، وحينها ستختبر الشعور بالرضى الكامل. إن عشت من أجل إرادتك فلن تشعر بالرضى أبدًا، ولكن إن أنكرتها فلا يمكن إلا أن تشعر بالرضى كاملًا. الفضيلة الوحيدة الحقيقية هي كراهيتك لذاتك؛ لأن كل إنسان يستحق كراهية خلاعته وبذاءته. عندما يكره الإنسان

نفسه سيبحث عن الوجود الذي يستحق حبه. ولكن لأننا لا يمكننا أن نشعر بالحب لشيء بخارجنا، فنحن مجبورون على أن نحب وجودًا بداخلنا لكنه ليس نحن... إنه الوجود الواحد الكلي. ملكوت الله بداخلنا. «لوقا ١٧ : ٢١»).

«باسكال».

الحب الحقيقي للناس لا يمكن أن يتم إلا عبر إنكار الذات:

-١-

(مَن لا يعيش من أجل نفسه لا يموت. ولكن من أجل ماذا يعيش ذاك مَن لا يعيش من أجل نفسه؟ يمكنه ألا يعيش من أجل ذاته حينما يعيش فقط من أجل الجميع. حينها فقط يمكنه أن يشعر بالهدوء).

«لاو تسو».

-٢-

(إن أردت ذلك، فيمكنك ألَّا تفصل حياتك عن الإنسانية. أنت تعيش فيها وبها ومن أجلها. إن عشت بين الناس فلا يمكنك ألا تنكر نفسك، فقد جُبِلنا جميعًا على التعاون فيما بيننا، كما هو الحال مع الساقين واليدين والعينين، ولا يمكن أن يكون هناك تعاون دون إنكار ذات).

«ماركوس أورليوس».

-٣-

من المستحيل أن تُجبر نفسك على محبة الآخرين. من الممكن فقط أن تُنحِّي بعيدًا ما يعوق الحب. وما يعوق الحب الحقيقي هو حبك لأناك الحيوانية.

-٤-

«حِب قريبك كنفسك» لا تعني أنك يجب أن تحاول أن تحب القريب. من

المستحيل أن يجبر الإنسان نفسه على الحب. «محبة القريب» تعني أنك يجب أن تتوقف عن محبتك لنفسك أكثر من الجميع. وما إن تتوقف عن محبتك لنفسك أكثر من الجميع، حتى تجد نفسك لا إراديًا تحب قريبك كنفسك.

-٥-

كي نصل إلى محبة الآخرين، بالأفعال لا بالكلام، علينا أن نتوقف حقًّا عن محبتنا لأنفسنا. عادةً ما يبدو لنا الآتي: نقول إننا نحب البعض ولا نحب البعض الآخر بالكلام فقط، ولكننا نحن أنفسنا بالفعل وليس بالكلام فقط. يمكن أن ننسى أن نكسوا الآخرين ونطعمهم ونأويهم، أما أنفسنا فلا ننساها أبدًا. لذلك فكي نحب الآخرين حقًّا، علينا أن نتعود على أن ننسى أن نكسو ونطعم ونأوي أنفسنا، كما ننسى أن نفعل ذلك مع الآخرين.

-٦-

علينا أن نتعلم أن نقول داخل أرواحنا عندما نمضي مع أحد: «سأفكر فيه فقط لا في نفسي».

-٧-

ما إن نذكر أنفسنا في وسط الحديث، حتى نقطع حبل أفكارنا. عندما ننسى أنفسنا تمامًا ونخرج عن ذواتنا، حينها فقط سنتعامل مع الآخرين بطريقة مثمرة، ويمكننا حقًّا أن نخدمهم ونؤثر عليهم بطريقة طيبة.

-٨-

كلما ازدادت حياة الإنسان المادية ثراءً، كلما بعدت عنه فرحة إنكار الذات. الأغنياء محرومون تمامًا من هذه الفرحة. يجد الفقير فرحة إنكار الذات في كل عمل صغير يقوم به من أجل مساعدة القريب، وفي كل كسرة خبز يقدمها للمعدم. أما الأغنياء فحتى إن منحوا من ملايينهم الثلاثة مليونين

للقريب، فلن يشعروا بفرحة إنكار الذات.

-٩-

في قديم الزمان كانت هناك مجاعة، فجفت كافة الأنهار وتوقفت الأمطار وجفت الآبار والأشجار والشجيرات والأعشاب، ومات الناس والحيوانات عطشًا.

وذات ليلة خرجت فتاة من منزلها حاملةً مغرفةً بحثًا عن بعض الماء من أجل أمها المريضة. ولم تجد الفتاة ماءً في أي مكان، واستلقت على الأرض من فرط التعب، وغفت لبعض الوقت. وعندما استيقظت وتناولت المغرفة، وجدت أنها لم تسكب منها تقريبًا شيئًا. لقد كانت المغرفة مليئة بالماء النقي الجميل. شعرت الفتاة بالسرور، وأرادت أن تشرب الماء، لكنها فكرت أنها هكذا ستحرم أمها من الماء، فهرعت بالمغرفة صوب المنزل. أسرعت في طريقها حتى إنها لم تلحظ هذا الكلب الصغير الذي تعلق بها. صرخ الكلب صرخة مثيرة للشفقة. أخذت تفكر في أن تساعده وتسقيه. سكبت الفتاة بعض الماء في راحة يدها، فشرب الكلب الماء بلهفة شديدة وابتهج فرحًا. وعندما تناولت الفتاة المغرفة ثانية، تحولت من الخشب إلى الفضة. أحضرت الفتاة المغرفة إلى المنزل، وأعطتها لأمها. قالت الأم: «اشربي أنتِ، فلم أعد أبالي بالموت»، وأعطت المغرفة لابنتها، وفي تلك اللحظة تحولت المغرفة الفضية إلى ذهبية، فلم تستطع الفتاة في تلك المرة أن تمسك نفسها، وأرادت أن تُقبِّل المغرفة، ودخل شيخٌ فجأةً من الباب، وطلب أن يشرب بعض الماء. ابتلعت الفتاة لعابها، وقدمت المغرفة للشيخ، وفجأة ظهرت سبع جواهر ضخمة على المغرفة وانسكب منها تيار من الماء النقي الجميل. وأخذت الجواهر تصعد أعلى فأعلى نحو السماء، وأصبحت مجموعة من النجوم التي نسميها الآن مجموعة نجوم الدب الأكبر.

-١٠-

أنت ما تمنح، أمَّا ما تتمسك به فغريب عنك.

إن أعطيت للآخر شيئًا ما منعته عن نفسك، فخيرًا تسدي لنفسك، وسيظل هذا خيرًا لك للأبد، ولن يستطيع أحد أن ينتزعه منك. أما إن تمسكت بما يريده الآخر، فسيبقى معك لبرهة من الوقت فقط، وسيتوجب عليك آجلًا أو عاجلًا أن تتخلى عنه، حتمًا عندما يأتيك الموت.

-١١-

(هل من المستحيل أن يأتي يوم يجد فيه الناس أن العيش من أجل الآخرين أسهل بالنسبة إليهم من الموت في الحروب لأسباب لا يعرفونها؟ من أجل ذلك لا بد من سمو وتنوير الروح في الناس).

«براون».

الإنسان الذي يبذل كافة قواه من أجل إشباع احتياجاته الحيوانية يدمر حياته الحقيقية:

-١-

(إن فكر الإنسان في ذاته فقط، وبحث عن كل ما يحقق مصالحها، فلا يمكنه أن يكون سعيدًا. إن أردت أن تصل إلى خيرك الحقيقي، فعِش من أجل الآخرين كما تعيش من أجل نفسك).

«سينيكا».

-٢-

كي نفهم ضرورة إنكار الحياة الجسدية من أجل الروحية، لا بد أن نتصور كيف ستكون حياة الإنسان مرعبة ومقززة إن صارت فقط من أجل تحقيق

الرغبات الجسدية الحيوانية. تبدأ الحياة الإنسانية الحقيقية عندما يبدأ الإنسان في إنكار حيوانيته.

-٣-

الحكاية الرمزية التي حكاها المسيح عن صاحب الكرم والعاملين فيه[١٤٧] توضح ضلالة الناس الذين يعيشون حياة متوهمة: العيش من أجل حياتهم الشخصية الحيوانية بدلًا من الحياة الحقيقية.

فالعاملون في كرم السيد تصوروا أنهم أصحاب هذا الكرم، ومن هذا الافتراض الكاذب نشأت مجموعة من التصرفات المجنونة القاسية من هؤلاء الناس، انتهت بطردهم من الكرم واستبعادهم من الحياة. هكذا هو الأمر عندما نتصور أن حياة كل واحد منا هي ملكية شخصية له، وأن لدينا الحق الكامل فيها، وأننا يمكننا أن نستغلها كما نشاء، وأننا ليس لدينا أي واجبات تجاه أي شخص. ولا محالة بالنسبة لنا نحن الذين صورنا لأنفسنا مثل هذه الضلالات، أن نقوم في النهاية بمثل هذه الأفعال القاسية المجنونة، وأن نحظى في النهاية بالتعاسة، ونفقد حياتنا. وكما نسي المزارعون في الكرم أو تناسوا أنهم يجب أن يقوموا بزرع الكرم ورعايته وحرثه جيدًا، وأنهم يعملون لدى شخص بعينه، لذا فهو ينتظر منهم أن يعملوا، فهكذا أيضًا من يعيشون حياة شخصية قد نسوا أو أرادوا أن ينسوا كل ما حدث من قبل ولادتهم، وما حدث أثناء حياتهم، وبالتالي ما يُنتظر منهم.

طبقًا لتعاليم المسيح كما عاش الكرامون في الكرم الذي لم يزرعوه بأنفسهم، وكان عليهم أن يفهموا ويشعروا أنهم مجرد عاملين بالأجر ولديهم واجبات أمام صاحب الكرم، فهكذا يجب أن يفهم الناس ويشعروا أنه منذ يوم

---

(١٤٧) متى٢١: ٣٣- ٤٢.

مولدهم وحتى مماتهم فإنهم عاملون لدى سيدهم الكائن من قبلهم، وأنهم يستطيعون أن يعيشوا الآن بفضل مَن كان مصدر الحياة، ولا يزال، وسيظل إلى الأبد. لا بد أن يدركوا أن كل ساعة تمر في حياة الناس لا بد وأن يؤكدوا فيها على واجبهم، وأن الإنسان الذي يحيا من أجل ذاته وينكر هذا الواجب الذي يربطه بمصدر حياته فإنه يحرم نفسه من الحياة.

-٤-

(يعتقد الناس أن إنكار الذات يحرمهم من حريتهم. إنهم لا يعرفون أن إنكار الذات وحده هو ما يمنحنا الحرية، ويحررنا من أكثر مصادر عبوديتنا وفسادنا. إن شهواتنا هي أكثر الطغاة استبدادًا... جرب أن تنكرها فقط وستشعر بالحرية).

«فنلون»[١٤٨].

-٥-

الإنسان الذي يفهم دوره ولا يتخلى عن حياته الشخصية، يشبه إنسانًا قد منحوه مفاتيح الأبواب الداخلية، ولم يحصل على مفاتيح الأبواب الخارجية.

-٦-

(عندما تدرك دورك، والذي يتضمن بداخله قانون إنكار الذات، فلا يعود لديك أي شيء مشترك مع المتع الدنيوية. إن أردنا أن نضم المتع الدنيوية إلى وعينا بدورنا في الحياة، واقترحنا هذا الخليط كدواء للروح العليلة، لكانتا قد انفصلتا تمامًا. وإن لم يحدث ذلك، ولم يبدر أي فعل عن وعي الإنسان بدوره السامي، واكتسبت الحياة الجسدية من سعيها صوب المتعة لقوة مُعِينة لها تتوافق معها، لتلاشت تمامًا الحياة الأخلاقية).

«كانط».

---

(١٤٨) فرانسوا فنلون (١٦٥١– ١٧١٥): شاعر وكاتب فرنسي.

لا يمكننا أن نتخلص من الخطايا إلا بإنكار الذات:

-١-

إنكار المتعة الحيوانية من أجل خير الروح هو عاقبة لتغييرات قد حدثت في الوعي، أي الإنسان الذي بعد أن كان يعتقد أنه مجرد حيوان، أصبح يدرك أنه مخلوق روحي. إذا حدث هذا التغيير في الوعي، فما كان يعتبره سابقًا حرمانًا ومعاناة لن يعود يعتبره كذلك، بل سيعتبره أفضلية لما هو جيد على ما هو سيئ.

-٢-

كثيرًا ما نعتقد ونقول عن خطأ: لكي نتمكن من تنفيذ رسالتنا في الحياة، ولأجل خيرنا لا بد وأن نتمتع بصحة جيدة، وبشكل عام نحتاج إلى الرخاء وإلى أن نحيا وسط ظروف مادية مريحة. وهذا غير حقيقي، فالصحة والرخاء والظروف المادية المريحة ليست ضرورية من أجل تنفيذ رسالتنا في الحياة، ولا لخيرنا. لقد مُنحنا عطية الحياة الروحية، والتي لا يمكن لشيء أن يمنعها عن زيادة الحب والخير بداخلنا. علينا فقط أن نثق في تلك الحياة الروحية، وأن نبذل من أجلها كل قوانا. أنت تعيش حياتك بالجسد وتعمل، ولكن لو أنها تشكل عائقًا لك، فعليك أن تتحول على الفور من الحياة الجسدية إلى الروحية. والحياة الروحية حرة دائمًا. إنها كالأجنحة لدى الطائر. الطائر يسير على قدميه، ولكن لو ظهر أمامه ما يشكل له خطورة، وطالما هو يدرك وجود أجنحته، فسيمد جناحيه ويطير.

-٣-

ما من شيء أهم من العمل الداخلي على الاتحاد بالله. وفي هذا العمل توقف عن الرغبة في خير طبيعتك الحيوانية، وتُذكِّر نفسك بلا عقلانية الحياة

الجسدية. عندما تتحد بالله يمكنك فقط أن تقوم بذلك. أما عدما تكون واحدًا مع الناس، فستجد أن الأمر قد تم، فأنت مع الناس ستتصرف حسنًا عندما تتاح لك فقط الفرصة لإنكار ذاتك في اتحادك مع المجتمع عبر الله.

-٤-

كل إنسان سيختبر -آجلًا أو عاجلًا، بوضوح أو بغموض- تناقضًا داخليًّا. إنه يريد أن يعيش من أجل نفسه، ويريد أن يكون كائنًا عاقلًا، ولكن العيش من أجل الذات ليس عقلانيًّا. سيبدو ذلك له تناقضًا، ولكن هل هو حقًّا كذلك؟ إن كان الأمر كذلك فإن تعفن الحبوب يشكل تناقضًا هو الآخر؛ لأنه من خلال هذا يُسمح لثمرة جديدة أن تنمو. إن التناقض يحدث عندما أرفض الاستماع إلى صوت العقل. يشير العقل لنا إلى ضرورة التسامي بالوعي عن الحياة الشخصية صوب الحياة الروحية المتنامية. إنه يعرض لنا لا جدوى وجنون الحياة الشخصية، ويعدنا بحياة جديدة، كما تنمو براعم الكرز. أما التناقض فيكون موجودًا فقط عندما نتعلق بتلك الحياة القديمة الخارجية، ونرفض أن نفارقها، كما لو أن الثمرة بعد أن مزقت قشرتها الخارجية، أرادت الأخيرة أن تستعيد نفسها ثانية. هذا ما نطلق عليه تناقضًا، فالولادة الجديدة لا بد وأن تكون مؤلمةً. يلزم ألَّا نعارض حتمية تدمير الحياة الجسدية بالروحية، وأن نُكرِّس أنفسنا للأخيرة لتتجلى أمامنا حياة حقيقية جديدة مختلفة.

-٥-

الشيء الوحيد الحقيقي الباعث على السرور في هذه الحياة هو نمو الروح، وكي يحدث ذلك لا بد من إنكار الذات. ابدأ بإنكار ذاتك في الأشياء البسيطة، وعندما تُعوِّد نفسك على إنكارها في الأمور البسيطة ستزودها بالقوة من أجل إنكار الأمور المعقدة.

-٦-

(عندما يسطع نور حياتك الروحية، يسقط الظل المعتم لرغباتك الجسدية على حياتك، فاحذر من هذا الظل المريع، فضوء روحك لن يمكنه أن يدمر هذا الظل طالما لم تطرد رغبات الجسد من روحك).

«حكمة براهمية».

-٧-

إن صعوبة تحرير نفسك من حبك لها تكمن في الأساس في أن حب النفس الجسدي هو شرط ضروري للحياة. إنه ضروري وطبيعي في مرحلة الطفولة، لكن يلزم أن يضعف ويتم تدميره مع نمو العقل.

إن الطفل لا يشعر بتأنيب الضمير على حبه لذاته. ولكن عندما ينمو العقل، يصبح حب الذات ثقيلًا على النفس في حد ذاتها، ومع مرور الوقت يضعف حب الذات أكثر فأكثر، ويتم القضاء عليه تمامًا عند اقتراب الموت.

-٨-

إنكار الذات بشكل كلي يعني أن تصبح الله، أما الحياة من أجل ذاتك كلية فيعني أن تتحول إلى بهيمة. الحياة الإنسانية تتلخص في أن تبتعد أكثر فأكثر عن حياة البهائم، وتقترب أكثر فأكثر من الحياة الإلهية.

-٩-

أشعر بالاشمئزاز من حياتي، فإني أشعر أنها ساقطة تمامًا في وحل الخطايا، وما إن أزحف خارجًا من واحدة، حتى أجد نفسي قد سقطت في أخرى. كيف يمكنني أن أصلح حياتي؟ ثمة وسيلة واحدة هي الأكثر فاعلية: أن تدرك أن الحياة في الروح لا في الجسد، ولا تشارك في أعمال الحياة الجسدية القذرة. عليك فقط أن تأمل في كل ما هو روحي، وسترى كيف أن حياتك ستبدأ فورًا

في إصلاح نفسها بنفسها. لقد كانت حياة شريرة لسبب واحد، ألا وهو أن حياتك الروحية كانت في خدمة حياتك الجسدية.

-١٠-

عبثًا سيحاول الإنسان أن يخلص نفسه من الخطايا إن لم ينكر جسده ويتوقف عن وضع متطلبات الجسد في مرحلة أسمى من متطلبات الروح.

إنكار الطبيعة الحيوانية يمنح الإنسان النعمة الروحية الحقيقية غير القابلة للزوال:

-١-

ثمَّ قانون واحد من أجل حياة كل إنسان بمفرده، ومن أجل حياة البشر أجمعين سويًّا، ألا وهو: كي تنعم بحياتك، عليك أن تكون مستعدًّا للتخلي عنها.

-٢-

(لا يمكن للإنسان أن يعرف النتائج التي ستحدث في حياة الآخرين من إنكاره لذاته. ولكن إن اختبر الإنسان هذه الحياة، فأنا على ثقة أنه مع الوقت سيعترف كل إنسان شريف بالتأثير الطيب لإنكار الذات على روحه وجسده، في تلك اللحظات القليلة التي قام فيها بذلك).

«جون راسكن».

-٣-

كلما أنكر الإنسان أكثر أناه الحيوانية، كلما تحرَّرت حياته، وكلما كان ذلك ضروريًّا للآخرين وأكثر بهجة له.

-٤-

مكتوب في الإنجيل أن مَن ينكر حياته يجدها[١٤٩]. هذا يعني أن الحياة الحقيقية تُمنح فقط لـمَن يبتعد عن خير الحياة الحيوانية. الحياة الإنسانية الحقيقية لا تكون إلا عندما يبحث الإنسان عن خير الروح لا الجسد.

-٥-

يُشبه الإنسان في حياته سحابة تمطر على مرج وحقل وغابة وحدائق وجداول وأنهار. تمر السحابة فتنعش وتمنح الحياة لملايين النباتات والسنابل والأجمات والأشجار، والآن قد أصبحت مشرقة وصافية، وسرعان ما تتلاشى. هكذا هي الحياة الجسدية للإنسان الصالح، لقد قدَّم المساعدة لكثيرين وكثيرين، ودعَّم حياة البعض، ووجَّه البعض الآخر إلى الطريق، وعزى البعض، والآن انتهى كل شيء، فبينما يموت يمضي إلى هناك حيث يعيش الأبدي الواحد الروحي غير المرئي.

-٦-

(تمنح الشجرة ثمارها وحتى جذورها وأوراقها وعصارتها بأكملها لكل مَن هو في حاجة إليها. حسنٌ أن يفعل الإنسان ذلك، ولكنَّ عددًا قليلًا من الناس مَن يدرك ذلك ويتصرف بهذا الشكل).

«كريشنا».

-٧-

(لا يمكن أن تكون هناك سعادة طالما لم يتوقف المرء عن التفكير في

(١٤٩) (مَن وجد حياته، يُضيعُها، ومَن أضاع حياته من أجلي، يجدها) «يوحنا ١٢ : ٢٥». (إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه ويحمل صليبه... ويتبعني، فإن مَن أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومَن يهلك نفسه من أجلي يجدها» (متى ١٦: ".٢٤

نفسه، ومن المستحيل ألا يقوم الإنسان بذلك كاملًا وينجح الأمر، فإن بقي أقل قدر من العناية بالذات، سيفسد كل شيء.

أعلم أن هذا أمر صعب، لكنني أعرف أنه ما من وسيلة أخرى للوصول إلى السعادة).

«كاربنتر».

-٨-

يبدو للكثيرين أنهم إن توقفوا عن حب حياتهم الشخصية فلن يتبقى لهم شيء. يبدو لهم أنه ما من حياة سوى الشخصية، ولكن هذا ما يبدو لهم فقط... هذا ما يبدو لأولئك الذين لم يختبروا فرحة إنكار الذات. أنكرْ حياتك الجسدية، وابقَ فقط على ما يشكل جوهر الحياة؛ ألا وهو الحب الذي يمنحنا خيرًا لا شك فيه.

-٩-

(كلما ازداد إدراك الإنسان لأناه الروحية وازداد إنكاره لحياته الجسدية الشخصية، كلما ازداد فهمه لحقيقة نفسه).

«حكمة براهمية».

-١٠-

كلما تحول الإنسان من حياته الجسدية إلى الروحية، كلما تحررت حياته وشعت بهجةً وسرورًا. وكي يقوم الإنسان بذلك عليه أن يدرك ذاته كوجود روحي. وكي يستطيع ذلك يلزم أن ينكر حياة الجسد.

إنكار الذات ضروري للإيمان، والوعي ضروري من أجل إنكار الذات، فواحد يساعد الآخر.

-١١-

(من وجهة نظر السعادة ليس هناك حل بالنسبة لقضية الحياة، فأعلى درجة من درجات كفاحنا لا تصل بنا إلى السعادة. ومن وجهة نظر الواجب فالصعوبة هي هي؛ لأن تنفيذ الواجب يبعث فينا الشعور بالسلام لا السعادة.

الحب الإلهي المقدس والاتحاد بالله هما وحدهما ما يزيلان تلك الصعوبات تمامًا؛ لأن التضحية حينها تتحول إلى فرحة دائمة متنامية لا يمكن إزالتها).

«أميل».

-١٢-

(إن مفهوم الواجب بكل نقائه ليس فقط أكثر المفاهيم بساطةً ووضوحًا لدى الإنسان عند الممارسة، وأكثر ألفةً من التحفيز، ويقود الإنسان صوب السعادة أو يرتبط بها، وكثيرًا ما يتطلب عددًا غير قليل من الاعتبارات الفنية الدقيقة، لكنه أيضًا يعتبر فكرة صحية تمامًا عند الفحص وأكثر قوة وإلحاحًا، ويعد بنجاح أكبر من كافة أنواع التحفيز التي تنشأ عن مفاهيم أنانية، هذا إن تم استيعاب فكرة الواجب من قبل الحس السليم، وبصرف النظر عن أي دوافع أنانية.

الوعي بأني أستطيع لأنه يتوجب عليَّ، يفتح أمام الإنسان أعماقًا من العطايا الإلهية التي تجعله يشعر بأنه نبي مقدس، ويشعر بعظمة وسعادة دوره الحقيقي. وإن كان الإنسان قد وجَّه اهتمامًا أكبر، وفصل الفضيلة عن كافة أنواع المصالح والمكافآت التي يمكن أن يحصل عليها من أداء الواجب، وإن أصبح الموضوع الرئيس للتربية الخاصة والعامة هي الممارسة المتواصلة للفضيلة، فإن الحالة الأخلاقية للشعب لا بد وأن تتحسن سريعًا.

والسبب في أن الخبرة التاريخية حتى الآن لم تمنحنا نتائج جيدة في مجال تعليم الفضيلة هي تلك الفكرة المزيفة التي مفادها أن التحفيز -القائم على فكرة المكافأة أو الثواب- ضعيفة ومنفصلة، وأن ما يؤثر حقًّا في الروح أكثر قربًا وتحفيزًا ولا شأن له بالمكافأة التي ننتظرها عندما نقوم بالواجب في هذا العالم أو في المستقبل، وفي الوقت ذاته، فإن وعي الإنسان بجوهره الروحي الناتج عن إنكاره لشخصيته أقوى بكثير من كافة أنواع المكافآت التي تحفزه على أداء قانون الخير).

«كانط».

❊ ❊ ❊

التواضع

أسمى نعمة للإنسان في هذا العالم هي في وحدته ببقية البشر. أما المتكبرون الذين يفصلون أنفسهم عن الآخرين، فيحرمون أنفسهم من هذه النعمة. إن الإنسان المتواضع يزيل من داخل نفسه كافة العوائق التي تحول دون حصوله على هذه النعمة. لذلك فالتواضع هو شرط ضروري للنعمة الحقيقية.

لا يمكن للإنسان أن يفتخر بأفعاله؛ لأنه ليس هو مَن يفعلها، بل الجوهر الإلهي الذي يعيش بداخله:

-١-

لا يمكن لإنسان أن يكون متواضعًا إلا ذاك الذي يعيش اللهُ داخل روحه. مثل هذا الإنسان لا يبالي مطلقًا بحكم الناس عليه.

-٢-

الإنسان الذي يعتبر نفسه سيدًا لا يبدو متواضعًا؛ لأنه يعتقد أنه ليس ملزمًا بفعل أي شيءٍ صوب أي شخصٍ. أما الإنسان الذي يرى هدفه في الحياة هو خدمة الله، فلا يمكن إلَّا أن يكون متواضعًا؛ لأنه يشعر دائمًا أنه بعيد عن تنفيذ كافة واجباته.

-٣-

كثيرًا ما نفتخر بأننا فعلنا شيئًا ما بطريقة حسنة، ونقول ذلك متناسين أن الله الكائن بداخلنا هو الفاعل، وأننا مجرد أدوات في يده ينفذ بها إرادته.

الله يصنع مني ما يشاء، بينما أنا أفتخر. الأمر يشبه أن يفتخر حجر يحيط بينبوع أنه قد سمح بتدفق المياه كي يشرب الناس والحيوانات. ولكن يمكن أن يُقال إن الحجر يمكنه أن يفتخر بأنه نظيف ولا يلوث المياه. ولكن هذا أيضًا غير حقيقي. إن كان نظيفًا، فهذا بسبب أن المياه تغسله مرارًا وتكرارًا.... لا فضل لنا بتاتًا... الفضل كله لله.

-٤-

نحن أدوات الله. نحن نعرف ماذا علينا أن نفعل، ولكن لماذا علينا أن نفعل ذلك، فهذا لم يُعْطَ لنا. مَن يفهم ذلك، لا يمكنه إلا أن يكون متواضعًا.

-٥-

العمل الرئيس في حياة كل إنسان هو أن يصبح أفضل وأكثر فضيلةً. وكيف يمكنك أن تصبح أفضل إن كنت تظن نفسك في أفضل حال؟

-٦-

عندما يقوم العامل بتنفيذ عمله جيدًا، حينها فقط سيدرك حقيقة وضعه. عندما يدرك فقط الإنسان حقيقة تعاليم المسيح، سيفهم بوضوح أن حياته ليست له، بل لـمَن منحه إياها، وأن الإنسان ليس هو المغزى من الحياة، بل إنها إرادة مَن منحه الحياة، وأن الإنسان لذلك يمكنه أن يحول دون تجلي قوى الله بداخله، لكنه لا يمكنه أن يقوم بشيء حسن من نفسه.

-٧-

إن أدركت فقط أنك لست سيدًا، بل أنت عبدٌ، فحينها ستجد البحث والقلق وعدم الرضى قد زالوا، وحل بدلًا منهم اليقين والهدوء والسلام والسعادة.

الكبرياء مصدر كل الإغواءات:

-١-

إن كافح الإنسان كي يصل إلى الله، فلن يشعر بالرضى أبدًا عن نفسه. فكلما تقدم، سيشعر أنه لا يزال بعيدًا عن الكمال، والكمال لا نهاية له.

-٢-

الرضا عن الذات سمة الحيوان، والتواضع سمة الإنسان.

-٣-

الذي يعرف نفسه أكثر من الآخرين جميعًا، هو الأقل احترامًا لنفسه.

-٤-

مَن يشعر بالرضى عن نفسه، سيشعر دائمًا بعدم الرضى عن الآخرين. ومَن لا يشعر بالرضى دائمًا عن نفسه، يشعر دائمًا بالرضى عن الآخرين.

-٥-

قالوا لأحد الحكماء إن البعض يعتبرونه إنسانًا شريرًا، فأجابهم قائلًا: «حسنٌ أنهم لا يعرفوا كل شيءٍ عني، وإلَّا لما اكتفوا بقول ذلك».

-٦-

ما من شيءٍ أكثر نفعًا للروح كتذكر أنك غير مهمٍّ لا بالنسبة للزمان ولا المكان، وأن قوتك تكمن فقط في قدرتك على فهم تفاهة قدرك، لذا كُنْ متواضعًا.

-٧-

على الرغم من أن الأغلبية من الناس لا تولي اهتمامًا كافيًا لنواقصها، إلا أنه ما من إنسان لا يعرف في نفسه شيئًا أكثر شرًّا مما يعرفه عن قريبه. لذا فالتواضع أمر سهل على كل إنسان.

-٨-

(يلزم فقط أن نفكر قليلًا حتى نجد دائمًا ذنبًا قد ارتكبناه في حق الجنس البشري (وليكن مثلًا ذنب عدم المساواة المدنية بين البشر، والذي بسببه نحصل على ميزات معينة على حساب حرمان الآخرين) وهذا يعوق حياتنا بحب الذات واعتبار أنفسنا أفضل من الآخرين).

«كانط».

-٩-

(لا يمكن أن نرى نواقصنا إلا بأعين غريبة عنا).

«مثل صيني».

-١٠-

(يستطيع كل إنسان أن يصبح مرآة لنا نرى فيها عيوبنا ونواقصنا، وكل ما هو شرير فينا. لكننا في غالبية الوقت نتصرف في هذا الأمر كالكلب الذي ينبح أمام المرآة، وقد اعتقد أن من في المرآة ليس هو، إنما كلب آخر).

«شوبنهاور».

-١١-

الواثقون في أنفسهم وغير العاقلين وعديمي الأخلاق كثيرًا ما يشون بالاحترام للمتواضعين والأذكياء والأخلاقيين، فلأن الإنسان المتواضع يحكم على نفسه بنفسه، فلا يمكنه أن يتصور أن شخصًا سيئًا لا يمكنه ألا يحترم نفسه!

-١٢-

(الإنسان الواقع في حب نفسه ليس لديه منافسون).

«ليشتنبرج».

-١٣-

كثيرًا ما يكون أكثر الناس بساطةً وجهلًا غير المتعلمين على وعي كامل بالتعليم المسيحي الحقيقي، وقد قبلوه بسهولة، بينما يواصل أكثر الناس علمًا الحياة الساقطة في وحل بربريتهم. السبب في ذلك أن الجزء الغالب من البسطاء يتمتعون بالتواضع، بينما الجزء الغالب من العلماء يتمتعون بثقةٍ مفرطةٍ في الذات.

-١٤-

كي نتمكن من فهم الحياة والموت بشكل عقلاني، وننتظر الأخير بهدوء، من الضروري أن نفهم ضآلتنا. أنت جزء صغير لا نهائي في كيان ما، ولم تكن لتصبح شيئًا دون وظيفة محددة: أي مجموعة من الأعمال المكلف بها. هذا وحده ما يمنح حياتك الفكرة والمغزى. فعملك أن تستغل ما قد أُعطي لك مثلك مثل أي مخلوق: أي أن تستغل أدواتك وتنفذ ما هو مطلوب من جسدك. لذا فكل الأفعال متساوية، ولا يمكنك أن تفعل شيئًا أكبر مما يمكنك فعله. ليس أمامك سوى أن تكون معاديًا لله أو أن تنفذ إرادته، وهكذا فلا يمكن لأي إنسان مهما بلغت عظمته أن ينسب لنفسه شيئًا عظيمًا. إن وصفنا أنفسنا بالعظمة ونسبنا إلى أنفسنا أعمالًا استثنائيةً، فلن نجد نهاية للحروب المخيبة للآمال والحسد وكل أنواع المعاناة. وإن عزونا إلى أنفسنا معنى كبيرًا يجلب لنا ثمارًا، فلا مناص أيضًا من الموت والهلاك. لا يمكن أن ينال الحياة الهادئة الحرة السعيدة، وعدم الخوف من الموت إلا مَن يعتبر نفسه لا شيء في هذه الحياة سوى عبدٍ للسيد.

التواضع يوحِّد الناس بالحب:

-١-

(أن تكون غير معروف لدى الناس وألَّا يذكروك وألَّا يحزنوا عليك، فهذه سمة تشي بأنك فاضل حقًّا ومحب للآخرين).

«حكمة صينية».

-٢-

(كما أن المياه لا تبقى بالأعلى، فهكذا لا تجد الفضيلة والحكمة لدى المتكبرين، ولكن ابحث عن هذه الفضائل في مكان منخفض).

«حكمة فارسية».

-٣-

الإنسان الفاضل هو ذاك الذي يذكر خطاياه دائمًا وينسى فضيلته، أما الإنسان الشرير فهو على النقيض من ذلك؛ فهو يذكر فضيلته دومًا وينسى خطاياه.

لا تسامح نفسك، وحينها ستسامح الآخرين بسهولة.

-٤-

يمكن للإنسان الذكي والفاضل على السواء أن يفهما؛ لأن كليهما يعتبر الآخرين أفضل وأكثر ذكاءً منه.

-٥-

(أكثر الناس قبولًا هم أولئك القديسون الذين يعتبرون أنفسهم خطاةً. وأكثر الناس سوءًا هم أولئك الخطاة الذين يعتبرون أنفسهم قديسين).

«باسكال».

-٦-

كم من الصعب أن تحب وتشفق على المتكبرين الواثقين في أنفسهم والمتباهين! لذلك فمن الواضح أن التواضع ليس حسنًا فقط، بل هو نافع أيضًا. إنه يستدعي أفضل ما في الحياة أكثر من أي شيء آخر، ألا وهي محبة الناس.

-٧-

الجميع يحبون المتواضعين. جميعنا نرغب في أن نكون محبوبين، فكيف لا نحاول إذنْ أن نكون متواضعين؟

-٨-

كي يتمكن الناس من عيش حياة حسنة، يجب أن يسود السلام بينهم. وحينما يود كل إنسان أن يصبح أعلى من الآخرين، فلا مكان للسلام. كلما تحلَّى الناس بالتواضع، كلما تفشَّى السلام بينهم.

التواضع يُوحِّد الإنسان بربه:

-١-

لا يوجد مَن هو أقوى من الإنسان المتواضع؛ لأنه ينكر نفسه، فيفسح مكانًا لله.

-٢-

هذه صلاة رائعة: «تعال واسكن فينا». هذه الصلاة قد قالت كل شيء. إن استقر الله داخل قلب الإنسان فلديه إذنْ كل ما يحتاجه. وكي يسكن الله داخل الإنسان، على الأخير أن يفعل شيئًا واحدًا: أن ينتقص من ذاته؛ كي

يفسح مكانًا لله. وما إن يفعل الإنسان ذلك، حتى يستقر الله بداخله. لذلك فكي يحصل الإنسان على كل ما هو في حاجة إليه، عليه قبل كل شيء أن يتحلى بالتواضع.

-٣-

(كلما انتقص الإنسان من قدر ذاته، وكلما اعتبر نفسه أكثر ضآلةً، كلما ارتفع صوب الله).

«حكمة براهمية».

-٤-

(مَن يتعبد للعَلِي، يتلاشَ الكبرياء من قلبه، مثلما يتلاشى ضوء الموقد في نور الشمس. ذاك مَن يتحلى بقلب طاهر ونقي... مَن يتصف البساطة، ويتعامل مع كل مخلوق مثلما يتعامل مع صديقه، ويحب كل روح مثل روحه، ويتعامل مع الجميع بنفس الحب واللطف، مَن يريد أن ينجذب صوب الخير ويفارق الكبرياء... في قلب هذا الإنسان يحيا رب الحياة.

كما تتزين الأرض بنباتات رائعة، هكذا يتزين قلب هذا الرجل الذي يعيش رب الحياة داخل روحه).

«بورانا».

كيف نناضل ضد الكبرياء؟

-١-

(التواضع الحقيقي ليس سهلًا، ففكرة واحدة تشي بالازدراء والإذلال تحول بين قلوبنا وبين التواضع. نحن نحاول أن نخفي كل ما من شأنه أن يحط من قدرنا في أعين الآخرين، بل ونحاول أن نخفي هذا حتى عن أعيننا نحن، وإن كنا أشرارًا لا نريد أن نرى هذه الحقيقة، ولكن إن كان التواضع صعبًا إلا

أنه ممكن. علينا فقط أن نحاول التخلص من كل ما يحول دون وصولنا إليه).

«من كتاب أفكار ورعة».

-٢-

(هذه العيوب التي نراها في الآخرين ذميمة وبشعة موجودة بداخلنا أيضًا، ولا نلقي لها بالًا... لا نشعر بها. كثيرًا ما يبدو أن الناس الذين يتحدثون بقسوة عن الآخرين ويدينونهم لا يلاحظون أنهم يصفون أنفسهم. لا شيء يساعدنا على تصحيح أوجه القصور لدينا كرؤية أنفسنا في الآخرين. فما إن نرى بوضوح نقائصنا في مرآة الآخر، حتى نشعر بالكراهية صوب نقائصنا).

«لابروييرر».

-٣-

لا شيء بإمكانه أن يضر بالكمال الأخلاقي مثل الرضى عن الذات.

لحسن الحظ عندما نصبح أفضل، فكثيرًا ما لا يكون هذا التغيير ملحوظًا، حتى إننا لا نلحظه إلا بعد فترة زمنية طويلة. إن لاحظنا تحسننا فهذا يشير إلى أننا إما لا نتحرك أو أننا نتراجع إلى الخلف.

-٤-

احترس من تلك الأفكار التي تشي لك بأنك أفضل من الآخرين، وأن لديك مثل هذه الفضائل التي ليست لك في الحقيقة. لن تشعر بأن لديك أي فضائل تُذكر إن نظرت إلى أفضل الناس.

-٥-

حاول ألَّا ترى خيرًا في نفسك. إن كنت لا تستطيع أن تنظر إلى نفسك على أنها شريرة، فاعلم أنك شرير فعلًا.

-٦-

كل مقارنة تجريها بينك وبين الآخرين كي تبرر نفسك، هي محض إغواء يحول بينك وبين الحياة الفاضلة، وبين أهم ما فيها؛ ألا وهو الكمال. لا تقارن نفسك بأناس يمكن أن يكونوا أدنى منك، بل قارن نفسك فقط بالكمال السامي.

-٧-

كي تتعلم التواضع، عليك أن تصطاد الأفكار المتكبرة من شِباك نفسك.

-٨-

إن شتموك وأدانوك، فافرح. وإن مدحوك واستحسنوك، فخَفْ.

-٩-

لا تخَفْ من انتقاص قدرك، فإن استطعتَ فاقبله باتضاع؛ فإنه يدفع لك من أجل الحصول بركات روحية يمكنها أن توحدك به.

-١٠-

حاول ألَّا تُواريَ ذكرياتك المخجلة عن خطاياك في الزوايا المظلمة، بل على النقيض من ذلك حاول أن تتمسك بها، وكن على استعداد لتتذكر خطاياك دائمًا عندما توشك على إدانة قريبك.

-١١-

اعتبر نفسك دائمًا تلميذًا مدرسيًا. ولا تفكر في أنك قد أصبحت كبيرًا على التعلم، وأن روحك على أكمل ما يكون، ولا يمكنها أن تصبح أفضل من ذلك. إنها عملية لا تنتهي أبدًا بالنسبة للإنسان العاقل، فهو يظل تلميذًا حتى الموت.

-١٢-

القلب المتواضع وحده مَن يعرف الحقيقة. التواضع لا يبعث الحسد في القلوب.

-١٣-

الأشجار ينقلونها بعيدًا عن التيار، ويبقى الخيزران.

-١٤-

(قال حكيم ذات يوم: يا أطفالي، لا تحزنوا على أنكم لم تلقوا تقديرًا كافيًا؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يزيل ما فعلتموه، أو ينسب إليكم ما لم تفعلوه. الإنسان العاقل يرضى بالاحترام الذي يجنيه.

كونوا صالحين محترمين ودودين، مهتمين بخير الآخرين، وستجدون خيركم يأتيكم بشكل تلقائي كما تسقط المياه من أعلى إلى أسفل).

«فيشنا بورانا».

عواقب الكبرياء:

-١-

(الإنسان الذي لا يتحلى بالتواضع ويدين الآخرين دائمًا، ولا يرى سوى أخطاء الناس، تتزايد عيوبه دائمًا).

«حكمة بوذية».

-٢-

(الإنسان الذي لم ينل تنوير المسيحية، لا يحب سوى نفسه. والذي لا يحب سوى نفسه، يود أن يكون عظيمًا؛ لأنه يرى أنه ضئيل، ويود أن يصبح مهمًّا بينما يشعر أنه تافه، ويريد أن يكون صالحًا وهو يعلم أنه شرير. ولأنه يرى ذلك يبدأ

في كراهية الحقيقة، ويبدأ في اختلاق تلك الاستنتاجات التي يصل بمفادها إلى أنه لا يمكنه أن يصبح أفضل من ذلك. وباختلاق تلك الاستنتاجات يصبح عظيمًا في عينيه ومهمًّا وصالحًا. وفي ذلك خطيتان عظيمتان: الكبرياء والكذب. ينشأ الكذب عن الكبرياء، والكبرياء عن الكذب).

«باسكال».

-٣-

(مَن لا يشعر بالاشمئزاز من حب الذات الذي يجبره على اعتبار نفسه أسمى من في العالم، فهو أعمى تمامًا؛ فلا أحد يناقض الحقيقة والعدالة بتكوين مثل هذا الرأي عن نفسه. هذا محض كذب؛ لأنه من المستحيل أن تصبح أسمى مَن في العالم، وبالإضافة إلى ذلك فهذا غير عادل؛ لأن الجميع يطلبون الأمر ذاته).

«باسكال».

-٤-

(دائمًا هناك بقعةٌ مظلمةٌ في ضوء الشمس: إنه الظل الذي ينشأ عن هذا الاحترام الذي نكنه لأنفسنا).

«كارليل».

-٥-

ما من ميزة أو قوة أو جمال أو ثراء أو معرفة أو علم أو تنوير ولا حتى فضيلة إنسانية لا تزول بزوال التواضع، وتتحول من سمة صالحة إلى منفرة. ما من شيء يثير النفور في الإنسان من التباهي بثرائه أو بمعرفته أو بعقله أو بتنويره أو بفضيلته. يرغب الناس في محبة الآخرين لهم، وهم يعرفون أن الكبرياء والتباهي يبعدان عنهم الآخرين، ورغم ذلك لا يمكنهم أن يكونوا

متواضعين! فما سبب ذلك؟ السبب في ذلك هو أننا لا نستطيع أن نتبنى التواضع وحده، فهو لا يمكن الحصول عليه إلا بتحويل الإنسان لنطاق رغباته من المجال المادي إلى الروحي.

التواضع يمنح الإنسان قوة ونعمة روحيين في نضاله ضد الإغواءات:

-١-

لا شيء أفضل للروح من قبول الازدراء بفرح. كالمطر الدافئ بعد شمس الرضى عن الذات الحارقة الجافة، فهكذا تنتعش الروح بالحط من قدر المرء لذاته، وهكذا يشعر الإنسان بلطف التواضع.

-٢-

الباب الخارجي لهيكل الحقيقة والنعمة باب ضيق. لا يدخل إلى الهيكل سوى أولئك الذين ينحنون. وحسنٌ أن يدخل المرء من الباب، فالمكان بالداخل يتسم بالرحابة والحرية، والجميع بالداخل يحبون بعضهم البعض ويساعدون بعضهم البعض ولا يعرفون الحزن.

هذا الهيكل هو الحياة الحقيقية للإنسان، والباب هو تعاليم الحكماء، فالحكمة تمنح الإنسان التواضع، فلا يترفع سوى من يُخفض نفسه.

-٣-

الفرحة الكاملة طبقًا -لكلمات فرانسيس الأسيزي- هي في قبول التوبيخ غير المستحق، واحتمال حتى المعاناة الجسدية وعدم الشعور بالعداء لأولئك الذين يوبخوننا ويتسببون في معاناتنا. إنها فرحة كاملة؛ لأنه لا يمكن لأي إساءة أو ذنب أو هجوم من الناس أن يعكر صفوها.

-٤-

(لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ، يَتَّضِعُ. وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ. يَرْتَفِعُ).

«لوقا ١٤: ١١».

-٥-

(الضعفاء يهزمون الأقوياء في هذا العالم، فالمتواضع والمنسحق يهزم المتكبر والمتعالي. قليلون في هذا العالم من يفهمون قوة التواضع).

«لاو تسو».

-٦-

كلما رفع الإنسان من قدر نفسه، كلما ازداد ضعفًا. وكلما خفض نفسه، كلما ازداد قوة لنفسه وأمام الآخرين.

-٧-

(لا شيء أكثر انسيابًا ورقة من المياه، ورغم أنها تنحدر على أماكن صلبة وقوية، فلا شيء أقوى منها. الضعيف يهزم القوي، والرقيق يهزم القاسي، والمتواضع يهزم المتكبر. كل مَن في العالم يدرك ذلك، ولكن لا أحد يريد تنفيذه).

«لاو تسو».

-٨-

(تحكم الأنهار والبحار على كل الوديان التي تتدفق عبرها؛ لأنها أسفلها. ولذلك فإن الإنسان التقي إن أراد أن يكون أعلى من الشعب عليه أن يحاول أن يكون أقل منه. إن أراد أن يرشد الناس، فعليه أن يتراجع خلفه. لذلك فإن كان هناك إنسان تقي ويعيش أعلى من الشعب، فلا يشعر الأخير بذلك. إنه

أمام الشعب ولكن الأخير لا يعاني من ذلك، لذا لا يتوقف العالم عن مدحه. الإنسان التقي لا يتشاجر مع أحد ولا يتشاجر أحد معه).

«لاو تسو».

-٩-

الماء سائل ولين، ولكن إن سقط على مكان قاسٍ صلب عنيد، فلا شيء يمكنه أن يقف في وجهه. بإمكان الماء أن يكتسح البيوت ويغرق المراكب الضخمة، ويدمر الأرض إلى أشلاء. الهواء أكثر ليونة وخفة من الماء، وفي الوقت ذاته أقوى في تأثيره حينما يهاجم ما هو صلب وقاسٍ وعنيد. إنه يقتلع الأشجار من جذورها، ويدمر البيوت ويرفع المياه نفسها إلى ارتفاعات مخيفة، ويطرد المياه من السحب. لذا فالرقيق والخفيف والمطواع يهزم القاسي والصلب والعنيد.

هكذا هو الأمر أيضًا في حياة البشر. إن أردت أن تكون منتصرًا، فكن رقيقًا لينًا.

-١٠-

حتى تصبح أقوى، عليك أن تكون كالمياه. فلا عائق يمكنه أن يقف في طريقها، فهي تنساب، قد تتوقف أمام السدود، ولكن ما إن ينهار السد، حتى تعود إلى تدفقها. تجدها في الإناء ذي الأربع زوايا قد اتخذت نفس الشكل، وفي الوعاء الدائري تراها قد اتخذت شكل الدائرة. ولذلك فهي منتصرة دائمًا، فهي أرق من كل شيء وأقوى في الآن ذاته.

* * *

الحقيقة

الخرافة تحول بين الإنسان والحياة الصالحة. ولا يمكن التحرر من الخرافة سوى بالحقيقة، ليس فقط أمام الناس، ولكن أمام النفس أيضًا.

كيف يجب أن نتعامل مع المعتقدات الإيمانية والعادات المستقرة؟

-١-

(أبسط الطرق التي نرفض بها الله هي أن نعترف دائمًا -ونحن في كامل اليقين- بصحة الرأي العام، دون أن نبدي أي اهتمام بصوت الله، الذي لا يكف عن الحديث بداخل أرواحنا).

«جون راسكن».

-٢-

حتى وإن أقر العالم بأكمله بأن العقيدة القديمة المستقرة هي الصحيحة، فلا بد من أن يفحص الإنسان بعقله هذه العقيدة، وأن يرفضها إن لم تتفق مع متطلبات العقل.

-٣-

(تعرفون الحق، والحق يحرركم).

«يوحنا ٨: ٣٢».

-٤-

التعليم عن وجوب الطاعة الأبدية للسلطات، والاعتراف بحقيقة ما يعلمنا الناس إياه لا يمكن أن يقبله الإنسان الذي يعترف بالسلطة الأسمى لحقيقة طبيعته الإلهية.

-٥-

(مَن أريد أن يكون إنسانًا حقيقيًا، فعليه أن يبتعد تمامًا عن إرضاء العالم. مَن أريد أن يحيا حياة حقيقية، فلا يجب أن يسترشد بما يعتبره المجتمع خيرًا، بل يبحث بكل ما لديه من قوة عن الخير الحقيقي. لا شيء أكثر قدسية وأهمية من التفكير الروحي المستقل).

«إمرسون».

-٦-

إن كانت هذه هي الحقيقة، فدعونا نؤمن بها جميعًا: فقراء وأغنياء، رجالًا ونساء وأطفالًا. وإن كانت ليست هي الحقيقة، فلا يجب أن يؤمن بها أحد، لا فقير ولاغني ولا رجل ولا امرأة ولا طفل. يجب أن تُعلن الحقيقة من أعلى.

إنهم يقولون دائمًا: إنه من الخطر أن تُصرِّح ببعض الأشياء لكل الناس. يقولون: نحن نعرف أن هذا غير حقيقي، لكنه ضروري من أجل الشعب. من المفيد أن يؤمن الشعب بذلك وإلا ارتكب كثير من الشرور إن قمت بتحطيم إيمانه.

لا... إن الطرق الملتوية تظل دائمًا ملتوية، حتى وإن كانت قد أُعدت من أجل خداع معظم الناس. ولا يمكن في أي وقت أن يكون ما هو غير حقيقي مفيدًا لأي شخص. لذا فنحن نعترف بقانون واحد من أجل الجميع: إنه اتباع الحقيقة بغض النظر عن إلى أين ستقودنا.

-٧-

(يتلخص الخير والشر في درجة الميل إلى الاعتقاد في الحقيقة. هذا الميل تحديدًا هو ما يمنح المجتمع فرصة التقدم، وهو ما يجعل هذه الحركة بطيئة للغاية وموجعة: بفضل هذا الميل يحصل كل جيل -دون بذل مجهود- على المعارف التي تصل إليه بفضل الجهد الشاق الذي قام به الأسلاف، وبفضله أيضًا يمكن أن يُستعبد كل جيل بأخطاء وضلالات أسلافه).

«هنري جورج».

-٨-

كلما عاش الإنسان، كلما تحرر من الخرافات.

-٩-

كافة الخرافات، بداية من تلك المتعلقة بقانون الله مرورًا بالدولة ووصولًا إلى العلم، جميعها عبارة عن أفكار محرفة، لذا فإن التخلص منها ممكن فقط في حالة تحقيق فقط متطلبات الحقيقة التي يكشف عنها العقل.

-١٠-

الإيمان بأن الحقيقة في حد ذاتها مربحة ونافعة لنا هي سمة طبيعية لدى الأطفال والإنسانية في مراحل طفولتها. وكلما يعيش الإنسان والإنسانية مدة أطول، كلما يتأكد ويستجلي بعقله من تحرره وتحرر الإنسانية من هذه الأفكار الكاذبة التي تعتقد أن الحقيقة هي كل ما هو مربح للإنسان. لذلك من الضروري لكل إنسان، وللإنسانية جمعاء مع حركة الحياة أن يفحص كل ما تسلمته من أسلافها على أنه حقائق إيمانية صحيحة.

-١١-

كل حقيقة يتم التعبير عنها بالكلمات تحوي بين طياتها قوة وعملًا غير محدودين.

الكذب- أسبابه ونتائجه:

-١-

لا تظن أن قول وفعل الحق مهم فقط في الأمور المهمة. إن قول وفعل الحق أمر مهمٌّ دائمًا حتى في أبسط الأمور. ليس ما يهم هو مقدار الشر الذي ينتج عن كذبك، ولكن ما يهم حقًّا هو أن لا تتلوث أنت بالكذب أبدًا.

-٢-

إن لم تتسق الحياة مع الحقيقة، فالأفضل على أي حال أن نعترف بالحقيقة بدلًا من أن نخفيها. يمكننا أن نصلح حياتنا بالحقيقة، لكننا لا يمكننا أن نستبدل الحقيقة بشيء، فستظل كما هي ولن تتوقف عن الإعلان عن نفسها لنا.

-٣-

جميعنا يحب الحقيقة أكثر من الكذب، ولكن عندما يتعلق الأمر بحياتنا، فكثيرًا ما نفضل الكذب على الحقيقة؛ لأن الأول يُبرر حياتنا الشريرة، بينما الثانية تفضحها.

-٤-

يحدث عندما تدخل كل حقيقة إلى وعي الناس لتحل محل ضلالة سالفة، أن تكون الضلالة واضحة، وكذلك الحقيقة التي يجب أن تحل محلها، ولكن الناس المستفيدين من هذه الضلالة أو حتى الذين تعودوا عليها يحاولون دعمها بكل ما لديهم من قوة. في هذه الأوقات تحديدًا يكون من المهم جدًّا إعلان الحقيقة على الملأ.

-٥-

إن قال الناس لك: «إنه ليس من المهم أن نصل إلى الحقيقة في كل شيء؛ لأن الحقيقة المطلقة لا يمكن أن نصل إليها»، فلا تصدقهم وحاذر من هؤلاء الناس.

إنهم أشد الأعداء شرًّا، ليس فقط للحقيقة، ولكن لك أنت شخصيًّا. إنهم لا يقولون ذلك إلا لأنهم هم أنفسهم لا يعيشون وفقًا للحقيقة، ويدركون هذا جيدًا، ويريدون لو يعيش البشر جميعًا مثلهم.

-٦-

إن أردت أن تعرف الحقيقة، فقبل كل شيء عليك أن تحرر نفسك من جميع افتراضاتك عمَّا إن كان هذا القرار أو ذاك هو الذي سيجلب لك نفعًا.

-٧-

قد يبدو أمرًا يبعث على السرور عندما تكتشف كذب الآخرين وتفضحه، ولكن ما يمكنه أن يبعث فيك أضعاف هذا القدر من السرور هو أن تكتشف الكذب داخل ذاتك أنت وتفضحها. حاول أن تمنح نفسك مثل هذا السرور بقدر ما تستطيع.

-٨-

بغضِّ النظر عن كم يبدو الكذب مغريًا، يأتي وقت يعذب فيه الكذب الإنسان، حتى إن الإنسان لا يعود يبحث عن الحقيقة من أجلها ذاتها، بل يحاول في الأساس التخلص من كل هذا الارتباك وتلك الفوضي التي يُحدِثُها الكذب، والتي يعاني منها، ويتوجه إلى الحقيقة التي يمكنه أن يجد فيها وحدها الخلاص.

-٩-

(ما السحابة المحيطة بالعالم؟ ولماذا لا يبرق العالم؟ ما الذي يفسده؟ أين مكمن الخطر العظيم الذي يحدق به؟

إن الخطر المحيق به هو أن يعيش الناس لا بالعقل الإنساني الذي وهبه الله لكل واحد فيهم، بل طبقًا للعقل المحرَّف الذي يبرر شهواتهم. الناس يعانون ويبحثون عن خلاص، فما الذي يمكنه أن يخلصهم؟ وحده احترام العقل والبحث عن الحقيقة هو ما يمكنه أن يخلصهم).

«حكمة شرقية».

-١٠-

التجربة المريرة تكشف لنا أنه من المستحيل أن نُبقى على نفس شروط الحياة القديمة، لذا فإنه من الضروري أن نجد شروطًا جديدة تتناسب مع زماننا، ولكن الناس بدلًا من استخدام العقل من أجل البحث عن شروط جديدة وتحقيقها، يستخدمونه من أجل إبقاء الحياة في نفس الشروط القديمة التي كانت موجودةً منذ مئات الأعوام.

-١١-

الكذب يحجب الله عنا، وكذلك يحجب أنفسنا عنا، ويحجب عنا الناس، لذا فلا شيء أغلى من الحقيقة، فهي التي تعيد لنا محبة الله والقريب.

-١٢-

ما من تعاسة أشد بؤسًا من أن يشعر الإنسان بالخوف من الحقيقة؛ لئلا تكشف له عن كم هو شرير.

-١٣-

أشد دلالات الحقيقة صدقًا هي البساطة والوضوح. يبدو الكذب دائمًا معقدًا ومصطنعًا ومسهبًا.

-١٤-

(قد تكون وحيدًا في محيطك الزمني، ولكن كل فكرة من أفكارنا، وكل شعور من مشاعرنا وَجَدَ ويَجِد وسيجد صدى له في الإنسانية جمعاء. بعض الناس الذين تعتبرهم البشرية قادة ومصلحين ومتنورين يكون لهم صدى هائل ويتردد بقوة خاصة، ولكن ما من إنسان أو فكرة لم تؤثر على الآخرين مهما كان التأثير بسيطًا. كل تعبير صادق عن الروح، وكل تعبير عن قناعة شخصية يخدم شخصًا أو شيئًا ما حتى إن كنت لا تعرفه، وحتى إن أغلقوا فمك أو ربطوا قيدًا حول عنقك. الكلمة التي تتفوه بها لشخص ما لها تأثير لا يزول، مثل كل حركة تتحول إلى أشكال أخرى، لكنها لا تزول).

«أميل».

ما الذي يدعم الخرافة؟

-١-

كلما ازداد احترامك لما حولك من أشياء وعادات وقوانين، كلما وجب عليك أن تبحث عمَّ إن كانت هذه الأشياء تستحق الاحترام أم لا.

-٢-

هناك كثير من الحقائق القديمة تبدو لنا معقولة؛ لأننا لم نفكر فيها أبدًا من قبل بجدية.

-٣-

العقل هو أقدس ما في العالم، لذلك فأعظم الخطايا هي التي تسيء استخدام العقل، فلا تستخدمه من أجل كشف الحقيقة، إنما من أجل تحريفها.

-٤-

أعلى درجة من الكذب والعنف هي تأسيس قانون قد أقامه أحد البشر، وهو غير خاضع للمناقشة من أحد، ولا بد من قبوله كعقيدة.

لماذا قد يحتاج الناس إلى مثل هذا القانون؟

-٥-

(كل سلطة تتأسس على العنف، أما المسيحية فتتأسس على الحب. الدولة قسرية، أما المسيحية فهي قناعة).

«كونيجام جيكي».

-٦-

(لم يؤسس المسيح أي كنيسة، ولم يؤسس أي دولة، ولم يمنحنا أي قوانين أو حكومات، ولا أي سلطات مادية، لكنه حاول أن يكتب قانون الله في قلوب البشر كي يجعلهم بشرًا مستقلين).

«هربرت نيوتن»[(١٥٠)].

-٧-

(بفحص تاريخ الإنسانية سنلاحظ أن أكثر الحماقات وضوحًا رافقت الناس على أنها حقائق لا تقبل الشك، حتى إن أممًا كاملةً قد راحت ضحية لخرافات وحشية وإذلال من قبل بشر زائلين مثلهم، وفي كثير من الأحيان من قبل حمقى أو متهتكين حوَّلتهم أوهامهم إلى معاونين إلهيين، وسنلاحظ أيضًا

---

(١٥٠) صحفي كندي (١٨٦٩- ١٩٥١).

أن أممًا بأكملها قد ضاعت في العبودية وعانت وماتت من فرط الجوع؛ كي يتمكن البشر الذين يعيشون كطفيليات من التمتع بحياة مترفة من ناتج عمل الآخرين. وسبب كل تلك الحماقات والمعاناة دائمًا واحد: التسليم والإيمان بفكرة لا يستطيع حتى الأطفال سوى أن يعترفوا بلا عقلانيتها).

«هنري جورج».

-٨-

(إن القرن الحالي هو قرن النقد بحق. كل ما قبلناه على أنه إيمان صحيح يتعرض للنقد.

عادة ما يحاول الدين والتشريع تجنب النقد. الأول بدعوى قداسته، والآخر بمساعدة فخامته ونبله. ولكن في بعض الحالات يثيران الشكوك حولهما ولا يستطيعان الاعتماد على استمرار الاحترام صوبهما؛ لأن العقل لا يحترم سوى مَن يبقي على الحرية ويصمد أمام الاختبار).

«كانط».

-٩-

لا تخف من الدمار الذي يُلحقه العقل بما سلم البشر وآمنوا به. لا يمكن للعقل أن يدمر شيئًا دون أن يستبدله بما هو حقيقي. هذه سمة أساسية في العقل.

الخرافات الدينية:

-١-

(من السيئ ألَّا يعرف الناس الله، ولكن الأسوأ أن يظنوا مَن ليس الله هو الله).

«لاكتانتيوس».

-٢-

أمر غريب حقًّا! في كل زمان حاول الأوغاد إخفاء أفعالهم الكريهة تحت ستار الدين أو الأخلاق أو الوطنية!

-٣-

(لم يعد الدين كما كان. تحولت قوانين الله الأبدية بجنتها وجحيمها الأبديين إلى فلسفة عملية تتأسس على حسابات متقنة عن المكسب والخسارة، وبقية قليلة متبقية من الاحترام صوب السعادة التي تتحقق عبر الفضيلة والأخلاقيات السامية.

إن استخدمنا تعبير أسلافنا فسنقول إننا قد نسينا الله، وإن استخدمنا طريقة تعبير معاصرة فعلينا أن نقول إننا فهمنا حياة العالم بشكل مزيف. نحن نغلق أعيننا بهدوء ولا نريد أن نرى جوهر الأشياء الأبدي ولم نعد نرى سوى حياة متخيلة. نحن نعتقد في صدفة كونية عظيمة غير مفهومة عرضية، ونظن من المراقبة الخارجية أنها تبدو واضحة تمامًا لنا، كساحة هائلة ترعى فيها الماشية، أو منزل للعمال، ومطابخ هائلة بطاولات للطعام لا يجد فيها مكانًا سوى الحكماء.

نعم... لم نعد نؤمن بالله! تبدلت قوانين الله بمبدأ إمكانية المنفعة القصوى).

«كارليل».

-٤-

منحنا الله روحه والعقل كي نخدمه، بينما نستخدم هذا الروح من أجل خدمة أنفسنا.

-٥-

(احْذَرُوا مِنَ الْكَتَبَةِ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ الْمَشْيَ بِالطَّيَالِسَةِ، وَيُحِبُّونَ التَّحِيَّاتِ فِي الأَسْوَاقِ، وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِي الْمَجَامِعِ، وَالْمُتَّكَآتِ الأُولَى فِي الْوَلاَئِمِ. اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ، وَلِعِلَّةٍ يُطِيلُونَ الصَّلَوَاتِ. هؤُلاَءِ يَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ).

«لوقا ٢٠: ٤٦- ٤٧».

-٦-

(وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَا تُدْعَوْا سَيِّدِي؛ لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ، وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ. وَلَا تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ؛ لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَلَا تُدْعَوْا مُعَلِّمِينَ؛ لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ).

«متى ٢٣: ٨- ١٠».

-٧-

لا تسمح بوسطاء بين روحك وبين الله. لا يمكن أن يكون أحد أقرب إليك من الله.

-٨-

(إن لم نكن أنقياء الروح، فلمَ إذنْ نتعبد لله؟ لماذا نقول سوف أذهب إلى بارانسي[١٥١]؟ كيف يمكن لمن يفعل الشر أن يصل إلى بارنسي الحقيقية؟ إن القداسة ليست في الغابات ولا في السماء ولا على الأرض، ولا في أنهار مقدسة. نقِّ نفسك وسوف تراه. وجِّه جسدك صوب المعبد، ونحِّ الأفكار الشريرة، وتأمل في الله بأعينك الداخلية. عندما نعرفه، نعرف أنفسنا. دون

(١٥١) مدينة في شمال الهند، وتعد من مراكز العبادة، ويعتبرها الهنود من المدن المقدسة.

تجربة شخصية لا يمكن لكتاب ديني واحد أن يزيل مخاوفنا، كما أن الظلمة لا يمكنها أن تزول بوصف الجحيم. أيًا كان إيمانك، وأيًا كانت صلاتك، فطالما الحقيقة ليست في قلبك، فلن تصل إلى طريق الخير. أما مَن يعرف الحقيقة، فهو يولد من جديد.

إن مصدر الخير الحقيقي موجود في القلب، ومَن يبحث عن الخير في مكان آخر فإنه مجنون. إنه يشبه الراعي الذي يبحث عن الحمل الذي يضمه فعلًا إلى صدره.

لماذا تجمعون الحجارة وتشيدون هذه الهياكل العظيمة؟ لماذا تعذبون أنفسكم هكذا، والله يعيش بداخلكم طوال الوقت؟ كلب مخلص أفضل من صورة ميتة تتعبد لها في منزلك، والإله العظيم أفضل من كل أشباه الآلهة.

هذا النور الذي يسطع في قلب كل إنسان كنجم الفجر هو ملجؤنا).

«بامانا بورانا»[١٥٢].

-٩-

(كل مبالغة في معنى الأشخاص أو الكلمات هي بمثابة انتهاك لحق الروح، وهي تجبر القارئ الشجاع على أن يُنَحي العهد الجديد جانبًا، ويقبل بالفلسفة الوثنية. وذلك ليس لأن أبيكتيتوس أو ماركوس أوريليوس أفضل؛ ولكن لأنهما لا ينتهكان حرية القارئ؛ لأنهم يقومون فقط بعرض أفكارهما، في حين أن العهد الجديد -بإطاره الظاهري- يصدر حكمًا نهائيًا على ما لا يستحيل إصدار حكم بشأنه. لا يجب على الإنسانية أن تحتمل هذا الوضع غير المجدي للإنجيل. والعمل الذي ينتظرنا في قرننا هذا هو أن نعيد كل هذه الكتابات إلى هذا المستوى الواحد العام الذي هو من خصائص العقل البشري، وكل كاتب

(١٥٢) نص هندي هندوسي مقدس مكتوب بالسنسكريتية.

ذي وحي سيستفيد من وقف هذا التعامل الوثني مع كتابته).

«إمرسون».

-١٠-

(كم هو أمر يثير التعجب أن يقبل العالم الحقائق الكاشفة الموحى بها من أزمان قديمة فقط غير معاصرة، في حين أن كل كشف معاصر وكل فكرة أصيلة الآن يعتبرها تافهة، بل ويكن لها الكراهية أحيانًا!).

«ثورو».

-١١-

الوعي الديني للإنسانية ليس هامدًا، ولا يتوقف عن التغيير، ويزداد وضوحًا ونقاءً أكثر فأكثر.

-١٢-

لا يمكن أن يبدأ تصحيح الشر القائم في الحياة بشيء آخر إلا بكشف الزيف الديني، وإقامة الحقائق الدينية في قلب كل إنسان.

الجوهر العقلي في الإنسان:

-١-

ما العقل؟ أيًا كان ما نفكر فيه، فنحن نفكر دائمًا بالعقل، فكيف يمكن أن نفكر في العقل نفسه؟

إن كنا نفكر في كل شيء بالعقل، فلن يمكننا أن نفكر في العقل في حد ذاته. ولكن الأمر لا يقتصر على أننا جميعًا نعرف العقل، بل إنه الشيء الوحيد الذي نعرفه حقًّا، وبطريقة واحدة بيننا جميعًا.

-٢-

(كرامة الإنسان في هذا الجوهر الروحي الذي ندعوه أحيانًا بـ«العقل»، وأحيانًا ما ندعوه «الضمير». هذا المصدر الذي يسمو فوق الزمان والمكان، يضم بين طياته حقيقة لا شك فيها وأبدية. إنه يرى الكمال بين طيات اللا كمال. إنه جوهر روحي شامل ونزيه، يناقض دائمًا الجور والأنانية الإنسانيين. إنه يتكلم بسلطان لكل واحد فينا قائلًا لنا إن قريبنا عزيز جدًّا مثلنا بالضبط، وأن حقوقه مقدسة كحقوقنا. إنه يقودنا صوب استيعاب الحقيقة، بغض النظر عن شعورنا بالاشمئزاز منها من فرط كبريائنا، ويجعلنا عادلين، حتى وإن كنا سنقوم بإجراءات لا تصب في صالحنا. إنه يدعونا كي نبتهج بمحبة بكل ما هو رائع ومقدس وعادل، حتى في الأمور التي لا نرى فيها هذه السمات. هذا الجوهر هو شعاع الألوهية في الإنسان).

«شانينج».

-٣-

كل ما ندركه، فعن طريق العقل. لذا فلا تصدق أولئك الذين يقولون لك إنه لا يتوجب عليك أن تتبع العقل. مَن يقولون لك ذلك، يشبهون مَن ينصحون بإطفاء نور المصباح الوحيد الذي يرشدنا في هذه الظلمة الحالكة.

-٤-

(علينا أن نثق في عقولنا. هذه حقيقة لا يجب إخفاؤها بأي حال من الأحوال. الإيمان بقوة العقل هو أساس كل إيمان حقيقي. من المستحيل أن نؤمن بالله إن قللنا من شأن هذه الهبة التي نعرف الله عن طريقها. إن العقل هو العطية الكبرى التي يتوجه إليه الوحي، فلا يمكن للأخير أن يُفهم بمعزل عنه. إن بدا لنا بعد استخدامنا لأفضل عطايانا استخدامًا نزيهًا غير متحيز أن

عقيدة معينة تعارض العقل ولا تتفق مع مبادئه الرئيسة التي لا محل للشك فيها، فعلينا أن نتخلى عن هذا الإيمان بهذا التعليم فورًا. أنا أؤمن أن طبيعتي العقلية هي من الله أكثر من إيماني بأن أي كتاب هو تعبير عن إرادة الله).

«شانينج».

-٥-

العقل يكشف للإنسان عن مغزى وهدف حياته.

-٦-

لقد أُنعِم علينا بنعمة العقل لا لكي نحب الله والقريب. إن هذا بداخلنا بالقرب من العقل في قلب كل إنسان، وإنما الإنسان مُنِح العقل كي يستطيع التمييز بين الحقيقة والكذب، لذا يلزم أن يهجر الإنسان الكذب، وسوف يتعلم كل ما هو في حاجة إليه.

-٧-

(إن الضلال والاختلاف الذي يحدث بين الناس أثناء البحث عن الحقيقة له سبب واحد؛ ألا وهو عدم الثقة في العقل، فبسبب ذلك تسترشد الحياة الإنسانية بالعادات والتقاليد وما هو شائع وتسترشد بالخرافات والتحيزات والعنف وكل شيء عدا العقل الموجود بذاته، والذي تتدفق قوته من تلقاء نفسها. كثيرًا ما يكون التفكير في أمر ما لا يهدف إلى البحث عن الحقيقة ونشرها، بل إلى تبرير ودعم العادات والتقاليد والأفكار الشائعة والخرافات والتحيزات.

إن الضلال والاختلاف الذي يحدث بين الناس في بحثهم عن الحقيقة

ليس بسبب أن العقل الذي لديهم ليس واحدًا، أو أنه لا يمكنه أن يشير لهم إلى حقيقة واحدة، ولكن بسبب أنهم لا يثقون فيه.

إن وثقوا في عقولهم، لوجدوا طريقة يقارنون بها بين شهادات أذهانهم وشهادات الآخرين. وبعد أن يجدوا طريقة التحقق والفحص المتبادل سيصبحوا على قناعة كاملة بأن العقل واحد لدى كافة البشر، وسيخضعون لتأثيره).

«ستراخوف»[١٥٣].

-٨-

العقل واحد عند كافة البشر. تعتمد العلاقات بين البشر وتأثيراتهم على بعضهم البعض على العقل، ومتطلبات العقل من كل إنسان واحدة عند كافة البشر.

-٩-

(بقدر ما يكون الإنسان صادقًا بقدر ما يكون ربانيًا، وخالدًا لا يقهره الموت، فعظمة الألوهية تدخل إلى الإنسان بشكل يتسق مع صدقه).

«إمرسون».

-١٠-

(تذكر أن قدرتك على التعقل عن طريق العقل الذي لديه حياة في نفسه، هي ما تجعلك حرًّا، إن لم تجعله خاضعًا لسلطان الجسد. تتحرر الروح بمساعدة التفكير المستنير من المشاعر التي من شأنها أن تُعتم من هذا الضوء. مَن لا يعرف هذا الضوء، فهو أعمى. والذي يعرفه ولا يؤمن بالعقل، فهو بائس حقًّا).

«ماركوس أوريليوس».

---

(١٥٣) فيودور ألكسيفيتش ستراخوف (١٨٦١ - ١٩٢٣): كاتب روسي.

-١١-

(إحدى واجبات الإنسان الرئيسة هو أن يعمل بكل ما لديه من قوة على إضاءة ولمعان ذلك الجوهر المضيء الذي يحصل عليه من السماء ويعيش بداخله؛ إنه العقل).

«حكمة صينية».

-١٢-

(إني أمجد المسيحية؛ لأنها تنشر وتدعم وتسمو بقدرتي العقلية. إن لم أستطع أن أظل كائنًا عاقلًا، فأنا إذنْ مسيحي يرفض المسيحية. إني أشعر في نفسي أنه يتوجب عليَّ أن أضحي بنفسي من أجل المسيحية وبكبريائي وبحياتي، لكني لا أستطيع أن أضحي بعقلي من أجل أي ديانة، وهو الذي يسمو بي فوق مستوى الحيوانات، ويجعل مني إنسانًا. إني لا أعرف تجديفًا أكثر من أن يتخلى الإنسان عن أسمى هبة قد مُنِحت إليه، تلك التي حصل عليها من الله. إن قمنا بذلك فنحن نعارض عمدًا هذا الجوهر الإلهي الذي يعيش بداخلنا).

«شانينج».

-١٣-

(الإنسان الذي لا يعرف أنه يمكنه أن يرى بعينيه، والذي لم يفتح عينيه أبدًا هو حقًّا بائس. ولكن الأكثر بؤسًا هو ذلك الإنسان الذي لا يدرك أنه قد وُهِب العقل ليتحمل بهدوء كافة أنواع المضايقات. يمكننا بمساعدة العقل أن نتعافى من كافة أنواع المضايقات والمصاعب. الإنسان العاقل لا يلتقي في الحياة بمشاكل لا يمكن احتمالها، ومع أننا كثيرًا ما نلتقي بمشاكل عديدة وجهًا لوجه، إلا أننا نحاول بجبن أن نراوغها أو نتفاداها. ليس حسنًا ألا نفرح

أن الله قد أعطانا سلطانًا ألَّا نحزن مما يحدث لنا خارج نطاق إرادتنا، وأن نشكره على أنه لم يخضع أرواحنا إلا لسلطاننا. إنه لم يخضع أرواحنا لا لوالدينا ولا لأشقائنا ولا للثروة ولا لأجسادنا ولا حتى للموت. إنه من فرط نعمته قد أخضع أرواحنا فقط لسلطان عقولنا).

(أبيكتيتوس).

-١٤-

منحنا الله العقل كي نخدمه به. لذا علينا أن نعمل دائمًا على الحفاظ على نقائه؛ كي يمكنه دائمًا أن يميز بين الحقيقة والكذب.

-١٥-

لا يكون الإنسان حرًّا، إلا عندما يعيش في ضوء الحقيقة. ولا يمكننا أن نصل إلى الحقيقة سوى بالعقل.

العقل يفحص حالة الإيمان:

-١-

عندما يستخدم الإنسان عقله في حل بعض المسائل الكبيرة من قبيل: لماذا وُجِد العالم؟ ولماذا يعيش الإنسان نفسه فيه؟ فإنه يشعر بالدوار. لا يمكن لعقل الإنسان أن يجد أجوبةً عن مثل هذه الأسئلة.

ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أن الإنسان قد وُهِب العقل لا من أجل أن يصل إلى أجوبة لمثل هذه الأسئلة، وأن مجرد طرح هذه الأسئلة في حد ذاتها يعني تضليل العقل. إن العقل قادر على حل مسألة واحدة فقط: «كيف يجب أن أعيش؟» والإجابة واضحة: «عليَّ أن أعيش حسنًا، أنا وكافة البشر. هذا لازم لكل إنسان كما أنه لازم لي. وهذه الإمكانية قد مُنِحت لكل إنسان، كما قد منحت لي عبر العقل الذي قد وُهِبت إياه هو أيضًا». وهذه الإجابة تستبعد كافة

الأسئلة التي تبدأ بلماذا، وما السبب؟

-٢-

ألسنا نحن أيضًا على صواب؟ علينا أن نُبقي الشعب أسرى لهذا الخداع. انظر إلى الشعب كم هو بربري وجاهل!

لا... إنه كذلك فقط؛ لأنه مخدوع بقسوة. لذا فعليكم قبل كل شيء أن تتوقفوا عن خداعه بهذه القسوة.

-٣-

(إن كان الله وموضوع إيماننا يسمو فوق حدود العقل، ونحن لا يمكننا أن نحيط به بالعقل، إلا أن ذلك لا يعني أن نوقف نشاط العقل ونعتبره أمرًا ضارًّا.

مع أن موضوع الإيمان -دون أدنى شك- يعلو فوق حدود العقل، إلا أن علاقة العقل به شديدة الأهمية، حتى إننا لا يمكننا أن نمضى من دونه. للعقل مهمة أشبه بالرقابة التي لا تسمح سوى بما هو أعلى من حدودها: أي الحقيقة الميتافيزيقية، وترفض كل حقيقة متوهمة تعارض العقل.

ولكن بالإضافة إلى هذه الوظيفة الإيجابية، فللعقل سمات سلبية أيضًا تعمل على تحرير الإنسان من الخطايا والإغواءات «تبرير الخطايا» والخرافات).

«ستراخوف».

-٤-

(كن نورًا لنفسك. كن ملاذًا لنفسك. تمسك بضوء مصباحك، ولا تبحث عن ملاذ آخر).

«حكمة بوذية».

-٥-

(مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ، آمِنُوا بِالنُّورِ؛ لِتَصِيرُوا أَبْنَاءَ النُّورِ).

«يوحنا١٢: ٣٦».

-٦-

لا تقمع عقلك، كما يُعلِّم المعلمون الكذبة، فهو لازم لك؛ كي تتعرف على الديانة الحقيقية التي من شأنها أن تطهره وتنقيه، بينما هو يفحص كل ما يُقدَّم إليه ويتحقق منه.

-٧-

(إن أردت أن تصل إلى إدراك الأنا الكلية، فعليك قبل كل شيء أن تعرف نفسك. وكي تتمكن من معرفة نفسك عليك أن تضحي بأناك الخاصة من أجل الوصول إلى الأنا الكلية. عليك أن تضحي بحياتك إن أردت أن تعيش بالروح. نحِّ أفكارك عن كل ما هو مادي وظاهري. حاول أن تبعد عنك كل ما يمكن أن يلقي بظلاله على روحك.

إن ظلالك تعيش وتتلاشى، وما هو أبدي بداخلك لا ينتمي إلى حياة عابرة.. إنه وجود أبدي بداخلك، يكشف لك عن كل ما هو كاذب، وكل ما هو حقيقي، وكل ما تحتاج إلى معرفته).

«حكمة براهمية».

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

الشر

نحن نطلق على كل ما يحول دون تحقيق خير حياتنا الجسدية شرًّا. ورغم ذلك، فإن حياتنا بأكملها هي بمثابة تحرر تدريجي لأرواحنا ممَّا يعود بالخير على أجسادنا. لذلك فمَن يفهم الحياة بهذه الطريقة، فما من شر بالنسبة له.

ما نطلق عليه معاناة هو شرط ضروري للحياة:

-١-

(حسنٌ أن يتحمل الإنسان بلايا هذه الحياة الأرضية؛ لأن ذلك يقوده صوب اتحاد مقدس مع قلبه حيث يجد نفسه كما لو أنه منفي عن أرضه، وبهذا لا يثق في أي فرحة دنيوية. وخيرٌ له أيضًا أن يتلقى اللوم ويلتقي بالمتناقضات عندما يفكر الآخرون عنه ويتحدثون عنه بشكل شرير، مع أن نواياه كانت طاهرة وتصرفاته كانت سليمة؛ لأن من شأن ذلك أن يُبقيه متواضعًا، كما أن ذلك يُعد ترياقًا لعلاج الفخر الكاذب. إن هذا يمثل خيرًا حقيقيًّا له؛ لأننا يمكننا أن نتحدث مع الشاهد الذي بداخلنا حيث يوجد الله... سنتحدث معه عندما يزدرينا العالم ولا يحترمنا الآخرين ولا يقدمون لنا المحبة).

«توما الكمبيسي»[١٥٤].

(١٥٤) توما الكمبيسي هو توما هيميركين. كانت ولادته سنة ١٣٨٠ بمنطقة كولونيا في ألمانيا. درس في مدرسة إخوة الحياة المشتركة. ثمّ دخل إلى دير الرهبان الأوغسطينيّين في آنياتينبرغ، وأصبح رئيسًا عليه سنة ١٤٤٨.

-٢-

بينما كان فرانسيس الأسيزي عائدًا تحت الأمطار الباردة وفي قلب الرياح القارصة من بيروزا إلى بورتسيونكول بصحبة تلميذه، حدَّثه عن ماهية السعادة الكاملة. قال له إن السعادة الكاملة ليست في الحصول على مديح الناس على فضيلتك، وليست في الحصول على موهبة شفاء المرضى، وإعادة السمع للصم والبصر للعميان، ولا في التنبؤ بالمستقبل، ولا فهم مسار النجوم وسمات كافة النباتات والحيوانات، ولا حتى في توجيه الناس جميعًا صوب الإيمان الحقيقي. فسأله تلميذه: أين يمكننا إذنْ أن نجد السعادة الكاملة؟ أجاب فرانسيس: إن السعادة الكاملة في أن نعود إلى الدير مبللين وملطخين بالأوساخ، شاعرين بالجوع ونطرق على الباب، فيقول لنا الحارس: مَن أنتم؟ فنقول له إننا أشقائه. فيجيبنا: أنتما تكذبان... أنتما متسولان، تتسكعان هنا وهناك وتخدعون الناس لتسرقوا منهم العطف. ابتعدا عن هنا، فأنا لن أسمح لكما بالدخول. وعندما نقبل وقتها كلماته باتضاع وحب رغم أننا نشعر بالجوع والبرد، ونقول له إنه على حق، وإن الله لا بد وأنه قد أرشده إلى أن يعاملنا بهذه الطريقة، حينها فقط سنختبر السعادة الكاملة».

اقبل فقط كل عمل وكل إساءة بحب لذلك الذي يفرض عليك هذا العمل ويلحق بك الإساءة، وحينها سيتحول كل عمل وكل إساءة إلى فرحة، وهذه الفرحة ستكون كاملة؛ لأن كل فرحة أخرى يمكن أن تزول، أما هذه الفرحة فلا شيء يمكنه أن ينهي أمرها؛ لأنها دائمًا تحت نطاق سلطتنا.

-٣-

(إن عرض إله ما علينا -نحن البشر- أن يزيل من حياتنا الحزن بصورة نهائية، وكل ما يمكن أن يؤدي إليه أيضًا، فللوهلة الأولى لا بد وأننا سنسقط

تحت تأثير هذا الإغراء وسنقبل بهذا العرض. عندما يضغط علينا العمل المرهق والحاجة، وعندما يأتينا الألم، وعندما يُكدِّر القلق القلب، فالشعور الذي يكون لدينا في مثل هذه الأوقات أن أفضل شيء يمكن أن نمر به هي حياة دون عمل، وأن نعيش في هدوء وأمان وكفاية وسلام. لكني أعتقد أنه إن اختبرنا هذه الحياة، فسرعان ما سنطلب من هذا الإله أن يعيدنا ثانية إلى حياتنا السابقة بكل مصاعبها واحتياجاتها وأحزانها ومخاطرها. إن حياة فارغة تمامًا من الحزن والخوف سريعًا ما ستبدو لنا لا فقط غير مثيرة، بل أيضًا كريهة. فإن اختفت أسباب الحزن من الحياة كاملةً، فستتلاشى معها كافة المخاطر والعقبات والإخفاقات، وكذلك كافة المناحي التي نبذل من أجلها قوانا والحماسة والتحفز من المخاطر والضغوط والنضال، والفرحة عند النصر.

كل ما سيتبقى لنا هو تنفيذ غير متعسر للخطة، ونجاح دون عوائق. سرعان ما سنمل من ذلك، تمامًا كما يحدث مع اللعبة التي نعرف مسبقًا أننا سنربح في كل مرة نلعب بها).

«بولسن»[١٥٥].

المعاناة تستثير الحياة الروحية داخل الإنسان:

-١-

الإنسان روح إلهية تقطن جسدًا.

في بداية الحياة لا يدرك الإنسان ذلك، ويعتقد أن حياته في جسده، ولكن كلما عاش، كلما أدرك أن حياته الآنية في الروح لا في الجسد. يتلخص معنى حياة الإنسان بأكملها في إدراك ذلك أكثر فأكثر. تجعلنا معاناة الجسد نتقبل

---

(١٥٥) فريدريش بولسن (١٨٤٦-١٩٠٨): كاتب ألماني.

هذه المعرفة بصورة أسهل وبطريقة أصح.

وهكذا تجعل معاناة الجسد حياتنا كما يجب أن تكون: حياة روحية.

-٢-

النمو المادي هو مجرد إعداد للنمو الروحي الذي يبدأ بعد ذبول الجسد.

-٣-

إنسان يعيش من أجل الجسد ويقول: كل شيء شرير. ويعيش إنسان آخر من أجل الروح ويقول: غير صحيح.. كل شيء رائع. كل ما تطلق عليه شريرًا يشبه شحذ السكين، الذي من دونه يصاب بالبلل والصدأ أغلى ما في داخلي: إنها روحي.

-٤-

كافة البلايا، وكافة البشر وكل فرد بمفرده... جميعهم يقودون الإنسانية -حتى وإن كان ذلك عبر طرق متعرجة- إلى هدف واحد موضوع للناس أجمعين: إنه تجلي الجوهر الروحي أكثر فأكثر داخل كل إنسان وداخل الإنسانية بأكملها.

-٥-

(لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي، بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَهذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئًا).

«يوحنا ٦: ٣٨- ٣٩».

وهذا يعني أن أحفظه وأرعاه داخل نفسي حتى يصل إلى أقصى درجة ممكنة من الشرارة الإلهية، التي وُهِبت إياها كطفل من مربيته. وما الذي يلزمني كي أحقق ذلك؟ عدم إرضاء الشهوات، ومدح الناس والحياة الهادئة،

بل على النقيض من ذلك؛ يلزمني ضبط النفس والتواضع والعمل والنضال والحرمان والمعاناة والتعرض للاضطهاد والإذلال، وهذا ما ذُكِر كثيرًا في الأناجيل. وهذا هو الأمر الوحيد المطلوب منا، والذي يصلنا في صور مختلفة وبمقادير متعددة. ليتنا فقط نستطيع قبول ذلك كما يجب أن يكون، وبالتالي يصبح بالنسبة إلينا عملًا مبهجًا، وليس شيئًا يبعث على الضيق ويعكر صفو وجودنا الحيواني الذي نعتبره الحياة، والذي نظن أن دعمه يأتينا بالخير!

-٦-

يقول الناس: «إن كان هناك إنسان بإمكانه ألَّا يخاف من الموت وألَّا يفكر فيه، لكانت المعاناة المريعة العبثية التي لا يبررها شيء والتي يتعرض إليها كافية لتدمير أي فكرة عقلانية يمكن إضفاؤها على الحياة».

أنا مشغول بفعل الخير الذي لا شك فيه للآخرين، وفجأة أجدني قد أُصبت بمرض قد انتزعني من عملي، وأشعر بالألم والعذاب دون أن أستطيع أن أجد معنى لذلك. هناك مسمار خاطئ في القضبان، وفي هذا اليوم تحديدًا كانت هناك أمٌّ في ذلك القطار، وفي تلك العربة، ولا بد وأنها رأت أطفالها يُسحقون أمام عينيها. زلزال ينشب في لشبونة أو في فرني[١٥٦] ويدفن الأحياء تحت الأرض، ويهلك عدد كبير من البشر لا ذنب لهم في شيء. فلمَ إذنْ يعاني كل هؤلاء وآلاف غيرهم معاناة رهيبة مفزعة عبثية؟ وما الفكرة في كل ذلك؟

مثل هذه الأفكار صحيحة تمامًا لـمَن لا يعترفون بالحياة الروحية. فالحياة الإنسانية بالنسبة إليهم ليس لديها أي معنى فعلًا. ولكن الأمر هو أن حياة الناس الذين لا يعترفون بالحياة الروحية لا يمكن إلا أن تكون بلا معنى، بل وفاجعة. لذا فإنهم لا محالة سيتوصلون إلى مثل هذه النتائج من منظور عالمي مادي،

---

(١٥٦) مدينة في كازاخستان.

فمَن يفهمون حياتهم على أنها وجود مادي شخصي لا يمكنهم أن يحتملوا الحياة لدقيقة واحدة. فما من عامل يمكنه أن يعيش لدى سيده الذي وظَّفه للعمل لديه، ويعلن الأخير في كل مرة تراوده فيه الفكرة عن حقه في حرق هذا العامل حيًّا على نار هادئة، أو أن يسلخ جلده عنه حيًّا أو أن يسحب أوردته، أو باختصار يقوم بكل أنواع الفظائع في العامل الذي لديه دون أي توضيح أو إبداء أي سبب.

إن فهم الناس حقًّا الحياة بهذه الطريقة التي يتحدثون بها، أي أنها وجود مادي فقط، فلا يمكن للإنسان أن يعيش أبدًا تحت تأثير خوف واحد من كل هذه المعاناة التي لا يمكن تفسيرها والتي يراها من حوله والتي يمكن أن يتعرض لها في كل دقيقة.

ولكن الناس يعيشون ويشتكون ويبكون من المعاناة ويواصلون العيش.

ولا يمكننا أن نجد سوى تفسير واحد لهذا التناقض الغريب؛ الناس جميعًا يدركون في قرارة قلوبهم أن حياتهم ليست في الجسد، بل في الروح، وأن كل أنواع المعاناة لازمة لهم دائمًا وضرورية من أجل خير حياتهم الروحية. وعندما يتمرد الناس الذين لا يرون مغزى للحياة الإنسانية ضد المعاناة ويواصلون مع ذلك العيش، فهذا يحدث لسبب واحد فقط، وهو أنهم يؤكدون بالعقل على مادية الحياة، ولكنهم يدركون في أعماق أرواحهم أن الحياة روحية وأنه لا يمكن لأي معاناة أن تحرم الإنسان من خيره الحقيقي.

المعاناة تُعلِّم الإنسان أن يتعامل مع الحياة بعقلانية:

-١-

كل ما ندعوه شرًّا ، وكل حزن إن أدركناه فعلًا وعرفنا كم هو ضروري، لعملنا على تنقية أرواحنا. وفي هذا معنى الحياة بأكملها:

(الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ، وَلكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ. اَلْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ، وَلكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ، لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ).

«يوحنا ٦: ٢٠- ٢١».

-٢-

معنى الحياة غير المعقولة يؤدي بنا إلى إدراك ضرورة الحياة المعقولة.

-٣-

(ما إن تنجلي ظلمة الليل، وتشرق السماء، حتى تكشف المعاناة عن معنى الحياة الحقيقي).

«ثورو».

-٤-

(إن العواقب المادية لا تُسدي ضررًا للإنسان ذي الروح القوية؛ لأن الضرر هو كل ما يُشوِّه ويُضعف، كما يحدث مع الحيوان الذي يواجه العوائق أو يضعف أو يتكدر، أما الإنسان الذي يواجه ذلك بقوة الروح التي وُهِبت له، فكل عائق يقف في طريقه يضيف إليه جمالا وقوة أخلاقيين).

«ماركوس أوريليوس».

-٥-

لا يعرف الشاب غير المجرَّب ما يعرفه الكبار المجربون، ولا يعرف أن كل ما هو غير سار لنا وصعب، وما ندعوه حزنًا... كل هذا خير حقيقي، وأن كل ذلك مجرد تجربة وفحص لمدى صلابتنا التي ندركها في نفوسنا. وإن لم نكن نتمتع بالصلابة، فنحن إذنْ في حاجة إلى مثل هذه التجارب؛ لكي نتمتع بالصلابة.

-٦-

(لم أعلم شيئًا عن ألفة الأرواح البشرية فيما بينها إلا بعد أن اختبرت المعاناة. يلزمنا فقط أن نقبلها بشكل حسن، ومن ثم تصبح مفهومة لنا. ما يوضحه لنا العقل قليل، فطالما لم تفهم الأسرار المخفية وأطوار الناس المختلفة، ستفهم مَن هو المحتاج فعلًا. عظيم هو الله الذي جعلنا عاقلين، وكيف نصبح عاقلين؟ من الحزن الذي نتفاداه. إن الحزن والمعاناة هما ما يجعلانا نكتسب فتات الحكمة غير المذكورة في الكتب).

«جوجول».

-٧-

)إن منحنا الله مشيرين نعرف أنهم موثوق فيهم تمامًا، وأنهم مرسلون من الله فعلًا، لأطعناهم بلا شك طوعًا وبفرح. ونحن لدينا فعلًا هؤلاء المشيرون: إنها الحاجة وكل ظروف الحياة الصعبة).

«باسكال».

-٨-

(كل مخلوق مفيد ليس فقط لأداء كل ما كلَّفته به العناية الإلهية، بل إنه مفيد أيضًا في الوقت الذي يُرسَل فيه تحديدًا).

«ماركوس أوريليوس».

-٩-

الإنسان الذي لا يعرف الخير الذي تعود به المعاناة عليه لم يبدأ بعد في أن يعيش حياة عقلانية... أي أنه لم يبدأ في أن يعيش حياته الحقيقية.

-١٠-

إني أتضرع إلى الله كي يخلصني من المعاناة التي تعذبني. وهذه المعاناة قد أُرسِلت إليَّ من قبل الله كي تخلصني من الشر. يضرب السيد الماشية بالسوط كي يخرجها من الفناء المحترق وينقذها، بينما تتمنى الماشية ألَّا تتعرض لضرب السياط.

-١١-

ما نعتبره شرًّا، هو في معظمه خير غير مفهوم لنا بعد.

الأمراض لا تحول بيننا وبين الحياة الحقيقية، بل تعززها :

-١-

معنى الحياة أن نتحول من كل ما هو حيواني إلى كل ما هو روحي. وكي نقوم بذلك يلزمنا هذا الذي ندعوه شرًّا. فوحدها ما نطلق عليها شرورًا وأحزانًا وأمراضًا ومعاناةً هي التي يمكنها أن تعلمنا أن نُحوِّل الأنا الحيوانية لدينا إلى أخرى روحية.

ندرك جميعًا كم يبدو الناس ضعفاء وفي حالة سيئة، أولئك الذين يعيشون دائمًا في تمام الصحة والثراء، ولا يعرفون طعم الإساءة والإذلال، وكيف أن الإنسان في حاجة إلى التجارب. ومع ذلك نشكو عندما نتعرض لهذه التجارب.

-٢-

نقول إن المعاناة شر، ولكن إن لم تكن هناك معاناة لما عرف الإنسان أين تنتهي القدرات الإنسانية وأين تبدأ القدرات غير الإنسانية.

-٣-

(عندما نشعر بضعف أجسادنا، يمكننا حينها أن نكون في أوج قوة الروح).

«لوسي مالوري».

-٤-

ليس هناك مرض قد حال بين الإنسان وبين تنفيذ واجباته. إن لم تكن تستطيع خدمة الناس بالعمل، فاخدمهم بتقديم النموذج إليهم في القدرة على الاحتمال بمحبة.

-٥-

المرض يصيب كل إنسان، وعليه ألَّا يحاول أن يبرأ منه بقدر ما ينشغل بالوصول إلى أفضل طريقة تمكنه من التعايش معه.

-٦-

ثمة قصة عن إنسان قد عُوقب على خطاياه بمنعه من للموت. يمكننا أن نقول كذلك إنه إن تم عقاب إنسان بالمنع من المعاناة، فستكون العقوبة صعبة.

-٧-

ليس حسنًا أن نخفي عن المريض أنه ربما يموت من مرضه. بل على العكس... علينا أن نُذكِّره بذلك. بإخفاء ذلك عنه نحن نحرمه من النعمة التي منحها له مرضه، ألا وهي استثارة الوعي بداخله باقتراب الموت الذي من شأنه تدعيم وعيه بالحياة الروحية.

-٨-

النار تدمر وتحرق. هكذا هو الأمر مع المرض. عندما يحاول المريض أن يعيش حسنًا، فهو يقوم بذلك بصعوبة، ولكن في حالة المرض يخف كل ثقل

الإغواءات العالمية، وسريعًا ما يصبح المرء خفيفًا، بل ويفكر بهلع كيف يعرف بالتجربة أنه حالما يمر المرض، سيعاود هذا الثقل الضغط عليه بكل قوته.

-٩-

كلما كان من الأسوأ أن يصبح الإنسان ماديًا، كلما كان من الأفضل له أن يصبح روحيًا. لذلك فلا يمكن للإنسان أن يكون شريرًا. إن المادية والروحية بمثابة كفتيْ ميزان، فكلما ثقلت كفة المادية، كلما ارتفعت كفة الروحية، وكلما كانت الروح أفضل، والعكس كذلك.

-١٠-

«الشيخوخة وعودة الإنسان لطفولته في هذا السن المتقدم يدمران الوعي بالحياة» هكذا يقول الناس. أنا أتخيل بعض المشاهد من القصص المتواترة عن يوحنا الحبيب الذي فارق الشيخوخة ليعود إلى الطفولة. حسب القصص المتواترة كان يقول فحسب: «أيها الإخوة... أحبوا بعضكم بعضًا». رجل عجوز يتحرك بصعوبة، وأعينه دامعة ولا يتمتم سوى بنفس الكلمات الثلاث دائمًا: «أحبوا بعضكم بعضًا». في مثل هذا الإنسان يكون الوجود الحيواني واهنًا بعض الشيء، فقد تلاشى لصالح إدراك علاقات جديدة في هذا العالم، ووجود جديد حي، لا يمكنه أن يتواءم مع هذا الوجود المادي للإنسان.

الإنسان الذي يفهم حقيقة الحياة فعلًا ويسمع حديثًا ينتقص من قيمة الحياة مع المرض ووهن الشيخوخة، ويحزن بسبب ذلك، يشبه إنسانًا يتحرك صوب الضوء، شاعرًا بالضيق من اقتراب ظله منه بينما يقترب من النور.

إن ما ندعوه شرًا هو أخطاؤنا:

-١-

(إن حدث لنا أمر سيئ، فعادةً ما نلوم إما القدر وإما الآخرين. لكننا لا نفكر

أنه إن كان القدر أو الناس يستطيعان أن يُلحقا بنا الضرر هكذا، فهذا يعني أن شيئًا ما بداخلنا ليس على ما يرام. ذاك الذي يعيش من أجل الروح فلا أحد ولا شيء يمكنه أن يضره بشيء، ولن يجد شرًّا في الاضطهاد والإساءة والفقر والمرض).

«أبيكتيتوس».

-٢-

من الأمور المؤلمة جدًّا هي تلك المعاناة التي يتحملها إنسان يفصل نفسه عن العالم، ولا يرى خطاياه التي تسببت في المعاناة للعالم، ويعتبر نفسه بريئًا.

-٣-

الشر موجود بداخلنا فقط، وهذا هو وحده المكان الذي يمكننا أن نُخرج منه الشر.

-٤-

(كثيرًا ما يستغرق الإنسان السطحي في التفكير في البلايا التي تضغط بقوة على الجنس البشري، ويفقد الأمل في إمكانية تحسين الحياة، ويشعر بالاستياء من العناية الإلهية التي تدير العالم. وهو بهذا يسقط في خطأ كبير. فأن تكون راضيًا عن العناية الإلهية -حتى وإن كانت قد قدَّرت لنا هنا في الحياة على الأرض أصعب الطرق- أمر شديد الأهمية إلى حد كبير؛ لئلَّا تفقد رباطة جأشك في هذه الحياة المؤلمة، وبالأخص حتى لا تُحمِّل القدر الذنب بينما لا تلاحظ مطلقًا أخطاءك الشخصية والتي هي السبب الوحيد لكافة الشرور).

«كانط».

-٥-

(بائس هو ذاك الذي لا يُلقي باللوم على نفسه في شقائه، بل يلوم القدر، وبذلك يُدعِّم شعوره بالعجرفة. «كنا سنصبح صالحين ودمثين لو لم يثيروا

استياءنا. كنا سنصبح ورعين لو لم نكن مشغولين دائمًا هكذا. كنتُ لأصبح صبورًا، لو كنت أتمتع بالصحة. كنت سأكنُّ الإعجاب للعالم، لو كنت أتمتع بالشهرة والمجد».

إن لم نستطع أن نصبح فاضلين وورعين في هذا الوضع الذي نحن فيه الآن، فلن نصبح كذلك أبدًا في أي وضع.

إن الصعوبات التي نواجهها قد مُنِحت لنا من أجل أن نخفف منها ونزيلها بفضيلتنا وصلابتنا، وقد وُهِبنا ذلك الحزن؛ كي نضيء ظلمته بذلك النور الإلهي الداخلي وبالعمل الروحي، ووُهِبنا الأحزان؛ لكي يمكننا أن نتحملها بصبر وأناة، ووُهِبنا المخاطر كي نُظهر شجاعتنا، والإغواء كي ننتصر عليه بإيمانناا).

«مارتينو».

-٦-

يمكن للإنسان أن يهرب من كافة تلك المحن التي يرسلها الله له، لكن لا يمكنه أن يهرب من تلك المحن التي تتسبب فيها حياته الشريرة.

إدراك فائدة المعاناة يزيل صعوبتها بالنسبة لنا:

-١-

(ما العمل عندما يفارقنا كل شيء؟ الصحة والسعادة والعاطفة والمشاعر البكر والذاكرة والقدرة على العمل، وعندما يبدو لنا أن الشمس قد أضحت باردةً، والحياة كما لو أنها فقدت كل فتنتها؟ ما العمل عندما لا نشعر بأي أمل؟ أنخدِّر أنفسنا، أم نتحول إلى حجر لا يشعر؟ الإجابة على ذلك دائمًا واحدة: إن عشت حياة روحية، فلن تتوقف عن النمو أبدًا. فليحدث ما يحدث، فطالما أنك تشعر بهدوء الضمير وأنك تقوم بما يتطلبه منك جوهرك الروحي. كن

ما يجب عليك أن تكونه، واترك الباقي لله. وحتى إن لم يكن هناك إله لظلت الحياة الروحية المقدسة الفاضلة هي مفتاح حل اللغز لحركة الإنسانية؛ لأنها وحدها ما تمنحنا النعمة الحقيقية).

«أميل».

-٢-

ابحث في معاناتك عن معنى نموك الروحي، وستجد أن الحزن قد زال.

-٣-

اعلم فقط وآمن أن كل ما يحدث معك يقودك صوب نعمتك الروحية الحقيقية، وحينها ستواجه الأمراض والفقر والخزي، وكل ما يعتبره الناس كوارث وبلايا دون أن تشعر أنها بلايا على الإطلاق، بل كأنها أمر ضروري من أجل خيرك، كما يستقبل المزارع المطر اللازم لحقله رغم أنه يبلله، وكما يتناول المريض الدواء.

-٤-

(تذكر أن السمة المميزة للكائن العاقل هي الخضوع الطوعي لمصيره، بينما الصراع المخزي هو سمة الحيوانات).

«ماركوس أوريليوس».

-٥-

الشيء الذي يحزننا ويبدو لنا أنه يعوقنا عن مزاولة شؤوننا في الحياة هو عملنا الحقيقي في الحياة. إنك تشعر بالعذاب من الفقر والمرض والنميمة والإذلال. يلزم فقط أن تشفق على نفسك، وستشعر بالتعاسة من فرط البؤس، ولكن إن تذكرتَ فقط أن عملك الذي أنت مدعوٌّ إليه في الحياة هو تحديدًا أن تعيش على أفضل ما يكون وسط الفقر والمرض والإذلال، فستشعر بالابتهاج والثقة.

-٦-

لكلٍّ صليبُهُ... لكلٍّ نيرُهُ، ليس بمعنى الظلم والجور، بل بمعنى دور المرء في الحياة، وإن نظرنا إلى الصليب على أنه ليس جورًا بل بمعنى دورنا في الحياة، سيسهل علينا حمله. سيسهل علينا ذلك عندما نتمتع باللطف والخضوع واتضاع القلب. وسيصبح أسهل أيضًا عندما نتنصل من أنفسنا، وسيصبح أكثر سهولةً عندما نحمل هذا الصليب في كل ساعة كما علمنا المسيح، وأكثر سهولة عندما ننسى أنفسنا في العمل الروحي، كما ينسى الناس أنفسهم أثناء العمل الدنيوي. إن الصليب المرسل إلينا هو ما نحتاج إلى حمله. إن حياتنا بأكملها عبارة عن عمل. إن كان الصليب مرضًا، فلنحمله بإذعانٍ، وإن كان إساءةً من الناس، فلنقابل الشر بالخير، وإن كان إذلالًا فلنُسلِّم له، وإن كان موتًا فلنقبله بفرح.

-٧-

(كلما رفضتَ صليبك، كلما زاد ثقله عليك).

«أميل».

-٨-

أهم شيء بلا شك هو كيف يتقبل الإنسان مصيره بغض النظر عن إلى أين سيؤول به الأمر.

-٩-

(ما من شيء يثير الحزن أكثر من الخوف من الحزن!).

«جوكي»[١٥٧].

(١٥٧) هنريش جوكي (١٧٧١ - ١٨٤٨): كاتب نمساوي سويسري.

-١٠-

بدلًا من أن يسير الحصان الهائج عندما يسرجوه، يظل يعذب نفسه ويتلقى ضربات السوط على جانبيه وينهك نفسه، وفي نهاية الأمر سيسير رغمًا عنه. هكذا هو الأمر مع الإنسان الذي لا يريد تحمل الأحزان على أنها تجارب، ويعتبرها شرًّا لا ضرورة له ويظل يصارعها.

-١١-

إن كان لديك عدو واستطعت أن تتعلم بسببه حب الأعداء، فأنت بذلك تحول الشر لخير عظيم.

-١٢-

(المرض وفقدان إحدى أعضاء الجسد، وخيبة الأمل القاسية، وفقدان الممتلكات أو فقدان الأصدقاء... كل هذا يبدو للوهلة الأولى خسارةً لا تُعوَّض. ولكن الوقت سيكشف لك عن قوة مداواة عميقة وسط تلك الخسائر).

«إمرسون».

-١٣-

عندما تشعر بالتعاسة، تذكر أصدقاءك التعساء، وأن الأمر كان يمكن أن يكون أسوأ. تذكر أيضًا فيما أذنبت في الماضي، وذنوبك الحالية، والأهم من كل ذلك تذكر أن ما تسميه بليةً قد أُرسِل إليك من أجل اختبارك حتى تتعلم أن تتحمل البلايا بإذعان وحب، حتى تصبح أفضل بتحمل كل ذلك. إن حياتك كلها تتلخص في أن تحاول أن تصبح أفضل.

-١٤-

في أوقات المرض الصعبة، اعلم أن تَحمُّل كافة الأحزان ألزم لك من أي وقت آخر، ولا تكن صلاتك أن يخلصك الله منها، بل أعلِن اتكالك على الإرادة العليا. «لتكن لا إرادتي بل إرادتك. ليكن لا ما أريده أنا بل ما تريده أنت، ولا كما أريد، بل كما تريد أنت. إن عملي في مثل هذه الظروف التي أرسلتني فيها هي أن أنفذ إرادتك». في الأوقات الصعبة يلزمك قبل كل شيء أن تذكر أنه عندما تمر بوقت صعب، بل بأصعب وقت ممكن، فالفرصة سانحة أمامك -وهي فرصة لا تتكرر- كي تذعن لإرادته لا لإرادتك.

-١٥-

(كل شيء عظيم يحدث داخل الإنسان لا يتم إلا في قلب المعاناة.

علم يسوع أن هذا ما ينتظره، وتنبأ بكل شيء؛ تنبأ بكراهية أولئك الذين جاء لتدمير سلطتهم، وتنبأ بمؤمراتهم السرية والعنف الذي سيرتكبونه، وبالتغييرات السيئة التي ستطرأ على هذا الشعب الذي شفى أمراضه، وأطعمه بخبزه السماوي: أي كلمته. لقد تنبأ بالصليب والموت وهجر الجميع له، وهو الأمر المحزن أكثر من الموت. وهذه الفكرة لم تفارقه، ولكن ذلك لم يوقفه لدقيقة واحدة. إن كانت طبيعته الجسدية تنفر من هذه الكأس المرة، فإرادته أكثر قوة، وهي تقبل هذه الكأس بلا تردد، وهو في هذا يمنح لكل من يواصلون عمله، وكل مَن يشبهونه وكل مَن يعملون من أجل خلاص الناس وتحريرهم من نير الضلالات والشرور النموذج الذي يجب أن يتذكروه دائمًا. إن أراد الناس الوصول إلى تلك الأهداف التي وضعها المسيح، فعليهم أن يسلكوا نفس الطريق الذي سلكه، فبهذا وحده يمكن للناس أن يخدموا الآخرين. إن كنت تريد أن يصبح الناس أشقاءً فعلا، وأن تدعوهم لقوانين

ذات طبيعة مشتركة، وإن كنت تناضل ضد كل نوع من أنواع الظلم وانتهاك ورياء، وإن كنت تنادي بتحقيق ملكوت العدل والواجب والحقيقة والحب على الأرض، فكيف يمكن ألَّا يقاومك أولئك الذين تعتمد قوتهم على عكس كل ذلك؟ هل يمكنهم أن يتركوك تدمر هيكلهم دون أن يحاربوك، وأن تبني هيكلًا آخر، ليس من صنع البشر، لكنه هيكل أبدي يتأسس على الحقيقة؟

اطرح هذا الأمل بعيدًا عنك، فلا يمكنك أن تتشبث به إلَّا إن كنت عديم التفكير تمامًا. سوف تشرب الكأس حتى آخر قطرة. سوف يمسكونك كاللص، وسيأتون بشهود زور ضدك وسيرتفع الصراخ ضدك: «إنه مجدف!»، وسيقولون عنك في المحاكم إنك تستحق الموت. وعندما يحدث ذلك افرح، فهذا هو النذير الأخير... النذير الأخير على أنك قد قمت بالأمر الصواب فعلًا).

«لامنيه».

لا يمكن للمعاناة أن تحول دون تنفيذ إرادة الله:

-١-

لا يكون الإنسان أبدًا أكثر قربًا من الله مثلما يكون أثناء البلية. استغل ذلك؛ لئلَّا تفقد تلك الفرصة لتقترب من ذاك الذي يمنحك وحده خيرك الأبدي.

-٢-

يا له من قول مأثور جيد ذلك الذي يقول إن الله يرسل البلية لـمَن يحبه! ولذلك فإن مَن يؤمن بتلك الفكرة لا تعود البلية بالنسبة له بلية؛ بل خيرًا.

-٣-

الإنسان العاقل الذي يبلغ من العمر عتيًّا، ويشعر أنه لا يمكنه الآن أن يقوم بجزء من المائة من المجهود الجسدي الذي كان يمكنه القيام به منذ ثلاثين

عامًا، لا يحزن من ذلك إلا قليلًا، مثلما يحزن قليلًا عندما يبلغ من العمر ثلاثين عامًا ولا يلاحظ حتى إنه لم يعد يستطيع القيام بما كان يقوم به في الطفولة. إنه يعرف أمرًا واحدًا، فسواء كان في تمام الصحة أو كان مريضًا، سواء كان قويًّا أم ضعيفًا؛ فهو في خدمة الله. إنه يخدم الله، سواء إن كان يمكنه أن يرفع ١٢ بودًا[١٥٨] بيد واحدة، أو حتى إن لم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا سوى تحريك رأسه قليلًا. إنه يدرك الآن أنه كي يتمكن من خدمة جسده فإنه في حاجة إلى مزيد من الصحة والقوة، ولكن كي يخدم الله، فليس في حاجة إلى أي قوة جسدية، بل على النقيض من ذلك، فضعف الجسد يستحثه على خدمة الله.

عندما يتحول هدف الإنسان فقط من الوصول إلى الخيرات المادية إلى خدمة الآب، حينها لا يعود يشعر بالفارق بين سعادة وبلية في الحياة الدنيوية.

-٤-

فلتقل لنفسك فقط: إن إرادة الله في كل ما يحدث. وآمن أن إرادة الله صالحة دائمًا، وحينها لن تخاف شيئًا، وستتحول الحياة بأكملها بالنسبة إليك إلى خير دائم.

❊ ❊ ❊

(١٥٨) وحدة وزن روسية.

الموت

إن اعتقد إنسان أن الحياة في الجسد، فإنها تنتهي إذنْ مع موت الجسد. أما إن اعتقد أن الحياة في الروح، فلا يمكن أن تكون هناك نهاية لحياته.

حياة الإنسان لا تنتهي بموت جسده:

-١-

إن الحياة الإنسانية بأكملها، منذ لحظة الولادة وحتى الموت تشبه يومًا واحدًا في الحياة من الاستيقاظ وحتى الاستغراق ثانية في النوم.

تذكر كيف تستيقظ في الصباح بعد حلم شديد الحيوية، وكيف لا تدرك في البداية مكانك ولا أين أنت، ولا تذكر مَن ينام بجانبك ومَن يوقظك، ويبدو كما لو أن قوتك قد فارقتك. ثم تتذكر تدريجيًّا، وتبدأ في فهم مَن وأين أنت، وتتضح الأمور أمامك، وتبدأ الأفكار تراود رأسك، وتنهض وتستقر أمورك. يحدث الأمر ذاته أو ما يشبهه تمامًا مع الإنسان عندما يولد، ويدخل إلى الحياة تدريجيًّا، ثم يكتسب القوة والتعقل ويبدأ العمل.

إن الفارق الوحيد يتلخص في أن الإنسان ينام ثم يستيقظ، ويحدث كل ذلك سريعًا في صباح واحد، أما الأمر الآخر فيحدث في شهور... في أعوام.

وتشبه حياة شخص واحد حياة البشرية بأكملها. يستيقظ الإنسان ويعمل ويتحرك هنا وهناك بنشاط، ويصبح أكثر مرحًا بمرور الوقت، ويمضي الأمر حتى منتصف اليوم، ثم يبدأ شعور الإنسان بفرحة الصباح في التلاشي بوصول

الإنسان إلى منتصف اليوم. وقبالة المساء يزداد شعوره بالإنهاك ويريد أن يحظى ببعض الراحة. هكذا هو الأمر تمامًا في الحياة بأكملها.

في مرحلة الشباب يُهرع الإنسان هنا وهناك ويعيش في سعادة، ولكن في منتصف الحياة لا يعود يشعر بنفس السرور، وقبالة مرحلة الشيخوخة يشعر بالإنهاك، ويريد أن يحظى بالراحة أكثر فأكثر. وكما يأتي الليل بعد مرور النهار وينام الإنسان وتصبح مراودة الأفكار لذهنه أمرًا يعوقه عن النوم، ثم ينام ويذهب إلى مكان لا يعرفه هو شخصيًّا، هكذا هو الأمر مع الإنسان عندما يموت.

وهكذا فإن استيقاظ الإنسان هو بمثابة ولادة صغيرة، فيوم كامل من الصباح إلى المساء يشبه حياة صغيرة، والحلم موت صغير.

-٢-

نحن نعرف أنه عندما يرعد الرعد، فإن البرق يكون قد أتى بالفعل، لذا فلا يمكن للرعد أن يقتل، وعلى الرغم من ذلك فإننا نتحاشى دائمًا الصاعقة. هكذا هو الأمر أيضًا مع الموت. يبدو للإنسان الذي لا يفهم معنى الحياة أن مع الموت يموت كل شيء، وهكذا يخاف ويهرب من الموت كإنسان أحمق يختبئ من ضربة الرعد حين لا يكون في إمكان الضربة أن تصيبه فعلًا.

-٣-

إن ابتعد شخص واحد بهدوء عن ذلك المكان الذي في إمكاني رؤيته إلى مكان آخر ليس بإمكاني رؤيته فيه، وآخر مر بالمكان سريعًا، فلا يمكنني أن أعتقد أن مَن مر ببطءٍ يعيش مدة أطول من ذلك الذي مر سريعًا. أعرف فقط أمرًا واحدًا، وهو أنه سيان أن أرى إنسانًا مسرعًا أو مبطئًا، وسواء مر بالقرب من النافذة أو لا، فإن هذا وذاك كانا موجودين حتى تلك اللحظة التي رأيتهما

فيها، وسيبقيان بعدها أيضًا. هكذا هو الأمر مع حياة الناس، سواء كانت قصيرةً أو طويلةً قبل الموت.

-٤-

إن الإيمان بالخلود لا يمكن أن يُنقل من شخص لآخر، ومن المستحيل أن تجبر نفسك على الإيمان به. كي تؤمن بالخلود يلزم أن تدرك ما هو خالد في حياتك.

-٥-

الموت هو التغيير الذي يلحق بالسحابة التي تضم أرواحنا. لا يجب أن نمزج بين هذه السحابة وبين ما تغلفه.

-٦-

تذكر أنك لست ماكثًا، بل عابرًا، وأنك لست في منزلك، بل في قطار يقودك صوب الموت. تذكر أن جسدك يعيش بعض الوقت، وروح واحدة تعيش في داخلك.

-٧-

(بالرغم من أني لا أستطيع أن أثبت ذلك بوضوح، إلا أني أعرف على أي حال أن جوهرًا عاقلًا وحرًّا وغير جسدي يعيش بداخلي ولا يمكن أن يموت.

حتى وإن أخطأت في إيماني بأن الأرواح خالدة، فإني سعيد وراضٍ بخطئي، وطالما أني على قيد الحياة، فليس بإمكان إنسان واحد أن يبعدني عن هذه القناعة. هذه القناعة تمنحني الهدوء والرضا الكاملين).

«شيشرون».

الحياة الحقيقية خارج إطار الزمن، لذا فما من مستقبل لديها :

-١-

الموت هو بمثابة تدمير لتلك الأعضاء التي توحدنا بالعالم وتمنحنا فكرة عن الوقت. لذا فالسؤال عن المستقبل ليس له معنى فيما يتعلق بالموت.

-٢-

يخفي الوقت الموت بين ضفتيه. فما إن تعيش داخل إطار الوقت، حتى لا يعود بإمكانك أن توقف مروره.

-٣-

(السبب في أن فكرة الموت ليس لها ذلك الأثر الذي يجب أن تحدثه، هو أننا بطبيعتنا ككائنات نشطة لا يجب أن نفكر فيه إطلاقًا).

"كانط".

-٤-

السؤال عمَّ إن كانت هناك حياة بعد الموت أم لا؟ هو السؤال عن إن كان الوقت نتاجًا لطريقة تفكير جسدنا المحدود، أم أنه شرط ضروري لكل مخلوق؟ لا يمكن أن يكون الوقت شرطًا ضروريًا لكل مخلوق، وما يثبت ذلك أننا نعي في أنفسنا شيئًا لا يتعلق بالوقت: ألا وهو حياتنا في الحاضر. لذا فالسؤال عن إن كانت هناك حياة بعد الموت أم لا؟ هو في الواقع سؤال عن أي من الفكرتين هي الحقيقية: فكرتنا عن الوقت، أم حياتنا في الحاضر؟

-٥-

إن اعتقد إنسان أن حياته في الحاضر، فلا يمكن أن يتساءل أبدًا عن حياته في المستقبل.

لا يمكن أن يكون الموت مخيفًا للإنسان الذي يعيش حياة روحية :

-١-

يتخلص الموت بسهولة من كافة المصاعب والبلايا، حتى إن غير المؤمنين بالخلود لا بد وأنهم يتمنون الإيمان بذلك. إن المؤمنين بالخلود الذين ينتظرون حياة جديدة لا بد وأنهم يرغبون فيه بدرجة أكبر. فلماذا إذنْ لا يرغب معظم البشر في الموت؟ السبب أن معظم البشر يعيشون حياة جسدية لا روحية.

-٢-

يعتبر الإنسان البلايا والموت شرًّا عندما يعتبر أن قانون جسده؛ قانون وجوده الحيواني هو قانون الحياة. فعندما ينحدر فقط إلى درجة الحيوانية حينها يصبح الموت والبلايا أمرًا مريعًا. وهما كالفزاعة تتحركان صوبه من كافة الاتجاهات وتدفعه إلى طريق الحياة الإنسانية المفتوح أمامه الخاضع لقانون العقل والذي يتم التعبير عنه بالحب. البلايا والموت ما هما إلا انتهاك من قبل الإنسان لحياته، فإن عاش الإنسان حياة روحية تمامًا، فلن يشعر لا ببلايا ولا بالموت.

-٣-

أناس مكبلون بالأغلال. جميعهم محكوم عليهم بالموت، وفي كل يوم يقتلون بعضًا منهم أمام أعينهم. ومَن تبقى منهم لينظر مقتل الآخرين، ينتظر دوره في هلع مميت. هكذا هي الحياة بالنسبة للناس إن لم يفهموا مغزى حياتهم. إن فهم الإنسان أن روح الله تعيش بداخله، وأنه يمكنه أن يتحد بها، فلا يمكن لمثل هذا الإنسان أن يبدو الموت مريعًا، بل ولا يمكن أن يكون له موت من الأساس.

-٤-

الخوف من الموت يشبه الخوف من شبحٍ ليس له وجود.

-٥-

إني أحب حديقتي، وأحب أن أقرأ كتابًا، وأحب أن ألاطف الأطفال. بالموت سأفقد كل ذلك، لذلك فإني لا أود أن أموت، وأخاف منه أيضًا.

من الممكن أن أعتقد أن حياتي بأكملها تتألف من مثل هذه الرغبات الدنيوية والرغبة في إشباعها. إن كان الأمر كذلك، فمن المستحيل ألَّا أخاف مما يحرمني من متعة إشباع هذه الرغبات. ولكن إن تغيرت تلك الرغبات بداخلي، واستُبدِلت برغبة أخرى؛ ألا وهي أن أحقق إرادة الله، وأكرِّس نفسي له في الظرف الذي أحيا فيه الآن، وفي كافة الظروف التي يمكنني أن أكون فيها باستبدال رغباتي الجسدية بالروحية، فسيتلاشى خوفي من الموت. إن تلاشت رغباتي الدنيوية تمامًا واستُبدلت برغبة واحدة وهي أن أكرِّس نفسي لله، فلن يكون أمامي موت؛ بل حياة دائمًا.

استبدال ما هو دنيوي ووقتي بما هو أبدي هو طريق الحياة صوب الخير والنعمة.

-٦-

فناء الجسد بالنسبة للإنسان الذي يعيش بالروح، هو بمثابة تحرير له من أسر البلايا وشرط ضروري لتحقيق هذا التحرير. ولكن كيف يكون حال الإنسان الذي يعتقد أن حياته في الجسد عندما يرى أن ما يعيش به -الجسد- ينهار، وكيف ستكون معاناته وقتها؟

-٧-

يموت الحيوان دون أن يعي الموت، لذا فهو لا يعاني من الخوف. فلماذا وُهِب الإنسان إذن القدرة على رؤية نهايته المحتومة التي تنتظره، ولماذا يشعر بذلك الهلع الذي يمزق روحه أحيانًا، حتى إنه يموت من فرط هلعه من انتظار الموت؟ لا يمكنني أن أعرف لماذا يحدث ذلك، لكني أعرف الهدف من ذلك، ألا وهو أن يتحول الإنسان العاقل الواعي من الحياة الجسدية إلى الروحية. وهذا التحول لا يكتفي بتدمير الموت، ولكنه يجعل انتظار الموت شيئًا يشبه مشاعر مسافر في طريق العودة إلى منزله.

-٨-

(لا شيء مشترك بين الحياة والموت، لذلك فمن المحتمل أن يتجدد دائمًا بداخلنا ذلك الأمل غير المعقول الذي يُظلم من ضياء العقل، ويجعله يشك في معرفتنا الأكيدة بحتمية الموت. إن الحياة الجسدية تناضل من أجل مواصلة الوجود، وهي كالببغاء الذي يكرر في إحدى الحكايات الكلمات نفسها حتى وهو يختنق، فيظل يقول: «هذا... هذا لا شيء!»).

«أميل».

-٩-

الجسد يشبه أسوارًا تحد من قدرة الروح وتحرمها من حريتها. والروح لا تكف عن محاولتها تخطي هذه الأسوار، وحياة الإنسان العاقل بأكملها تتألف من محاولة تخطي هذه الأسوار من أجل تحرير الروح من أسر الجسد. والموت يحرر الروح تمامًا، لذا فهو ليس فقط أمرًا غير مخيف، بل إنه يسعد الإنسان أيضًا الذي يعيش حياة حقيقية.

-١٠-

الإنسان -مثله مثل الحيوان- يقاوم الموت، ولكن بفضل العقل، فإنه يمكنه أن يستبدل هذه المقاومة ليس فقط بالخضوع، بل وبالقبول أيضًا.

-١١-

إن كان الموت مريعًا، فالسبب في ذلك ليس فيه، بل فينا. كلما أصبح الإنسان في حال أفضل، كلما قلَّ خوفه من الموت، فما من موت للأتقياء.

-١٢-

أنت تخشى الموت، ولكن فكِّر كيف يمكن أن يكون الأمر معك إن عشت أبدًا مثلما تعيش الآن؟

-١٣-

كما أن الرغبة في الموت أمر غير منطقي، فكذلك الخوف منه.

-١٤-

عندما ينجو الإنسان من مرض مميت، ويعيش ثانية، فهذا يشبه العربة التي لا بد وأن تعبر مستنقعًا ما، فيجذبونها إلى الخلف إلى هذه الناحية، لا إلى تلك. لا يمكن الفرار من المستنقع.

-١٥-

تشبه الحياة العاقلة إنسانًا يحمل مصباحه لكي ينير الطريق أمامه. ولا يصل مثل هذا الإنسان إلى نهاية النقطة المضيئة أمامه أبدًا، فرقعة الضوء تسير أمامه دائمًا. هكذا هي الحياة العاقلة، وما من موت لمثل هذه الحياة وحدها؛ لأن المصباح لا يتوقف عن الإضاءة حتى الدقيقة الأخيرة، وتسير من خلفه بهدوء مهما امتدت الحياة.

(من الممكن أن يصبح الموت أمرًا مقبولًا من صاحبه، ولذلك يصبح فعلًا أخلاقيًّا. يموت الحيوان، بينما يمنح الإنسان ذاته لله).

«أميل».

على الإنسان أن يعيش بما هو خالد فيه:

-١-

يعيش الابن دائمًا في منزل أبيه، بينما العامل في المنزل يعيش لمدة معينة. لذا فلن يعيش الابن كالعامل، بل سيهتم بمنزل أبيه، ولن يفكر كالعامل في الراتب الذي سيحصل عليه فقط. إن آمن الإنسان أن حياته لن تنتهي بالموت، فسوف يعيش كالابن في منزل أبيه. أما إن كانت الحياة محدودة بحدود هذا العالم فقط، فسيصبح كالعامل، وسيحاول أن يستغل كل ما يمكنه استغلاله في تلك الحياة.

لذا فعلى كل إنسان قبل كل شيء أن يحسم الأمر: هل هو ابن لصاحب المنزل أم عامل يعمل لديه؟ هل باندثار الجسد يموت أم لا؟ عندما يدرك الإنسان أنه مثلما يوجد فيه ما هو زائل، فهناك ما هو خالد، فقطعًا سيهتم في هذه الحياة بما هو خالد أكثر مما هو زائل، ولن يعيش كعامل لدى سيده، بل كابن له.

-٢-

يمكن الإيمان بالحياة الأخرى في حالة واحدة فقط، وهي أن تؤسس بداخلك علاقة جديدة بالعالم تتلاءم مع هذه الحياة.

-٣-

(إن السؤال عن إن كانت حياتنا ستنتهي بموت الجسد أم لا؟ هو أهم مسألة، ومن المستحيل عدم التفكير فيها. حسبما كنا نؤمن بالخلود أو لا، ستتضح لنا مدى عقلانية تصرفاتنا من عبثيتها. لذا فعلينا أن نصب الاهتمام الأكبر على حل هذه القضية، وهي هل بموت الجسد نموت حقًّا أم لا؟ وإن لم نكن بأكملنا خالدين فما الخالد فينا بالضبط؟ وعندما ندرك أن هناك بداخلنا ما هو زائل، وما هو أبدي، فلا بد وأن اهتمامنا الأكبر في هذه الحياة سينصب على ما هو خالد.

الصوت الذي يهمس بداخلنا قائلًا إننا خالدون، هو صوت الله الحي بداخلنا).

«باسكال».

-٤-

(تعلمنا التجربة أن كثيرًا من الناس المؤمنين بالحياة بعد الموت وعلى قناعة بوجودها، ومع ذلك فهم منغمسون في حياة الرذيلة ويقومون بأفعال منحطة، ويبتكرون كافة الطرق التي يحاولون بها التخلص من عواقب أفعالهم في المستقبل. ومع ذلك فمن غير المرجح أن يكون هناك شخص أخلاقي واحد على الأرض يؤمن بأن بالموت الجسدي سينتهي كل شيء، ولم ترتفع أفكاره إلى التعلق بآمال الحياة الأخرى. لذلك يبدو لي أن الأكثر ملائمة للطبيعة البشرية وطهارة الأخلاق هو تأسيس الإيمان بالحياة الأخرى على أساس من المشاعر النبيلة، بدلًا من تأسيس السلوكيات النبيلة على أساس الأمل بالحياة الأخرى).

«كانط».

-٥-

(شيءٌ واحدٌ نعلمه يقينًا، ألا وهو أننا سنموت. إنه كالطائر الذي يطير في غرفة حياة الإنسان. أتينا من مكان مجهول، وسنرحل صوب مكان مجهول. ظلمات مريعة من خلفنا وظلال كثيفة من أمامنا. فما أهمية الأمر عندما يحين وقتنا ونكون قد أكلنا طعامًا شهيًّا أو لم نأكل، ارتدينا ثيابًا فاخرة أو لم نرتدِ، تركنا ثروات ضخمة من ورائنا أو لم نترك شيئًا، جنينا المجد أم الازدراء، اعتبرونا مثقفين أو جهلة. إن قارنا كل ذلك بالطريقة التي استخدمنا بها الموهبة التي منحنا إياها السيد الرب؟!

ما القيمة التي سنجنيها عندما تضعف أبصارنا وتخفت أسماعنا؟ في مثل هذه الساعة شيء واحد يمكنه أن يجعلنا هادئين مطمئنين، ألا وهو ألَّا نتوقف عن حماية الموهبة الروحية التي وُهِبنا إياها، بل ونتعهدها بالرعاية حتى تنمو إلى الدرجة التي لا تعود فيها إبادة الجسد أمرًا مريعًا بالنسبة إلينا).

«هنري جورج».

-٦-

(من وصايا قيصر مكسيكي:

«لكل شيء على الأرض حدوده، ولكن أكثر الناس قوةً وسعادةً يسقطون في فخ قوتهم وسعادتهم ويسقطون في الغبار. إن الأرض كلها تشبه ضريحًا كبيرًا، وما من شيءٍ على سطحها إلا ويواريه التراب ويُدفن تحت الأرض. تجري المياه والأنهار والجداول صوب غايتها، ولا تعود إلى منبعها الجميل. جميعها يُسرع إلى الأمام، حتى يدفن نفسه في أعماق المحيط اللا نهائي./ما كان في الأمس لم يعد كائنًا، وما هو كائن الآن لن يصبح غدًا. المقابر مليئة ببقايا أولئك الذين كانوا يتمتعون بالحيوية يومًا...

مَن كانوا قياصرةً حكموا شعوبًا وترأسوا الحشود والقوات العسكرية وغزوا مدنًا جديدةً وطلبوا من الآخرين الخضوع لهم وامتلؤوا بالخيلاء وسكروا من فتنة السلطة.

ولكن المجد قد زال كالدخان الأسود الذي يخرج من بركان، ولم يترك خلفة شيئًا سوى ذكرى على صفحات كتبها مؤرخ ما.

واحسرتاه! كانوا عظماء وحكماء وبواسل ورائعين، وأين هم الآن؟ جميعهم قد واراهم الثرى، وما أصابهم يصيبنا وسيصيب مَن بعدنا.

ولكن تشجعوا... تشجعوا أيها القادة المبجلون والأصدقاء الحقيقيون... سوف نمضي جميعًا صوب تلك السماء حيث كل شيء أبدي، وحيث ما من فساد ولا تحلل.

الظلمة مهد الشمس، والنجم اللامع تلزمه حلكة الليل).

«تيتسكوكا نيزجوال كويوتل- حوالي ١٤٦٠ ق.م».

-٧-

(لا مناص من الموت لكل مَن وُلد، كما أنه لا مناص من الولادة لكل مَن مات! لذا فلا داعي للتذمر ممَّا لا مناص منه. لا نعرف شيئًا عن الحالة السابقة للكائنات، أما الحالة الكائنة الآن واضحة، ولا يمكننا أن نعرف عن الحالة المستقبلية، فلمَ إذنْ نهتم ونقلق؟ البعض ينظرون إلى الروح كأعجوبة، ويتحدث البعض ويسمعون عنها كأعجوبة، ولكن لا أحد يعرف عنها شيئًا.

إن باب السماء مفتوح لك بقدر ما تحتاج. تحرر من الاهتمام والقلق، ووجِّه روحك إلى ما هو روحي. فلتسترشد بأفعالك لا بالأحداث. لا تكن من أولئك الذين تهدف أفعالهم إلى الجزاء. كن متنبهًا وقم بواجبك ولا تفكر

في النتائج بحيث يكون الأمر سواء لك، سواء انتهى بما تود أو انتهى على غير ما ترغب).

«من البهاغافاد جيتا»[159].

-٨-

تود أن تتحرر من الخطايا، والحياة تضعف جسدك، وخوفك يساعدها. وتريد على نحو غير واعٍ أن تفارق هذا وتمضي إلى الأمام... تود أن تفارق الجسد وتترك حالة الانفصال. إن كانت حياتك تهدف إلى التحرر من الخطايا والخوف وكل أنواع الشدائد الجسدية، فالموت خيرٌ لك.

إن ضعف جسدك وهرم ومات، فإنك تقوى وتنمو وتولد بالروح.

-٩-

نحن هنا نشبه ركابًا على سفينة ضخمة، لا نعرف شيئًا عن القائمة التي لدى قبطانها، ولا أين أو متى سنغادر السفينة. وطالما لا نزال على متن السفينة، فليس بإمكاننا فعل شيء آخر إلا تنفيذ قانون السفينة، ومحاولة قضاء الوقت في سلام ووئام مع رفاقنا.

-١٠-

(هل حقًا تخشى التغيير؟ لا شيء يحدث دون تغيير. لا يمكنك تسخين الماء دون إحداث تغيير في حالة الخشب. لا يمكنك أن تتناول غذاءك دون إحداث بعض التغيير في حالة الطعام. إن الحياة الدنيوية كلها بمثابة تغيير. عليك أن تتفهم أن التغيير الذي ينتظرك له نفس المعنى، فهو ضروري ومن

---

(١٥٩) يُعد الكتاب الهندي المقدس في الديانة الهندوسية، وهو الحوار الذي جرى بين السيد أو الرب المبارك كريشنا وأرجونا عند بداية المعركة، وهو عبارة عن ٧٠٠ بيت أو آية، تقع في ثمانية عشر فصلًا، يعرف باسم البهاغافاد غيتا، ويعود تاريخه إلى قرابة الألف الثالث قبل الميلاد.

طبيعة الأشياء. علينا ألَّا نهتم سوى بأمر واحد؛ ألا وهو كيف لا نقوم بأمر ما يناقض الطبيعة الإنسانية الحقيقية، فعلينا أن نتصرف في كل شيء بالطريقة التي تشير الطبيعة البشرية الحقيقية إلينا بها، وكذلك في الوقت الذي تمليه علينا).

«ماركوس أوريليوس».

-١١-

(إنه عالم مريع إن لم تكن البلية فيه تتحول إلى خير. سيكون نوعًا من التدبير الشرير المعد فقط لتعذيب الناس روحيًّا وجسديًّا. إن كان الأمر كذلك، فهذا العالم لا يمنحنا إذن الشر من خير مستقبلي، لكنه عالم غير أخلاقي غير مكترث وبلا هدف بشكل لا يمكن تصوره! كما لو أنه يُسقط الناس في الشرك عمدًا حتى تزداد معاناتهم. إنه يضربنا منذ الولادة ويخلط الفرح بالحزن، ويجعل من الموت مصدرًا للهلع الذي يتوعدنا. وبالطبع إن لم يكن هناك إله وما من خلود، فمن المعقول تمامًا أن يشعر الناس بالتقزز من الحياة، ويُستثار هذا التقزز في داخلهم من النظام القائم، أو بالأحرى من الفوضى الأخلاقية المريعة كما ينبغي أن نطلق عليها.

ولكن إن كان الله موجودًا، وكذلك الأبدية فكل هذا يتغير. سوف نستعيد رؤية الخير في الشر، والضوء في الظلام وسيطرد الأمل اليأس.

أي من الافتراضين أكثر احتمالًا؟ هل على المخلوقات العاقلة أن تلعن النظام القائم في العالم، بينما المخرج أمامها لحل كافة تناقضاتها؟ عليهم أن يلعنوا أنفسهم واليوم الذي ولدوا فيه، إن لم يكن هناك إله ولا حياة أبدية. أما إن كان الأمر على النقيض من ذلك، فالحياة نفسها تصبح هبة، ويصبح العالم

مكانًا للكمال الأخلاقي وتنامي السعادة والقداسة اللانهائية).

«إرازموس»[(١٦٠)].

-١٢-

يقول باسكال: إن رأينا أنفسنا دائمًا في نفس الموقف في الحلم، وفي اليقظة رأينا أنفسنا في أوضاع مختلفة، لاعتبرنا الحلم واقعًا، والواقع حلمًا. وهذا غير صحيح تمامًا.

إن الواقع يتميز عن الحلم في أننا في الحياة الحقيقية نحوز القدرة على التصرف طبقًا لمتطلبات قناعاتنا الأخلاقية، أما في الحلم فكثيرًا ما نقوم بأفعال مقززة غير أخلاقية لا تتناسب مع قناعاتنا، ولا يمكننا أن نقوم بها حقيقة. لذا فعلينا أن نقول إننا إن لم نعمل في الحياة على تلبية المتطلبات الأخلاقية أكثر من الحلم، لاعتبرنا الحلم حياة حقيقية، ولم تساورنا أبدًا الشكوك في أنه ليس حياة حقيقية. والآن فحياتنا بأكملها منذ لحظة الميلاد، وحتى الموت ليست حلمًا نعتبره حقيقة، ونحن لا تساورنا الشكوك في حقيقة الواقع لسبب واحد؛ ألا وهو أننا لا نعرف حياة يمكن لحريتنا فيها أن تنفذ المتطلبات الأخلاقية لأرواحنا أكثر من تلك الحياة التي نحياها الآن.

-١٣-

(إن كانت هذه اللحظة القصيرة جدًّا هي حياتك بأكملها، فافعل فيها كل ما يمكنه أن تفعله).

«سعيد بن حامد».

---

(١٦٠) فيلسوف هولندي، من رواد الحركة الإنسانية في أوربا، ومن الخدمات التي أسداها للتعليم -علاوةً على نشره الكتب التربوية- اتصاله المباشر بالطلبة والمراسلات الشخصية، وقد تناول في مؤلفاته معظم مظاهر التربية وقضاياها الهامة مثل الطريقة والمحتوى.

-١٤-

«كيف يمكننا أن نعيش ونحن لا ندري ما الذي في انتظارنا؟»، هكذا يقول الناس. في الوقت الذي تعيش فيه ولا تفكر فيما ينتظرك، فحياتك الحقيقية لا تبدأ إلا عندما تبدأ في إظهار الحب الذي بداخلك.

-١٥-

كثيرًا ما يقولون: «لم أعد بحاجة إلى شيء. لقد حان وقت موتي». كل ما لم نعد بحاجة إليه لأن موعد الموت قد حان لم نكن في حاجة إليه أبدًا. وهناك أمر واحد هو ما نحن في حاجة إليه فعلًا طوال الوقت، وكلما اقترب الموت، كلما ازداد حاجتنا إليه: إنه عمل الروح... إنه العمل على تهذيب الروح.

-١٦-

الحب لا يزيح الخوف فقط، بل مجرد التفكير فيه أيضًا.

-١٧-

قالت إحدى السيدات الطاعنات في السن لابنتها وهي على فراش الموت قبل أن تفارق الحياة بعدة ساعات إنها سعيدة؛ لأنها ستموت صيفًا. وعندما سألتها ابنتها: «لماذا؟»، أجابت العجوز بأنها سعيدة؛ لأنه في الشتاء يصعب الحفر من أجل مواراة الجثمان، ولكن الأمر في الصيف سهل. ماتت العجوز في سهولة ويسر؛ لأنها حتى اللحظة الأخيرة لم تكن تفكر في نفسها، بل في الآخرين.

-١٨-

قم بأعمال الحب، ولن تلقى موتًا.

-١٩-

مهما فعلتَ، كن مستعدًّا دائمًا للتخلي عمَّا تفعله. يجب أن تضع في حسبانك أن كل شيء في هذه الحياة زائل، ولا بد أن تستسلم لهذه الحقيقة. لا تقمْ في النهاية سوى بالشيء الصواب الذي يجب أن تقوم به.

هذا ما يعلمنا إياه انتظار الموت.

-٢٠-

(عندما ظهرتَ في هذا العالم، بكيتَ، وفرح الجميع. افعل الشيء ذاته بحيث عندما يحين موعد مغادرتك للعالم يبكي الجميع، بينما تفرح أنت).

«حكمة هندية».

تَذكُّر الموت من شأنه أن يدعم الحياة الروحية دائمًا:

-١-

منذ تلك اللحظة التي بدأ فيها البشر في التفكير، وقد عرفوا أنه ما من شيء من شأنه أن يعزز الحياة الأخلاقية لدى الناس مثل تذكر الموت الجسدي.

كذبًا يضع الطب هدفًا أمام عينيه يتمثل في إنقاذ حياة الناس من الموت، ويجعلهم يأملون في التخلص من الموت الجسدي، ويمتنعون عن التفكير فيه، مما يحرمهم من الحافز الرئيس للحياة الأخلاقية.

-٢-

كي تتمكن من إجبار نفسك على السلوك حسنًا، فكِّر كثيرًا في أنك ستموت قريبًا لا محالة. تخيل فقط أنك في الليلة الأخيرة قبل الموت، ويقينًا لن تراوغ، ولن تخدع، ولن تكذب، ولن تدين، ولن تسب، ولن تتخابث، ولن تسلب أحدًا.

في عشية الموت يمكنك فقط أن تقوم بأبسط أنوع الأفعال الخيِّرة من قبيل أن تساعد إنسانًا آخر وأن تواسيه أو تقدم له فعل محبة. وهذه الأفعال دائمًا هي أكثر ما نحتاج إليه وأكثر ما يضفي البهجة على نفوسنا.

ولذلك فمن الحسن دائمًا أن نفكر في الموت.

-٣-

عندما يدرك الناس أن الموت قد أتاهم، فإنهم يصلون ويتوبون عن خطاياهم؛ ليكونوا مستعدين بطهارة روح أن يلاقوا ربهم. ولكننا نموت في كل يوم لبعض الوقت[١٦١]، بل ومعرضون للموت النهائي. لذا فليس علينا أن ننتظر ساعة الموت، بل علينا أن نكون مستعدين في كل دقيقة. والاستعداد للموت يعني أن نعيش حسنًا. لذا فإن تذكرو الناسُ الموتَ دائمًا كي يكونوا مستعدين طوال الوقت، فسيعيشون حياة صالحة.

-٤-

لا شيء أكثر يقينًا من أن الموت سيأتي إلى جميع البشر. الموت أكثر يقينًا من يوم الغد، ومن حلول يوم بعد الغد، ومن حلول الشتاء بعد الصيف، فلماذا نستعد للغد ولليل وللشتاء ولا نستعد للموت؟ علينا أن نستعد للموت، ولا شيء يجعلنا نستعد له سوى الحياة الصالحة. كلما تزداد حياتنا صلاحًا، كلما يقل خوفنا من الموت، وكلما يأتينا الموت بيسر وسهولة.

لا موت للأتقياء.

-٥-

(كما سيأتيك الموت سريعًا! وطالما لا تستطيع التحرر من الرياء

(١٦١) يقصد النوم كما قد ذكر سابقًا.

والشهوات، فلا يمكنك أن تتوقف عن التفكير في تلك الفكرة الخاطئة التي تعتقد بموجبها أن الدنيا المادية التي يمكنها أن تضر بشخص لا تستطيع أن تفعل خيرًا مع الجميع).

«ماركوس أوريليوس».

-٦-

إن راودتك الشكوك ولم تعرف كيف يجب أن تتصرف، فصوِّر لنفسك أنك ستموت في هذا المساء، وستنجلي كل الشكوك، وستعرف ماذا عليك أن تفعل وما هي رغباتك الشخصية.

-٧-

الحياة في ضوء الموت تصبح بأكملها شيئًا يبعث على الفرحة والسرور، وأمرًا مبهجًا حقًا. في ضوء الموت لا يمكننا ألا نقوم بذلك العمل المعيَّن لنا في هذه الحياة، لأنه في ضوء الموت يستحيل أن نقوم بفعل آخر بمثابرة. وعندما تعمل تصبح الحياة مبهجة، ولا تشعر بهذا الخوف من الموت، ذلك الشعور الذي يُسمِّم حياة البشر الذين يعيشون بعيدًا عن الوعي بالموت.

-٨-

(عِش كما لو أنك تودع الحياة الآن، كما لو أن الوقت المتبقي لك هبة غير منتظرة).

«ماركوس أوريليوس».

-٩-

كن مستعدًّا دائمًا، واعمل كما لو أنك ستعيش أبدًا، وعامل الناس كما لو أنك ستموت حالًا.

-١٠-

الوعي باقتراب الموت يعلم الناس أن يتمكنوا من إنهاء شؤونهم. ومن جميع الأفعال. ثمَّ فعل واحد لا بد من إنهائه تمامًا: إنه فعل حب في الوقت الحاضر.

-١٢-

الحياة مع نسيان الموت، والحياة مع الوعي باقتراب الموت في كل دقيقة هما حالتان متناقضتان تمامًا. الأولى قريبة من الحالة الحيوانية، والأخرى من الإلهية.

-١٣-

كي يعيش الإنسان حياةً غير مُعذَّبة عليه أن يأمل في الفرح دائمًا. وما الذي يمكن أن يعد الإنسان بالفرح عندما يكون خائفًا دومًا من الموت؟ كيف يكون هذا؟ هذا لا يمكن أن يحدث إلَّا عندما تتحول عن الاعتقاد في حياة البركات المادية إلى الروحية، لا أن تأمل في أن تصبح أكثر ثراءً وعلمًا وجلالًا، بل في أن تصبح أكثر فأكثر فضيلةً، وتزداد محبتك أكثر فأكثر، وأن تتحرر أكثر فأكثر من سلطان الجسد، وحينها لن تصيبك الشيخوخة، ولن يصبح الموت مصدرًا للخوف والعذاب، بل أكثر ما تريد.

سكرات الموت:

-١-

إن ما ندعوه موتًا هو الزوال التام لحياة الساعات والدقائق الأخيرة وسكرات الموت. أولًا: هدم الحياة لا يعتمد على إرادتنا. ثانيًا: ما يقع داخل نطاق إرادتنا هو هل نعيش حياة صالحة أو طالحة. علينا أن نحاول أن نموت بصلاح، فهذا أمر ضروري لـمَن سيبقى.

-٢-

في لحظات الموت تتوهج الشمعة التي قرأ الإنسان تحت ضوئها كتابًا مفعمًا بالقلق والخداع والحزن والشر، ويصبح الضوء أكثر وضوحًا عن ذي قبل... ذلك الضوء الذي يضيء له كل ما كان قابعًا في الظلام من قبل... كل ما يتصدع ويكفهر وينطفئ.

-٣-

بصعوبة يفهم مَن يموت كل ما هو حي، ولكنه يشعر بأنه لا يفهم كل ما هو حي ليس بسبب أن قواه قد خارت؛ بل لأنه أصبح يفهم شيئًا آخر، لا يفهمه الأحياء وليس بإمكانهم أن يفهموه، وقد استولى عليه تمامًا.

-٤-

عادة ما يعتقد الناس أن حياة الشيوخ ليست مهمةً، وأنهم فقط ينتظرون موعد رحيلهم. وهذا غير حقيقي. في أعماق الشيخوخة تسري أغلى حياة وأكثرها ضرورة للمرء وللآخرين. إن قيمة الحياة تتناسب عكسيًا مع مربع البعد عن الموت. حسنًا لو كان الشيوخ والمحيطون بهم قد فهموا ذلك، لكان لآخر دقيقة من سكرات الموت قيمة خاصة جدًا.

-٥-

(قبل أن أصل إلى سن الشيخوخة، حاولت أن أعيش صالحًا، وفي الشيخوخة أحاول أن أموت صالحًا، وكي يحدث ذلك لا بد وأن أموت طوعًا).

«سينيكا».

-٦-

هل أخشى الموت؟ يبدو أني لا لست كذلك، ولكن مع اقترابه والتفكير فيه أشعر فقط بالاضطراب، مثل ما يشعر به مسافر إلى مكان ما حيث سيسقط

قطاره من نقطة عالية إلى أعماق البحر، أو يرتفع إلى ارتفاع ضخم في منطاد. الإنسان الذي يموت يعرف ألَّا شيئًا مميزًا سيحدث معه على نحو الخصوص، وأن هذا ما يحدث مع ملايين المخلوقات، وأنه يُبدِّل فقط طريقة السفر، لكن لا يمكنه ألا يشعر بالاضطراب وهو مسافر إلى ذلك المكان الذي سيحدث فيه مثل هذا التغيير.

-٧-

كل شيء في الحياة يبدو بسيطًا جدًّا.. كل شيء يبدو متصلًا داخل نفس النظام الذي يربط بيننا جميعًا. ويبدو لنا الموت شيئًا خاصًّا جدًّا يزيل بكل بساطة ووضوح تصورنا عن الحياة. ولذلك يحاول معظم الناس ألَّا يفكروا فيه، وهذا خطأ كبير. فالأمر على النقيض من ذلك، فمن الضروري جدًّا أن نُخضع الحياة للموت، حتى تكتسب الحياة جزءًا من جلال وغموض الموت، ويكتسب الموت جزءًا من وضوح وبساطة الحياة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

ما بعد الموت

يسألون: ماذا بعد الموت؟ وما من إجابة على هذا السؤال سوى أجابة واحدة فقط: الجسد يتعفن ويصبح ترابًا... هذا ما نعرفه جيدًا، أما ما يحدث بعد ذلك مع ما نطلق عليه «الروح» فلا يمكن أن نقول عنه شيئًا سوى أن سؤال «ماذا بعد؟» يتعلق بالزمن، والروح خارج الزمن. الروح لم تكن ولن تكون... إنها كائنة فقط. ودونها لما كان شيئًا.

الموت الجسدي ليس نهاية الحياة، بل مجرد انتقال:

-١-

عندما نموت، فلا بد وأن شيئًا من الاثنين يحدث معنا: إما أننا ننتقل إلى كيان مخلوق آخر منفصل، أو أننا سنتوقف عن كوننا مخلوقات منفصلة، وسنتحد بالله. وسواء كان الأمر الأول أو الثاني فما من شيء مخيف في كليهما.

-٢-

الموت هو تغيير في حالة جسدنا... إنه التغيير الأكبر والأخير. إن التغيرات في جسدنا لا تتوقف. كنا قطعًا عارية من اللحم، ثم أصبحنا أطفالًا ذوي صدور، ثم نما لنا بعض الشَّعر وبعض الأسنان، ثم سقطت الأسنان ونمت أخرى بدلًا منها، ثم بدأت لحيتنا في النمو، ثم بدأنا نشيب ونفقد شعورنا، وفي كل هذه التغييرات لم نشعر بالخوف.

فلماذا إذنْ نخاف ذلك التغيير الأخير؟ لمَ لمْ يحكِ لنا أحدٌ عمَّا سيحدث

معنا بعد هذا التغيير؟ ولكن على أي حال لن يقول أحد عن إنسان غادرنا لم يكتب إلينا من هناك أنه ليس هناك، أو أن الأمور ليست على ما يرام معه، بل سيقول عنه فقط أننا لم تصلنا أخبار منه. هكذا هو الأمر أيضًا مع الموتى: نحن نعرف أنهم لم يعودوا بيننا، ولكن ليس لدينا أي أساس يجعلنا نعتقد أنهم قد تلاشوا، أو أن الأمر قد أصبح أسوأ معهم هناك بعد أن غادرونا. لا يمكننا أيضًا أن نعرف ماذا سيحدث معنا بعد الموت، مثلما لم نعرف ماذا حدث معنا قبل هذه الحياة، وهذا يشير فقط إلى أننا لم نُوهبْ أن نعرف ذلك؛ لأن معرفة مثل هذه الأمور غير لازمة لنا. نحن نعرف شيئًا واحدًا فقط، ألا وهو أن حياتنا ليست في تغيرات الجسد، بل فيما يحيا داخل هذا الجسد: في الروح. ولا يمكن أن يكون هناك ماضٍ أو مستقبل للروح؛ لأنها كائنة فقط.

-٣-

(أمر من الاثنين: إما أن الموت هو دمار وتلاشٍ للوعي نهائيًا، أو أنه -وفقًا للتقاليد- انتقال وهجرة للروح من مكان لآخر. إن كان الموت بمثابة تلاشٍ تام للوعي يشبه نومًا عميقًا بلا أحلام، فهو بلا شكٍّ نعمة، فإن تذكر الجميع ليلةً قد مرت عليهم دون أحلام وقارنوها بالليالي الأخرى والأيام المليئة بكافة أنواع المخاوف والهلع والرغبات غير المتحققة التي اختبروها في أثناء صحوهم، فأنا على يقين كامل بأن الجميع سيقرون بأن الليالي التي مرت عليهم دون أحلام هي الأفضل. لذا فإن كان الموت بمثابة حلم، فأنا سأعتبره نعمة على أقل تقدير. أما إن كان الموت بمثابة انتقال من هذا العالم إلى آخر، وإن كان حقًّا ما قاله كافة أسلافنا من الحكماء والأتقياء، أفلن يكون الموت إذنْ خيرًا أعظم لنا من الحياة هنا مع هذه المخلوقات؟ كنت أود لو أموت لا مرة واحدة، بل مئة مرة لأصل إلى مثل تلك المرحلة.

وهكذا فأنا أعتقد أنه لا يتوجب على أعضاء هيئة المحكمة ولا على الناس

أن يخشوا الموت، وأن يذكروا أمرًا واحدًا: ما من شر في الحياة أو في الموت للإنسان التقي).

«من حديث سقراط أثناء المحاكمة».

-٤-

مَن يرى معنى حياته في التحقق الروحي، لا يمكنه إلَّا أن يؤمن بأن الموت هو تمام الكمال، وما يكتمل لا يمكنه أن يزول، بل يمكنه أن يتغير فحسب.

-٥-

إن الموت بمثابة توقف لحالة الوعي بالحياة التي أختبرها الآن. وهذا الوعي يتوقف كما أرى في الموتى، ولكن ماذا يحدث مع الوعي الذي كان لديهم؟ لا أعرف ذلك ولا يمكنني أن أعرف.

-٦-

(إن كان الناس بعد الثلاثين يخشون الموت ويودون أن يعيشوا مدة أطول، فالموت بالنسبة لهم بلية من البلايا، ولكن أليس الأمر سواء أن تموت عند الثلاثين أو عند الثلاثمائة؟ هل يشعر المحكوم عليهم بالموت بفرحة كبيرة عندما يُنفَّذ الحكم على رفاقهم بعد ثلاثة أيام، بينما يتبقى لهم ثلاثون يومًا؟

الحياة التي لا بد وأن تنتهي بالموت هي موت).

«سكوفورودا».

-٧-

(يشعر كل إنسان أنه لا شيء في لحظة معينة من حياة شخص آخر. ومن هنا يقينه بأن الموت يمكنه أن يضع نهاية لحياته، ولكن لا يمكن أن يضع حدًّا لوجوده).

«شوبنهاور».

-٨-

لا يستطيع الشيوخ تذكر ما حدث حديثًا، فكما لو أن الذاكرة هي ما يربط ما يحدث في الزمن لأنا واحدة. وكل شيخ لديه مثل هذه الأنا السالفة، وقد انتهت وبدأت أنا جديدة.

-٩-

كلما ازداد عمق وعيك بحياتك، كلما قلَّ اعتقادك في زوالها بالموت.

-١٠-

(إني لا أؤمن بأي من الأديان الموجودة، لذا فلا يمكنني أن أتبع كالأعمى تقاليد أو تأثيرات التربية. ولكني على امتداد حياتي بأكملها فكرت كثيرًا بعمق بقدر ما أستطيع في قانون حياتنا. بحثت كثيرًا في تاريخ البشرية وفي ذهني، وقد توصلت إلى قناعة يقينية بأنه لا وجود للموت، وأن الحياة لا يمكنها أَلَّا تكون أبدية، وأن التحقق غير المحدود هو قانون الحياة، وأن كل قدرة وكل فكرة وكل سعي فيَّ لا بد وأن يكون له مسار تطوره العملي الخاص به، وأننا نحوز أفكارًا ومساعيَ تتجاوز كثيرًا إمكانيات حياتنا الأرضية، وأن هذا الشيء نفسه الذي نحوزه لا يمكننا أن نجد له أصلًا ومنبعًا في مشاعرنا، وهذا يجعلنا نستطيع أن نثبت أن هذه الأفكار والمساعي قد أتتنا من خارج الأرض، وأنها لا يمكنها أن تتحقق إلا خارجها، وأَلَّا شيء يفنى على هذه الأرض سوى المظهر الخارجي منه فقط، وأننا عندما نعتقد أننا نموت لأن أجسادنا فقط تموت يشبه أن نعتقد أن العامل قد مات لأن أداته قد تآكلت أو فسدت).

«جوزيبي مادزيني».

-١١-

(إن كانت آمالنا في الخلود محض خداع، فمن الواضح مَن هو المخدوع

حقًا. ليست تلك الأرواح الدنيئة المعتمة التي لم تقترب أبدًا من تلك الفكرة العظيمة... ليسوا هؤلاء البشر البلداء الطائشين الذين رضوا بنوم بليد في هذه الحياة، وبنوم مظلم في المستقبل... ليسوا أولئك الأنانيين منعدمي الضمير ذوي الأفكار الضحلة، والذين ليست لديهم سوى مقدرة بسيطة جدًّا على الحب... ليسوا أولئك الناس. إنهم على حق والربح في جانبهم.

المخدوعون هم كافة العظماء والأتقياء الذين بجَّلتهم كافة البشرية، ولا تزال. إنهم من عاشوا من أجل شيء ما أفضل من سعادتهم الخاصة، وكرسوا حياتهم من أجل الآخرين. إنهم جميع هؤلاء الناس، حتى إن كان المسيح عانى بلا جدوى ومنح روحه لأب متخيل، وفكر عبثًا أن يسمح له بالتجلي عبر حياته. إن مأساة الجلجثة بكاملها كانت محض خطأٍ، فالحق كان في جانب أولئك الذين سخروا منه وتمنوا له الموت، وهو الآن في جانب مَن لا يبالون على الإطلاق بالتوافق مع الطبيعة الإنسانية، والذي يُصوِّر لنا هذه القصص المزعومة على أنها تاريخ حقيقي.

فمَن تبجل؟ ومَن تُصدِّق إن كان الإلهام الذي لهذه المخلوقات السامية مجرد خرافة قد اختُلقت بخبث؟).

«باركر».

لا يمكن للعقل البشري أن يفهم جوهر التغيير الذي يحدث في الموت الجسدي:

-١-

كثيرًا ما نتصور الموت وكأنه عبور إلى مكان ما، ولكن هذا التصور لا يجعلنا نصل إلى شيء. لا يمكن لنا أن نتصور شيئًا عن الموت، كما أنه لا يمكننا أن نتصور الله. كل ما يمكننا أن نعرفه عن الموت، هو أنه -مثل أي شيء يأتينا من الله- صالح.

-٢-

يسألون: «ماذا يحدث للروح بعد الموت؟». إننا لا نعرف ذلك ولا يمكننا أن نعرف.

ثم شيء وحيد مؤكد: إن ذهبت إلى مكان، فيقينًا ستفارق مكانًا ما. هكذا هو الأمر في الحياة. إن وصلت إلى هذه الحياة، فلا بد وأن تفارق حياة أخرى.

فمن أين جئت ومَن فارقت، وإلى أين ستذهب وإلى مَن؟

-٣-

إني لا أذكر شيئًا عن لحظة ولادتي، وبعد الموت يقينًا لن أذكر بالطبع شيئًا من حياتي الآنية. إن كانت هناك حياة بعد الموت، فهي حياة لا يمكن تصورها.

-٤-

إن الحياة الإنسانية بأكملها هي مجموعة من التغيرات غير المفهومة، لكنها خاضعة للملاحظة. ولكن بداية هذه التغيرات والتي حدثت مع الولادة وتنتهي بالموت لا يمكن حتى إخضاعها للملاحظة.

-٥-

ما يهمني هو أمر واحد؛ ألا وهو أن أعرف ماذا يريد الله مني؟ والإجابة عن ذلك واضحة جدًّا في تعاليم كافة الأديان وفي ضميري، لذا فما يشغلني هو أن أتعلم أن أنفذ إرادة الله، وأن أوجِّه كافة قواي في هذا الاتجاه، عالمًا تمامًا أني إن كرَّست قواي لإرادة السيد فهو لن يتركني، وسيحدث معي ما لا بد أن يكون، وما يصب في صالحي.

-٦-

(لا أحد لا يعرف ما الموت، ورغم ذلك يخشاه الجميع معتبرين أنه الشر الأعظم، مع أنه قد يكون الخير الأعظم).

«أفلاطون».

-٧-

إن آمنا أن كل ما يحدث في حياتنا هو من أجل خيرنا، فلن يسعنا حينها سوى أن نؤمن أن ما سيحدث معنا عندما نموت لا بد وأن يكون خيرًا.

-٨-

(لا يمكن لأحد أن يتباهى بما يعرفه عن الله والحياة الأخرى. لا يمكنني أن أقول إني أقر يقينًا بوجود الله وبخلودي، ولكن يجب أن أقول إني أشعر أن الله موجود، وأني خالد. وهذا يعني أن إيماني بالله والعالم الآخر مرتبط تمامًا بطبيعتي، وأنه لا يمكن أن ينفصل عني).

«كانط».

-٩-

يتساءل الناس: «ماذا سيحدث بعد الموت؟»، وعلينا أن نجيب على مثل هذا السؤال كالتالي: إن كنت لا تقول بلسانك، بل بقلبك أنه ستكون لك إرادة في السماء، كما كانت هنا على الأرض، وأنه كما كنت في الحياة الزمنية، ستكون في الحياة غير الزمنية، وأنك تعلم أن الحب هو إرادته، فأنت إذنْ لست في حاجة للتفكير فيما بعد الموت.

-١٠-

قال المسيح وهو يموت: (يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي)[١٦٢]. إن قال

(١٦٢) لوقا ٢٣: ٤٦.

أحد مثل هذه الكلمات ليس بلسانه، بل من كل قلبه، فمثل هذا الإنسان لم يعد في حاجة إلى شيءٍ على الإطلاق. إن عادت روحي إلى مَن خرجت منه، فلا يمكن أن يصيبها شيء أفضل من ذلك.

الموت تحرير:

-١-

الموت هو تفتت هذه القشرة التي تغلف أرواحنا. ليس علينا أن نخلط بين هذه القشرة وبين ما تحويه.

-٢-

عندما نولد، توضع أرواحنا داخل تابوت أجسادنا. هذا الجسد وهذا النعش يتحطم رويدًا رويدًا، وتتحرر أرواحنا أكثر فأكثر. وعندما يموت الجسد بإرادة من وحَّد أرواحنا بأجسادنا، تتحرر الروح تمامًا.

-٣-

كما ينصهر الشمع بفعل النار، هكذا تظهر الروح من زوال حياة الجسد. يشتعل الجسد بنار الروح... يشتعل تمامًا عندما يأتيه الموت. الموت يزيل الجسد كما يزيل البناؤون الغابات عندما يكون المبنى جاهزًا.

المبنى هو الحياة الروحية، والغابة هي الجسد. وهذا الإنسان الذي يشيد بنايته الروحية يبتهج بالموت الذي يزيل غابة حياته الجسدية.

-٤-

نحن نعتقد أن الحياة تنتهي بالموت؛ لأننا نعتبر أن الحياة هي تلك التي نحياها منذ الولادة وحتى الموت. هذا التفكير يشبه أن نعتقد أن البركة ليست هي الماء الذي فيها، بل في ذلك الماء الذي عند ضفافها، وأنه إن غادر بعض الماء البركة، فالماء الذي في البركة سيتلاشى تمامًا.

-٥-

(كل شيء في هذا العالم ينمو ويزهر، ثم يعود إلى جذره، والعودة إلى الجذور تعني الراحة والتناغم مع الطبيعة. والتناغم مع الطبيعة يعني الأبدية؛ لأن زوال الجسد لا يشكل أدنى خطورة).

«لاو تسو».

-٦-

نحن نعرف يقينًا أن الجسد حي بمَن نفخ فيه الحياة، وعندما يتوقف عن كونه كيانًا منفصلًا في العالم المادي يعود ليتحد بمَن أحياه، أما إلى أين يذهب الجوهر الروحي الذي يمنح الجسد الحياة، وما إن كان يعود ليظهر في كيان محدود من الحياة مجددًا، أو أنه يتحد بالكيان غير الزمني وغير المُحوَى الذي منحه الحياة، فنحن لا نعرف شيئًا عن ذلك، ولا يمكننا أن نعرف.

-٧-

(الإنسان الذي يسعى طوال حياته لإخضاع شهوات جسده التي تعوق طريقه، لا يمكنه ألَّا يفرح بالتحرر من هذا الجسد. والموت هو هذا التحرير. إن كان الكمال الذي تحدثنا عنه كثيرًا يتأسس على فصل الروح عن الجسد، لتعود وتتجمع وتتركز في ذاتها خارج الجسد، فالموت إذنْ هو ما يحررها. أليس من الغريب إذنْ أن الإنسان يحاول طوال عمره أن يتحرر من سلطان جسده، وفي الدقيقة التي يكون فيها هذا التحرر على وشك التحقق، لا يشعر الإنسان بالرضى؟ ولذلك فرغم أني أشعر بالأسف والحزن لفراقكم، إلا أني لا يسعني إلا أن أرحب بالموت الذي يعتبر بمثابة تحقق لما كنت أسعى إليه طوال حياتي).

«من خطبة الوداع التي ألقاها سقراط على تلاميذه».

-٨-

وحده مَن لا يستطيع أن يفكر في الحياة الآنية هو مَن لا يؤمن بالخلود. إن كان الإنسان مجرد مخلوق جسدي، فالموت إذنْ نهاية لشيء غير مهم ولا يجب أن نندم عليه. وإن كان الإنسان مخلوقًا روحيًا يعيش بشكل مؤقت في نطاق الجسد، فالموت إذنْ مجرد مرحلة تغيير.

-٩-

نحن نخاف الموت لسبب وحيد؛ ألا وهو أننا نعتبر أنفسنا بأكملها تلك الأداة التي نحن مكلفون للعمل بها: إنها الجسد. ويلزم أن نتعود على أن نعتبر أنفسنا ما يستخدم تلك الأداة: الروح، وإن حدث ذلك فلن نشعر بالخوف. الإنسان الذي يعتبر نفسه أنه قد وُهِب الجسد كأداة يعمل بها، فهو لا يختبر في وقت الموت سوى شعور بعدم الراحة، مثل الشعور الذي ينتاب العامل عندما ينتزعون منه أداته السابقة التي تعود على العمل بها، ولم يمنحوه أداة جديدة بعد.

-١٠-

يرى الإنسان كيف تنمو النباتات والحيوانات وتزداد قوة، ثم كيف يدب الوهن فيها بعد ذلك وتبلى وتهرم وتموت. هكذا يرى الإنسان أيضًا بقية البشر، وهذا ما يعلمه الإنسان أيضًا عن جسده، فهو يدرك أنه سوف يهرم ويفسد ويموت، ككل الذي ولد وعاش في هذا العالم.

ولكن بالإضافة إلى ما يراه الإنسان في المخلوقات الأخرى وفي نفسه، فكل إنسان يدرك بداخله شيئًا ما لا يبلى ولا يهرم، بل على النقيض من ذلك، فهو كيان كلما عاش كلما ازداد قوة وصلابة، ويدرك كل إنسان روحه التي في داخله، والتي لا يمكن أن يحدث لها ما يحدث لجسده.

لذلك فلا يشعر بالهلع من الموت سوى مَن يحيا بالجسد لا بالروح.

-١١-

ذات مرة سألوا أحد الحكماء كان يقول إن الروح خالدة، قائلين: «وماذا يحدث إذنْ عندما ينتهي هذا العالم؟»، فأجابهم قائلًا: «العالم ليس لازمًا لروحي حتى لا تختبر الموت».

-١٢-

(الروح لا تعيش في الجسد كما لو أنها في منزلها، بل كغريب في بيت غريب عنه).

«الكورال الهندي».

-١٣-

يمكننا أن نتصور الحياة الإنسانية كالآتي: إنها حركة في ممر أو أنبوب تبدأ حرة ويسيرة، ثم تزداد سعةً أكثر فأكثر، وتزداد ضعفًا وصعوبة. في وقت الحركة يرى الإنسان المدى أمامه يقترب أكثر فأكثر كما لو أن السائرين أمامه يتلاشون في هذا الاتساع، فكيف إذنْ مع كل هذا الشعور بالتوتر والضغط لا ترغب في الوصول إلى هذا الفضاء المترامي الأطراف في أسرع وقت ممكن، وكيف لا ترغب في الاقتراب منه، بل وتخاف من ذلك؟

-١٤-

كلما ازدادت حياتنا روحانية، كلما ازداد إيماننا بالخلود. فعندما تبتعد طبيعتنا عن الفظاظة الحيوانية، تزول شكوكنا.

-١٥-

(ما إن يزول حجاب المستقبل، حتى يتلاشى الظلام ونشعر بالخلود).

«مارتينو».

-١٦-

مَن يدرك الحياة على نحو مزيف، سيظل إدراكه للموت مزيفًا.

-١٧-

(فطن مَن يعرف الآخرين، أما مَن يعرف نفسه فهو متنور.
قوي مَن يقهر الآخرين، أما مَن يقهر نفسه فهو جبار.
ذاك مَن يدرك أنه لن يزول بالموت خالد).

«لاو تسو».

الولادة والموت هما جوهر ذلك الحجاب الذي يخفي عنا الحياة:

-١-

الموت والولادة حجابان. خلف الحجابين كيان واحد.

-٢-

الموت كائن كالولادة. بالولادة يدخل طفل إلى عالم جديد، ويبدأ حياة مختلفة تمامًا عن تلك التي كانت في رحم الأم. إن كان في إمكان الطفل أن يحكي لنا عما شعر به عندما غادر رحم أمه، لوجدناه نفس ما يحكيه لنا إنسان يغادر هذه الحياة الدنيا.

-٣-

(لا يمكنني التوقف عن التفكير في أني كنت ميتًا قبل أن أولد، وأني بالموت أعود مجددًا إلى نفس الحالة السابقة. وبالموت أستعيد مجددًا ذكرى وجودي السابق الذي ندعوه فقدانًا للوعي، ثم أستيقظ مجددًا بأعضاء جديدة تُقرر أن تتشكل ثانية، وهذا يعني أن أولد!).

«ليشتنبرج».

-٤-

يمكننا أن ننظر إلى الحياة كما لو أنها حلم، وإلى الموت كما لو أنه يقظة.

-٥-

إلى أين يذهب الناس عندما يموتون؟ ومن أين جاء هؤلاء الناس الذين ولدوا؟ يأتي البشر من الله -فهو أبو حياتنا- فمنه كانت وتكون وستكون كل حياة. وهو مَن يغادر الناس إليه. وهكذا في الموت يعود الإنسان إلى من خرج منه.

يخرج الإنسان من المنزل ويعمل ويستريح ويأكل ويطرب ويعمل ثانيةً، وعندما يشعر بالإرهاق يعود إلى منزله.

هكذا هو الأمر في الحياة الإنسانية بأكملها، فالإنسان يأتي من الله، ويعمل ويعاني ويشعر بالعزاء ويطرب ويستريح وعندما يشعر بالإنهاك يعود إلى ذلك المنزل الذي خرج منه.

-٦-

(ألم نَسْمُ عن تلك الحالة التي نعرف فيها عن الحاضر أقل ممَّا نعرفه الآن عن المستقبل؟ كما يتعلق الماضي بالحاضر، كذلك يتعلق الحاضر بالمستقبل).

«ليشتنبرج».

-٧-

لقد جئت إلى هذه الحياة، وأنت لا تعرف كيف جئت، لكنك تدرك أن لديك أناك الخاصة التي تشكل ماهيتك، ثم أخذت تمضي وتمضي حتى وصلت إلى منتصف العمر، وفجأةً لم تعد تشعر بالسرور من جراء ذلك، ولا بالخوف، واسترحت ولم تعد تريد التحرك والمضي قدمًا حتى ترى ما

ينتظرك هناك. ولكنك لم تر العالم الذي أتيت إليه قبل أن تأتي، ومع ذلك أتيت إليه. لقد دخلت من البوابة ولا تود الخروج عند موعد العطلة. لقد كانت حياتك بأكملها مجرد مضي قدمًا في الحياة الجسدية أكثر فأكثر. لقد مضيت وأسرعت في خطوك، وفجأة شعرت بالأسف من حدوث الشيء الذي لم تتوقف عن فعله. إنك تشعر بالهلع من التغير الضخم الذي سوف يطرأ على جسدك مع الموت. ولكن هذا التغير الضخم قد حدث فعلًا معك عندما ولدت، والأمر لم يقتصر على أن سوءًا لم يلحق بك من جراء ذلك، بل على النقيض من ذلك، لقد حدث شيء جيد لا تود أن تفارقه.

الموت يحرر الروح من حدود الوجود الشخصي:

-١-

(الموت هو بمثابة تحرر من الوجود الشخصي المحدود. ويبدو أن ذلك هو سبب تعبير السلام الذي نجده على وجوه المتوفين. إن موت كل شخص فاضل يمر في سلام ويسر، ولكن أن تموت وأنت مستعد وبشكل إرادي وأن تموت مسرورًا، فهذه هي ميزة التخلي عن إرادة العيش وإنكارها. مثل هذا الشخص فقط لا يشعر بالحاجة إلى مزيد من الوجود الشخصي له).

«شوبنهاور».

-٢-

تسعى إرادة الوعي بكل ما هو متضمن في الجسد إلى توسيع حدودها، وفي هذا النصف الأول من حياة البشر.

في النصف الأول من حياته يشعر الإنسان بحب الأشياء والناس أكثر فأكثر، وهذا يعني أن يتجاوز حدوده، ويتحول وعيه إلى مخلوقات أخرى. ولكن مهما شعر بالحب لا يمكنه أن يتجاوز حدوده، وفي الموت فقط يمكنه

أن يرى إمكانية زوال هذه الحدود. فكيف يمكن بعد ذلك أن نخشى الموت؟ إنه شيء مماثل لتطور اليرقة إلى فراشة. نحن هنا في هذا العالم يرقات، نولد ونغفو داخل شرنقاتنا، ولا نعي حقيقة أننا فراشات إلا في الحياة الأخرى.

-٣-

تحتجز أجسادنا هذا الجوهر الإلهي الروحي الذي ندعوه «الروح»، ولكن هذا الاحتجاز يبدو كالوعاء، فهو يمنح السائل أو الغاز الذي فيه -هذا الجوهر الإلهي- شكلًا وهيئةً. عندما يتحطم الوعاء، يتوقف السائل أو الغاز الذي كان فيه عن اكتساب تلك الهيئة التي كانت له. فهل يتحد بالجواهر الأخرى؟ هل يتخذ شكلًا جديدًا؟ نحن لا نعرف شيئًا عن ذلك، ولكن ما نعرفه يقينًا أنه يفقد هذه الهيئة التي كانت تحده؛ لأنها قد تدمرت. هذا ما نعرفه، ولكن لا يمكننا أن نعرف شيئًا عمَّا سيحدث معه. نحن نعرف فقط أن الروح بعد الموت تصبح شيئًا مختلفًا... مختلفًا حتى إننا لا يمكننا أن نحكم عليه ونحن لا نزال في هذا العالم.

-٤-

يقولون: «إنه الخلود الوحيد الحقيقي الذي ستزول فيه شخصيتي». نعم.. شخصيتي هي ما يعذبني، وهي أكثر ما يثير تقززي في هذا العالم، وهي ما حاولت التخلص منها طوال الوقت في هذه الحياة.

-٥-

إن كانت الحياة حلمًا، والموت يقظة، فإنني عندما أرى نفسي منفصلًا عن كافة المخلوقات، أتمنى لو كان حلمًا أود أن أستيقظ منه... أن أموت.

-٦-

عندما تموت فقط مسرورًا، وتشعر بالإنهاك من طول انفصالك عن العالم، وتشعر بهلع الانفصال، وبالسرور إن لم يكن بسبب اتحادك بالجميع، فعلى الأقل لخروجك من سجن انفصالك الخارجي، حيث تتواصل فقط بين الحين والآخر مع الناس بشرارات الحب المستعرة، حينها فقط ستقول: «لقد اكتفيت من هذا السجن، فامنحني شيئًا آخر أكثر ملائمةً لروحي وعلاقتي بالعالم». وأنا أعرف أن الموت يمنحني هذا، بينما هم يحاولون تعزيتي بالتأكيد على أني سوف أكون شخصًا هناك!

-٧-

أرض باردة صلبة تحت قدميَّ، ومن حولي أشجار ضخمة، وفوق رأسي سماء رمادية كئيبة، وأشعر بجسدي، وتملأ الأفكار رأسي، ورغم ذلك فأنا أعرف كافة المخلوقات وأشعر بها: أشعر بالأرض الصلبة الباردة والأشجار والسماء وبجسدي وبأفكاري، ويبدو لي عرضًا أن كل ذلك نتاج لحواسي الخمس، وتصوري للعالم الذي تصورته بنفسي، وأن كل هذا موجود لأني أتصوره، وليس جزءًا آخر من العالم الذي أنا منفصل عنه. أعرف أنه يلزمني فقط أن أموت، وكل ذلك لن يزول بالنسبة لي، ولكن ستتغير هيئته، كما تتغير المناظر في المسرح، فيشيدون القصور من الأجمات والأحجار، ويبنون الحصون والأبراج وما إلي ذلك. الموت يُحدث بداخلي مثل هذا التغيير، فإن كنت لا أزول تمامًا، فإني أتغير إلى هيئة أخرى ليست منفصلة عن العالم. وبينما يبقى العالم كما هو بالنسبة لـمَن يعيشون فيه، فهو يصبح بالنسبة لي شيئًا آخر هذا العالم على هذه الهيئة تحديدًا؛ لأني أتصوره على هذه الهيئة تحديدًا، لذلك فأنا منفصل عن العالم، والطرق التي يمكن أن ننفصل بها عن

العالم لا تعد ولا تحصى.

بالموت يتكشف كل خفي:

-١-

كلما طالت حياة كل إنسان، كلما ازداد اكتشافه للحياة، وكلما اتضح له ما كان عصيًّا. وهكذا يمضي الأمر حتى الموت. وفي الموت يتكشف كل شيء... كل ما يمكن للإنسان أن يدركه.

-٢-

في لحظات الموت يكتشف الإنسان شيئًا: «آه... هكذا هو الأمر!»، إنه التعبير ذاته تقريبًا الذي يظهر لدى كافة الموتى. أما نحن مَن لا نزال هنا فلا يمكننا أن نرى ما تكشَّف له. كل منا سيكتشف ذلك في وقته.

-٣-

بمرور الوقت يتكشف لك كل شيء، كما لو أن كل شيء يتحرك أعلى فأعلى على مستويات متساوية. ثم يأتي الموت وفجأةً تتوقف عملية الكشف، أو أن مَن تكشفت له هذه الأمور يتوقف عن رؤية ما قد تكشف له سابقًا؛ لأنه يرى الآن شيئًا جديدًا كليةً.

-٤-

(مَن يموت يختبر الخلود جزئيًّا. يبدو كما لو أن الموت يتحدث إلينا من خلف التابوت، ونعتبره نبيًّا. من الواضح لـمَن يشعر بأن حياته على وشك الانتهاء وقد انفتح له التابوت أن وقت الخطب العظيمة قد حان. إن جوهر طبيعته على وشك الانجلاء... هذا الجوهر الإلهي الذي بداخله لم يعد بإمكانه أن يتوارى).

«أميل».

-٥-

تكشف لنا كافة البلايا عن الجوهر الإلهي الخالد الذي يشكل أساس حياتنا. ما يراه الناس بلية؛ ألا وهو الموت، يكشف لنا عن أنانا الحقيقية.

الحياة نعمة

-١-

إن حياة الإنسان ونعمته في اتحاد الروح المنفصلة عن الله والأرواح الأخرى بما قد انفصلت عنه. وهذا الاتحاد يتم على النحو الآتي: تُظهر الروح الحب فتتحرر أكثر فأكثر من الجسد، ولذلك إن أدرك الإنسان أن في هذا التحرر حياته ونعمته، فأيًّا كانت البلايا التي قد تمر به، وأيًّا كانت المعاناة والأمراض، فلا شيء يمكنه أبدًا أن يحول دون إحساسه بنعمته.

-٢-

(أن تجعل كل لحظة في حياتك على أفضل ما يكون، حتى تلك التي في يد القدر، سواء كانت لحظات سارة أو لا، وحتى إن لم يكن لنا يد فيها، هذا هو فن الحياة، والقوة الحقيقية التي لدى الإنسان العاقل).

«ليشتنبرج».

-٣-

(الإنسان تعيس؛ لأنه لا يعلم أنه سعيد!).

«دوستويفسكي».

-٤-

من المستحيل القول بأن خدمة الله هي معنى الحياة، فمعنى الحياة كان وسيكون دائمًا في تحقيق نعمته وخيره، ولكن لأن الله قد أراد أن يمنح البشر

النعمة، فإن البشر يحصلون عليها بفعل ما يريده الله منهم وبتنفيذ إرادته.

الحياة هي أسمى نعمة يصل إليها الإنسان:

-١-

الحياة -أيًّا كانت- هي نعمة لا مثيل لها. إن قلنا إن الحياة شر، فنحن نقول ذلك عندما نقارنها فقط بحياة أخرى أفضل متخيلة، ولكننا لا نعلم أي حياة أخرى، ولا يمكننا أن نعلم، لذا فالحياة -أيًّا كانت- هي أسمى نعمة لدى الإنسان.

-٢-

كثيرًا ما نحط من قدر نعمة الحياة، معتقدين أننا في مكان وزمان ما سنحصل على نعمة أعظم. ولكن لا يمكن لهذه النعمة الأعظم أن توجد في مكان وزمان ما؛ لأننا قد وُهِبنا النعمة الأسمى: إنها الحياة التي لا يمكن أن يسمو فوقها شيء.

النعمة الحقيقية في الحاضر، وليست في الحياة الأخرى:

-١-

طبقًا للتعاليم المزيفة، فالحياة في هذا العالم شر، ولن نصل إلى خيرنا ونعمتنا إلا في الحياة الأخرى. ولكن طبقًا للتعاليم المسيحية الحقيقية فالهدف من الحياة هو النعمة، ونحن نحصل عليها هنا في هذا العالم. النعمة الحقيقية في متناول أيدينا دائمًا. إنها كالظل الذي يرافق الحياة الفاضلة.

-٢-

(إن لم تكن الجنة في داخلك، فلن تدخلها أبدًا).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٣-

العالم ليس خدعةً، وليس واديًا يُختبر فيه الإنسان كي ينتقل إلى عالم آخر أفضل وأبدي، فهذا العالم الذي نحيا فيه هو واحد من تلك العوالم الأبدية الرائعة والباعثة على الفرحة، والتي لا نستطيع فقط أن نبذل قصارى جهودنا كي نجعله أكثر روعة وبعثًا على الفرحة والسرور، بل يتوجب علينا أن نجعله كذلك من أجل مَن يحيون فيه ومن أجل جميع الذين سيعيشون فيه من بعدنا.

-٤-

لا تؤمن أن هذه الحياة هي مجرد مرحلة انتقالية صوب عالم آخر، وأن ما هو حسن لنا لا يمكن أن يكون سوى هناك في العالم الآخر. هذا غير حقيقي. ينبغي أن نكون في حال حسن هنا في هذا العالم، وكي نحقق ذلك يلزمنا فقط أن نعيش هنا بحسب إرادة مَن أرسلنا إلى هنا. لا تقل إنه كي يمكنك أن تعيش حسنًا هنا في هذا العالم لا بد وأن يعيش الجميع بصورة حسنة وطبقًا لإرادة الله. هذا غير حقيقي أيضًا. عِش أنت كما يحق لله، وابذل كافة جهودك، ولا بد أنك ستكون في حالة طيبة، ويقينًا لن يجعل هذا الناس في حال أسوأ، بل بالتأكيد أفضل.

-٥-

أكثر الضلالات ضررًا واعتيادًا من الناس هي أن يعتقدوا أنهم لا يمكنهم أن يحصلوا في هذا العالم على النعمة التي يرغبون فيها. أولئك الذين يؤكدون أن هذا العالم هو وادٍ من الدموع، ومكان للمعاناة والاختيار وما إلى ذلك، وأن العالم الآخر هو النعيم، تبدو كلماتهم كما لو أنهم يؤكدون أن العالم الإلهي اللانهائي بأكمله رائع، وأن الحياة رائعة في عالم الله عدا في مكان وزمن واحد؛ في ذلك المكان والزمان الذي نحن فيه الآن. يا لها من مصادفة

غريبة! أليست هذه فكرة غير مفهومة لمعنى الحياة؟

-٦-

(عِش حياة حقيقية، وستلقى كثيرًا من المعارضين، ولكنهم سوف يحبونك. سوف تجلب لك الحياة كثيرًا من المصائب، ولكنك سوف تكون سعيدًا، وسوف تبارك الحياة، ويباركك الآخرون).

«دوستويفسكي».

-٧-

كم هو أمر غريب ومضحك أن نتوجه إلى الله بالطلبات المادية! عليك ألَّا تطلب من الله؛ بل أن تنفذ قانونه وتكون له. العلاقة الوحيدة المنطقية التي يمكن أن تكون بيننا وبين الله هي أن نكون شاكرين له على نعمته التي منحنا إياها، وهي أن جعلنا أرواحًا.

لقد وضع السيدُ العاملين لديه في ذلك الموقف الذي إن نفذوا فيه مشيئته فسوف يحصلون على أكبر نعمة يمكنهم أن يتخيلوها؛ إنها نعمة السعادة الروحية، بينما هم يطلبون منه شيئًا آخر! إن قاموا بهذا، فذلك يعني أنهم لا يقومون بما قد خلقوا لأجله.

لا يمكنك أن تجد النعمة الحقيقية إلا في داخلك:

-١-

(إن الله بداخلي، ويطلب نعمته بداخلي، فماذا يمكن أن تكون نعمة الله سوى أن أكون نفسي؟!).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٢-

قال أحد الحكماء ذات مرة: «لقد طفت حول العالم كله باحثًا عن النعمة. ظللت أبحث عنها ليلَ نهارَ دون كلل أو ملل. وفي إحدى المرات كان اليأس من إيجادها قد استولى على قلبي، سمعت صوتًا بداخلي يقول: إن نعمتك بداخلك. استمعت لهذا الصوت، ووجدت النعمة الحقيقية غير المتغيرة».

-٣-

(ما النعمة الأكبر التي يمكنك أن تحصل عليها عندما يكون الله والعالم كله بداخلك؟).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٤-

(لا يمكن أن يطلق أحد على نفسه سعيدًا أكثر من ذاك الذي يكون روحًا خالصةً. إنهم سعداء حتى وإن عاشوا بين أناس جشعين أشرار يُكنِّون لهم الكراهية. لا يمكن أن تُنتزع سعادتهم منهم).

«من التعاليم البوذية».

-٥-

(كلما عاش الناس حياةً أكثر صلاحًا، كلما قلَّت شكوتهم من الناس. وكلما عاشوا حياة أسوأ، كلما ازداد عدم رضاهم، لا عن أنفسهم، بل عن الآخرين.

الحكيم مَن يبحث عن كل شيء داخل نفسه، والمجنون مَن يبحث عن كل شيء في الآخرين).

«كونفوشيوس».

الحياة الروحية هي الحياة الحقيقية:

-١-

ما نطلق عليه سعادة وما نطلق عليه تعاسة بالنسبة لطبيعتنا الحيوانية هو خارج تمامًا عن إرادتنا، ولكن نعمة الأنا الروحية لا تعتمد سوى علينا نحن فقط: إنها تعتمد بشكل محدد على إذعاننا لإرادة الله أو عدم خضوعنا لها.

-٢-

كل ما يعتبره الناس بؤسًا وشرًا يأتي بسبب أن الناس يعتبرون شخصيتهم الجسدية هي الحقيقية: إيفان- بطرس- مافرا- ناتاليا، مع أن الكيان الجسدي بمثابة إطار للكيان الأبدي الموجود داخله. هذا مجرد خداع يشبه تلك الصور التي تُصوِّر فيها فروع شجرة وهي لا شيء سوى بعض الخطوط. يمكن أن يدرك الإنسان أنه محدود داخل الجسد، ويمكن أن يدرك في نفسه ما يحده الجسد. في الحالة الأولى هو عبد، بلا حول ولا قوة، ومعرض لكافة أنواع الكوارث والمصائب. أما في الحالة الثانية فهو حر وقادر ولا يعرف الشر.

-٣-

الذي يُكرِّس حياته من أجل أن تتحرر أناه الروحية من قيود الجسد، لا يمكن ألَّا يشعر بالرضى؛ لأن كل ما يتمناه يناله.

-٤-

الحياة الإنسانية مليئة بالمعاناة الجسدية، وفي كل ثانية عُرضة للتمزق، لذا فلا بد أن يكون هناك معنى للحياة، وإلا أصبحت ساخرةً مريرةً، وهذا المعنى لا بد ألَّا تحطمه المعاناة رغم استمرارها ومداها القصير. هذا المعنى موجود فعلًا في الحياة الإنسانية، وهو الوعي المتنامي أكثر فأكثر بالله داخل الذات الإنسانية.

-٥-

(نيري هيِّن)[١٦٣]. النير حول أعناق الناس، وهو نير لم يصنعوه، وهو مربوط بعربة لا يجرونها بقوتهم. نير ليس من صنعهم، وجر العربة ليس بقوتهم... إنها حياة من أجل خير جسد المرء ومن أجل خير أجساد الآخرين أيضًا. النعمة الحقيقية هي في الوعي المتنامي أكثر فأكثر بالله داخل النفس. هذا وحده هو النير المصنوع كما لو أنه بقوة الناس، وهو ما علَّم يسوع عنه. جرب أن تدرك كم هو خفيف وحلو. قال يسوع: «مَن يُرِدْ أن يعرف حقيقة ما أقوله، فليحاول أن يصنع ما أقول».

-٦-

الحياة الإنسانية هي بمثابة إعادة اتحاد لا يتوقف بين الجسد المنفصل عن الكيان الروحي وما يدرك أحاديته بداخله. وسواء فهم الإنسان ذلك أو لم يفهمه، وسواء أراد هذه الوحدة التي لا تتوقف أو لا؛ فهذا ما يحدث لا محالة في تلك الحالة التي ندعوها: الحياة الإنسانية. الفارق بين مَن لا يفهمون إرساليتهم ولا يريدون تحقيق الهدف منها، وبين مَن يفهمونها ويريدون أن يعيشوا بما يتوافق معها؛ أن حياة المجموعة الأولى هي معاناة لا تتوقف، أما حياة مَن يفهمون معنى إرساليتهم ويحققون الهدف منها فهي نعمة متزايدة لا تتوقف أبدًا.

تشبه المجموعة الأولى الماشية العنيدة التي يجرها صاحبها بحبل ملفوف حول أعناقها صوب الحظيرة التي سيجدون فيها الطعام والمأوى. تعذب هذه الماشية نفسها بلا جدوى، وتخنق نفسها بينما تحاول أن تقاوم صاحبها. وستذهب في النهاية إلى المكان الذي يجب أن تذهب إليه.

---

(١٦٣) (لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ) «متى ١١: ٣٠».

أما المجموعة الثانية فتشبه الحيوانات التي بعد أن تدرك إرادة سيدها تذهب طوعًا وفي سرور إلى المكان الذي يقودها إليه، عالمة أن صاحبها لا يريد أن يفعل لها سوى كل ما هو خير لها.

-٧-

لا شيء شديد الوضوح من شانه أن يؤكد أن هدف الحياة هو الكمال مثل أن رغبتك -أيًا كانت- في الكمال خارج ذاتك بقدر ما تُرضي رغباتك سريعًا؛ بقدر ما تزول بالسرعة ذاتها.

أمر واحد فقط لا يفقد معناه المبهج أبدًا: إنه وعي الإنسان بحركته صوب الكمال. هذه الحركة التي لا تتوقف صوب الكمال هي وحدها ما تمنح الإنسان سرورًا حقيقيًا متناميًا لا يزول. كل خطوة إلى الأمام في هذا الطريق تأتي معها بمكافأتها، وهي مكافأة يحصل عليها الإنسان في اللحظة الآنية، ولا شيء يمكنه أن يبعدها عنه.

-٨-

(أن تكون سعيدًا، وأن تحظى بحياة أبدية، وأن تتحد بالله، وأن تتخلص... كل هذه العبارات لها معنى واحد، وهو : الوصول إلى حل فيما يتعلق بمسألة الحياة. والنعمة تنمو ويتزايد شعور الإنسان بها قوة وعمقًا، ويشعر بسرور سمائي، وهي نعمة ليست لها حدود؛ لأنها حرية وقدرة كلية وتلبية لكافة الرغبات)

«أميل».

ما الذي يحقق لنا الخير الحقيقي؟

-١-

(الخيرات الحقيقية قليلة، وما هو خير حقيقي فعلًا هو ما يحمل الخير

للجميع. لذا فلا ترغب سوى فيما يحمل الخير للجميع، ومَن يوجِّه نشاطه صوب هذا الهدف يصل إلى خيره الحقيقي).

«ماركوس أوريليوس».

-٢-

في مواقف البشر ثمَّ مزيج بين الخير والشر، ولكن في مساعيهم لا وجود لمثل هذا المزج: فإما أنهم يسعون صوب الشر؛ أي أنهم يسعون صوب تحقيق إرادة طبيعتهم الحيوانية، أو أنهم يسعون صوب الخير؛ أي أنهم يسعون صوب تحقيق إرادة الله. الإنسان الذي يكرس نفسه للمنحى الأول، لا يمكنه إلا أن يكون تعيسًا، أما الذي يكرس نفسه للمنحى الثاني، لا يمكنه إلا أن يكون سعيدًا، فكل شيء يأتيه بالخير.

-٣-

لا يمكن لأحد أن يفعل خيرًا حقيقيًّا لآخر، فالخير الحقيقي يفعله الإنسان لنفسه فقط، فهو يتمثل في أمر واحد؛ ألا وهو الحياة من أجل الروح لا الجسد.

-٤-

فعل الخير هو الفعل الوحيد الذي يمكن أن نقول عنه إنه سيأتينا بالنفع يقينًا.

-٥-

يتمنى الإنسان لو يحصل على المساعدة من الناس أو من الله، ولكن لا يمكن لأحد أن يساعده سوى نفسه؛ لأن الحياة الصالحة هي وحدها ما يمكنها أن تساعده، وهي أمر لا يمكن أن يبلغه سوى بنفسه.

-٦-

يقولون إن مَن يفعل الخير لا يرغب في مكافأة. هذا حقيقي إن اعتقدنا

أن المكافأة ليست في داخلنا، وليست الآن بل في المستقبل. ولكن دون مكافأةٍ ودون أن تُضفي الفضيلة السرور على قلب الإنسان لا يمكن للإنسان أن يصنعها. الأمر هو أن نفهم ما المكافأة الحقيقية. المكافأة الحقيقية ليست ماديةً، ولا نحصل عليها في المستقبل، بل هي داخلية وآنية، إنها في تهذيب الروح، وفي هذا وحده مكافأة السعي صوب تحقيق الفضيلة.

-٧-

(هكذا كان يصلي أحد الأتقياء لله من أجل البشر: «يا إلهي! كن عطوفًا على الأشرار، فإنك قد عطفت فعلًا على الأخيار، فهم في حالة حسنة بسبب أنهم يتمتعون بالفضيلة»).

«سعدي الشيرازي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

نعمتنا في الحب:

-١-

حتى ننال السعادة حقًّا يلزمنا أمر واحد: أن نحب... أن نحب الجميع: الأخيار والأشرار على السواء. لا تتوقف عن الحب، ولن تتوقف عن الشعور بالسعادة.

-٢-

نحن لا نعرف ولا يمكننا أن نعرف من أجل ماذا نعيش. لذا فيستحيل أن نعرف ما الذي يجب أن نفعله، وما الذي لا يجب أن نفعله إن لم تكن لدينا رغبة في بلوغ نعمتنا. هذه الرغبة هي ما تشير إلينا يقينًا إلى ما يجب أن نفعله إن أدركنا حياتنا لا كمجرد حيوانات، بل كروح تقطن جسدًا، وهي النعمة القصوى التي ترغب فيها أرواحنا، والتي قد وُهِبت لنا بالحب.

-٣-

لم يتوقف أبدًا أحد عن فعل الخير لنفسه، ولكن الخير الأعظم هو ما تنشده الروح، والروح دائمًا ما تنشد أمرًا واحدًا: الحب منها وإليها. كرِّس حياتك إذنْ من أجل زيادة الحب، وستدرك أن نعمتك دائمًا داخل نطاق سلطانك.

-٤-

إن كان هناك إله صالح، وهو الذي خلق العالم، فيقينًا قد خلقه كي يكون الجميع -ونحن منهم- في أحسن حال.

إن لم يكن هناك إله، فدعنا إذنْ نعيش بحيث نكون في أحسن حال. وكي نحقق ذلك يلزمنا أن نحب بعضنا البعض... يلزمنا الحب. والله محبة، وهكذا نعود إليه ثانية.

-٥-

إن حياتي ليست لي، لذا فنعمتي لا يمكن أن تكون هي هدفها، بل لا بد وأن يكون هدفها هو ما يريده ذاك مَن نفخ فيَّ نسمة الحياة. وهو يريد أن يحب الجميع بعضهم البعض، وهو الذي أجد فيه خيري ونعمتي.

-٦-

يرغب الإنسان منذ لحظة ولادته وحتى مماته في خيره، وما يرغب فيه قد وُهِب إياه إن بحث عنه حيث يوجد فعلًا: في محبته لله وللناس.

-٧-

يقولون: «ولماذا يتوجب علينا أن نحب سيئ الطباع؟». لأن هذا يبعث فينا السرور. هذا حقيقي، وأنت تعلم ما إن كنت أتكلم بالحق أو لا.

-٨-

لا شيء ينتظرنا في المستقبل سوى الموت، ولا شيء علينا أن نفعله في الحاضر سوى تنفيذ ما يتوجب علينا. كم يبدو ذلك مريعًا وباعثًا على الحزن! ولكن بينما يُكرِّس الإنسان حياته لشيءٍ واحدٍ؛ ألا وهو الاتحاد أكثر فأكثر بالناس والله بالحب، فكل ما يبدو مريعًا يصبح على حال أفضل، ولا ينتزع من الإنسان خيره.

كلما عاش الإنسان من أجل جسده، كلما حرم نفسه من نعمته الحقيقية:

-١-

(البعض يبحثون عن نعمتهم في السلطة، وآخرون في حب الفضول؛ في العلوم، وهناك مَن يبحثون في اللذة. وهذه الأنواع الثلاثة شكلت ثلاث مدارس مختلفة، ودائمًا ما كان الفلاسفة يتبعون مدرسة منهم. مَن كان منهم قريبًا من الفلسفة الحقيقية، أدركوا أن الخير العام الذي يسعى الجميع صوبه لا يجب أن يكون داخل نطاق خاص لا يمكن أن يحوزه سوى واحد أو مجموعة معينة من الناس من بين الجميع، والذي يزعج بعد ذلك مالكه سريعًا الذي استولى عليه كله، بدلًا من أن يستمتع بالجزء الذي كان له. لقد أدركوا أن النعمة الحقيقية يجب أن يتمكن الجميع من الحصول عليها كاملة وفورًا دون نقصان، ودون حسد، ولا يمكن لأحد أن يفقدها إلا بإرادته. هذه النعمة هي الحب).

«باسكال».

-٢-

(لماذا أنت متعسر وتعيس؟ إن كنت تبحث عن النعمة فاذهب صوبها، وهي في داخلك. لا أحد يبحث عمَّا له عند شخص غريب. إن لم تكن نعمتك

في داخلك، فلن تجدها في أي مكان. نعمتك في داخلك، في قدرتك على أن تحب الجميع، لا لأي سبب فيهم، ولكن كي تعيش من أجل حياة الجميع، لا من أجل حياتك وحدك. إن بحثنا عن النعمة في العالم ولم نستفد من النعمة الموجودة في أرواحنا، فهذا يشبه أن نذهب بحثًا عن الماء في بركة موحلة قصيِّة، بينما في الجبل بجانبنا ثمَّ عين نظيفة).

«أنجيلوس سيليسيوس».

-٣-

(إن كنتَ تريد السعادة الحقيقية، فلا تبحث عنها في بلاد بعيدة، ولا في الثروة ولا في المجد ولا تتسولها من الناس، ولا تنحنِ لهم أو تقاتلهم من أجلها. مثل هذه الوسائل قد تمكنك من الحصول على الممتلكات أو رتبة فخرية وكل الأشياء غير المهمة، ولكن السعادة الحقيقية التي يحتاج إليها الجميع فلا يمكن أن نحصل عليها من الناس، ولا يمكن أن تُشترى أو أن نسأل الآخرين من أجلها، لكنها هبة. اعلم أن كل ما لا تستطيع أن تأخذه بنفسك ليس لك ولست في حاجة إليه. وكل ما تحتاج إليه يمكنك دائمًا أن تناله بنفسك، عن طريق حياتك الفاضلة.

نعم... السعادة ليست وقفًا على السماء ولا على الأرض، ولكنها تعتمد علينا نحن فقط.

هناك نعمة واحدة في العالم، وهي الوحيدة التي نحتاج إليها حقًّا. تُرى ما هذه النعمة؟ إنها الحياة بالحب، ومن السهل أن ننال هذه السعادة).

«سكوفورودا».

-٤-

(فلنشكر الله على أنه جعل نيل ما يحتاج إليه الناس حقًّا أمرًا غير صعب،

وجعل ما ليس الناس في حاجة إليه صعبًا. أكثر ما يحتاج إليه الإنسان: السعادة، وأن تكون سعيدًا هو الأمر الأسهل. شكرًا لله!

ملكوت الله بداخلنا. السعادة في القلب العامر بالحب. تُرى كيف كان سيبدو الأمر إن كان نيل السعادة اللازمة لكل إنسان أمرًا يتعلق بالزمان والمكان أو بالحالة والصحة وقوة الجسد؟ كيف كان سيبدو الأمر إن كانت السعادة في إحدى الأمريكتين أو في أورشليم أو في عصر سليمان الحكيم أو في القاعات الملكية أو في الغنى أو الرتب أو في الصحاري أو في العلوم أو في الصحة أو الجمال؟ هل كان يمكن لكافة البشر أن يعيشوا في إحدى الأمريكتين أو في أورشليم أو في زمن واحد؟ إن كانت السعادة في الثراء أو في الصحة أو في الجمال، لكان كافة الفقراء والشيوخ والمرضى والذين لا يتمتعون بالجمال قد حُكِم عليهم بالتعاسة. هل من المعقول أن يحرم الله كافة أولئك البشر من السعادة؟ لا... والحمد لله على ذلك! لقد جعل نيل كل ما هو غير ضروري للإنسان أمرًا صعبًا، فلا سعادة في الثراء ولا في الرتب ولا في جمال الجسد. السعادة في أمر واحد فقط: في الحياة الصالحة، وهذا تحت سلطان كل إنسان).

«سكوفورودا».

-٥-

يتضرع الناس إلى الله كي يساعدهم فيما ليس لديهم، وهو على استعداد دائم لمساعدتهم فيما لديهم. هم يريدون أن يساعدهم بالطريقة التي يريدونها، لا بالطريقة التي يراها.

-٦-

أن تسأل الله أن يجعل أحدًا يمنحك نعمة في هذا العالم يشبه أن يجلس

إنسان فوق نبع مياه ويسأل النبع أن يخلصه من العطش. يمكنك ببساطة أن تنحني وتشرب. لقد وُهِبت فعلًا النعمة الكاملة. كل ما عليك أن تستغلها.

-٧-

إن كنت ستعتبر أن النعمة هي ما ليست في نطاق سلطانك، ستظل طوال الوقت تعيسًا. افهمْ أن النعمة هي التي داخل نطاق سلطانك فقط، وحينها لن يمكن لأحد أن ينتزعها منك أبدًا.

لا يشعر الإنسان بنعمة الحياة إلا عندما يحقق قانون الحياة:

-١-

إن سألت: «لماذا الشر؟»، فسأجيبك بسؤال آخر: «لماذا الحياة؟ الشر لازم إذنْ للحياة، فالأخيرة تتجلى في التحرر منه».

-٢-

إن كُنت تشعر أن الحياة ليست عظيمةً وأنها لا تبعث على السرور؛ فهذا لأن عقلك مُوجَّه بطريقة كاذبة.

-٣-

إن كانت حياة الناس تعيسة، فهذا بسبب أنهم لا يقومون بما يتوجب فعله كي تصبح الحياة فرحة لا تتوقف.

-٤-

عندما نقول إن حياتنا ليست نعمة، فحتمًا نحن نقصد بهذه الكلمات أننا نعرف نعمة أكبر من الحياة نفسها، في حين أننا لا نعرف، ولا يمكننا أن نعرف نعمة أكبر من الحياة. لذا فإن بدت الحياة لنا على أنها ليست نعمة، فالمذنب في الأمر نحن لا الحياة.

-٥-

(اعلم جيدًا وتذكر أنه إن كان الإنسان تعيسًا، فهو المذنب. يصبح الناس تعساء فقط عندما يتمنون ما لا يستطيعون الحصول عليه، ويصبحون سعداء عندما يتمنون ما يمكنهم أن يحصلوا عليه.

ما الشيء الذي يتمناه الناس دائمًا بالرغم من أنهم لا يستطيعون الحصول عليه، وما الذي يستطيعون الحصول عليه دائمًا إن أرادوا؟

لا يستطيع الناس دائمًا أن ينالوا ما هو خارج نطاق سلطانهم وما لا ينتمي إليهم؛ لأن الآخرين بإمكانهم أن ينتزعوه منهم، وهذا ليس في نطاق سلطانهم طوال الوقت. أما ما هو في نطاق سلطانهم، فهو ما لا يستطيع أحد أن ينتزعه منهم.

الأول هو كافة النعم الدنيوية: الثراء- المجد- الصحة. أما الثاني فهي أرواحنا وكمالنا بها. لذا فلنا سلطان على كل ما نحتاج إليه من أجل تحقيق نعمتنا الحقيقية، لذا فما من متعة دنيوية يمكنها أن تمنحنا نعمتنا الحقيقية، بل هي فقط محض خداع طوال الوقت. يمكننا أن ننال النعمة الحقيقية بجهودنا فقط، وهذه الجهود دائمًا ما تكون داخل نطاق سلطاننا.

إن ما يحدث معنا هو ما يقوم به أب صالح مع أطفاله. لم نُعْطَ فقط ما لا يمكنه أن يجعلنا ننال نعمتنا الحقيقية، ووُهِبنا كل ما نحن في حاجة إليه فعلًا).

«أبيكتيتوس».

-٦-

يتلف الإنسان معدته، ثم يشكو وقت تناول الطعام. هكذا هو الأمر مع

أولئك الذين لا يشعرون بالرضى في الحياة.

ليس لدينا أدنى حق في عدم الرضى من الحياة. إن كان يبدو لنا أننا لا نشعر بالرضى فيها، فهذا يعني أنه لا بد وأننا لدينا السبب الذي يجعلنا غير راضين عن أنفسنا.

-٧-

مضى إنسان في طريقه حتى وصل إلى نهر يسد عليه الطريق، فقال إن مَن وصف له الطريق قد خدعه. وفي يأسه يكسر يديه ويندفع إلى مياه النهر، ويلعن مَن أرسله إلى هناك، ويهلك فيه، ولا يريد أن يدرك أن الطريق الذي أتى منه كان يحوي جسورًا وكل ما هو في حاجة إليه من أجل إكمال الرحلة. هذا ما يحدث مع الناس الذين يضلون طريق الحياة الحقيقي. إنهم غير راضين عن الحياة، وكثيرًا ما يعذبون أنفسهم؛ لأنهم مضوا في هذا الطريق، دون أن يريدوا أن يعرفوا مكمن خطئهم.

-٨-

إن قال أحدهم إنه يشعر بالتعاسة حينما يفعل الخير، فهذا لا يعني سوى أن ما يعتبره خيرًا ليس كذلك في حقيقة الأمر.

-٩-

لا تعتقد أن الحيرة فيما يخص معنى الحياة الإنسانية وعدم القدرة على التوصل إليه أمر صعب أو مأسويّ. إن حيرة الإنسان أمام معنى الحياة الإنسانية يشبه حيرته عندما يكون في مجتمع انشغل أعضاؤه في قراءة كتاب جيد. حيرة هذا الإنسان الذي لا يشاركهم فهم ما يقرؤونه، بينما هم منهمكون في ذلك لا يمثل أي أمر صعب أو مأسوي، ولا حتى أمر يثير السخرية، ولا أمر مؤسف أو فظ.

-١٠-

كشخص لم يعتد على الترف، لكنه وجد نفسه فجأةً في وضع مترف، وقد أراد أن يرفع من شأنه أمام أعين الناس، فيدَّعي أنه يألف الترف للغاية، وأن الأمر لا يقتصر على أنه لا يندهش من فرط الترف فقط، لكنه أيضًا لا يشعر به تقريبًا.... هكذا هو الأمر أيضًا مع الإنسان غير العاقل الذي يعتبر أن إحدى دلالات رفعة وسمو نظرته إلى الحياة هو إهمال أفراحها، فيتظاهر بالضيق من حياته، ويعلن أنه كان يرغب في شيء أفضل من هذا بكثير.

-١١-

كان هناك إنسان فاضل يريد أن يفعل الخير للناس، فأخذ يفكر ماذا عليه أن يفعل تحديدًا حتى لا يسيء لأحد ويجلب الخير للجميع. إن وزَّع الصدقة مباشرةً بنفسه دون أي تفكير في هوية مَن سيمنحهم الصدقة ودون أن يعرف مَن في حاجة أكثر من الآخرين، فلن تصل الصدقة إلى الجميع، وحينها سيقول مَن لم تصلهم الصدقة: «لماذا لم يمنحني صدقةً؟».

قرر الرجل أن يقوم بالأمر في مكان يمتلئ بالناس، ويكون فيه فناء كبير يجمع فيه كل مَن يحتاج إلى الصدقة. وجهز الرجل غرفًا دافئةً في الفناء ومواقد حسنة وحطبًا للتدفئة وغذاء وكثيرًا من الخبز وأكوامًا من الخضراوات والثمار وكافة أنواع المشروبات والأسِرَّة والثياب الخارجية والداخلية والأحذية، وكثيرًا جدًّا من الأغراض الأخرى. هكذا فعل الرجل وانتظر ما سيحدث.

وبدأ الطيبون في المرور على المكان، وفي تناول الطعام والشراب، وأقاموا

في المكان ليلة، ومر يوم ويومان وأسبوع. وفي مرة أخرى أخذوا ما يلزمهم من الأحذية والثياب. وقاموا بتنظيف المكان تمامًا بحيث عاد إلى ما كان عليه قبل أن يأتوا إليه، بحيث يمكن لآخرين يمرون على المكان أن يستفيدوا منه أيضًا، وغادروا المكان دون أن يستطيعوا شيئًا سوى شكر هذا المُحسن الذي لا يعرفونه.

وحدث ذات مرة أن مر على المكان جمع وقح جريء شرير، وأخذوا كل شيء، ثم بدأوا في الشجار بينهم وبين بعضهم البعض إثر هذا الفعل الخيّر الذي قام به الرجل المحسن صوبهم.

في البداية أخذوا يضايقون بعضهم البعض، ثم تطور الأمر إلى العراك، ووصل بهم الأمر إلى أن يفسد كل منهم أي شيء موجود في المكان، لكي لا يصل إلى يد شخص آخر. وعندما أفسدوا كل شيء في المكان، وبدأوا في المعاناة من الجوع ومن الضغينة ضد الآخرين؛ أخذوا يسبون الرجل المحسن إليهم على تنظيمه السيئ للمكان؛ لأنه لم يضع حرسًا به، وأمد المكان بصدقات قليلة، وسمح لكافة أنواع حثالة البشر بالدخول إلى المكان. وقال آخرون إنه ليس هناك سيد للمكان من الأساس، وإنهم عليهم أن يديروا المكان بأنفسهم.

خرجوا من الفناء جوعى، والبرد يعذب أجسادهم، والغضب يغلي في صدورهم، وكل ما فعلوه هو أن انخرطوا في توجيه السباب لبعضهم البعض وللفناء ولـمَن أعده.

هذا ما يفعله البشر في عالمنا عندما لا يعيشون بالروح بل بالجسد، فيفسدون حياتهم وحياة الآخرين، ولا يدينون أنفسهم، بل يدينون بعضهم

البعض ويدينون الله -إن اعترفوا به-، أو يدينون العالم نفسه إن لم يعترفوا بالله، ويعتقدون أن العالم قد شكَّل نفسه بنفسه!

لا شيء يمنح الإنسان نعمته سوى تحقيق قانون الحياة:

-١-

علينا أن نكون سعداء دائمًا. إن توقفت سعادتك، فابحث عن مكمن الخطأ.

-٢-

(إن شعر الإنسان أنه غير راضٍ عن وضعه؛ يمكنه أن يغير ذلك بطريقتين: إما أن يُحسِّن ظروف حياته، أو أن يحسن وضعه الروحي. الأول ليس متاحًا دائمًا، أما الثاني فهو دائمًا داخل نطاق سلطانه).

«إمرسون».

-٣-

يبدو لي أن أول قاعدة لا بد أن يضعها الإنسان نصب عينيه، هي أن يكون سعيدًا وراضيًا. عليه أن يخجل من عدم رضاه مثلما يحدث مع الفعل الشرير، وعليه أن يدرك أنه إن كان في داخله شيء ما ليس على ما يرام، فهو ليس في حاجة إلى إخبار الآخرين أو الشكوى، بل عليه ببساطة أن يصلح سريعًا ما ليس على ما يرام.

-٤-

تحقيق قانون الله: قانون الحب يمنح الإنسان أسمى نعمة ممكنة في كل الظروف.

-٥-

نحن جميعًا في هذه الحياة نشبه خيولًا معدة ومسرجة في عربة. في البداية أنت تصارع وتريد أن تحيا لذاتك وبإرادتك وتكسر القيد الذي يربطك بالعربة وتمزق عدة السرج، لكنك لا تنجح في ذلك وتشعر بالإنهاك. وعندما تشعر فقط بالإنهاك وتنسى إرادتك وتخضع للإرادة العليا لـمَن يقودك، حينها فقط ستجد الراحة والنعمة.

-٦-

إن إرادة الله تتحقق في كل فرصة، سواء قمت أنا بالمشاركة في تحقيقها أو لا، ولكن الأمر متروك لي.. أن أعارض هذه الإرادة وأحرم نفسي من نعمة المشاركة في تحقيقها، أو أن أسترشد بها وأزرعها بداخلي بقدر ما أرعى الحب بداخلي، وأعيش وفقًا للحب وأختبر النعمة التي لا يمكن لأحد أن ينتزعها مني.

-٧-

(تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ)[١٦٤]. (لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ)[١٦٥]. هذا ما قاله المسيح في تعاليمه. هذه الكلمات تعني أنه مهما كان ثقل الأحزان التي يحملها الإنسان فوق كاهليه، والمصائب التي تنهال عليه، يلزمه فقط أن يفهم ويقبل في قلبه التعليم الحقيقي عن أن الحياة ونعمتها تنحصر في اتحاد الأرواح بما قد انفصلت عنه في الجسد... هذا يعني اتحاد الأرواح ببعضها البعض وبالله، وحينها ستزول

---

(١٦٤) متى ١١: ٢٨.

(١٦٥) متى ١١: ٣٠.

سريعًا كافة الشرور التي تلوح لنا. يلزم الإنسان فقط أن يُكرِّس حياته من أجل الاتحاد بالحب بكل ما هو حي وبالله، وحينها ستتحول حياته إلى نعمة بدلًا من العذاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

❊ ❊ ❊

طريق الحياة

في العام الأخير من حياة تولستوي يظهر إلى النور كتاب "طريق الحياة" الذي يحدثنا فيه عن كافة الموضوعات الروحية والدينية والفلسفية التي شغلته طوال حياته في فقرات قصيرة منفصلة من كلماته ومن كلمات مختلف الحكماء والفلاسفة في جميع العصور.

يحدثنا تولستوي عن الروح والإيمان والموت والحب والعنف والعقاب والاتضاع والخطايا والإغواءات، وقد حلم تولستوي أن يصبح هذا الكتاب الضخم مقروءًا من ملايين القراء في العالم كله، بعد أن كان شاهدًا على حياة متقلبة وفترة عصيبة من التاريخ الروسي والعالمي. إنه النتاج الأخير لتعاليم تولستوي الممزوجة بنوع من التصوف العقلي مكتوبة بحس يمزج بين الموت والحياة، وقد تبقت له بضعة أيام قبل الموت، فيخرج لنا هذا المنتج الإنساني الشديد العمق والبساطة في الآن ذاته.
إنها شهادة تولستوي الأخيرة!

telegram @soramnqraa

ISBN 978-977-765-172-1
9 789777 651721
آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS